حنان لحام

من هدي سورة النساء



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ
وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ

النمل « ٥٩ »

رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

البقرة « ١٢٧ »

مِن هَدْي

سُورَةِ النِّسَاءِ



الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

الطبعة الثانية
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



دار الهدى للنشر والتوزيع
الرياض - شارع طارق بن زياد
شرق مستوصف المرقب - هاتف ٤١٢١٩٧٤
ص.ب ٢٥٥٩٠

كلمة الناشر

يطيب لدار الهدى للنشر والتوزيع بالرياض أن تقدم كلمة للإخوة القرّاء مع الطبعة الثانية لهذا الكتاب الذي يُعَدُّ واحداً من سلسلة طيبة مفيدة في تفسير كتاب الله سبحانه وتعالى.

أيها القارىء الكريم: أحب أن أضع بين يديك هذه السطور التي أعتبرها خاطرات داعياً الله أن ينفع بها:

إنه لمن الضروري أن نستفيد من آيات الآفاق والأنفس في تفسير وفَهْم كتاب الله، فكما تزيد آيات الكتاب الكريم المؤمن إيماناً، فإن آيات الله المرئية في الآفاق والأنفس تزيده إيماناً، وتدعو غير المؤمن للإيمان.

ولقد أمرنا الله بذلك حيث يقول سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ سورة فصلت.

وينبغي أن نعلم أنه لا فرق بين علمية آيات الآفاق وعلمية آيات الأنفس، فتسليمنا بمبدأ الإحسان بين الناس وما يجرُّ من النفع والخير على العالم بأسره كما بيّنَ لنا القرآن الكريم ذلك في مواضع شتّى منها قوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾.

ينبغي أن يكون تسليماً علمياً بحتاً غير قابل للرد أو الأخذ، كما هو تسليمنا بصدق وعلمية واستمرارية قانون الجاذبية الأرضية ـ على سبيل المثال ـ فالذي خلق الإحسان وبيّنَ نتائجه هو نفسه سبحانه الذي خلق الجاذبية ونتائجها.

وهناك نقطة أخرى يحسن ذكرها وهي أنه لا داعي لمن يقوم بمهمة التفهيم والشرح لكتاب الله تعالى، أن يعيد ما ذُكر في كتب التفسير ما لم يكن هناك مناسبة أو ضرورة من إعادته، والصواب أن يزيد من فهم القارىء عمقاً وجدة، وليس معنى هذا أن نهمل ما فهمه سلف هذه الأمة ـ رضوان الله عليهم ـ أو بيّنوه من تفسير لآيات الكتاب، ولكنه يعني أن نستفيد مما تركه لنا السلف وننطلق منه إلى آفاق جديدة أكثر بعداً وأغزر عطاء.

ومخطىء من يظن أن القرآن الكريم قد انتهى تفسيره، واكتشف كل أسراره ولو كان كذلك لما كان معجزاً لكل زمان ومكان إلى يوم الدين.

ويحسن بالداعية أن يستغل الوسائل والاكتشافات العلمية الحديثة في دفع المسلم إلى مزيد من التمسك بدينه، كما يعينه ذلك أيضاً على دعوة غير المسلمين لدين الله الحق.

ومن خلال هذه السلسلة المباركة تنادي الأخت الكاتبة ـ جزاها الله خيراً ـ وتناشد العقول المسلمة الواعية في عالمنا أن يسلكوا طريق: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ .. ﴾ فقد آن الأوان للدعاة إلى الله أن يتذكروا ويفهموا بأن التمجيد والمدح بالإسلام والافتخار بالماضي ليس هو السبيل لدعوة الناس لدين الله بل هو علاج ناقص، ولكن لا بدّ من تقديم الإسلام الذي أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ بكلمة اقرأ على أنه علم، ولا ينكر العلم ولا يجحد حقائق العلم عاقل. والعلم هو الطريق للإيمان. وهذا يدعونا أيضاً أن نخرج أنفسنا ومن حولنا من مرحلة حفظ السطور وحدها إلى الفهم والوعي والالتزام بما تعنيه هذه السطور، وهذا ما عناه الرسول ﷺ في حديثه لزياد بن لبيد رضي الله عنه عن ذهاب العلم.

ومن منطق الإيمان بالواجب فإن دار الهدى للنشر والتوزيع، تستنهض الهمم للإسهام في هذا الميدان المبارك، آملة أن يعود القرآن إلى القلوب والعقول كما كان في عهد الرسول ﷺ، فلن تتحقق وظيفة الخليفة التي خلق الله سبحانه آدم من أجلها إلا بعد أن يعود الدور الحقيقي لهذا الإنسان: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

مقدمة في التفسير

يقول الله تعالى : ﴿أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟!﴾ (محمد ـــ ٢٤) ، ويقول : ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (النساء ـــ ٨٢) .

ويقول رسول الله ﷺ : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة . وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده . ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » (صحيح مسلم) .

سأل عمر ـــ رضي الله عنه ـــ نافعاً ـــ وكان عمر يستعمله على مكة ـــ قال : (من استعملت على أهل الوادي ؟ فقال : ابن أبزى . قال عمر : ومن ابن أبزى ؟ قال : مولى من موالينا . قال : فاستخلفت عليهم مولى ؟! قال : إنه قارىء لكتاب الله عز وجل وإنه عالم بالفرائض . قال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين » (صحيح مسلم) .

وعن سالم عن أبيه ـــ رضي الله عنه ـــ عن النبي ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » (صحيح مسلم) . ويقول ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه » (صحيح البخاري) .

والتفسير : علم يُبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

ونحن نؤمن أن نهضة الأفراد والأمم لا يمكن أن تكون صحيحة وميسرة ، ونجاتهم

في الآخرة لا تكون محققة ، إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة . والعمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ (ص ــ ٢٩) . وهذا لا يتم إلا بدراسة التفسير وعلى الأخص في هذه العصور الأخيرة التي فسدت فيها ملكة البيان العربي .. وها نحن نرى اليوم تأخر المسلمين رغم وفرة المصاحف في أيديهم ووجود ملايين الحفاظ فيهم ، ورغم كثرة عددهم واتساع بلادهم .. في حين أن سلفنا الصالح نجحوا بهذا القرآن نجاحاً مدهشاً كان وما زال موضع إعجاب التاريخ والمؤرخين ، مع أن نسخ القرآن ومصاحفه لم تكن ميسورة لهم ، وحفاظه لم يكونوا بهذه الكثرة . إن السرَّ في ذلك هو حرصهم على تدبر القرآن واستخراج كنوزه والانتفاع بهدايته والتفاعل معه في حياتهم العملية .. فمع القرآن يعيشون في بيوتهم وأسواقهم ومساجدهم ومعاركهم مع أعدائهم . من هنا يتبين لنا أن هذا العلم هو أشرف العلوم لسمو موضوعه وعظم فائدته .

أقسام التفسير

ورد عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن التفسير أربعة :

١ ــ حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته .

٢ ــ وتفسير تفسره العرب بألسنتها (اللغة والإعراب) .

٣ ــ وتفسير تفسره العلماء (استنباط الأحكام وبيان المجمل وتخصيص العموم) .

٤ ــ وتفسير لا يعلمه إلا الله . (الغيب : الساعة ــ الروح ــ الكرسي ــ العرش) . (شرح ذلك الزركشي في البرهان ــ راجع مناهل العرفان للزرقاني) .

وقسم بعضهم التفسير باعتبار آخر إلى ثلاثة :

١ ــ تفسير بالرواية ويسمى التفسير بالمأثور .

٢ ــ تفسير بالدراية ويسمى التفسير بالرأي .

٣ ــ تفسير بالإشارة ويسمى التفسير الإشاري .

وأوجز فيما يلي الحديث عن الأقسام الأخيرة .

أولاً ـــ التفسير بالمأثور

هو ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بياناً لمراد الله تعالى من كتابه .

مثال من تفسير القرآن : ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ (البقرة ـــ ٣٧) . شرحت هذه الكلمات في آية أخرى : ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف ـــ ٢٣) .

ومثال من تفسير السنة : فسر رسول الله ﷺ ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ (الأنعام ـــ ٨٢) : أن الظلم هو الشرك ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان ـــ ١٣) . وفسر الحساب اليسير في الآية ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ (الانشقاق ـــ ٨) : بأنه العَرْض .

أما تفسير الصحابة فمنهم من أعطاه حكم المرفوع إلى الرسول ﷺ ، ومنهم من قيد ذلك بما كان في بيان النزول ونحوه مما لا مجال للرأي فيه وإلا فهو من الموقوف (أي من عند الصحابي) . وأما ما ينقل عن التابعين ففيه خلاف العلماء : منهم من اعتبره من المأثور لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً . ومنهم من قال : إنه من التفسير بالرأي . لكن الحافظ ابن كثير يقول : إن أكثر التفسير بالمأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب ، حتى اختلط الصحيح بما لا أصل له .

آ ـــ **المفسرون من الصحابة** : اشتهر منهم عشرة : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود وابن عباس وابن الزبير وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري . وأكثر من روي عنه من الخلفاء : علي بن أبي طالب . وأما ابن عباس فهو ترجمان القرآن بشهادة رسول الله ﷺ . لكن يجب الحيطة فيما عُزي إلى ابن عباس من التفسير فقد كثر عليه فيه الدس والوضع . فمن جيد طرق الروايات عنه : ما رواه علي بن أبي طلحة

الهاشمي عنه ، وما رواه قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه . ومن أوهى الطرق : طريق الكلبي .. ومقاتل بن سليمان ، والضحاك بن مزاحم .

ب ـ المفسرون من التابعين : على ثلاث طبقات :

١ ـ أهل مكة : قال عنهم ابن تيمية : (أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس) . كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير وطاووس .

٢ ـ أهل المدينة : منهم زيد بن أسلم ومالك بن أنس وأبو العالية ومحمد بن كعب القرظي .

٣ ـ أهل العراق : منهم مسروق وقتادة والحسن البصري وعطاء بن أبي مسلم الخراساني ، ومرة الهمذاني الكوفي .

لكن لابد من ملاحظة الأمور التالية على المروي عن التابعين :

١ ـ أنهم لم يشاهدوا عهد النبوة . وما يروى عنهم هو من قبيل الرأي لهم .
٢ ـ يندر في الروايات عنهم الإسناد الصحيح .
٣ ـ تشتمل على إسرائيليات وخرافات تسربت إليها ودست فيها .

جـ ـ أسباب ضعف الرواية بالمأثور (فيما يتعلق بما نقل عن الصحابة والتابعين) :

١ ـ ما دسه أعداء الإسلام في هذه الروايات .
٢ ـ ما لفقه أصحاب المذاهب المتطرفة ترويجاً لتطرفهم .. وما أدخله المتملقون لبني العباس من أخبار نسبوها لابن عباس .

٣ ـ اختلاط الصحيح بغير الصحيح وفقدان الدقة في تحري إسناد الروايات .

٤ ـ هذه الروايات مليئة بالخرافات والإسرائيليات .

٥ ـ ما نقل نقلاً صحيحاً عن الكتب السماوية السابقة أمرنا

رسول الله ﷺ أن نتوقف فيه فلا نصدقهم ولا نكذبهم.

وأما ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله من التفسير بالمأثور فلا يجوز إهماله، لأنه من أقوى العوامل على الاهتداء بالقرآن.

د ــ تدوين التفسير المأثور :

في القرن الثالث الهجري تقريباً ألفت تفاسير كثيرة مثل تفسير سفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح ، وعلي بن أبي طلحة .

١ ــ تفسير ابن جرير الطبري :

ومن بعدهم ألف ابن جرير الطبري كتابه المشهور وهو أول كتاب في التفسير نقل إلينا . وقد امتاز ابن جرير على من سبقه بأنه تعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض وذكر الإعراب والاستنباط . لكنه قد يسوق أخباراً بأسانيد غير صحيحة ثم لا ينبه على عدم صحتها ، وعذره في ذلك أنه كتب في زمن توافق الناس فيه على معرفة حال السند من غير توقف على تبينه منه .

٢ ــ تفسير أبي الليث السمرقندي .

٣ ــ الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي .

٤ ــ تفسير ابن كثير : وهو من أصح التفاسير بالمأثور إن لم يكن أصحها .

٥ ــ تفسير البغوي .

٦ ــ تفسير بقيّ بن مخلد . قال ابن حزم : (لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره) . لكن من المؤسف أن هذا التفسير لم يكتب له البقاء .

٧ ــ أسباب النزول للواحدي . وقد اقتصر فيه على بيان أسباب النزول .

٨ ــ الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس .

هـ ـــ طرق المفسرين بعد العصر الأول :

ثم جاء قوم صنفوا في التفسير ، واختصروا الأسانيد ، ولم ينسبوا الأقوال لقائليها ، فالتبس الصحيح بغيره .. ولولا ما يقوم به المحققون في كل عصر من إحقاق الحق ودحض الباطل لانطمست المعالم .. وقد عني بعض المفسرين بسرد شتات الأقوال ، وولع بكثرة النقول . كذلك نلاحظ أن كل بارع في فنه يقتصر غالباً في تفسيره على الفن الذي برع فيه : فالفخر الرازي مثلاً استعرض أقوال الحكماء والفلاسفة ، والقرطبي توسع في الأدلة الفقهية ، والزجاج اهتم بالنحو والإعراب .

ثم جاء تفسير أهل الأهواء والبدع ... وأشهر الغارقين في هذا الضلال :

الرماني والجبائي والقاضي عبد الجبار . واختلفوا في الزمخشري وكتابه الكشاف فمنهم من عد تفسيره مع هذا النوع لما فيه من الاعتزال ، ومنهم من قال : إن فيه فوائد مهمة خاصة في جانب الإعجاز البياني .

ثانياً ـــ التفسير بالرأي

آ ـــ مدلوله :

والمراد بالرأي هو الاجتهاد . والأمور التي يجب استناد الرأي إليها في التفسير (كما نقلها السيوطي عن الزركشي) :

١ ـــ النقل عن رسول الله ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع .

٢ ـــ الأخذ بقول الصحابي . وخصه بعضهم بأسباب النزول مما لا مجال للرأي فيه .

٣ ـــ الأخذ بمطلق اللغة والاحتراز من صرف الآيات عن مدلول كلام العرب .

٤ ـــ الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدل عليه قانون الشرع .

وذكر العلماء أنواع العلوم التي يجب توافرها في المفسِّر فقالوا : هي اللغة والنحو والصرف وعلوم البلاغة وعلم أصول الفقه وعلم التوحيد ومعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والأحاديث المبينة للمجمل والمبهم ، وعلم الموهبة وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ، ولا يناله من في قلبه بدعة أو كبر أو حب دنيا أو ميل إلى المعاصي .

هذه العلوم إنما هي لتحقيق أعلى مراتب التفسير . أما المعاني العامة التي يستشعر منها المرء عظمة مولاه والتي يفهمها الإنسان عند إطلاق اللفظ الكريم ، فهي قدر يكاد يكون مشتركاً بين عامة الناس وهو المأمور به للتدبر والتذكر لأن الله سبحانه قال : ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدَّكر﴾ (القمر ـــ ١٧) . والإمام محمد عبده يصنف التفسير إلى مراتب : أدناها هو الفهم الذي في متناول الجميع .. أما المرتبة العليا فيضيف إلى ما سبق : العلم بأحوال البشر (التاريخ) ، والعلم بما كان عليه العرب عند نزول القرآن ، والعلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه حتى يعرف مدى تأثير القرآن فيهم علماً وعملاً ، ولأنهم بحياتهم العملية قدموا تفسيراً للقرآن .

ب ـــ أهم كتب التفسير بالرأي :

١ ـــ تفسير الجلالين (المحلي والسيوطي) . ميزته أنه سهل المأخذ مختصر العبارة . وهو من أكثر كتب التفسير انتشاراً .

٢ ـــ تفسير البيضاوي .

٣ ـــ تفسير الفخر الرازي .

٤ ـــ تفسير أبي السعود .

٥ ـــ تفسير النيسابوري .

٦ ـــ تفسير النسفي .

٧ ـــ تفسير الخطيب .

٨ ـــ تفسير الخازن .

جـ ــ تفاسير الفرق المختلفة :

١ ــ تفاسير المعتزلة وأهمها : الكشاف للزمخشري ، وهو خير ما يرجع إليه في التفسير من ناحية البلاغة ، وله ميزاته لكن تظهر فيه بعض عقائد المعتزلة .

٢ ــ كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار .

٣ ــ تفاسير الباطنية .

٤ ــ تفاسير الشيعة : منها مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار (عبد اللطيف الكازلاني) .

ثالثاً ــ التفسير الإشاري

آ ــ مدلوله :

وهو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضاً . وقد اختلف العلماء في إجازته .

قال الزركشي في البرهان : كلام الصوفية في تفسير القرآن قيل إنه ليس بتفسير ، وإنما هو معانٍ ومواجيد يجدونها عند التلاوة . كقول بعضهم في قوله تعالى : ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ (التوبة ــ ١٢٣) إنما المراد النفس .

والفرق بين تفسير الصوفية الإشاري وتفسير الباطنية الملاحدة : أن الصوفية لا يمنعون إرادة الظاهر بل يحضون عليه ويقولون لا بد منه أولاً ، ثم هناك إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك ..

أما الباطنية فإنهم يقولون : إن الظاهر غير مراد أصلاً ، وإنما المراد الباطن ، وقصدهم نفي الشريعة .

ب ـــ شروط قبول التفسير الإشاري :

١ ـــ أن لا يتنافى وما يظهر من معنى النظم الكريم .

٢ ـــ أن لا يدعي أنه المراد وحده دون الظاهر .

٣ ـــ أن لا يكون تأويلاً بعيداً سخيفاً . مثل تأويل : ﴿لمع المحسنين﴾ (العنكبوت ـــ ٦٩) على أن ﴿لمع﴾ : فعل من التلميع .

٤ ـــ أن يكون له شاهد شرعي يؤيده .

جـ ـــ أهم كتب التفسير الإشاري :

النيسابوري ـــ الألوسي ـــ التستري ـــ محي الدين بن عربي .

وينبغي الحذر من هذا الأسلوب لأنه يؤدي إلى الخروج عن الشريعة ، وكأن هذا النوع هو المقصود بقوله ﷺ : « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » (رواه البخاري ومسلم) .

ومن كتب التفسير الإشاري أيضاً : تفاسير الفرق المتطرفة التي تؤول الآيات على مذهبها .

مزج العلوم الأدبية والكونية في التفسير .

وهو اتجاه جديد في التفسير .. غايته مخاطبة الناس في هذا العصر على قدر عقولهم . ودفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم والدين . بل صار بالإمكان إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن في إشاراته العلمية في الكون والاجتماع . من هذه الكتب :

القرآن والعلوم العصرية لطنطاوي جوهري . وإن كان قد أسرف في هذه السبيل

إسرافاً أنساه التفسير والتأويل[1].

ومنه أيضاً : في ظلال القرآن لسيد قطب ، والمنار لرشيد رضا نقلاً عن أستاذه محمد عبده .

واليوم تبرز أهمية آيات الآفاق والأنفس كمرجع أساسي في التفسير والبيان لمعاني القرآن الكريم . وهو ما كان يتطلع إليه ابن تيمية عندما كان يشكو من غياب التفسير الصحيح .. فهو يقول في قوله تعالى : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (فصلت ــ ٥٣) . أي أن القرآن حق : (فأخبر أنه سيري عباده الآيات المشهودة المخلوقة حتى يتبين لهم أن الآيات المتلوة المسموعة حق .. فالآيات أفقية وأرضية وقرآنية وهي أدلة العلم ..) .

فابن تيمية يجعل آيات الله على ثلاثة أصناف استناداً للآية : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (فصلت ــ ٥٣) :

١ ــ آيات الكتاب : القرآن . وهو المشار إليه في الآية ﴿حتى يتبين لهم **أنه الحق**﴾ وهي الآيات المتلوة .

٢ ــ آيات الآفاق: وهي العلوم الكونية والمادية (الفيزياء ــ الكيمياء..) وسمّاها (أفقية).

٣ ــ آيات الأنفس: وهي العلوم الإنسانية (التاريخ ــ النفس ــ الاجتماع) وسمّاها (أرضية).

وآيات الآفاق والأنفس هي الآيات المشهودة ، وكلما انكشفت قدمت شهادتها للقرآن بأنه الحق .

وكم تحدث المسلمون عن الشروط التي ينبغي أن تتوفر لمن يتصدى لتفسير كتاب الله : مِنْ فهم اللغة وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ إلى آخر ما هنالك من شروط .

١ ــ الكلام من أول المقدمة إلى هنا مأخوذ باختصار من كتاب مناهل العرفان للزرقاني.

غير أن معرفة آيات الله في الآفاق والأنفس بدأت تأخذ مكاناً مهماً بين الشروط الواجب توفرها لتفسير كتاب الله . فقد بدأت تظهر أهميتها في عالمنا اليوم . ومما يدل على ذلك : الأفكار التي حملها الناس قديماً وحديثاً عن الشمس والقمر والليل والنهار حيث تنازع الناس في وجهات نظرهم وتطارحوا النصوص . ولكن الحل وتحديد معنى النصوص وتفسيرها إنما جاء من قبل من رأى آيات الله في الآفاق فقطع بذلك الخصام واللجج ورأى الناس الحق في آيات الكتاب في ضوء آيات الله في الآفاق . فمن تمكن أن يقيم على رأيه شاهدَيْ عدل من آيات الله في الآفاق والأنفس فسيرغم الناس على قبول رأيه . وإن استعصى عليه جيل فسترضخ له أعناق الأجيال التالية .. لسلطان شهادة آيات الله في الآفاق والأنفس[1] .

ويمكن أن نأتي بمثال يوضح كيف تشرح آيات الآفاق والأنفس آيات الكتاب وتشهد لها . ففي قوله تعالى : ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون﴾ (النحل ـ ٨) . وقف الطبري عند قوله : ﴿ويخلق مالا تعلمون﴾ (النحل ـ ٨) . فقال : (يخلق لكم في الجنة من المتاع .. وفي النار من ألوان العذاب مالا تعلمون) .

إن القارىء المعاصر للآية سيدرك بكل بساطة أنها تشير إلى وسائل النقل الحديثة من سيارات وطائرات .. مما ينطبق عليه الوصف في الآية ﴿لتركبُوها وزينة﴾ (النحل ـ ٨) وهو التفسير الذي قدمته آيات الآفاق للآية الكريمة .

وهذا الذي فهمناه نحن الآن لم يخطر على بال الصحابة. برغم أن حادثة الإسراء والمعراج أبرزت أرقى مستوى من المراكب (البراق) .. لكن آيات الآفاق لم تكن قد انكشفت بالشكل الكافي لاستيعاب الموضوع .

---

١ ـ مقدمة جودت سعيد لكتابي : من هدي سورة لقمان.

سُورَةُ النِّسَاءِ

مدنية وعدد آياتها ١٧٦ آية .

يذكر أن عمر بن الخطاب أرسل ــ أثناء خلافته ــ إلى الولاة في الأمصار : (أن علموا نساءكم السور الثلاث : النساء والنور والأحزاب) .

وذلك أن هذه السور قد اشتملت على أحكام كثيرة تتعلق بالمرأة .. مكانتها ودورها .. حقوقها وواجباتها .. وهذا أول ما يلزم للمرأة المؤمنة أن تعرفه .

سورة النساء مدنية. روى البخاري عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ: (وما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ) . ومن المتفق عليه أن رسول الله ﷺ بنى بعائشة في المدينة . ولم تنزل دفعة واحدة وإنما على مراحل وخلال سنوات كشأن كثير من السور المدنية . وهي من أطول سور القرآن بعد البقرة وعدد آياتها ١٧٦ آية .

وتدور السورة الكريمة حول محورين رئيسين :

١ ــ تطهير المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية ، والارتفاع به إلى مستوى المجتمع الرباني الذي يتميز عن سائر الأمم بأخلاقه وعاداته ونظمه المستمدة من القرآن .

٢ ــ كشف أعداء المسلمين وكيدهم لا من باب إلقاء اللوم عليهم فيما يحدث للمسلمين من خسائر وأخطاء ، ولكن لتنبيه المسلمين وتحذيرهم من الانزلاق في مطباتهم والانخداع بحيلهم والوقوع في أخطائهم ؛ حتى لا يصلوا إلى ما وصل إليه أهل الكتاب من التواء وشقاء في الدنيا والآخرة .

وإن تدبير العدو لا ينجح إلا عندما يغفل المسلمون ويتناقص تمسكهم بما أمر الله به .

قد هيـؤوك لأمرٍ لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

ومن الملاحظ أن حديث السور المكية عن الأعداء اقتصر على المشركين غالباً ، لأنهم هم الذين جابهوا الإسلام والمسلمين في مكة ، فجاءت الآيات المكية تحاجهم وتشنع مواقفهم وتتوعدهم بعذاب الله إن لم يرجعوا عن غيهم ..

أما في السور المدنية فنرى المحاجة تتناول طائفتين أخريين ظهرتا بعد الهجرة وناوأتا المسلمين وهما : المنافقون وأهل الكتاب . فتفضح أعمالهم وتعرض أمراضهم وعللهم وتذكر سنة الله في أمثالهم عبر الأجيال فتهددهم بعذاب الدنيا والآخرة وترغبهم بالتوبة قبل فوات الأوان .

٣ ـــ وأيضاً نجد إلى جانب هذا الهدف الكبير في السورة ـــ تنظيم المجتمع المسلم على أساس التكافل والتراحم والتناصح والأمانة والعدل والطهارة.. وحمايته من أعدائه ـــ نجد هدفاً آخر وهو تحديد معنى الدين وحدِّ الإيمان وشروط الإسلام وربط كل الأنظمة التي تحكم حياة الفرد والمجتمع بهذا التعريف المضبوط للإيمان . وذلك استمرارا في تدعيم أسس العقيدة وتصحيح التصور لتمكين البناء الاجتماعي والفكري للأمة .

ومن خلال دراستنا لهذه السورة سنرى صورة عن المجتمع الجاهلي من خلال الأوامر والنواهي التي محت هذه الصورة وأنشأت نموذجاً جديداً لمجتمع فريد يقف في القمة من حيث المبادىء والقيم والصورة العملية .

سنرى مثلاً : كيف كانت شريعة الغاب هي التي تحكم المجتمع الجاهلي الأول ، كما أنها هي التي تحكم كل المجتمعات الجاهلية في كل عصر ..

وسنرى كيف كان يعامل الأيتام وبخاصة اليتيمات . وكيف كان يحرم الصغار والمستضعفون والنساء من الميراث . وما مكانة المرأة ووضعها في الجاهلية . وكيف كان الاضطراب يسود الأسرة .. وأكل الأموال بالباطل واغتصاب الحقوق والإنفاق للفخر والرياء .

صحيح أن هذا المجتمع لم يكن بدون فضائل .. بل كانت فيه الشجاعة والحمية والكرم .. لكنها لم تكن موجهة نحو النمو والنهضة .. وإنما وجهت لأهداف منحطة جعلتها فضائل جذبية تجذب الإنسان إلى رغام الأرض ولا تنهض به إلى معالي الأمور . فوجهت الشجاعة إلى السلب والإغارة .. وصارت الحمية والنخوة عصبية جاهلية عمياء تضرم الحروب وتلهب الثأر . ويكفي أن نبحث في أسباب نشوب المعارك التي سميت : أيام العرب في الجاهلية . كما كان الكرم للفخر ..

وبعد .. فلنسر مع آيات السورة الكريمة ، نحاول تدبرها وتمثلها في حياتنا العملية بعون الله تعالى .

مفاهيم السورة

١ ــ في الأرحام واليتامى والزواج : .... ٢٧ ــ ٤٣

١ً ــ الافتتاح : تقوى الله والأرحام ٢٩

٢ً ــ اليتامى وعدم استغلالهم ٣٧

٣ً ــ جواز تعدد الزوجات وشرطه ٣٩

٢ ــ في الأموال : .... ٤٥ ــ ٦٦

١ً ــ المهر ٤٩

٢ً ــ الحجر على السفهاء ٥١

٣ً ــ امتحان اليتامى لرد أموالهم لهم ٥٤

٤ً ــ الميراث : مقدمة ــ تقسيم الميراث ــ تعقيب ٥٧

٣ ــ جزاء الفواحش : .... ٦٧ ــ ٨٥

١ً ــ جزاء من يرتكب الفاحشة من النساء والرجال ٧٠

٢ً ــ التوبة المقبولة والمرفوضة ٧٤

٣ً ــ النهي عن ظلم النساء والأمر بالإحسان لهن ٧٦

٤ ــ المحرمات من النساء : .... ٨٧ ــ ١٠٨

١ً ــ المحرمات خمسة عشر نوعاً ٩٠

٢ً ــ تجنب السفاح ــ تأكيد المهر ٩٧

٣ً ــ السماح بالزواج من الأمة بإذن وأجر ٩٩

٤ً ــ حد الأمة إن فعلت الفاحشة ١٠٠
٥ً ــ ثمان آيات خير مما طلعت عليه الشمس . ١٠١

٥ ــ في المال وقوامة الرجال : .... ١٠٩ ــ ١٣٠

١ً ــ النهي عن أكل الأموال بالباطل وعن قتل النفس ١١٢
٢ً ــ اجتناب الكبائر يكفر السيئات ١١٥
٣ً ــ النهي عن تمني ما للغير ١١٩
٤ً ــ الوفاء بالعقود ١٢٠
٥ً ــ قوامة الرجال على النساء ١٢١
٦ً ــ معالجة مشكلات الأسرة : الناشز ــ التحكيم . ١٢٥

٦ ــ وصايا في الإحسان والرياء والشهادة والصلاة : ١٣١ ــ ١٥٥

١ً ــ عبادة الله وحده وعدم الشرك به ١٣٤
٢ً ــ الإحسان للوالدين ثم الأوْلى فالأوْلى ١٣٦
٣ً ــ التنفير من البخل والرياء واتباع الشيطان . ١٤٣
٤ً ــ اليوم الآخر وشهادة الرسل على الأمم ١٤٦
٥ً ــ في الصلاة ١٤٨

٧ ــ الحديث عن اليهود : ١٥٧ ــ ١٨٨

١ً ــ انحرافهم وعداؤهم للمؤمنين ١٦١
٢ً ــ دعوتهم للإيمان وتهديدهم ١٦٩
٣ً ــ آية الشرك ١٧١
٤ً ــ بعض صفات اليهود ١٧٧
٥ً ــ مشهد من القيامة ١٨٦

٨ ـــ آية الأمانات والأمراء والرعية : .... ١٨٩ ـــ ٢١٥

١ً ـــ أداء الأمانة والحكم بالعدل ١٩٢

٢ً ـــ آية الرعية ١٩٨

٣ً ـــ دليل الإيمان : التحاكم إلى الله ورسوله ٢٠٢

٤ً ـــ مرتبة من يطع الله ورسوله ٢١٢

٩ ـــ في الجهاد : .... ٢١٧ ـــ ٢٧٥

١ً ـــ أخذ الحذر والنفير ٢٢١

٢ً ـــ المبطِّئون ٢٣٠

٣ً ـــ من الذي يقاتل في سبيل الله ؟ ٢٣٣

٤ً ـــ فريق كان يتمنى الجهاد حين لم يكن مسموحاً به ٢٣٦

٥ً ـــ توضيح لقدر الله ٢٥٤

٦ً ـــ سبع وصايا : ٢٥٧

طاعة الرسول ـــ تدبر القرآن ـــ رد الأمر إلى المختصين ـــ حمل النفس وتحريض الآخرين ـــ الشفاعة ـــ رد التحية ـــ تأكيد الجمع ليوم القيامة .

١٠ ـــ المنافقون (أو بعض المعاملات الدولية) : ... ٢٧٧ ـــ ٢٨٣

١ً ـــ أهمية اتخاذ موقف موحد من المنافقين ٢٧٩

٢ً ـــ ودّوا لو تكفرون ٢٨٠

٣ً ـــ النهي عن موالاتهم حتى يهاجروا ٢٨١

٤ً ـــ بعض المعاملات الدولية ٢٨٢

١١ ـــ القتل الخطأ والعمد : .... ٢٨٥ ـــ ٢٩٣

١ً ـــ كفارة قتل المؤمن خطأً . وهي أنواع ٢٨٧

٢ً ـــ من قتل عمداً ، فجزاؤه جهنم ٢٩٢

١٢ ــ عودة إلى الجهاد والهجرة : .... ٢٩٥ ــ ٣٢٠

١ً ــ تحذير من التسرع في القتل والسلب ٢٩٨
٢ً ــ حض على الجهاد ٣٠٠
٣ً ــ المستضعفون والهجرة ٣٠٣
٤ً ــ قصر الصلاة وصلاة الخوف ٣١٤

١٣ ــ أحكام بمناسبة حادث سرقة . ... ٣٢١ ــ ٣٥١

١ً ــ توجيهات وتذكير بفضل الله ٣٢٥
٢ً ــ النهي عن النجوى التي لا خير فيها ٣٣٤
٣ً ــ آية الشرك ٣٤٠
٤ً ــ تحذير من الشيطان وأساليبه ٣٤٢
٥ً ــ الحصول على الجنة ليس بالأماني ٣٤٦

١٤ ــ وصية بالنساء وتقوى الله والعدل : .... ٣٥٣ ــ ٣٧٣

١ً ــ اليتامى من النساء وفتوى فيهن ٣٥٨
٢ً ــ الوصية بالولدان واليتامى ٣٥٩
٣ً ــ خوف المرأة من نشوز الرجل ٣٦٠
٤ً ــ الارتفاع بالنفس من الشح إلى الإحسان والتقوى ٣٦١
٥ً ــ العدل بين النساء ٣٦٢
٦ً ــ الفراق ٣٦٤
٧ً ــ الوصية بتقوى الله ٣٦٥
٨ً ــ الوصية بالعدل ٣٦٨

١٥ ــ عودة إلى المنافقين : .... ٣٧٥ ــ ٣٩٢

١ً ــ تبشير المنافقين بالعذاب الأليم ٣٧٨
٢ً ــ ذكر بعض صفاتهم (سبع صفات) ٣٧٩

٣ً ــ تحذير المؤمنين من النفاق ٣٨٥
٤ً ــ الجهر بالسوء وحكمه ٣٨٨

١٦ ــ في بني إسرائيل : .... ٣٩٣ ــ ٤١١

١ً ــ التفريق بين الله ورسله هو الكفر ٣٩٦
٢ً ــ بعض أخطاء بني إسرائيل في الماضي وعقاب الله ٣٩٩
٣ً ــ كلمة الفصل بشأن رفع عيسى ٤٠٤
٤ً ــ الراسخون في العلم يؤمنون ٤٠٩

١٧ ــ خطاب للرسول محمد ﷺ : .... ٤١٣ ــ ٤٢٤

١ً ــ تقرير الوحي إليك وإلى الأنبياء ٤١٥
٢ً ــ الغاية من إرسال الرسل ٤١٧
٣ً ــ شهادة الله والملائكة بما أنزل عليك ٤٢٠
٤ً ــ لا غفران ولا هداية بعد الكفر والظلم والصد ٤٢١
٥ً ــ نداء للناس بمجيء الرسول بالحق ٤٢٤

١٨ ــ خطاب لأهل الكتاب (النصارى) : .... ٤٢٥ ــ ٤٣٥

١ً ــ النهي عن الغلو في الدين ٤٢٧
٢ً ــ تقرير حقيقة المسيح ٤٢٩
٣ً ــ نداء للناس بمجيء البرهان والنور المبين ٤٣٢

ــ خاتمة: فتوى في الكلالة ٤٣٧ــ٤٤١

الفَصل الأوَّل

في الأرحَام وَاليتَامىٰ وَالزَّوَاج

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾

أولاً ــ افتتاحية السورة : تقوى الله والأرحام

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

هذه الآية تمثل افتتاحية هامة كان رسول الله ﷺ يفتتح بها خطبه[1] بعد الحمد والتشهد .. لأهمية الحقائق التي تشير إليها .. فهي :

أولاً : تبدأ بنداء للناس كافة . فهي دعوة عالمية للناس كافة أن يتأملوا هذه الحقائق التي تمكن البشرية من أن تحيا حياة إنسانية كريمة . والدعوة العالمية تحتاج إلى إنسان من نوع خاص كي يتمكن من حملها وتقديمها للعالم .. إنسان يربيه القرآن حتى يصبح في مستوى راق من سعة العلم والصدر في التعامل مع الآخرين ..

فهو لا يُحقِّر آراء الآخرين ومقدساتهم حتى لو كانت شركاً . فقد علمه القرآن : ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم . كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ (الأنعام ــ ١٠٨) .

وهو يضع نفسه معهم على قدم المساواة في الحوار والبحث : ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون، وانتظروا إنا منتظرون﴾ (هود ــ ١٢١) .

بل أحياناً يستعمل معهم أسلوباً من الإيثار : ﴿قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ (سبأ ــ ٢٥) .

---

١ ــ روى أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة : أنه ﷺ كان يقرأ ثلاث آيات هذه منها .

إن الإنسان العالمي الذي يحمل هذه الدعوة العالمية ينبغي له أن يدرك أبعاد وصية الرسول ﷺ في مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، ويسعى إلى تحصيل العلم اللازم : علم النفوس .. ما فيها من الأمراض والعلل والمفاهيم .. ومن أين تؤتى وكيف تتأثر .. ولا شك بأن الأمم تختلف فيما بينها بفروق تستوجب الدراسة والتأمل .

ثانياً : تذكر الناس كافة بمصدرهم الذي خرجوا منه : ربهم الذي خلقهم وبثهم في الأرض . هذه الإرادة الإلهية التي جاءت بهم إلى هذا العالم هي وحدها التي تملك لهم كل شيء ، وتعرف عنهم كل شيء .. والناس حين ينسون هذا يضيعون ويتيهون ويتخبطون ..

ثالثاً : إن البشرية تتصل في رحم واحدة ، وتخرج من أصل واحد . وإن نسيان هذه الحقيقة يؤدي إلى القوميات والعصبيات والصراع العنصري والطبقي . وكم تعبت البشرية وراء هذه الترهات .. وكم دفعت غالياً ـــ ثمن هذه الضلالات ـــ من الدماء والأرواح . واليوم يتطلع المفكرون إلى عالم جديد بعيد عن مثل هذه النظرات الضيقة ..

يقول المؤرخ الإنجليزي ويلز بعدما استعرض تاريخ الإنسانية وما تعرضت له من نكبات بسبب هذه النظرات : (دولتنا الحقيقية التي شرعت تبدو بوادرها ـــ هذه الدولة التي يدين لها كل إنسان بأقصى جهده السياسي ـــ لابد أن تكون اليوم هي هذا العالم الاتحادي الوليد الذي تشير إليه الضرورات الإنسانية . وربنا الحقيق اليوم رب العالمين أجمعين . ويجب أن تذهب الوطنية بوصفها رباً إلى حيث ذهب رب القبيلة فأما جنسيتنا أو قوميتنا فهي الإنسانية)[1] .

رابعاً : ﴿وخلق منها زوجها﴾هل نبحث في : كيف حدث هذا ؟ وهل الحديث هنا عن آدم أم عن خلق قبله ؟ أم عن بشر من بعده .. ؟

إن هذا البحث ليس حراماً .. بل لعله من العلم المأمور به : ﴿قل سيروا في

---

١ ـــ آخر الجزء الرابع من معالم تاريخ الإنسانية (ج . هـ . ويلز) .

الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ (العنكبوت ــ ٢٠) . لكنه يحتاج إلى متخصصين في مجالين من العلم :

١ ــ مجال تقصي الروايات عنه ﷺ فيما ورد في هذا الموضوع ، وهذا يحتاج إلى تخصص في صحة الحديث وصحة الدلالة ؛ إذ أن علم الحديث : علم رواية وعلم دراية .

٢ ــ ومجال السير في الأرض والدراسة لكشف كيف بدأ الخلق يحتاج أيضاً إلى تخصص في علوم الطبيعة والآثار .

ولا ينبغي للمسلم أن يشعر بشيء من الخوف على دينه من دراسة هذه العلوم المادية ، فلن يكشف الناس شيئاً يخالف القرآن . ورحم الله ابن تيمية حين قرر هذه القاعدة : (إن صحيح المنقول لا يخالف صريح المعقول) .

وإن محمد أسد أيضاً يؤكد : أنه رغم أننا لم نكشف مدلول كل شيء في القرآن لكننا حتى الآن لم نستطع أن نثبت أن بعض ما فيه خطأ .

سنترك هذا الجانب للمتخصصين . .لكننا نقف عند المدلول الهام الذي تشير إليه الآية : وهو وحدة الأصل الإنساني للذكر والأنثى ، وأنه لا فارق بينهما في الخلق والكرامة والإنسانية .. وإنما من حيث الاستعداد والوظيفة .

هذه الحقيقة التي جاءت بها الآية الكريمة كانت غريبة على الناس في ذلك الوقت .. فلم تكن المرأة تحظى بخصائص الإنسان وكرامته . يقول العقاد عن مكانة المرأة في الماضي : (ربما نالت المرأة حظاً من الاهتمام بها في عصور الترف والبذخ التي تنتهي إليها الحضارات الكبرى . وهي لا تنال هذا الحظ من الاهتمام لتقدم الحضارة وارتقاء الشعور بين أصحاب تلك الحضارات . ولكنها تناله لأنها ــ في عصور الترف والبذخ ــ مطلب من مطالب المتعة والوجاهة الاجتماعية ، وقد نالت هذا الحظ من الاهتمام في أوج الحضارة الرومانية مع بقائها قانوناً وعرفاً في منزلة تقارب منزلة الرقيق من وجهة الحقوق الشرعية والنظرة الأدبية . وكانت القيان والجواري الطليقات ينلن من ذلك

الاهتمام أضعاف ما تناله حرائر النساء من الأزواج والأقرباء .. وليس هذا الاهتمام الذي تناله المرأة بفضل عواطف الأمومة أو بإغراء المتعة والترف مكانة شرعية أو عرفية تنسب إلى آداب المجتمع وقوانينه . فغاية ما فيها أنها شعور يتقارب فيه الأحياء من الناطقين وغيرهم .. أما المكانة التي تحسب من عمل الآداب والشرائع أو الحضارات فقد كانت معدومة في عصور الحضارة الأولى جميعاً .. ما خلا حضارة واحدة هي المصرية .)[1] .

كما يستعرض العقاد أيضاً نظرة الشرائع والأمم القديمة إلى المرأة : كشريعة مانو في الهند وشريعة حمورابي في بابل . وكذلك عند اليونان والرومان .. ثم اجتماع اللاهوتيين في مجمع ماكون في القرن الخامس للميلاد .. يتساءلون عن جبلة المرأة .. ووصلوا إلى نتيجة : أنها خلو من الروح الناجية . ثم ينتقل إلى الجزيرة العربية حيث بدأت دعوة القرآن : (فلا تتوقع أن تكون للمرأة فيها قسمة من الإنصاف والكرامة غير هذه القسمة العامة في بلاد العالم على تباعد أرجائه وتنوع عاداته وشرائعه ولعلها كانت تسوء في بعض أنحاء الجزيرة فتهبط في المساءة إلى حضيض لم تهبط إليه في سائر الأنحاء من الأمم كافة . وترتقي فلا يكون قصاراها من الارتقاء إلا أنها تكرم عند زوجها لأنها بنت ذلك الرئيس المهاب أو أم هذا الابن المحبوب . فأما أنها تكرم وتصان لأنها من جنس النساء يعمها ما يعم بنات جنسها من الحق والمعاملة فذلك ما لم تدركه قط من منازل الإنصاف والكرامة . وقد يحميها الأب والزوج و .. حماية الواجب المفروض عليه لكل ما في جواره أو كل ما في حوزته فيعاب على الرجل منهم أن يهان حرمه ، كما يعيبه أن يعتدى عليه في كل محمي أو ممنوع ومنه فرسه ودابته وبئره ومرعاه .. فإذا هانت المرأة فهي عار يأنف منه أهلوه أو حطام يورث مع المال والماشية . ومن خوف العار يدفن الرجل بنته في طفولتها ويستكثر عليها النفقة التي لا يستكثرها على الجارية المملوكة والحيوان النافع ، وكل قيمتها بين الذين يستحيونها ولا يقتلونها في طفولتها أنها حصة من الميراث تنقل من الآباء إلى الأبناء ، وتباع وترهن في قضاء المنافع وسداد الديون ولا يحميها من هذا المصير إلا أن تكون عزيزة قوم تعز بما يعز عندهم من ذمار وجوار ...

١ ــ المرأة في القرآن ، للأستاذ عباس محمود العقاد ، ص ــ ٥١ .

جاء القرآن الكريم .. فرفعها من المهانة إلى مكانة الإنسان المعدود من ذرية آدم وحواء بريئة من رجس الشيطان ومن حطة الحيوان .. وأعظم من جميع الحقوق الشرعية التي كسبتها المرأة من القرآن الكريم لأول مرة أنه رفع عنها لعنة الخطيئة الأبدية .. فكل من الزوجين قد وسوس له الشيطان واستحق الغفران بالتوبة والندم : ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾ (البقرة ـــ ٣٦) . ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف ـــ ٢٣) ..)[1] .

(على أن الآية الكبرى في وصاية القرآن بالأنثى أنها وصاية وجبت دون أن يوجبها عمل من النساء ولا عمل من المجتمع وأنها فرضت على المجتمع برجاله ونسائه فرضاً لم يطلبه هؤلاء أو هؤلاء ، وتلك وصاية لم يحدث لها نظير قط فيما تقدم من الشرائع قبل دعوة الإسلام .)[2] .

فهل حظ المرأة في عصرنا الحاضر أحسن منه في الماضي .. ؟

لا .. وإن اختلفت الصورة التي صارت أكثر بريقاً .. فالرجل الأوربي ينحني للمرأة ويقبل يدها .. لكن هذا شبيه بما فعل الرومان في عصر انحطاطهم .. أجل إن الشبه واضح في الأهداف والوسائل .. وهو يدل على أفول الحضارة الغربية التي انحدرت في خط الغريزة . ولعلهم أرادوا إصلاح الخطأ القديم مع المرأة ، فوقعوا في خطأ آخر فيه ظلم كبير للمرأة حين اعتبروا الجنسين متماثلين في كل شيء . وصار على المرأة أن تخرج لتكدح فتنزل إلى المصانع والمناجم لتعول نفسها بل وتقدم المهر لزوجها ..!! ـــ وياليتها تحصل على الأجر نفسه الذي يتقاضاه الرجل ـــ دون مراعاة للفارق الجسماني والنفسي والوظيفي للمرأة .. إن المرأة والرجل زوجان يكمل أحدهما الآخر ؛ وإلا فما الداعي لأن يكونا جنسين إذا كانا متماثلين تماماً ..؟!

---

١ ـــ ص ٥٦ ـــ ٥٧ من المصدر السابق .

٢ ـــ ص ٥٩ من المصدر السابق .

أبشري يا أختاه .. فإن القرآن قد رفع عنك الظلم بكل أنواعه .. فأنت الأم التي أوصى بها القرآن وجعل برها أوجب من كل بر . وأنت الزوجة التي تحاط بالرعاية والمعروف حتى عند كراهية الزوج لها .. وأنت الابنة التي جعل رسول الله ﷺ إحسان رعايتها وتربيتها سبباً لدخول والدها الجنة .. أنت التي يقدم لك المهر .. وأنت التي تحاطين بالرعاية والإنفاق من الرجل سواء كان أباً أو زوجاً أو أخاً أو ابناً .. ومع ذلك يحدد لك القرآن نصيباً مفروضاً من الميراث ولا يكلفك الإنفاق على أحد .. لك حرية العقيدة والفكر وحرية التملك وحرية اختيار الزوج وأنت على قدم المساواة مع الرجل في الكرامة الإنسانية وفي الثواب والعقاب . فإذا ارتقيت وسموت ضرب بك المثل للمؤمنين كافة : ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابْنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ (التحريم — الآيتان ١١ ، ١٢) . .

إنه انقلاب هائل في المفاهيم والشرائع .. سنلمس معالمه أثناء تدبرنا لآيات السورة .

خامساً : إن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة ، فقد بدأت بأسرة واحدة خرجت منها البشرية كلها . ولهذا كان اهتمام القرآن بالأسرة وتنظيمها كبيراً . وبدأ بتصحيح النظرة إلى المرأة لأنها أول قاعدة في تصحيح بناء الأسرة . ثم وضع القاعدة الثانية للأسرة : وهي أن تبنى على التفاهم الفكري ، وأن يكون اللقاء على الإيمان بالله : ﴿ولأَمَةٌ مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا . ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم .﴾ (البقرة — ٢٢١) . ويزيد هذه القاعدة وضوحاً حديث رسول الله ﷺ : « فاظفر بذات الدين تربت يداك » (ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة .) .

ثم نظم الإسلام حياة الأسرة بتوزيع الحقوق والواجبات وتحديد دور كل فرد فيها .. مسؤوليته وحدوده التي يجب أن يلتزمها .. فإن حدث انحراف وخلل ولم تعد

هذه الخلية تؤدي دورها الكريم في المجتمع بل صارت مصدر تعويق فالانفصال أولى : ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ..﴾ (البقرة — ٢٢٩) ، وينظم هذا الانفصال بتشريعات حكيمة وضمانات مادية ومعنوية تجعل من الانفصال تسريحاً بإحسان .

يقول هشام شرابي في بحث له عن تخلف المجتمع العربي :

(من الواضح أن تغيير المجتمع يقتضي تغيير العائلة)[1] . ويبحث في كتابه عن أسباب تخلف المجتمع العربي ويتأمل في كثير من أمراضه فيرد أكثرها إلى الأسرة وأسلوب التعامل فيها والمفاهيم المسيطرة عليها .. وبشكل خاص انحطاط الأم فكرياً واجتماعياً .. تلك هي الزفرة الموجعة التي أطلقها حافظ إبراهيم أسفاً على حال المرأة العربية المغاصرة :

من لي بتربية النساء فإنها في الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

والإسلام حين جاء قام بهذا التغيير الجذري .. فوضع المرأة في مكانها اللائق وفرض عليها طلب العلم — كما فرضه على الرجل — حتى تعرف كيف تؤدي دورها في إنشاء جيل جديد .

سادساً : تأمل هذا التنوع في خصائص الأفراد وهم من أسرة واحدة ومن أصل واحد .. تنوعاً لا يتماثل فيه اثنان تمام التماثل .. حتى لتختلف بصمات الأصابع فلا يتماثل فيها اثنان على مر الأيام ..!! إن هذا التأمل يجعل الإنسان يخشع أمام قدرة الله .. وهنا يأتي التوجيه في مكانه :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ ﴾ .

وللمرة الثانية في آية الافتتاح يأمر بتقوى الله .. وهذا ضروري جداً لضمان حسن الاستقبال والامتثال لأحكام السورة التي تقلب المفاهيم وتغير الأوضاع الاجتماعية ،

---

١ — ص ٣٣ ، من كتاب مقدمات لدراسة المجتمع العربي ، للأستاذ هشام شرابي .

وليس هذا بالأمر اليسير . فلقد يبدو أحياناً أن خروج الإنسان من حياته أسهل من خروجه عما ألف من الأفكار والعادات .. لكنه حين يخالط الإيمان بالله قلبه .. وتملأ تقوى الله جوانحه لا يستصعب شيئاً تتحقق فيه مرضاة الله .

فاتقوا الله الذي تتعاهدون باسمه .. ويستحلف أحدكم صاحبه به فيقول : (أسألك بالله أن تفعل) .. اتقوه فيما بينكم من صلات ومعاملات ..

﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ : فاتقوا الله واتقوا الأرحام أن تمسوها بأذى أو سوء أو ظلم أو قطيعة .. يقول الله تعالى في الحديث القدسي مخاطباً الرحم : « أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك » قالت : بلى . قال « فذاك لك » (رواه مسلم) .

إن هذا الأمر نتيجة لما سبقه من تقرير الأصل الواحد للبشر ، فطالما أنهم ارتبطوا بأصل واحد ، فما ينبغي لهم أن يقطعوا ما بينهم من الصلات وخاصة القريبة منها .. وكذلك فإن هذا الأمر ــ بتقوى الله ــ يمهد لما بعده من الأحكام فيما يتعلق بإنصاف اليتامى وإصلاح شأنهم وتقوى الله في النساء .. فكلها نابعة من صلة الأرحام ..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ . والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. فالله لا تخفى عليه خافية .

بهذا الافتتاح المؤثر الذي يقرر حقائق هامة وكبيرة في سطرين .. يهيىء الله النفوس لتلقي التشريعات التي تقضي على الظلم والبغي .

والقرآن لا يكتفي بالقانون وإنما يربط الموضوع بأعماق الإنسان وضميره .. ولا بد للتربية السليمة أن تبدأ بالضمير ، ولابد للمجتمع السليم أن يعين الضمير بالتشريع المناسب . ولقد كانت الآيات تزلزل نفوس المسلمين وتغير أحوالهم ..

(ورد عن جرير بن عبد الله البجلي أنه جاء إلى رسول الله ﷺ قوم عراة مجتابي النمار .. كلهم من مضر فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة . فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام ثم صلى ثم خطب فقال :

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ (النساء ــ ١) . ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ (الحشر ــ ١٨) . « تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال ولو بشق تمرة » .

فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام ، وثياب . حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة) (أخرجه مسلم عن ابن مسعود في خطبة الحاجة) .

ثانياً ــ اليتامى وعدم استغلالهم

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

الآية فيها أمر ونهيان وتعقيب . فالأمر : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ .

ليس معناه أعطوهم أموالهم الآن ، وإنما احفظوا لهم أموالهم ومصالحهم حتى يبلغوا سن الرشد فتسلموها كاملة لم تنقص أو تتلف .

﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ .

فتأخذوا الشاة السليمة السمينة من ماله وتبدلونها بالهزيلة المريضة من مالكم .. ويمكن أن نقول أيضاً : إن مالك هو الطيب الحلال فلا تفضل عليه اغتصاب مال اليتيم ، فإن ذلك حرام خبيث .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ .

فالله ينهاكم عن كل أسلوب للتلاعب في أموالهم واستلاب بعض حقوقهم .

ويعقب على ذلك : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ .

فهو إثم وذنب كبير عند الله .. استغلال اليتامى والضعفاء .. استكبار القوي وتسلطه على حقوق الآخرين .. هذا الذي كانت تزخر به جاهلية العرب ؛ والذي يتمثل الآن في تدخل الدول الكبرى في شؤون الدول النامية وتسلطها عليها .. إنها مشكلة العالم قديماً وحديثاً .. الاستكبار والاستضعاف .. تلك المشكلة التي تعجز عن حلها الرقابة القانونية حين تنعدم الرقابة الداخلية ـــ رقابة الضمير ـــ التي يتكفل الدين بإيجادها بتربية النفوس على التقوى . ففي أموال اليتامى أثرت توجيهات القرآن على نفوس الصحابة حتى جعلتهم يعزلون مال اليتيم عن مالهم وطعامه عن طعامهم . وتحرجوا من ذلك حتى أن طعام اليتيم كان يفسد ولا يمدون له يداً . فنزلت الآية في سورة البقرة : ﴿ويسألونك عن اليتامى ، قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾ (البقرة ـــ ٢٢٠) .

ولكن هل يكفي في مشكلة مزدوجة ـــ وهي الاستكبار والاستضعاف ـــ أن نعالج طرفاً واحداً ..؟!

إن المتأمل في منهج القرآن التربوي يرى أن القرآن ينهى عن الاستكبار والاستغلال في آيات .. لكنه يعلّم الضعيف في مواضع أخرى أن لا يسكت أو يخضع للقوي ولو كلفه ذلك حياته : ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ (العلق ـــ ١٩) . وأفضل الجهاد كلمة حق في وجه سلطان جائر .. فلا بد من تحرير الضعيف من نفسية الاستضعاف أولاً حتى يرفض أن يلغي فكره وشخصيته ويكون مجرد عصا في يد المستكبر يحركها كيف يشاء . وأن يفضل الموت على موقف كهذا .. لكي ينشأ مناخ جديد تتحقق فيه كرامة الإنسان ويرفع عنه الإكراه وتكون الكلمة والسلطان للحق لا للقوة .

وجوهر القضية هنا في مال اليتيم .. أن تفكر وتحرص على مال اليتيم وأي حل يحقق له المصلحة أكثر . فإن كان في مخالطته في طعامه فلا بأس فهم إخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح .

ثالثاً ــ جواز تعدد الزوجات وشرطه

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ .

لا بد أن نتساءل هنا ما علاقة اليتامى وأموالهم بإباحة تعدد الزوجات ؟

ولفهم العلاقة نرجع إلى سؤال عروة بن الزبير لخالته عائشة رضي الله عنهم عن هذه الآية وقولها : (يابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره . فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق . وأمروا أن ينكحوا من النساء سواهن) . وتابعت السيدة عائشة : (وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله:﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن﴾ (النساء ــ ١٢٧). وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال) (رواه البخاري).

فالارتباط بين الأمرين في الآية لما كان يحدث من استغلال سلطة الوصي على اليتيمة خاصة في حالة المال والجمال . حتى أن الوصي في الجاهلية كان يثري ويكثر من الزوجات بدون حد . كذلك يمكن أن نلمس في الآية التحذير من الظلم بشكل عام . فإن خفتم من الظلم مع الأيتام فخافوا منه مع الزوجات الكثيرات .

النقطة الثانية التي نتساءل عنها هنا : هل العدد المذكور في الآية للتحديد أم للتعميم ؟ أما الآية فلا يفهم منها التحديد . فقد قال عن أجنحة الملائكة: ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ (فاطر ــ ١) . لكن التحديد ورد في السنة : فقد « كان لغيلان الثقفي عشرة زوجات فأمره أن يختار منهن أربعاً ويفارق الأخريات » (ذكره الإمام أحمد والنسائي) . واتفقت الأمة على ذلك دون أي خلاف .

كذلك نتساءل : ما حكم التعدد ؟ هل هو محظور ويباح للضرورة أم العكس ..؟ الآية لا تحدد شيئاً بالنسبة لهذا .. وينبغي مراعاة الظروف الاجتماعية . فالأمر إنما شرع لمصلحة البشر .. والتفكير في مصالح العباد والأمم يحتاج إلى نخبة من العلماء المتخصصين يقومون في كل عصر بدراسة الأوضاع الفردية والاجتماعية للأمة ليكونوا المرجع للناس في إدراك ما يصلحهم ويصلح لهم .

الأمر الوحيد الذي تذكره الآية بوضوح وتجعله شرطاً للتعدد هو : العدل بين الزوجات .. وتمهد له بإثارة الخوف من الله والمسؤولية أمامه عن العدل مع اليتيمات وبين الزوجات . ولا ننسى أن التنبيه للعدل جاء بعد الأمر بتقوى الله مرتين والإشعار برقابته على كل شيء .

أما ما العدل المطلوب ..؟ وهل هو غير العدل المشار إليه في الآية الثانية التي ستأتي أثناء السورة :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ .. ﴾ .

هذا الموضوع ندرك أبعاده حين نتذكر فعل رسول الله ﷺ حيث كان يقسم بين زوجاته بالسوية ثم يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » (رواه الإمام أحمد وأهل السنن) . فالعدل الذي تشترطه الآية هنا هو العدل المستطاع في النفقة والمبيت والمعاملة .. أما العدل في المشاعر فهو غير ممكن وغير مطلوب ولكن على أن لا يندفع وراء مشاعره إلى درجة يظلم بها الأخريات . ولهذا قالت الآية الثانية :

﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ .

أما العدل مع اليتيمات عند الزواج فيشمل جوانب عدة : من حيث مساواتها في المهر مع مثيلاتها .. ومراعاة المعقولية في فارق السن بينه وبينها .. وترك الحرية الكاملة لها في إبداء رأيها في هذا الزواج دون أن تخاف ضياع مالها .. والتدقيق في الدافع الذي يرغبه في الزواج منها .. فعندما يكون الولي غير واثق من قدرته على القسط مع اليتيمة فالنساء سواها كثير .. وإن الله قد أباح لكم مثنى وثلاث ورباع . ولكن تجنبوا اليتيمات وظلمهن .

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ..

والأمر يحتاج إلى انتباه منذ البداية : إن خاف أن يظلم .. لا أن ينتظر ويتمادى في الأمر حتى يقع في الظلم . فالزوجة الواحدة خير له من الوقوع في الظلم .. إلا الإماء فإنه يسمح للمسلم بمعاشرة ما ملكت يمينه منهن .

﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ .

بعضهم قال (ومنهم الشافعي) : ذلك أدنى أن لا تكثر عيالكم . واستنتجوا من ذلك أن الله يشترط شرطاً آخر وهو القدرة على الإنفاق . وقالوا ــ وهو الأقوى ــ ذلك أدنى أن لا تجوروا وتظلموا . وهي إشارة هامة إلى أن الاكتفاء بالزوجة الواحدة أفضل ويجنب من الوقوع في الظلم .

وموضوع تعدد الزوجات قد أثار ــ وما زال يثير ــ زوابع كثيرة حركها المغرضون للانتقاص من النظام الإسلامي . وقد كتبت في ذلك أبحاث عديدة فيها ردود قيمة أذكر منها على سبيل المثال ما جاء في كتاب (المرأة بين الفقه والقانون) للدكتور مصطفى السباعي حول تعدد الزوجات . وألتقط منه بعض الملاحظات بتصرف :

١ ــ أول ما ينبغي ذكره هنا أننا آمنا بالله العليم الحكيم الذي أنزل القرآن رحمة للناس وفيه صلاحهم .. ألا نسلِّم أنفسنا للطبيب الجراح عند الحاجة ولو حكم بقطع عضو من أعضائنا ..؟!

٢ ــ هل كان التعدد محرماً فأباحه الإسلام ..؟ وهل هناك شريعة حرمته ..؟

إن دراسة التاريخ ترينا أن التعدد كان معروفاً في كل الأمم وبدون حدود ولا شروط . وفي المسيحية بالذات لم يأت نص صريح يمنع التعدد . وأنبياء العهد القديم كلهم معددون .. أما المسيح عليه السلام فلم يتزوج إطلاقاً ..

٣ ــ لو كانت أضرار التعدد أكثر من فوائده لحرمه الله كما حرم الخمر مع أنها كانت عادة متأصلة في الناس عند نزول القرآن . لأن الدين الإلهي لا يتهاون في مثل هذه الأمور أو يتساهل بغية كسب أنصار أكثر . والمتأمل في التشريع الإلهي يستنتج قاعدة : إذا غلب الضرر على النفع فالأمر حرام وإذا غلب النفع على الضرر فالأمر مباح .

٤ ــ أدخل الإسلام إصلاحات هامة على التعدد :

١ً ــ حدده في أربع زوجات .

٢ً ــ شدد فيه على العدل بين الزوجات .

٣ً ــ ربى ضمير الزوج المسلم على خوف الله ومراقبته .. وضمير الزوجة المسلمة على الخوف من الله فلا تحاول ظلم ضرتها أو الإضرار بأولادها .

٥ ــ حين يتساءلون هل من فوائد في إباحة التعدد .. ؟

لن أتناول التفصيل في الحالات والضرورات الفردية والاجتماعية التي تمر على الأمة ؛ ولكن أقول مع من قال : يكفي أن تدعو إليه الضرورة في حالة بين ألف حالة لتراعي الشريعة ذلك . وإلا لما كانت وافية صالحة لكل العصور والبيئات .

٦ ــ إن تحريم التعدد لا يحد من حرية الرجل بمقدار ما يحد من حرية المرأة ؛ لأن الرجل لايعدد إلا بمشيئة المرأة . فلولا حاجتها للزوج لما وافقت على الزواج من رجل متزوج بأخرى . فهذه المشيئة ــ مشيئة المرأة ــ هي التي يقع عليها الحجر .

٧ ــ ولا يجدي أن يكون الحد اثنتين . إذ أن الرجال لا يتساوون في القدرة على

أعباء الزواج فمنهم من يعييه أن يعول زوجة واحدة . ومنهم من يملك القدرة على إعالة أكثر .. كذلك ما تتعرض له الأمم في حالات الحروب من خلل في التعداد بين الرجال والنساء .

٨ ـــ للتعدد مساوىء لكنه يصبح في بعض الحالات العلاج الوحيد فهو كالدواء المر .. وإن إساءة استعمال هذا التعدد والإخلال بشروطه لا يلام عليها التشريع ، وإنما نحن المسؤولون .

٩ ـــ ومع ذلك فإن المرأة تستطيع أن تشترط عند عقد الزواج على الزوج أن لا يعدد .



الفَصْل الثَاني

في الأَمْوَال

وَءَاتُوا۟

ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ
قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟
ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟
إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ
غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا
دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾
لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا
﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا
خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى
بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ
فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً

فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا
ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن
كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ
فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي
بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ
نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾
۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن
لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا
تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ
وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ
فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ
مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ
رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ
وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ
أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ
﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾
وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ
نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾

أولاً ــ المهر

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ..﴾ .

الخطاب موجه للأزواج ولأولياء المرأة . ونفهم من الآية الكريمة :

١ً ــ إيجاب دفع المهر للمرأة وأن لا يحاول أحد أن يبتز منها هذا المهر .

٢ً ــ أن يدفعه الزوج عن طيب نفس لأن معنى نحلة : أي عطية وهدية . ولهذا فمن الأفضل أن يحدد الزوج قيمته ليقدمه كهدية للمرأة .

٣ً ــ يصبح المهر حقاً شخصياً للمرأة تتصرف به كما تشاء .

حين نتأمل الآية نشعر أن المهر يجب أن نتجنب فيه المغالاة مع عدم التهاون به لأنه حق للمرأة لا يجوز حرمانها منه . كذلك نشعر بأن الله سبحانه وتعالى يوجه كل طرف إلى أداء واجبه : فالزوج والولي عليهما أداء المهر إلى المرأة ، والمرأة لها أن تتسامح . ولعل تتمة الآية :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ .

توحي للمرأة باستحباب أن تعطي زوجها قسماً منه . وإن كان القصد الأول هو رفع الحرج عن الرجل في قبول ما تعطيه زوجته له من مهرها عن طيب خاطر .

فإذا رجعنا إلى واقعنا رأينا أخطاء كثيرة نرتكبها بشأن المهر :

١ ــ فالمهر يحدده أهل الزوجة ويُغالى في قيمته وكأنه ثمن للمرأة مع أن مهر النبي ﷺ لزوجاته كان بسيطاً. وزوَّج النبي ﷺ رجلاً بما معه من القرآن؛ أي على أن يعلم زوجته ما يحفظ من السور.

٢ ــ لا تتصرف به المرأة كما تريد . بل غالباً ما يشترى به أثاث للبيت .

٣ ــ وأحياناً تحرم المرأة من مهرها حين يقال للخاطب : أثث بيتك ولا نريد منك مهراً .

٤ ــ المؤجل في المهر بدعة لم تكن على زمن النبي ﷺ ، وإنما نشأ في الأصل من أن الزوج لم يستطع أن يقدم كامل المهر في البداية فأجل الباقي حتى يستطيع أداءه .. وهذا أمر لا غبار عليه .. لكن الموضوع تدهور بعد ذلك وعمد الناس إلى ربط المؤجل بالطلاق كضمان مادي للمطلقة ، وهذا يدل على روح المتاجرة وفقدان الثقة في العلاقات الإنسانية . فالأخلاق قد تدهورت والرجل لا يتقي الله في زوجته وأسرته .. وهكذا لجأ المسلمون إلى تغطية الخلل الأخلاقي بتعويضات مالية .. مما أدى إلى تعقيد المشكلة أكثر .. فلنتأمل بعض النقاط :

١ً ــ إن الله تعالى لم يجعل الزواج سجناً لا فكاك منه ، وليس من مصلحة الزوجين ولا الأبناء في حالة فقدان الانسجام والتفاهم أن يعيشوا جحيماً لا يطاق في تناقضه . وكيف يكون شعور الرجل تجاه امرأة لا يريدها لكنه عاجز عن طلاقها بسبب المؤجل ..؟! بل هل تسعد المرأة في ظل زوج تعرف أنه لا يمنعه من طلاقها إلا العجز عن المؤجل ..؟!

٢ً ــ إن الخلل الأخلاقي لا يمكن ترقيعه بالمال .. فالزوج الكاره الراغب في الطلاق سيلجأ إلى التضييق على زوجته ومكارهتها حتى تفتدي نفسها منه بالتنازل عن المؤجل .

٣ً ــ كذلك يمكن أن تسلك الزوجة مسلك الاستبداد والنشوز مع زوجها اغتراراً منها بأن المؤجل يحميها من الطلاق .

٤ً ــ إن الله سبحانه وتعالى بتشريعاته قد جعل الضمانات المادية والمعنوية مكفولة للمرأة في حالة الطلاق من قبل زوجها : ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ (البقرة ــ ٢٤١) . ولها النفقة أثناء العدة .. ثم النفقة إن أرضعت وحضنت

الأولاد . ولها على أوليائها النفقة بعد ذلك بشكل كافٍ لا تفريط فيه ولا إفراط .

ولا بد من تذكر قول الله تعالى في هذا المجال : ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ (العنكبوت ــ ٢٠) . كيف تبدأ الأمور ..؟ كيف تنشأ البدع ..؟ تكون كالبذرة الصغيرة لا يهتم بها أحد .. لكنها تنمو مع الأيام وتمتد أشواكها حتى تعرقل المسير . وهكذا بدأ المؤجل من رجل كلف نفسه مالا يطيق من المهر فأجَّل دفعه وأغضى الناس عن ذلك ولم يقيموا له وزناً .. فإذا بالموضوع يصبح شجرة شوك لا يكاد يخلو منها بيت مسلم . ولو تأملنا موقف النبي ﷺ من الرجل الذي أراد الزواج وهو لا يملك شيئاً فقال له ﷺ : « التمس ولو خاتماً من حديد » (رواه البخاري ومسلم) . ولم يقل له : أجِّل المهر .. لكان لنا في ذلك عبرة وأسوة حسنة .

ثانياً ــ الحجر على السفهاء

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ .

من هم السفهاء ؟

السفه : خفة في العقل تؤدي إلى سوء تدبير وتبذير في المال . ولا بد من تحديد و تشخيص أدق لحالة السفيه كي نكشف عن موضع الخلل ونتمكن من العلاج . إذ أن الأمور لا تستقيم بمجرد الحجر على السفهاء ولا بد من السعي إلى ترشيدهم .. ولذا أسترسل في البحث فأقول:

إن التصرف بالمال عمل . وكل عمل ناتج عن قدرة وإرادة[1] . والسفيه مصاب في قدرته أو إرادته . فالقدرة في صرف المال مركبة من قدرة فهمية (عقل) + قدرة

---

١ ــ انظر كتاب العمل قدرة وإرادة للأستاذ جودت سعيد .

مادية (مال) . فإذا نقص العقل لمرض أو قلة خبرة وصغر في السن .. ساء التصرف بالمال .

والإرادة تنتج من تعلق العقل بمثل أعلى . وهي التي تعطي التوجيه للعمل . والخلل فيها ناتج عن أحد أمور ثلاثة :

١ ــ ضعف في العقل . (مثل المجنون والمعتوه ..) .

٢ ــ نقص في المثل الأعلى . (أي عقائد وأديان خاطئة) .

٣ ــ سوء فهم للمثل الأعلى لأنه تعرض للكتمان والتحريف .

ويمكن أن نضرب مثلاً على النوع الثاني : الأديان التي لا تحرم شراء الخمر ولعب القمار . أما النوع الثالث فيمكن أن نتذكر كيف باع رجال الكنيسة صكوك الغفران لعامة الناس الذين لم يعرفوا من دينهم إلا ما يمليه عليهم الكهان والرهبان . كذلك كان أفراد الطائفة الإسماعيلية يتقربون إلى ربهم بدفع أموالهم للآغا خان وهو الرب المعبود عندهم ورئيس الطائفة حتى يجمعوا له وزنه ذهباً . . ويمكن أن نعتبر الفاسقين الذين يصرفون أموالهم على المعاصي من النوع الثالث، الذي جهل دينه ولم يعرف الإسلام وأهميته لحياة الإنسان فهو منسلخ منه لم تتعلق به إرادته. والسفاهة تشمل كل ذلك. لأنها في المال تعني: صرفه فيما لا ينفع الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة.

فإذا عدنا للآية وجدناها تقول : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ ولم تقل « أموالهم » مع أنها في الأصل أموالهم .. فما القصد ..؟!

١ً ــ إن الله تعالى ينبه المسلمين أن الأموال كلها للجماعة المسلمة جعلها الله لها قياماً تقوم بمعيشتها وحاجاتها . فلا يجوز إعطاؤها للسفهاء يبددونها .

٢ً ــ كأنه يحثنا على المحافظة على أموالهم كما نحافظ على أموالنا . وأن لا نتركه ــ بدعوى أنه حر ــ يبذر في ماله كما يشاء . فالإيمان لا يتحقق حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك . فالعلاقة هنا إيجابية . وعلى المؤمن أن ينصر أخاه ظالماً أو مظلوماً .. بأن يمنعه من الظلم ، كما يمنع عنه الظلم .

٣ً ــ يمكن أن نفهم من الآية أيضاً : أنه يقول لنا:لا تبطلوا أعمالكم وتضيعوا ثمارها لأن المال ناتج عن العمل . فإذا كان الإسلام دين العمل فإنه يأمر بصيانة ثمرات العمل أيضاً كي تكون قياماً لحياة الناس وبناء حضارتهم .

﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ .

أي أن على ولي أمر السفيه أن يستلم ماله ويعطيه منه ما يكفي لطعامه وكسوته وسائر حاجاته ، ويطيب خاطره بالقول المعروف الذي تعارف الناس على لينه ولطفه . والمعروف نوعان : معروف قرآني وهو كل ما أمر الله به . ومعروف بشري : وهو العادات والتقاليد . وفي المجتمع الرباني ينطبق العرفان فتصبح أوامر الله هي العرف الذي يتعارف عليه الناس .

والدول المستعمرة الآن تفرض وصايتها على الدول المتخلفة متذرعة بهذا الجانب .. وهو فقدان القدرة على التصرف السليم بالثروات والقدرات والعجز عن تحمل مسؤوليات الاستقلال .. هذه الصفة التي أطلق عليها مالك بن نبي : القابلية للاستعمار . لأنها تمهد لدخول الاستعمار وسيطرته .. ولن ننجح في التحرر الحقيقي حتى نتخلص منها . ومما لا شك فيه أن الدول المستعمرة يهمها أن نبقى سفهاء .. بل إنها تنفذ خططاً ومناهج تربوية وإعلامية لتزيد من سفاهتنا وتبقى هي صاحبة الوصاية على بلادنا وأموالنا .. ومهما ندّدنا بالاستعمار فإننا لن نتحرر منه ما لم نحرر أنفسنا من القابلية له . وبلدان العالم المتخلف التي لم تستعمر ليست بأفضل حالاً من المستعمرة لأنها تتصرف بسفاهة فيما تملك من قدرات وثروات . ويمكن أن نرى ذلك بوضوح في اليمن مثلاً ، فقد بقيت في مؤخرة الدول النامية رغم أنها لم تُستعمر . والحقيقة أن الدول الكبرى تخطىء بحق نفسها حين تعوق نمو الآخرين ، فإن تأمل المشكلة من الجانبين : من جانب الدول المتقدمة والدول المتخلفة يكشف لنا أن الحل الأمثل للجمع بين مصلحة الطرفين هو ترشيد السفهاء وعلاجهم حتى لا يضروا بمصالحهم ومصالح الآخرين .. وحتى لا يكونوا موضع استغلال من الآخرين وعالة عليهم في آن واحد .. فمن الواضح أن السفيه عبء على مولاه يحتاج إلى من يرعاه ويدبر له أموره . ولهذا تأتي

الآية التالية لتشير إلى أهمية إيجاد أساليب لترشيد السفهاء وتعريضهم لتجارب وامتحانات تثري خبراتهم وتختزل لهم زمن النضج بقدر الإمكان .

ثالثاً ـ امتحان اليتامى

﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ .. ﴾ .

ومعنى الابتلاء هو الامتحان . أي دربوهم على حمل المسؤولية واختبروهم ، وهذا قبل البلوغ . كأن يعطى اليتيم قسماً بسيطاً من المال ويراقب تصرفه فيه . ولا يكفي الامتحان بالكلام فكثيرون يجيدون الكلام ولا يحسنون العمل . والناحية العملية هامة في كونها دليل على نوعية الفكر : أهو سفيه أم راشد ؟ كذلك يجب أن نتذكر أهمية التدريب على القيم الإسلامية في المعاملات المالية والتجارية . وأذكر هنا قصة سمعتها عن وصي كان يكتب قائمة المدفوعات ويعرضها على اليتيم الذي في حجره بين فترة وأخرى ، وكان يضع بينها رقماً وإلى جانبه بيان : (ثمن نعال للجمال) . إلى أن جاء يوم احتج اليتيم فيه على ذلك بأن الجمال لا تحتاج إلى نعال ..!! فعندها قال الوصي : لم تعد بحاجة إلى وصايتي .

والآية تحدد شرطين لدفع المال إلى اليتيم :

١ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ ﴾ .

أي البلوغ . ويحدث عادة في فترة زمنية محددة قد تختلف بين بلد وآخر ، لكن لها فترة معروفة .

٢ ـ ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا ﴾ .

الرشد : وهو نتاج التربية . والقرآن يستعمل الرشد بمعنى الخير وهو ناتج عن نمو في تحصيل الصواب . ﴿يا قوم اتبعونِ أهدكم سبيل الرشاد﴾ (غافر — ٣٨) . فالقرآن يجعل الإسلام لله متطابقاً مع الرشاد : ﴿فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً﴾ (الجن — ١٤) . وسمي الخلفاء الأربعة بعد رسول الله ﷺ الراشدون لحرصهم على الاستقامة على دين الله .. والمجتمع الخاضع لأمر الله مجتمع راشد . وهذا ما تقرره العواقب والنتائج .. فالراشد هو الذي يخرج بأحسن النتائج . والإسلام يتحدى الناس جميعاً أن يأتوا بنتائج أرشد بعقائدهم وأعمالهم : ﴿اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون﴾ (هود — ١٢١) .

ومع الأمر بأداء الأموال إلى اليتامى يأتي نهي :

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ .

والله لا ينهى عن مطلق الأكل ولكن عن السرف وهو الإنفاق فيما لا خير فيه .

﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ . أي الاستعجال في أكلها بسرف قبل أن يكبروا . مع التوجيه إلى التعفف كلية عن أكل مال اليتيم إن كان الوصي في غنى .

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ .

أي يأخذ مقابل جهده ورعايته لليتيم وأمواله أجراً بحسب ما تعارف عليه الناس كأجر يتناسب مع الجهد .

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ .

والحكمة هنا واضحة ؛ فالإسلام يسد أبواب الخلاف والفساد بشكل محكم . فليس أضر على شبكة العلاقات الاجتماعية من فساد المعاملات المالية . وكم من عداوات بين الإخوة والأهل والشركاء نجمت من فقدان الدقة والضبط في التعامل المالي . ولذا فقد حرص الإسلام على وضع الضمانات الكافية على المعاملات المالية تحقيقاً للعدل وصيانة لشبكة العلاقات الاجتماعية من التمزق والوهن . فاشترط الشهداء عند أداء مال اليتيم

وعند الدَّين وأدائه . وقسم الميراث فحدد لكل وارث نصيبه ، ولم يترك ذلك للبشر كي لا يختلفوا .. ــ كما سيأتي في أحكام الإرث ــ . والشهداء يجب أن يشهدوا على الولي عند استلام مال اليتيم وعند أداء الولي المال إلى اليتيم .

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ .

فالمحاسبة هناك بين يدي الله الذي لا تخفى عنه خافية ، وهذا ترهيب لمن يطمع .. وتطمين لمن يخاف من كلام الناس وظنونهم . فإذا لم يقدر الناس موقفك ومتاعبك ووجدت منهم الشكوك ونكران الجميل .. فإن الله هو المحاسب ولا يغفل عن مثقال الذرة من الظلم أو الإحسان .

كانت هذه الآيات حملة على الأولياء وإرهاباً وتشديداً للمحافظة على الضعفاء وأموالهم ، لأنهم لا يستطيعون تحصيل حقهم بأنفسهم ، فاحتاج الأمر إلى توصية إلهية بالضعفاء وأداء حقوقهم إليهم . وستبقى هذه الأوامر نظرية إلى أن نرجع إليها إن وجد لدينا يتيم أو ضعيف .. ولن يستطيع الولي تمثل أمر الله والالتزام به ما لم تتوفر فيه العدالة ــ الإخلاص لله ــ والصواب . أي الإرادة والقدرة[1] . ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ (القصص ــ ٢٦) . ولا تكفي الأمانة ــ أي العدالة ــ وحدها إن فقد القوة على الأداء والصيانة . ويدخل في ذلك قوة الفهم والمعرفة لما ينمي المال ويصونه .. ولقد قال رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه في موضوع الولاية : «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي . لا تأمرنَّ على اثنين ولا تولينَّ مال يتيم» (رواه مسلم) . والضعف الذي عند أبي ذر من قبل القدرة لا من قبل الأمانة والنزاهة فقد شهد له رسول الله ﷺ بأن الأرض ما حملت أصدق منه لهجة .

---

١ ــ راجع كتاب العمل قدرة وإرادة للأستاذ جودت سعيد .

رابعاً ــ الميراث

ولن أتوسع في بحث الموضوع ، فذلك باب قائم بنفسه كتب فيه العلماء المؤلفات وسموه علم الفرائض ؛ لأن الله عقب على تقسيمه قائلاً : ﴿**فريضة من الله**﴾ . ولكن أقل ما يطلب من المسلم أن يفهم الخطوط الرئيسة إن لم يُحط بالفرعيات . وآيات الميراث هنا تدور حول خمس نقاط :

١ ــ مقدمة في أربع آيات . ٢ ــ تقسيم الميراث للأولاد والأبوين .
٣ ــ ميراث الزوجين . ٤ ــ ميراث الكلالة . ٥ ــ تعقيب على الأحكام .

تبدأ الآيات الكريمة هنا بتمهيد النفوس لتقبل الأحكام :

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ .. ﴾ .

إنه يقرر ابتداء حق المرأة في الميراث . وقد كان المشركون لا يورثون النساء والأطفال . ويؤكد الأمر بأنه فريضة من الله : ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ .

ويعلم المسلم كيف يتحرر من سلطان المال ويجعل المال في يده لا في قلبه ..

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ .. ﴾

إنها لفتة ندية تملأ حنايا الأسرة بالمودة والصلة . وتضفي على الجماعة المؤمنة روح التضامن والمحبة . فمن حضر القسمة من أولي القربى الذين لا يرثون واليتامى والمساكين ــ فهم إخوانكم في الإنسانية كما قرر في افتتاحية السورة ــ يأمر الله بمنحهم شيئاً غير محدد توثيقاً للروابط العائلية والاجتماعية. والذي يعطيهم هم الورثة لا غير، وليس الذي يقسم بينهم.

﴿ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ فيه ود ومجاملة وإحسان .

ويعود للترهيب من ظلم اليتامى والتلاعب بحقوقهم وأموالهم بهزتين :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ .. ﴾ .

ضع نفسك في مكان المتوفى ، وعامل ذريته كما تحب أن يعامل ذريتك .. والتربية القرآنية توقظ الضمير وتعلم المسلم أن ينظر إلى الأمر من عدة جهات ولا يقتصر على النظر من جانب واحد .. أن يضع نفسه في مكان الآخرين ليرى بمنظارهم ويحس بمشاعرهم .. إنه تدريب على الموضوعية وتحريك للتقوى :

﴿ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ .

والقول السديد فيه عدل وتحرٍّ للحق دون انحراف أو انحياز . ووضع النفس في مكان المصاب يساعد على القول السديد العادل . وينبغي أن نلاحظ الفارق بين التعقيب السابق ﴿ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ وهذا التعقيب ﴿ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ . فالقول المعروف فيه إحسان ، وهذا يتناسب مع إعطاء ذوي القربى واليتامى والمساكين . وأما هنا فالأمر متعلق بحقوق الورثة الأيتام وتنفيذ وصية الميت ، فلا مجال للإحسان في توزيع الحقوق والحكم بين الناس ، وإنما يجب العدل هنا . أما الإحسان فهو ما تعطيه من نفسك من برٍّ لا على حساب الآخرين . ولهذا جاء الأمر بالقول السديد . وكل انحراف أو تغيير في الوصية يوقع في الإثم .

والهزة الثانية تدفع بنا إلى الآخرة .. ويا هول ما نرى .. إنه طعام النار والصلي والتقليب في السعير ..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

يعذبون فيها باطناً وظاهراً .. ولقد ذكر رسول الله ﷺ أكل مال اليتيم في وصيته : « اجتنبوا السبع الموبقات » (رواه مسلم) فهي من الكبائر .

وبعد هذه التهيئة النفسية يبدأ بتحديد ميراث الأولاد والأبوين :

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ .

هاتـان الآيتان مع آخـر آيـة من السورة تنص علـى أصول علم الفرائض (الميراث) ، أما التفريعات فقد جاء بعضها في السنة واجتهد الفقهاء في بقيتها . وأنا هنا أكتفي بشرح الآيات ولا أدخل في التفريعات .

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ .

١ً ــ إن الله سبحانه هو الذي يوصيكم ويشرع لكم . ولو كانت الوصية من إنسان عزيز لسمعتموها فكيف إذا كانت من رب الناس الذي ملك على المؤمنين قلوبهم وباعوا له أنفسهم وأموالهم ..؟!

وإعطاء الأمر طابعَ الوصية له مغزى لطيف . فالوصية تنبع من المحبة والرغبة في صلاح أمر من توصيه .

٢ً ــ والله أرحم بعباده من آبائهم وأمهاتهم ، فلذلك يوصي الأبوين بهذه القِسْمة العادلة الرحيمة بين الأولاد . ولقد مثل رسول الله ﷺ لأصحابه رحمة الله بعباده وذلك بعد غزوة من الغزوات حين رأى امرأة تبحث ملهوفة عن طفلها حتى إذا وجدته ضمته إلى صدرها وألقمته ثديها . فقال لأصحابه : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ لله أرحم بعباده من هذه بولدها » (رواه مسلم) .

﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ .

حين يكون له أولاد ذكور وإناث فعليهم أن يتقاسموا بحسب هذا المبدأ .. أما لماذا ..؟! فالتساؤل هنا يجب أن يحمل أدب المؤمن الذي يسلم أمره لله وهو على يقين من علمه وحكمته . لكنه يطلب الحكمة ليزداد علماً ويقيناً ﴿قال أولم تؤمن ؟! قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ (البقرة ــ ٢٦٠) .

وليس الأمر هنا محاباة جنس على حساب جنس آخر . وإنما هو توازن وعدل بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى في التكوين العائلي . فالإسلام قد راعى فطرة المرأة وطبيعة

وظيفتها التي تتطلب منها التفرغ لصناعة الإنسان وتربيته . فكلف الرجل بالإنفاق عليها حتى ولو كانت ذات مال . ولقد ذكر السباعي ــ رحمه الله ــ في كتابه (المرأة بين الفقه والقانون) مثلاً ضربه لطلابه في الجامعة حول هذه القسمة : توفي رجل وله ابن وابنة فورثاه . فأما ميراث الفتاة فإنه إما أن يظل على حاله أو ينمو ويزداد بالاستثمار والمهر . وأما نصيب الشاب فإنه سيذهب حتماً بدفع المهر وتأثيث البيت والإنفاق على من يعول ، (وسينفق على أخته حتى تتزوج) . ثم سأل طلابه : فهل ظلم الإسلام المرأة في هذه القسمة وهل حابى عليها الرجل ؟ فأجاب الشباب : بل حابى الإسلام المرأة على حساب الرجل . وسكتت الفتيات ومنهن من اعترفت بأنه عدل . ورد في السنة أن امرأة سعد بن الربيع جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ولا تنكحان إلا ولهما مال . قال : « يقضي الله في ذلك » فنزلت آية الميراث فأرسل النبي ﷺ إليه ــ أي إلى العم ــ فقال : « أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقي فهو لك » (أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح) .

فميراث الأولاد تصنفه الآية هنا إلى ثلاث حالات :

١ ــ وجود أولاد ذكور وإناث : يتقاسمون التركة ؛ للذكر مثل حظ الأنثيين بعد إعطاء أبوي الميت وزوجته نصيبهم .

٢ ــ للميت بنات فقط اثنتان فما فوق : فلهن ثلثا ما ترك وتأخذ الزوجة والأبوين نصيبهم إن كانوا على قيد الحياة . والباقي لأقرب عاصب[1] .

٣ ــ للميت بنت واحدة : تأخذ نصف التركة . وتأخذ الزوجة والأبوين نصيبهم . والباقي لأقرب عاصب .

كذلك تذكر الآية ثلاث حالات لميراث الأبوين :

١ ــ أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس .

---

١ ــ العاصب هو أقرب رجل إلى الميت : الأب .. وإلا فالأخ ..

٢ ـــ أن لا يكون للميت ولد ولا إخوة وينفرد الأبوان بالتركة فتأخذ الأم الثلث والباقي للأب . فإن كان له زوجة فتأخذ الربع . وهنا لدينا رأيان :

١ً ـــ يقتسم الوالدان الباقي فتأخذ الأم الثلث والأب الثلثين .

٢ً ـــ أو تأخذ الأم الثلث من التركة كلها والزوجة الربع . والباقي للأب .

أما إن كان الميت امرأة لها زوج وأبوان . فيأخذ الزوج نصف التركة . والباقي تأخذ الأم ثلثه وللأب الثلثان .

٣ً ـــ اجتماع الأبوين مع إخوة للميت سواء من الأبوين أو من الأب أو من الأم . فإن الإخوة لا يرثون في وجود الوالدين ولكن وجود الإخوة يغير حصة الأم فتعود إلى السدس . ويأخذ الزوج أو الزوجة نصيبه ويأخذ الأب الباقي .

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ .

فيجب تصفية الدين وإنفاذ الوصية قبل القسمة . والدين مقدم على كل شيء لأنه يتعلق بحقوق الآخرين . وقد أجاب رسول الله ﷺ من سأله : أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي ؟ قال : « نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر » .. ثم قال ﷺ « كيف قلت » ؟ فأعاد عليه فقال ﷺ : « نعم إلا الدين فإن جبريل أخبرني بذلك » (رواه مسلم) .

وأما الوصية فتأتي بعد الدين في الأداء ، لكن الآية قدمت ذكرها على الدين حتى لا يستهان بها فهي آخر رغبة للإنسان في هذه الحياة الدنيا . ويشترط فيها :

١ً ـــ أن لا تكون لوارث : « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث » (رواه البخاري) .

٢ً ـــ لا وصية في غير الثلث : كما يدل على ذلك حديث عيادة النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص وقوله : لا يرثني إلا ابنة لي فهل أوصي بالثلثين ؟.. إلى أن قال له النبي ﷺ : « الثلث والثلث كثير » (رواه مسلم) . ولذا قال ابن عباس : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع لأن الرسول ﷺ قال : « الثلث والثلث كثير » .

ويعقب على الآية بثلاث إشارات هامة :

١ ــ ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ .

ولو ترك الأمر للإنسان لانساق وراء عاطفته وفضل أحد الطرفين وحرم الآخر . ونظر الإنسان قصير حاسر عن رؤية عالم الغيب . فهو عاجز عن تحديد كثير من المصالح والمنافع . وقسمة الله أفضل وأعدل .

٢ ــ ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ .

فليس الأمر مجرد نصيحة أو وصية وإنما هو فريضة من الله رب العالمين .

٣ ــ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

لتطييب النفوس والتحذير من الانسياق وراء العاطفة . فان الله أعلم وقد قسم ووزع عن حكمة . والحكمة هي وضع الأمور في أماكنها .

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ .. ﴾ .

تحدد الآية ميراث الزوج في حالتين :

١ ــ الزوجة المتوفاة ليس لها أولاد : فللزوج النصف ، ويأخذ الأبوان حصتهما إن وجدا ، والباقي لأقرب عاصب (الأب وإلا فالإخوة) .

٢ ــ الزوجة لها أولاد منه أو من غيره (أو أحفاد) فللزوج الربع .. ويأخذ الأبوان حصتهما .. ويتقاسم الأولاد الباقي (للذكر ضِعف الأنثى) .

﴿ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ﴾

وأما ميراث الزوجة فله حالتان أيضاً :

١ ــ الزوج المتوفى ليس له أولاد فتأخذ الزوجة الربع .

٢ ــ الزوج المتوفى له أولاد منها أو من غيرها (أو أحفاد) فللزوجة الثمن .

وذلك بعد أداء الدين وتنفيذ الوصية . مع ملاحظة أن الزوجتين والثلاث والأربع كلهن شريكات في الربع أو الثمن .

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ..﴾ .

الكلالة : من يرث الميت من حواشيه لا من أصوله ولا من فروعه .. وقد سئل أبو بكر عن الكلالة ؟ فقال : أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه . الكلالة : من لا ولد له ولا والد . وقد أجمع العلماء على ذلك .

وميراث الكلالة هنا للإخوة من الأم .. أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث بالتساوي بين الذكر والأنثى .

وعلى هذا نجد أن الإخوة لأم يخالفون بقية الورثة من ثلاث نواح :

١ ــ ذكورهم وإناثهم سواء في الميراث .
٢ ــ لا يرثون إلا إذا كان ميتهم يورث كلالة .
٣ ــ لا يزاد لهم أكثر من الثلث ولو كثروا .

أما ميراث الإخوة لأب أو من الأبوين فسيأتي حكمهم في آخر آية من السورة .. ويعود إلى التأكيد ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ .

﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ :فشرط الوصية أن لا تؤدي إلى ضرر بالفرد أو الجماعة .. بالورثة أو غيرهم .. ولهذا يجب أن نذكر هنا ما جاء في سورة البقرة عن الوصية :

﴿فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه . إن الله غفور رحيم﴾ (البقرة ــ ١٨٢) . فمن الأفضل هنا تغيير الوصية أو إلغاؤها إن كان فيها إثم أو دعم للبدع كي نرفع الضرر عن الفرد والمجتمع .. فإن أوصى بمال للدجالين أو للذين يقومون بحلقات ذكر على روح الميت فيمكن أن يغير هذا ويعطى ما أوصى به للفقراء أو طلبة العلم أو للورثة أنفسهم.

﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ .

وتأمل موضوع الميراث في الآيات يرينا إلى أي مدى نحن بحاجة إلى التقوى ومعرفة الصواب . فلقد بدأت السورة بالأمر بالتقوى .. وهنا يقول: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ وهذا يحتاج إلى إعمال الفكر في المنافع والمضار .. وإدراك للمواضع التي يجب أن تحترم فيها الوصية والمواضع التي يجب فيها أن تغير .

وقد بدأت آيات الميراث بـ : ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ وانتهت بقوله : ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ . وعلى قدر محبتك وإعزازك لمن يوصيك تتبع وصيته .

وفي آية الميراث الأولى عقب بقوله : ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ . وفي الثانية قال : ﴿عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعجل بالعقوبة فيما إذا أخطأت في هذا الموضوع ثم رجعت فإنك تجد الله حليماً .. وعندما يعلم الإنسان أن ربه حليم فإنه يسارع إلى التوبة من خطئه ..

ثم يأتي التعقيب الشامل على الميراث : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ . فهذه الفرائض هي حدود رسمها الله فلا تتجاوزوها .

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .. ﴾ .

جاء في الحديث : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى وحافَ في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » . ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ..﴾ (ذكره ابن كثير عند تفسير الآية) .

إن طاعة الله في هذه القسمة يترتب عليها الفوز بالجنة ، ومعصيته فيها تدخل النار (فيمكث فيها بمقدار معصيته) . وما ذلك إلا لأن الطاعة لله ولو بأمر جزئي هي دليل على الإيمان والتسليم . وأما المعصية فهي دليل على الشك في علم الله وعدله وحسابه في الآخرة . وإن المؤمن الموحد هو الذي يؤمن بالله رباً خالقاً وحاكماً للبشر ومجيباً للدعاء . وإن معنى العبادة : الطاعة ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾

إسلام فسرها القرآن بموقف إبراهيم وإسماعيل عند الأمر بالذبح : ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ (الصافات ــ ١٠٣) . وكلمة إيمان بينتها الآيات : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ (النساء ــ ٦٥) .

لكن الصحابة تميزوا عنا بالفهم السليم والامتثال فاستقبلوا الأحكام بالتنفيذ ولم يفرقوا في الطاعة بين الأسس والفروع .. جاء الأمر بتحويل القبلة فما إن مر رجل على جماعة يصلون وقال لهم : (أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ آنفاً تجاه الكعبة) حتى تحول الناس أثناء صلاتهم واتجهوا نحو الكعبة . وخرج منادي رسول الله ﷺ على الناس يتلو آية تحريم الخمر فأراق المسلمون ما عندهم منها وكسروا دنانها .. بل ومجوا جرعة الخمر التي كانت في أفواههم .

وقد تقول المرأة المعاصرة حين نذكر لها مسارعة تطبيق نساء الأنصار لحكم الحجاب حين نزل حتى أنهن شققن مروطهن والتحفن بها : لم يكن الرجال يعارضونهن مثل الآن .. وقد تقول أخرى : حتى يلتزم الرجال بدينهم أولاً .. !!

فهل نسيتن أم سليم وأم حبيبة وسمية وزنيرة ..؟!
وهل سنبقى ننتظر حتى يبدأ الآخرون وتنتهي العوائق ..؟!
إن هذا ما يضيع علينا الفرص ويجعلنا نخسر أنفسنا ..

بعض ميزات نظام الإرث الإسلامي

١ ـــ جاءت الأحكام محاطة بالتقوى لتغرس في الضمير مباشرة ، خلافاً لما تأتي عليه الأحكام في كتب القانون جافة معقدة .

٢ ـــ التقسيم فيه مراعاة لمعنى التكافل العائلي . وتتناسب حصة كل فرد مع ما فرض عليه من واجبات .

٣ ـــ يراعي مبدأ نشأة الناس من أصل واحد فيقرر حق الميراث للرجال والنساء والصغار بالعدل .

٤ ـــ يتمشى مع فطرة الإنسان الذي يجب أن تعود ثمرة جهوده على أولاده ثم عائلته بالفائدة .

٥ ـــ يفتت الثروة المتجمعة فلا تبقى محصورة بأيدٍ قليلة .

الفَصْل الثَالِث

جَزَاء الفَوَاحِش

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ

بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ
بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا
غَلِيظًا

القرآن كتاب الحياة ينتقل معنا من حادث وفاة وجلسة تقسيم للميراث إلى مشاكل أخلاقية تحدث في المجتمع وكيف تعالج .

أولاً ــ جزاء مرتكب الفاحشة

آ ــ عقوبة أولى للفاحشة :

﴿ وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ .. ﴾ .

الموضوع يتعلق بالغرائز .. وبعض النظم تعتبر الغرائز دنساً ورجساً وتطالب الإنسان بالتنزه عنها ، وهذا إفراط وتضييق لا يلائم الإنسان . وبعضها الآخر يطلق الحرية الكاملة للإنسان في إشباع غرائزه دون قيد . وهذا تفريط يهدر كرامة الإنسان ويحط من مكانته إلى مستوى الحيوان ، ويؤدي إلى الفوضى والدمار ، وهذا ما يحدث في الجاهلية المعاصرة حيث ينادي العقلاء في الشرق والغرب لرد الأمة إلى صوابها وتنبيهها إلى الخطر الذي ينتظرها .. فالإنسان هو أول أساس من أسس الحضارة ؛ ومتى دمر الإنسان فلن تقوم الحضارة على المصانع وحدها . أما الإسلام دين الأمة الوسط فإنه يرفض الانحرافين .

ويمكن التعبير بأسلوب آخر : لا بد لكل مجتمع من قانون يحكمه أي : محرمات وواجبات ــ ولو كان مجتمعاً قبلياً فإن تقاليد القبيلة تمثل هذا القانون ــ وهذا ما علمه الله لآدم حين أسكنه الجنة فقال : ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ (البقرة ــ ٣٥) . فلا يمكن أن تستقيم للناس حياة بدون (شجرة محرمة) . والقوانين تختلف من حيث المصدر ، فمنها إلهية ــ أي أديان ــ ومنها بشرية ــ أي مذاهب ومبادىء ــ ولا شك بأنها تختلف أيضاً من حيث الصلاحية . فأصلحها هو الذي لا يكبت ولايُفلّت وإنما ينظم . ويمكن تشبيه الأمر بعملية شد الأوتار للآلة الموسيقية . إذ

لا يمكن للعازف أن يعزف لحناً متناسقاً مالم يضبط أولاً شد الأوتار .. ولو شد كثيراً لانقطع الوتر .. ولو رخى لخرج النغم نشازاً .

وهذا ما قصده مالك بن نبي حين وضع معادلات اجتماعية ثلاث في أحد كتبه :

كبت الطاقة ← تجميد المجتمع .
إطلاق الطاقة ← تدمير المجتمع .
تنظيم الطاقة ← نمو المجتمع .

ومصطلح الطاقة يعني به الغريزة .

فالإسلام أشبع الغرائز بشكل منظم مشروع يكفل استقرار الفرد ونظافة المجتمع وأمنه . فكيف عالج الإسلام فوضى الجاهلية . ؟!

١ً ــ في مكة : بدأ بالنهي عن الفواحش بتوجيهات : ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ (الإسراء ــ ٣٢) . . وبالترغيب للمؤمنين بالتنزه عنها اتصافاً بصفات المؤمنين ؛ كما نرى مثلاً في سورة المؤمنون والمعارج .

٢ً ــ في المدينة : كان الضمير المؤمن قد ربي على طاعة ربه والتنزه عن الفواحش ، وقد صارت للإسلام دولة في المدينة سدت الطرق والوسائل التي قد تؤدي إلى الفاحشة ، وأضاف إلى التوجيهات أنه سنَّ عقوبات رادعة لعلاج النفوس المنحرفة حتى لا تضر بالمجتمع ؛ كالعملية الجراحية تستأصل العضو الفاسد حرصاً على سلامة الجسد كله .

وبذلك كان الإسلام واقعياً في علاجه وإعادة تنظيمه لحركة الغرائز . فلم يكتف بالتوجيه بل هيأ البيئة النظيفة التي تساعد على الطهارة ، ثم أدب وعاقب . والعقوبات كان فيها تدرج . فحدد عقوبة أولى .. ثم نسخها بعقوبة أشد لحسم الموضوع . ونحن أمام العقوبة الأولى في هذه الآية .

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡ ﴾ .

وينبغي أن نلاحظ دقة النص في التحديد ﴿**من نسائكم**﴾ فالحكم متعلق بالمسلمات . وكذلك الشهود : ﴿**أربعة منكم**﴾ من المسلمين ولا يجوز أن تقبل شهادة غير المسلمين في هذه القضية . وبعد ثبوت عمل الفاحشة بشهادة أربعة شهداء على المرأة الفاعلة ، يأتي الحكم بعزل النساء الفاحشات عن المجتمع وحبسهن في البيوت حتى لا ينشرن الفاحشة ويسببن العدوى في المجتمع .

﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ .

فكانت العقوبة الأولى هي الحبس في البيت حتى الموت . فلما نزلت آيات سورة النور : ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ (النور ــ ٢) . قال رسول الله ﷺ : « خذوا عني . خذوا عني . قد جعل الله لهن سبيلاً . البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » (رواه مسلم) .

والتطبيق العملي في السنّة أثبت الرجم للثيب.

ب ــ عقوبة الفاحشة الشاذة :

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ ۗ ﴾

قال مجاهد : نزلت في الرجلين إذا فعلا اللواط . وقالوا : إن المقصود في ﴿**آذوهما**﴾ هو الإيذاء بكل أنواعه : الشتم والتعيير والضرب بالنعال .. وعدلت هذه العقوبة أيضاً بقول رسول الله ﷺ : « من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » (رواه أهل السنن) .

﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ .

وكما قال رسول الله ﷺ للذين قالوا لمن أقيم عليه الحد في شرب الخمر : أخزاك الله .. قال لهم : « لا تقولوا هكذا .. لا تعينوا عليه الشيطان » (رواه البخاري وأبو داود) .

فالتوبة عملية تطهير نفسية لا تخلو من مشقة . بل يمكن أن نعتبرها أكبر معركة يخوضها الإنسان مع نفسه .. والنفس تتمرد وتستعلي وينفث فيها الشيطان أن الاعتراف

بالخطأ ذل .. فإذا انتصر الإنسان عليها وأقر بذنبه فقد حقق خطوة عظيمة في الارتقاء . ويجب أن تتبعها خطوات من الاستغفار والعمل الصالح حتى تتحرر النفس من آثار المعصية ومن الشعور بالتأثم . والله سبحانه وتعالى يعلم ما يعانيه الإنسان في هذا المجال فيفتح له الأبواب مرغباً متحبباً ، ويعلم الناس أن يقدروا ما يمر به التائب من صراع فيهيىء بذلك البيئة الخصبة التي تنمو فيها التوبة وتترعرع حتى يعود التائب عضواً جديداً نافعاً في مجتمعه كأنما ولد لتوه ..

هذه البيئة الخصبة شكلتها توجيهات القرآن والسنة بشكل فريد مما جعل الإسلام يبدو لمن يدرسه ويتأمله منهجاً واقعياً يفتح صدره حتى للعصاة ويأخذ بأيديهم ويرتقي بهم ويهبهم سكينة النفس حين تتحرر من ذنوبها .. « التائب من الذنب كمن لا ذنب له »[1] . فالإنسان في الإسلام لا تثقل كاهله خطيئة آدم عليه السلام ، وليست الأبواب موصدة أمامه ، ولا يحتاج إلى راهب أو قسيس ليعترف له ويتوسط له عند الله .. وإنما يكفيه أن يندم على فعل المعصية ويقلع عنها ويعزم على أن لا يعود إليها أبداً . وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فعليه أن يضيف إلى ما سبق : أن يتحلل من حق صاحبها فيرد إليه مظلمته أو يمكنه من القصاص من نفسه .. وبهذا تتطهر نفس الإنسان وتتحرر من الشعور بالإثم .. ويغتسل الضمير بدموع الندم ليبدأ صفحة بيضاء نقية من جديد مع رب غفور رحيم ..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ .

إن الله الذي شرع العقوبة وأمر بها ، هو الذي يأمر بالكف عنها وإيقافها ليعطي الفرصة لعباده أن يبدؤوا من جديد .. فهو التواب الرحيم .. الذي يبسط يده بالليل والنهار يستقبل بها التائبين .. يفتح الأبواب لكل قارع في أي ساعة من ليل أو نهار ، فلا حاجب يطرد ولا عائق يمنع .. ولا يحتاج الأمر إلى موعد أو توسط مع أنه ملك الملوك لكن رحمته وسعت السموات والأرض .

ولكن ما نوع التوبة التي يفتح الله لها أبواب رحمته وقبوله ..؟!

---

١ ـــ قال السخاوي حديث حسن بمجموع طرقه وكذا قال الألباني .

ثانياً ــ التوبة المقبولة والمرفوضة

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾

هذه أوضح آية في موضوع التوبة وشروطها . فالتوبة المقبولة للذين يعملون السوء وليس السيئات .. وهم إنما يفعلون السوء وهم في حالة جهالة .. وليسوا متعمدين معتادين على السيئات مؤجلين للتوبة . بل إنهم يتوبون من قريب مسرعين إلى ربهم في طلب المغفرة والتطهر . فالشروط هنا ثلاثة :

١ ــ قلة الذنوب. مثل قوله تعالى: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللمم﴾[1].

٢ ــ الجهالة عند ارتكاب الذنب .

٣ ــ التعجيل بالتوبة بعد كل ذنب ، وعدم تأخير ذلك إلى حضور الموت . « إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (رواه الترمذي) .

فما معنى الجهالة .. ؟

الجهالة : حالة تجعل الإنسان ينسى العواقب أو يجهلها . فإذا كان يجهل العواقب فهي حالة جهل واضحة . أما حالة نسيان العواقب فيمكن أن نضرب لها مثلاً بالغاضب كيف يسيطر عليه الغضب فيسلك سلوكاً دون أن يتبصر بالعواقب ، أي أن الإنسان يسلم قياده في تلك اللحظة للجانب الانفعالي وكأنه قد فقد وعيه وتنحى عنه عقله .. وكما قال أحدهم : (تكلم وأنت غاضب فإنك ستقول أعظم حديث تندم عليه طيلة حياتك) .

ولهذا جاءت وصية رسول الله ﷺ لمن استوصاه : « لا تغضب » (رواه البخاري) . فهل يمكن للإنسان أن يتدرب على ترك الغضب ..؟ وهل يمكن للإنسان

---

١ ــ سورة النجم: الآية ٣٢.

أن يتحرر من سلطان الانفعالات ليتخلص من حالة الجهالة ..؟[1]

إن رفع مستوى العلم والوعي عند الإنسان يبصره بالعواقب الوخيمة ويحرره من الاستسلام لسلطان الانفعال ، لأنه يلمس أنه في الوقت الذي يطلق فيه الزمام لنفسه ليشفي غليله ويروي غضبه .. يرتكب من الحماقات ويقطع من الصلات والروابط ما قد **يعجز عن إصلاحه طيلة حياته. وبلوغ هذا المستوى من التبصر ليس سهلاً فلقد شهد رسول الله ﷺ لمن وصل إلى ذلك بأنه هو القوي لأنه قهر ثورة نفسه. فالشديد هو: «الذي يملك نفسه عند الغضب» (رواه مسلم).**

والأمر ليس سهلاً ولا مستحيلاً .. بل يمكن تدريب النفس عليه : « إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم » . حتى يصل الإنسان إلى مستوى عباد الرحمن الذين وصفهم الله بقوله : ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ .. لا كما قال الجاهلي مفتخراً : فنجهل فوق جهل الجاهلينا .. وهذا ما يبين الفرق بين الجاهلي والرباني الذي دربه القرآن على السلوك العلمي البعيد عن الانفعال .

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

وإنما ذكر هنا توبة الكفار في الآخرة عندما يقولون في جهنم : ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ (المؤمنون ــ ١٠٧) .

ولنا أن نلاحظ اختلاف التعقيب في الآيات الثلاث : ففي الأولى يرغب في التوبة فيقول : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ .

وفي الثانية عندما يتحدث عن التوبة المقبولة يقول : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ؛ يعلم التائب الحقيقي من المتلاعب . وحكيم يضع العفو في مكانه .

وفي الثالثة عندما يتحدث عن الذين يتلاعبون بالتوبة يقول : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

---

١ ــ يمكن أن نلمس مدلول الجهالة عند العرب واستعمالهم لها مرادفة للغضب في قول الشاعر مثلاً :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ثالثاً ـــ النهي عن ظلم النساء

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ .

يبدأ الوصية بنداء : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ . فإن كنت مؤمناً فاسمع ما يريد الله منك ..

ورد في نزول الآية أنهم : « كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها . وإن شاؤوا زوجوها وإن شاؤوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها » (رواه البخاري) .

وروي عن الزهري : أنها نزلت في الرجل يحبس المرأة عنده لا حاجة له بها وينتظر موتها حتى يرثها .

﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ .

والعضل : هو المنع والتضييق والشدة . ومنه الداء العضال .

﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ .

فلا يجوز التضييق عليها لاسترداد بعض ما أعطاها ، أو مضايقتها حتى تفتدي نفسها بالتنازل عن مهرها .. إلا في حالة ارتكابها لفاحشة مبينة واضحة وليس لمجرد سوء ظن أو شبهة أو بعض هفوات لا يخلو منها أحد ..

قال ابن عباس وقتادة والضحاك : هي النشوز وسوء الخلق . وقال الحسن : هي الزنا . والصواب عدم تعيينها لتشمل جميع الأعمال الممقوتة .

﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ ــ وذلك قبل نزول حد الزنا في سورة النور ــ فليس من العدل أن يغرم الرجل في ماله وقد طعن في عرضه . والمتأمل للآية يرى حرص

الإسلام على العدل مع الرجل والمرأة على حد سواء ، فإذا خرجت المرأة عن جادة الصواب فليس من القسوة أن يضيق عليها الرجل .

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ .

المعروف الذي تعرفه وتألفه طباعهن ولا يستنكر شرعاً ولا عرفاً ولا مروءة . وكلمة المعاشرة فيها معنى المشاركة .. وهي تدل على أن يكون كل منهما مدعاة سرور الآخر وسبب هنائه في معيشته . ويدخل في المعروف ما يليق به وبها بحسب حالتهما ومركزهما الاجتماعي من حيث الإنفاق المادي وأسلوب التخاطب والتعايش .

﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

يقول صاحب المنار : إن كرهتموهن لعيب في الخَلْق أو الخلق مما لا يعد ذنباً كبيراً كالتقصير في عمل البيت .. مما لا يخلو منه رجل أو امرأة فيأمر الله بالصبر لأن الصبر قد يجعل الله فيه خيراً كثيراً . وكما جاء في الحديث : « لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر »[1] .

﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا .. ﴾ .

ولم يقل امرأة .. إنه يعمم الأمر ويفيد من الأحداث فيستخرج من حادثة بيتية قاعدة عامة نحتاج إليها في سائر شؤون الحياة ..

كيف يكون فيما تكره خير ..؟!

بالنسبة للزوجة قد يكون في أولادها أو بأن ينصلح عيبها نتيجة صبره عليها . وقد تخدمه في آخر العمر وتصبر عليه كما صبر عليها .

وفي أمور أخرى .. الإنسان يكره الصبر وكظم الغضب ولكن فيه كل الخير .. كذلك حين تحدث عن القتال : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ (البقرة ــ ٢١٦) .

---

١ ــ انظر تفسير المنار لرشيد رضا .

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ .

ففي حالة الرغبة في طلاقها لا يحل له أن يسترد مما أعطاها شيئاً . .

وقوله: قنطاراً، لا يفهم منه استحباب ضخامة المهور لأن سنة النبي ﷺ وأقواله أكدت على التساهل والتخفيف في المهر . وإنما المراد حتى لو آتيتموهن قنطاراً فلا تأخذوا منه .. وقد يكون إيتاء القنطار بوجوه متعددة كالهدايا والمنح ..

﴿ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ؟!

استنكار وتشنيع لهذا السلوك . البهتان : هو الكذب الذي يبهت المكذوب عليه ويسكته متحيراً . لأن الرجل لما يريد استرداد ماله يفتري عليها بأنها قد فعلت وفعلت .. حتى يحكم له بالمهر أو شيء منه .. وهذا إثم مبين واضح .

ذكر بعضهم أن الآية منسوخة بالآية التي وردت في سورة البقرة : ﴿ فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ (البقرة ــ ٢٢٩) . لكن صرح المحققون بعدم النسخ في الموضعين وقالوا : إن المحرم هنا هو أخذ شيء من مال المرأة بغير طيب نفس منها ــ أي عضلها حتى تدفع أو تتنازل له ــ أما المباح في آية البقرة فهو الخلع .. وهو ما افتدت به نفسها برضاها لرغبتها هي في الطلاق .

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ .

كيف وقد خلصتم ووصلتم إليهن ذلك الخلوص الخاص بالزوجين الذي يتحقق به معنى الزوجية فيلابس كل منهما الآخر حتى كأنهما حقيقة واحدة . وليس القصد هو العلاقة الجنسية وحدها لأنها تحصل بالزنا أيضاً ولا تسمى إفضاء ..

﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ .

روي عن قتادة أن الميثاق الغليظ : ما أخذ الله للنساء على الرجال بقوله : ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ (البقرة ــ ٢٢٩) . وقال آخرون : هو ما أمر الله به من معاشرتهن بالمعروف . وصاحب المنار يقول : هو ميثاق الفطرة . فإن المرأة لا

تقدم على الزوجية وترضى بأن تترك جميع أنصارها لأجل زوجها إلا وهي واثقة بأن تكون صلتها به هي أقوى من كل صلة وعيشتها معه أهنأ من أي عيشة . وهذا ميثاق فطري من أغلظ المواثيق . وإنما يفقه هذا المعنى الإنسان الذي يحس إحساس الإنسان . فهو ميثاق مركوز في أعماقنا ..

هذه الوصايا الربانية بالمرأة وإنصافها توحي لنا بما كانت تعانيه المرأة من ظلم وخسف في الجاهلية .. صحيح أن بعض القبائل العربية كانت تكرم المرأة وتعتبر ظلمها وإيذاءها عاراً ... ولكن الغالبية كانت تهين المرأة وتظلمها ..

ـــ فإذا ولدت كان التشاؤم منها : ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ (النحل ـــ ٥٨) .

ـــ وشاع عندهم وأد البنات حتى وأد قيس بن عاصم (١٢ أو ١٣) بنتاً .

ـــ وكانت تتعرض للسبي والاسترقاق .

ـــ وكانت تورث كالمتاع إذا مات عنها زوجها .

ـــ وكانت تحرم من الإرث والمهر . ويدل على ذلك الرواسب التي بقيت حتى ما بعد الإسلام والتي نراها في قصة غيلان بن سلمة وكان له عشرة نسوة فقال له النبي ﷺ : « اختر منهن أربعاً » .. وفي عهد عمر طلق غيلان نساءه ووزع أمواله على ولده . فأرسل إليه عمر (وأيم الله لتراجعن نساءك ولترجعن في مالك أو لأورثنهن منك ولآمرن بقبرك فيرجم كما يرجم قبر أبي رغال) . وذلك لأن عمر أحس أن الرجل يريد حرمانهن من الميراث .

فلما جاء الإسلام قرر في النفوس أن المرأة والرجل من أصل واحد وحرم الوأد والسبي وحرم اغتصاب المرأة وميراثها وحرم عضلها وأمر بالعدل والمعاشرة بالمعروف « ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم »[1] . وسنَّ لها تشريعات مفصلة في الإرث والزواج والطلاق تضمن لها الحياة الآمنة العادلة . فإما معاشرة بالمعروف أو تسريح بإحسان .

---

١ ـــ مذكور في فقه السنة عند الحقوق غير المادية في الزواج .

وجعل للأم هذه المكانة المرموقة وأمر ببرها كما لم يأمر بذلك أي نظام آخر .. كذلك ساوى بين الرجل والمرأة في العبادات والعقوبات والتكاليف مع مراعاة اختلاف الوظائف بينهما .

ولنا أن نذكر بعض الأمثلة التي تدل على تمتع المرأة بحقوقها بعد الإسلام ..

○ جاءت فتاة للنبي ﷺ فقالت : إن أبي زوجني ابن أخيه . فجعل الرسول ﷺ الأمر إليها . فقالت : قد أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء . (رواه ابن ماجه ورجاله رجال الصحيح) .

○ كذلك حين شفع النبي ﷺ لمغيث عند بريرة كي ترجع إليه فقالت : لا حاجة لي فيه . (رواه البخاري)

○ وفي صلح الحديبية أشارت أم سلمة على رسول الله ﷺ أن يخرج فلا يكلم أحداً حتى يحلق ويتحلل ــ وذلك عندما تلكأ المسلمون في التحلل تنفيذاً لبنود الصلح ــ فسمع مشورتها ونفذها .

○ وحديث عمر رضي الله عنه يدل دلالة واضحة على التغير الذي حصل في نفسية الرجل والمرأة بعد الإسلام فيما يتعلق بمكانة المرأة .. يقول : (والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم . فبينا أنا في أمر آتمره إذ قالت لي امرأتي : لو صنعت كذا وكذا . فقلت لها : ومالك أنت ولما هنا ؟ وما تكلفك في أمر أريده ؟ فقالت لي : عجباً لك يا بن الخطاب ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟! .. فيدخل على حفصة قائلاً : يا بنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان .. ؟! فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه) .

○ وهذه أم هانىء تجير يوم فتح مكة اثنين من الذين أمر الرسول ﷺ بقتلهم ــ من أحمائها ــ فيقول لها ﷺ : « قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء وأمّنا من أمّنت » (صحيح الجامع الصغير ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني) .

أما الآن وبعد أن تخلف عالمنا الإسلامي وتراجع عن قيم الإسلام ، فإن مكانة المرأة عادت القهقرى ، وباتت النظرة الحالية للمرأة قريبة من النظرة الجاهلية ، فإنما هي للتمتع وحفظ النوع . ولهذا لا بد من تغيير نفسية الأب والأخ والزوج في هذا المجال ، بل لا بد من تغيير نفسية المرأة ذاتها وما تحمله من مفاهيم عن دورها .. وكما جاء القرآن فغير الثقافة الجاهلية وأحدث انقلاباً مفاهيمياً في النفوس ، فعلينا أن نعيد التفاعل بين القرآن والإنسان لتجديد هذا الانقلاب المفاهيمي . ففي الوقت الذي يشترك فيه الإنسان مع سائر الحيوانات بغرائز تساعده على حفظ الجسم وبقاء النوع .. فإنه يتفرد عن سائر الكائنات بما يحمل من دوافع وطموح إلى ترقية النوع .. وكرامة الإنسان وتفرده لا تتحقق إلا باستمرار السعي في مجال ترقية النوع .. وللمرأة دورها الجليل في هذا المجال .. فهي مصنع الأجيال ، وينبغي أن ينظر إليها من خلال دورها الخطير كمشرفة أولى على عملية ترقية النوع ..

ولا بد أن نشير ونحن نتحدث عن حقوق المرأة إلى قضية هامة وحساسة في بناء الحضارة وهي أن البداية تكون من أداء الواجب ولا تجدي المطالبة بالحقوق شيئاً .. وأداء الواجب هو الطريق للوصول إلى الحقوق . ففي الوقت الذي أعطى الإسلام فيه للمرأة كل هذه المكانة قد كلفها بواجبات جليلة يترتب عليها استقرار المجتمع وهناؤه .. ولقد لخص رسول الله ﷺ هذه الواجبات بكلمتين حين قال لأسماء بنت يزيد التي جاءت تسأل عن هذا الموضوع : « إنّ حُسْنَ تبعّل إحداكن لزوجها .. يعدل كل ما ذكرت للرجال .. »[1] . فهي المسؤولة عن تنسيق الخلية الأولى في المجتمع وهي الأسرة .. وإقامة بنائها على التقوى والإحسان في المعاملة .. هي التي ينبغي أن تدفع الأجيال إلى حياة أفضل .. وكم سمعنا ما قاله العلماء من أن الإسلام لم يوجب على المرأة الخدمات المنزلية .. وإنما أوجب عليها طاعة الله ورسوله وطاعة زوجها بالمعروف وحسن الإشراف على أولاده وعياله ..[2] وأوجب عليها طلب العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله .. ولكن في مجتمعنا المتخلف تصبح الأمور مقلوبة رأساً على عقب ..

---

١ ــ ذكر هذا الحديث من أوله في كتاب الإصابة ، الجزء الأخير عند ترجمة أسماء بنت يزيد .

٢ ــ بدليل الحديث : « والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها » .

فالمرأة الآن تقضي عمرها بالاهتمام بما لم يفرض عليها وتهمل ما هو مفروض عليها . فهي ترمي أولادها في الأزقة يلعبون ويتعلمون المفاسد .. وتنشغل في التفنن بألوان الطعام وتزيين البيت وإعداد الملابس وتصفيف الشعر ومتابعة تقاليع الماكياج .. وباختصار إنها لا تعرف لنفسها دوراً سوى الخدمة والإغراء وإنجاب الأطفال ..

أين منا المرأة المسلمة الأولى التي شاركت في كل المجالات وكانت تعتبر هذه المشاركة من صميم واجبها ..

○ **ففي ميدان الإيمان كانت خديجة رضي الله عنها أول من دخل في الإسلام. وفي ميدان الجهاد كانت سمية أول من استشهد في سبيل الله. . وفي** الهجرة إلى الحبشة هاجرت المرأة وصبرت .. وفي بيعة العقبة بايعت المرأة وشاركت .. وفي هجرة النبي ﷺ شاركت المرأة في شخص أسماء التي قامت بدور هام في هذا الحدث التاريخي مع كونها متزوجة وحامل .. وهاجرت بعد ذلك إلى المدينة مع المهاجرات حتى وضعت في مشارف المدينة (قباء) . وهاجرت أم سلمة بعد أن تفنن أهلها في حبسها والتضييق عليها وفرقوا بينها وبين زوجها وولدها ..

○ **وفي طلب العلم شاركت فكانت تحضر الجمعة وأُمِرَت بالخروج إلى صلاة** العيد : « ليشهَدْنَ الخير ودعوة المسلمين » (في الصحيحين من حديث أم عطية) . وتحضر مواعظ النبي ﷺ وتسأله حتى جاءت وافدة النساء إلى النبي ﷺ فقالت : أنا وافدة النساء إليك . إن الرجال ذهبوا بحديثك فهلا جعلت لنا يوماً تعلمنا فيه ديننا . فيقول لها رسول الله ﷺ : « اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا وكذا » فاجتمعن . فأتاهن ﷺ فعلمهن مما علمه الله (رواه البخاري) .

وحتى أن أبا موسى الأشعري بعد وفاة الرسول ﷺ يقول : (كنا أصحاب رسول الله ﷺ إذا أشكل علينا أمر سألنا عائشة) .

○ وفي الجهاد شاركت ــ برغم أنها لم تؤمر ــ فهذه أم حرام يزورها النبي ﷺ ويتكىء فينام ويصحو ضاحكاً فتسأله فيقول : « ناس من أمتي يركبون بثج البحر كأنهم الملوك على الأسرة يغزون في سبيل الله » فتقول : يا رسول الله ادعُ الله لي أن أكون معهم . فيقول : « أنت منهم » (رواه البخاري) . وتخرج بعد ذلك حتى تدفن في قبرص . فلِمَ لَمْ يقل لها النبي ﷺ : أنت امرأة فالزمي بيتك .. ؟!

وهذه عائشة وأم سليم ــ رضي الله عنهما ــ في أُحُد يسقين الجرحى ويقدمن الخدمات للجيش ، وهذه نسيبة تدافع عن النبي ﷺ في أُحُد بينما انهزم كثير من الرجال . وأم سُليم في حنين ثابتة قرب النبي ﷺ وقد فر الرجال . فهل هؤلاء أهملن واجبهن في الإشراف على الأسرة والمنزل .. ؟ أوَ لَمْ تكن لهن مسؤوليات بيتية .. ؟!

لو تتبعنا حياتهن لرأينا عجباً .. فهذه أسماء مثلاً .. كان زوجها فقيراً ولم يكن يملك سوى فرس ، وكانت أسماء تتولى العناية به ، فتجمع له النوى من طرق المدينة ثم تحمله إلى حيث تطحنها وتعود بها وقد رآها رسول الله ﷺ مرة مجهدة فنزل عن ناقته ودعاها إلى الركوب فرفضت لأنها ذكرت غيرة الزبير زوجها .. ولقد أنشأت أولاداً منهم : عبد الله ومصعب ــ ابنا الزبير ــ المعروفين بالبطولة والجرأة والثبات على الحق . وعروة بن الزبير العالم التقي الورع الذي قيل عنه : (من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة) . هذا هو الدور الذي فهمته المسلمة الأولى من قرآنها . وإن أكبر آفة نعاني منها الآن هي بعدنا عن القرآن حتى أن المرأة ما عادت تدرك واجبها ودورها الذي كلفت به . وأذكر أنني كنت أعرض على سيدة تعمل مدرسة للمرحلة الثانوية للبنات مقالاً انتقدَتْ فيه نازك الملائكة حالة المرأة العربية المتخلفة :

(... لقد تركت الشخصيات النسوية في كتاب ألف ليلة وليلة أنموذجاً سيئاً للمرأة العربية وهو أنموذج الجارية التي لا يهمها إلا لباسها ولا ترى في نفسها أكثر من متعة للرجل تعيش بغرائزها وعليها أن تكون جميلة وأن تسلي الرجل وتطهو له الطعام السائغ . وهذا النموذج ما زال المتحكم في حياة المرأة العربية ...) . فتساءلت السيدة : وما دورها إذن ؟

ولهذا شبه أحد المصلحين العالم الإسلامي بالرجل الذي يمشي برجل واحدة ، بينما رجله الأخرى مصابة بالشلل . وذلك لأن نساء العالم الإسلامي لا يشاركن في النهضة والبناء .

وليست حالة المرأة غير المسلمة في عصرنا بأفضل من هذا . بل إنها أكثر امتهاناً وأشد شقاء ..[1] وللباحث أن يستقصي ويتأمل في هذا المجال . ومن المؤسف أن المرأة

١ ــ ذكر الدكتور مصطفى السباعي في كتابه (المرأة بين الفقه والقانون) نماذج من بؤس المرأة الغربية .

المؤمنة يغرر بها الآن لتترك دورها الحضاري في تربية الجيل ورعاية الأسرة وتنزل إلى صناعة المادة بدعوى المساواة .. بينما يذكر الذين يدرسون أوضاع المجتمع العربي المتخلف أن للمرأة والأم بشكل خاص أكبر الأثر فيه حيث أنها تشرف على المرحلة الأولى الخطيرة من حياته والتي يتشرب فيها المفاهيم وقيم الحياة ويتلقى الأخلاق . ويحضرني ما كتبته إحدى الطالبات الواعيات حين طلب منها مرة أن تكتب موضوعاً عن المساواة ــ وطبعاً إن الناس الآن لا يفهمون المساواة بين الجنسين إلا بنزول المرأة إلى العمل المادي وميدان الحرب ــ فقالت : (إذا كان الرجل ينزل إلى المصانع ليصنع الأشياء ، وإلى المعارك ليصنع الموت ، فإن المرأة تصنع الحياة) .

ولقد لفت نظري ما نشرته مجلة حضارة الإسلام في عدد نيسان ١٩٨٠ بعنوان : هدايا الغرب . ذُكر فيه نموذج فريد من الصادرات التي تصدر للعالم العربي . ويقتبس فقرة من مجلة تصدر باللغة العربية في لندن جاء فيها :

(الغالبية من رؤساء حكومات المستقبل والأمراء والدبلوماسيين ورجال الإدارة وأقطاب رجال الأعمال تسهر على طفولتهم وتنشئتهم مربيات ..) . وقد أصبح تصدير المربيات : (من أهم الصادرات البريطانية في السنوات الأخيرة وأسرعها نمواً وخاصة ما يصدر منه إلى العديد من دول الشرق الأوسط وخاصة دول الخليج العربي) . ويقول صاحب المقال :

(وينبغي أن يرفع الرأس هنا عالياً .. هدية من طراز عالٍ .. لأن اليد التي تؤرجح المهد تحكم العالم .. فالمربيات البريطانيات يعلِّمن من ذكرتهم سابقاً حضارة هذه الأمة وتاريخها وهدفها ؟! وقد حدث مؤخراً أن طلب أحد كبار رجال الأعمال العرب مربية تؤهل لما يعتبر أكبر راتب لمربية في العالم لتشرف على ابنه البالغ من العمر خمس سنوات . وقال ممثله : الراتب ١٥٠ جنيهاً استرلينياً في الأسبوع ..!! هذه مشكلة واحدة يفكر البريطانيون في التغلب عليها ، إذ أنهم لم يعودوا يرون توافر هذا النوع من المربيات . وإن كلية نورلاند التي تهتم بإخراجهن في دورات لم تستطع تحضير العدد الضخم من المطلوب لتقديمهن هدايا إلى بلاد السحر والعجائب .. بلاد الشرق الأوسط .. يا أمة ضحكت من جهلها أمم ..!!!) .

هذه فضيحة من فضائح العالم الإسلامي .. ونزعم أن الفقر هو مرضنا .. ؟!

ففي الوقت الذي شعر فيه الأمراء والمترفون بأهمية تربية أطفالهم .. صاروا يبذلون المال رخيصاً للمربيات الأجنبيات يصنعن جيلاً مقلداً ضائع الشخصية .. فأين المرأة المؤمنة ..؟! وكيف تسمح بهذا ..؟!

وفي المقابل فإن باقي الأمهات في العالم الإسلامي يتركن أولادهن للمصادفات وللأزقة وللقدر (بزعمهن).. ويتبعن الأسلوب التقليدي الذي لم ينتج إلا جيلاً أنانياً يحمل في نفسه الغرام السقيم لمنطق القوة. فهو إما مستكبر أو مستضعف. ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة..﴾ (التحريم ــ ٦).

نحن لا نشعر بمسؤوليتنا التاريخية ولا نتقي الله في أولادنا ..

كلنا يريد مستقبلاً أفضل .. ويخطط .. وقد يظن أن هذا يحدث بثورات مسلحة .. أو بأعمال كبيرة .. لكن خمائر المستقبل بين يديك يا أختي المؤمنة .. فهل تشعرين بخطورة الدور اليومي الذي تؤدينه أو تهملينه ..؟! ولو شعرنا بخطورة دورنا لطلبنا العلم الكافي لإحسان تربية أولادنا ..



الفَصْل الرَّابِع

المحرَّمَاتُ مِنَ النِّسَاء

﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ
ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ
ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ
مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾
۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ
كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟
بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ
مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ

ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن
فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ
بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ
أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ
مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ
ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
(٢٥) يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٢٦)
وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا (٢٧) يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ
عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا (٢٨)

أولاً ــ المحرمات

آ ــ زوجة الأب :

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ .. ﴾ .

والنكاح : هو العقد وما وراءه . وقد بدأ بتحريم هذا النوع في آية خاصة لكثرة تفشيه في الجاهلية وللإشعار بمدى فظاعته . وعقب على ذلك :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ .

بينما قال عن الزنا : ﴿إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ (الاسراء ــ ٣٢) . فالزواج من زوجة الأب أفظع من الزنا . ومعنى كلمة ﴿ **مقتاً** ﴾ أنه يؤدي إلى مقت الابن لأبيه بعد الزواج من امرأته . وقد كانوا يسمون هذا النكاح في الجاهلية نكاح المقت والولد منه مقيتاً . وهذه إحدى الحكم من تحريم الزواج من أمهات المؤمنين . لأن الإنسان لا يكون مؤمناً حتى يكون الرسول أحب إليه حتى من نفسه . وعقوبة من يفعل ذلك : القتل ومصادرة المال .

﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ .

أي قبل نزول الحكم .. وكان عليهم أن يفارقوهن بعد نزول التحريم .

ب ــ المحرمات من النسب : وعددهن سبع :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ .

جـ ـ المحرمات من الرضاع : وعددهن سبع أيضاً :

﴿ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ .. ﴾ .

يقول ﷺ : « يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب » (رواه مسلم) . لكن اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة :

١ ــ فالإمام مالك يقول : يحرِّم مجرد الرضاع لعموم الآية .

٢ ــ والإمام أحمد يقول : لا يحرم أقل من ثلاث رضعات . استناداً إلى حديث : « لا تحرم المصة والمصتان » (رواه مسلم) .

٣ ــ والشافعي يقول : لا يحرم أقل من خمس رضعات . استناداً إلى حديث عائشة في صحيح مسلم أن ذلك كان في القرآن ثم نسخ .

لكن الرضعة الواحدة المشبعة تمتصها الأمعاء وينبت بها اللحم . ورسول الله ﷺ يشترط للتحريم ري الأمعاء وشبعها : « لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء » (الحديث روته أم سلمة وصححه الترمذي) . فلنا أن نتحرج من الرضعة الواحدة المشبعة ــ لأنها لا تعتبر مصة ولا مصتان وإنما وجبة كاملة ــ ونعتبرها موجبة للتحريم . والله أعلم .

وجمهور العلماء على أن الرضاعة يجب أن تكون في سن ما قبل الحولين . وحديث أم سلمة الذي صححه الترمذي : « لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام » . فسروا (في الثدي) : أي في زمنه وهو سن الرضاعة . وقد يكون القصد رضاعة من الثدي لا أن يكون شربها من إناء . وقوله : (قبل الفطام) لم يحدد سنتين وإنما المهم أن هذا الذي رضع لم يفطم بعد .

وبعضهم قال بتحريم رضاع الكبير . ومنهم عائشة استناداً إلى حديث روته في صحيح مسلم في واقعة سهلة بنت سهل وهي زوجة أبي حذيفة بن عتبة الذي تبنى سالماً وزوجه ابنة أخيه فلما حرم الإسلام التبني صار سالم أجنبياً وشق عليه وعليهم فراقه

وصار من الحرج دخوله إلى بيت أبي حذيفة . فأمرها النبي أن ترضعه فأرضعته خمس رضعات فكان بمنزلة ولدها من الرضاعة . وقال بعضهم : لعل المراد أنها سقته لبنها في إناء . وقال بعضهم : حديث سهلة هذا منسوخ . وبعضهم قال : خاص لهذه الحادثة الخاصة : وقال ابن تيمية : هو رخصة لمن كان حاله مثل حال سالم مع أبي حذيفة .. والله أعلم ..

د ـ المحرمات من الصهر :

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ..﴾ .

عددهن ثلاثة وحرمتهن دائمة : أم الزوجة ، والربيبة بعد البناء بأمها ، وزوجة الابن. وثلاثة حرمتهن مؤقتة: الجمع بين الأختين، والزوجة مع عمتها، والزوجة مع خالتها. (كما دلت السنة على الاثنتين الأخيرتين).

واتفق الجمهور على حرمة ابنة الزوجة سواء ربيت في حجره أم لا . ولعل الآية استعملت هذا التعبير : ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم..﴾ لإثارة الحنان في المتزوج من أمها . والله أعلم .

وأما قوله سبحانه عن زوجة الابن : ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ ؛ فلا يدخل في ذلك زوجة المتبنى ولا زوجة ابن زوجته . كذلك عند المصاهرة لا تحرم زوجة أبي الزوجة لأنها ليست أمها والآية تقول:﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ولذا يبقى الحجاب مطلوباً هنا .﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ ويعقب بعد ذكر الجمع بين الأختين :

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ .

أي ما سبق منكم في الجاهلية أو قبل نزول الحكم . فمن كانت عنده أختان فعليه أن يفارق إحداهما .

ونلاحظ أن هذه المحرمات كانت في الجاهلية محرمة ما عدا : ما نكح الآباء والجمع بين الأختين . فالآية لما تأتي بهذا الشكل تلفت نظرنا إلى أمور هامة :

١ً ــ إن المصدر الوحيد الذي يحق له أن يحلل ويحرم هو القرآن .. والتلقي في قضية الحلال والحرام لا يكون إلا من الله ورسوله . وذلك هو جوهر التوحيد : أن توحده حاكماً ومشرعاً .

٢ً ــ إنه يشعرنا بهذا الأسلوب : أن الإسلام ليس تعديلاً لبعض جوانب الجاهلية .. وإنما الإسلام يلغي الجاهلية من الأصول ويبدأ مع الإنسان حياة جديدة متميزة لها طابعها ..

٣ً ــ ومع أن الإسلام خلعٌ لأصول الجاهلية وتميز كامل ، لكنه يقر الجوانب الإيجابية في النظم الأخرى ويحرص على الخير والحق مهما كان مصدره .. فهو لا يبخس الناس أشياءهم .. وكما يقول ﷺ عن حلف الفضول : إنه شهده في الجاهلية ولو دعي إلى مثله في الإسلام للبّى .. فالإسلام هو : الوسط بين التعصب والجمود والتحلل والتميع .. وهذا موضوع هام تحدث عنه مالك بن نبي في كتبه فيما يتعلق بعلاقة المجتمع الإسلامي مع المجتمعات الأخرى .. فمن السهل أن ترفض كل شيءٍ ، ومن السهل أيضاً أن تأخذ كل شيء .. لكن الانتقاء هو الصعب وهو الذي يحافظ على كيان المجتمع ويضمن له النمو . وينبغي أن توضع مصفاة على عتبة المجتمع فلا تسمح إلا بمرور الإيجابيات التي تتناسب مع ثقافة المجتمع وقيمه .. ويشبه عملية الاقتباس من الثقافات الأخرى بعملية نقل الدم .. تكون قاتلة إن لم يراع فيها التدقيق في زمرة الدم وخصائصه .

نعود لتأمل بعض جوانب الحكمة في هذا التحريم وإن كانت الآيات لم تذكر علة لهذا التحريم فالله العليم الحكيم لا يحرم إلا ما فيه ضرر . وتأمل الحكمة يزيدنا رسوخاً في الفهم والالتزام :

١ ــ إن الفطرة السليمة تنسجم تماماً مع هذا التحريم .

٢ ــ يراد أن تكون العلاقة مع هؤلاء المحرمات علاقة رعاية وعطف واحترام بحيث يبقى للمرأة في جميع الحالات مأوى تجد فيه الرعاية والحنان (مثال : لو أبيح الزواج بالأخت .. فأين تذهب لو طلقت) ؟!

٣ ــ حفاظاً على المشاعر الأخوية والبنوية في الأسرة من التحطيم .. فلا تصبح

الأم ضرة ابنتها .. أو العكس .. كذلك الأخت . ويبقى الود طاهراً بريئاً في الأسرة .

٤ ــ علاقة الزواج جعلت لتوسيع نطاق الأسرة بحيث تتعدد روابطها مع المجتمع وهذا ما يساعد على الوصول إلى مجتمع متماسك . لذلك لا ضرورة لها بين الأقارب والأقربين .

٥ ــ إن الزواج بين الأقارب يضعف الذرية وكثيراً ما يعرضها لأمراض .

٦ ــ في ذلك رفع للحرج في الحجاب داخل الأسرة . وإعطاء فرصة للجنسين أن يتعرف كل منهما على الجنس الآخر بعلاقة بريئة طاهرة تزودهما بالخبرة اللازمة للتعامل في الحياة .

هـ ــ والمحصنات من النساء :

﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ .

العطف هنا يلحق المحصنات بالمحرمات الآنفة الذكر . وأول إيحاء يحس به المسلم أمام الآية : أنها تجعل نظرته إلى المتزوجات والمؤمنات عامة طاهرة بريئة فهن كأخواته أو بعض محارمه .

والإحصان أن تكون في حصن يحميك ويمنعك من الأذى . وفي الآيات ثلاثة أنواع من الحصون :

١ً ــ الزواج ولا يخفى أثره في الوقاية .

٢ً ــ الحرية لأن الحر يشعر بكرامته الإنسانية أكثر .

٣ً ــ العفاف : التقوى والخلق القويم .

﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ .

فأي إحصان هو المقصود هنا ؟

١ ــ قد يكون القصد : العفيفات اللاتي لايجوز وطؤهن إلا بعقد وشهود ما عدا ملك اليمين إذ يجوز لسيدها وطؤها دون عقد .

٢ ــ أو المتزوجات من النساء إلا سبايا الحروب فإنه يسمح بوطئهن بعد استبراء الرحم . ويدعم هذا الرأي ما رواه مسلم عن سبب نزول الآية : أن المسلمين أصابوا سبياً ــ يوم أوطاس ــ لهن أزواج من أهل الشرك فتأثم بعض الصحابة من وطئهن . فسمح لهم .

وموضوع ملك اليمين (الرقيق) يحتاج إلى بعض الإضاءة حتى لا يبقى فيه مجال لإثارة الشبهات .. وحسبنا هنا بعض الإشارات السريعة .

١ ــ نزل الإسلام إلى الأرض وهي مليئة بالرقيق .. فأوحى للناس ما أشعرهم بكرامة الإنسان وأن الناس كلهم من أصل واحد وأنهم جميعاً عبيد لرب واحد .

٢ ــ حرَّم الإسلام كل مصادر الرقيق ما عدا أسرى الحرب .

٣ ــ أما في الحروب فإن الإسلام لم يفرض السبي ــ أي استرقاق الأسرى ــ ولم يوجبه ولم يحرمه وترك الأمر فيه للمسلمين يقدرون فيه المصلحة العامة .. وقد كان استرقاق أسرى الحرب نظاماً دولياً لو تركه المسلمون لضعفت شوكتهم وتفوق عليهم أعداؤهم ..

٤ ــ ومع ذلك جاءت الإشارة واضحة في القرآن على أن استرقاق الأسير ليس حلاً مَرْضِياً عنه في الإسلام : ﴿حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها﴾ (محمد ــ ٤) . فالآية تقترح حلين :

١ً ــ إما مناً بإطلاق سراح الأسير دون مقابل .

٢ً ــ وإما فداء مقابل مال يفتدي الأسير به نفسه .

٥ ــ تفوق الإسلام بمعاملته الفريدة للأسرى والرقيق : ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾ (الإنسان ــ ٩) .

٦ ــ الإسلام بتوجيهاته قد خط الطريق للوصول إلى مجتمع خالٍ من الرقيق . مثلاً : إن كفارة كثير من الذنوب عتق رقبة . ونظام المكاتبة تدريب عملي للعبد على حياة الحرية حتى لا يصبح عبئاً على المجتمع إذا تحرر .

ونحن نرى الآن أن شبح الرقيق قد تقلص عن الأرض .. حتى أسرى الحرب صاروا يعاملون بحسب اتفاقات دولية . ولو أن الإسلام حرر الرقيق مباشرة وأمر بتصفيته دفعة واحدة لأنتج ذلك هزة اجتماعية واقتصادية قد يصعب حلها .

٧ ــ الإسلام قد ضمن للرقيق حقوقهم الإنسانية : « إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم .. » (مختصر صحيح مسلم رقم الحديث ٩٠٤) إذ يشاركون سيدهم في طعامه وشرابه ولباسه .. وهو مأمور بالإحسان إليهم في المعاملة . بل إنه ضمن لهم تلبية الرغبة في الزواج بشكل نظيف ومشروع داخل الأسرة المسلمة حين سمح بوطء الأمة . وأمر جماعة المسلمين أن يساعدوا العبيد والإماء على الزواج ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ..﴾ (النور ــ ٣٢) . ولو لم تشبع هذه الغريزة لظهرت الفاحشة فيهم وفي المجتمع المسلم .

٨ ــ إن حياة الأسير كفرد داخل أسرة مؤمنة تلتزم أمر ربها هي أفضل وسيلة لتعريفه بالإسلام وأسلوب الحياة الذي يخطه للناس .. ولذا كان أكثرهم يدخلون في الإسلام . بل ونبغ منهم علماء ومحدثون أجلاء تمتعوا بمكانة مرموقة في المجتمع الإسلامي .

٩ ــ صاحب المنار يقرر أن الرقيق قد انتهى ويقول عن رقيق الدولة العثمانية والرقيق المعاصر : أنه محرَّم كله لأن مصادره غير شرعية .

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ .

هذه هي المحرمات . ولا بد من تذكر أنواع أخرى حُرِّمت إجماعاً بنصوص أخرى : مثل : المطلقة ثلاثاً ، والمشركة ، والمرتدة ، والزانية ، ويدخل في الأمهات : الجدات ، وفي البنات : الحفيدات .

﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ .

فهو المصدر الذي ليس لغيره أن يحرم أو يحلل .. وهذه التشريعات هي عهد الله وفرائضه عليكم .

ثانياً ـ تجنب السفاح .. تأكيد المهر

﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ .

بعد تعيين المحرمات وتعدادها يأتي على بيان الحلال .. فالحرام قليل معدود وكل ما وراءه فهو حلال .. وهذا يذكرنا بالقاعدة الفقهية : الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد النص بالتحريم .

﴿ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ .

أن تطلبوا الزواج من غير هؤلاء المحرمات على أن تدفعوا لهن مهورهن بشرط أن تكونوا : ﴿ **محصنين غير مسافحين** ﴾ تطلبون الزواج لا الزنى . ولم يكتف بذكر الصورة الإيجابية بل أكد ذلك بنفي الصورة الأخرى وقد كانت معروفة في الجاهلية كما يدل على ذلك حديث عائشة المشهور أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أصناف منها : السفاح :[1] وهو موجود في كل الجاهليات لكنه الآن أحط وأقسى مما سبق . فقد كانوا يقولون : (وهل تزني الحرة) ؟! أما الآن فإنهم يسمون التحلل الخلقي حرية ..!! وتتمثل القسوة في خديعة المرأة بهذه الشعارات حتى تقع في الوحل ثم يتركونها تتحمل النتائج وحدها .

والقرآن يصور من خلال الكلمتين الفارق بين النوعين .

فالإحصان علو وحفظ وصيانة للفرد والأطفال والأسرة والمجتمع (كأنك في حصن) وكأنه حين يتزوج ينشىء حصناً للأمة . أما السفاح : فهو إراقة ماء الحياة في المنحدر الواطىء (السفح) .

---

١ ـ الحديث أخرجه البخاري في كتاب النكاح . والرجوع إليه يعطي صورة عن مدى تردي الجاهلية في هذا الأمر ، حيث صنف واحد من هذه الأربعة يمثل الزواج المشروع والباقي بغاء وزنى .

﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ .

يؤكد على فرضية المهر وحق المرأة فيه . قال بعض المفسرين : بأن الآية تتحدث عن زواج المتعة الذي كان معروفاً ــ وهو زواج مؤقت لمدة ــ ثم حرمه الرسول ﷺ فيما بعد ونهى عنه : « نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر » (رواه مسلم) . وقد رخص به ابن عباس في حالة الاضطرار وقال : ما هي إلا كالميتة والدم ولحم الخنزير لا تحل إلا للمضطر .

وصاحب المنار يتأمل تسمية المهر أجراً في هذه الآية . فيقول : كلمة ﴿ **أجورهن** ﴾ هنا أي ثواباً وجزاء وهذا لا ينافي ما في الزوجية من المودة والرحمة وأن المهر هدية كما أشارت آيات أخرى . ولكنه لما جعل للرجل على المرأة ــ مع المساواة في الحقوق ــ درجة القوامة : ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾ (البقرة ــ ٢٢٨) ، فرض لها سبحانه المهر أجراً تطيب به نفسها في المقابل .

وينبغي الحذر من الفهم الذاتي الذي تتحكم فيه المفاهيم الموروثة عن عصر الانحطاط .. فالآيات يشرح بعضها بعضاً .. ولا يجوز أن نسلط الضوء على آية واحدة ونفصلها عن الجو العام المفاهيمي الذي ينشئه القرآن .. وإلا وقعنا في الفهم الذري الذي تحدث عنه المستشرق جب ووصف المسلمين بأنهم مصابون به .

وبعد تأكيد فرضية المهر يترك الباب مفتوحاً لما يتراضى عليه الزوجان :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

فلا تنس أنك تتلقى الأحكام من العليم الحكيم حتى في أمورك الشخصية بينك وبين زوجتك فإنه يأمر ويحكم عن علم ..

ثالثاً ـــ الزواج من الأَمة

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ ﴾ .

وهي رخصة لمن لا يستطيع الزواج من الحرائر ـــ وهو معنى المحصنات هنا ـــ أن يتزوج من الإماء المؤمنات . وتفضل الأَمة المؤمنة على الحرة الكتابية . ونلمس هنا التكريم والإنصاف للإماء في عدة نقاط من الآية :

١ً ـــ الآية تقول عن الإماء : ﴿ **فتياتكم** ﴾ .. وتقرر المساواة في الأعماق بين السادة والعبيد : ﴿ **بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ** ﴾ . وحين يتحدث عن الإيمان : ﴿ **فتياتكم المؤمنات** ﴾ ينبه الأحرار : ﴿ **والله أعلم بإيمانكم** ﴾ فلا تتطاولوا ولا تستعلوا .. ورب أمة أكمل إيماناً من حرة .. كذلك حين يقول : ﴿ **فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ** ﴾ ولا يقول أسيادهن . فالعلاقة بين الأمة ومواليها علاقة الفتاة باهلها .. علاقة مودة ورعاية ومسؤولية .

٢ً ـــ يقرر المساواة بين الحرائر والإماء في حق المهر : ﴿ **وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ وفي صيانة الأعراض : ﴿ **مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ** ﴾ والسفاح : زنى جهري . والمخادنة : علاقة خفية .

رابعاً ــ حدّ الأَمة

٣ً ــ يخفف العقوبة للإماء في حالة ارتكاب الفاحشة مراعاة لظروفهن .

﴿فإذا أحصن فإن أتينَ بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ .

أي أن عقوبتها خمسون جلدة ــ نصف عقوبة الحرة البكر لأن الرجم حتى الموت لا يُنَصَّف ــ وعقوبة الأمة البكر إن ارتكبت الفاحشة ينبغي أن تكون أقل ؛ قياساً على المنطلقات الإسلامية .

وهنا نلمس العدل والدقة في حكم الإسلام بهذه القضية فهو لا يعفيها نهائياً من العقوبة لإبقاء الردع الزاجر عن تفشي الفواحش . ولا يجعل رقها سبباً في مضاعفة العقوبة كما كانت الشرائع القديمة تفعل وكما يفعل الجاهليون في هذا العصر أيضاً في معاملة الزنوج والضعفاء عامة .. وإنما أهلك الأمم من قبل ــ كما حدَّث رسول الله ﷺ ــ أنهم كانوا : إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد .. ولننظر إلى أمريكا : ــ بلد الحرية كما تدعي ــ كيف تعامل الزنوج في جانب العقوبات .

والإسلام هنا لا يقرر المساواة في العقوبات بل يعاقب الشريف أكثر من الوضيع وهذا هو الإنصاف لأن الحرة محاطة بجو من الكرامة قد لا يتاح للأمة .. الحرة في حصن يساعدها على الصيانة فكيف تتساوى مع الأمة عند السقوط .. ؟!

كذلك نلمس في توجيهات القرآن للطبقة العليا التي تشغل مركز قدوة في الأمة .. فلقد خاطب أمهات المؤمنين في سورة الأحزاب : ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً﴾ (الأحزاب ــ ٣٠)

﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

فالزواج من الإماء رخصة لمن يخشى المشقة أو الفتنة . فإن استطاع الصبر فهو خير له . لأن الحرة أجدر أن تقوم بها الأسرة وتنجب كرام الأبناء وتحسن الإشراف على الجيل وتربيته وتحفظ كرامة الزوج وشرفه .. هذا هو الواقع .. والإسلام دين واقعي .. حض المجتمع على تحرير الرقيق لتخليصه من الضغوط التي تجعل هذه الطبقة أقرب إلى السقوط والتردي .

﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مغفرته وراء كل خطيئة وعند كل اضطرار .

وبعد هذه الأحكام التي تحدثت عن الحرام والحلال في الجانب الاجتماعي وفيما يتعلق بين الجنسين خاصة . . تأتي ثلاث آيات :

خامساً ــ تعقيب شامل

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾

يقول ابن عباس : (ثماني آيات نزلت في سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت) :

١ ــ ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ .. ﴾ .

٢ ــ ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ .

٣ ــ ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ .

٤ ــ ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ .. ﴾

٥ ــ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا .. ﴾ .

٦ ــ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ .. ﴾ .

٧ ــ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ .. ﴾ .

٨ ــ ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ :

بعد بيان الأحكام يتلطف الله سبحانه وتعالى ببيان بعض حكمته .. ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ (النساء ــ ١٧٤) .

إن الله لم يفرض علينا حجراً عقلياً . بل يريد منا أن نتأمل ونتفكر في أحكام القرآن : أليست هي النور المبين .. ؟! ألا ترون إلى من يخالفها كيف يعيش في ضلال وظلام وشقاء ..؟ إن الله تعالى يريد بقرآنه أن يبين لنا الطريق الصحيح . وينبغي أن ننتبه هنا إلى أهمية البيان . فإن أكثرية المعرضين عن الحق يجهلونه .. والإنسان عدو ما يجهل .. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ..﴾ (الأنبياء ــ ٢٤) . والبيان يحل مشكلة الأكثرية .

والبيان لا يعني مجرد التبليغ للآيات .. بل إنه شرح وتبصير بالعواقب يتناسب مع معطيات كل عصر وتطوره في كشف آيات الآفاق والأنفس .

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ .

السنن جمع سنة : وهي الطريقة والأسلوب . وسنة رسول الله ﷺ : هي طريقته في حياته ومنهاجه .

فالسنن هي الطرق والقواعد والقوانين .. هي الأسباب ونتائجها .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يهدينا ويرشدنا إلى أسباب رقي الأمم الماضية وأسباب سقوطها .. الله سبحانه وتعالى يريد أن يختزل لنا تجارب البشرية فيقدم لنا خلاصة ما وصلوا إليه ليوفر علينا ضياع الجهد والوقت .

إن لكل علم مختبراً يجري فيه العلماء تجاربهم للوصول إلى الحقائق والقوانين .. لكن العلوم الإنسانية لا يمكن أن تجعل من الإنسان حقل تجارب .. إن هذا يجرع الآلام ويفقد الإنسان كرامته وحرمته . وهنا تبرز أهمية التاريخ .. إنه المختبر الذي تجري فيه التجارب الإنسانية .. إنه الحقل الذي يستمد منه الباحث الاجتماعي النور .. هنا في هذا المختبر تتبلور الحقائق وتتلخص تجارب البشرية ، ويتحرك المؤشر ليشير إلى الطريق الصحيح ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (آل عمران ـــ ١٣٧) .

من أجل ذلك يلح القرآن في الحديث عن التاريخ والأمر بالنظر فيه . ويذكر من قصص الأولين أمثلة ونماذج تشهد على صحة ما يقدمه للناس من قوانين . ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (العنكبوت ـــ ٤٣) .

والمسلمون اليوم مطالبون أن يقدموا من الدراسات في الآثار والتاريخ ، ويستحضروا التاريخ ليقول كلمته ويدلي بشهادته .. وذلك عمل يبدأ بالسير والنظر ـــ وهي مرحلة الملاحظة أو التجربة في دراسة سائر العلوم ـــ ثم يرتقي إلى كشف السنة ـــ أو استخلاص القانون من التجارب ـــ ثم نصل إلى التسخير وهو استخدام القانون لترقية الحياة وتسهيلها وتنمية الحضارة وازدهارها ..

وحين يقدم التاريخ قوانينه ينقطع اللغو والجدل والمكابرة .. وهل يمكن لإنسان يحترم نفسه أن يجادل في قانون فيزيائي أو رياضي ..؟! ولعمري إن ذلك لهو الفتح الجديد المنتظر الذي يدخل الناس بعده في دين الله أفواجاً .. فلغة العلم الآن هي اللغة العالمية .. وسلطان العلم هو السلطان .. وينبغي للمسلمين أن يدركوا ذلك ويتداركوا تقصيرهم في هذا المجال قبل فوات الأوان .

فإذا عدنا لإلقاء نظرة سريعة على شهادة التاريخ في حياة الأمم .. وما يقرره من قوانين وسنن .. وجدنا المؤرخين وعلماء الاجتماع يتحدثون عن الدورة الحضارية للأمم . وأن كل أمة تمر بثلاثة أطوار ـــ مثل حياة الفرد ـــ طفولة وشباب وشيخوخة . ففي المرحلة الأولى تنمو صعداً إلى أن تصل إلى الأوج حيث تقضي فترة في عصرها الذهبي إلى أن تبدأ عوامل الانهيار والفساد تظهر فيها فتنتقل إلى الشيخوخة والأفول .. وعبروا عن ذلك بمخطط بياني .

ولاحظ المفكرون أيضاً أن الأمة إنما تنبعث وتبدأ بالصعود بسبب دافع محرك : فكرة أودين تتفاعل معه وتعطيه الأولوية في حياتها . بينما تسيطر الغرائز على الأمة في مرحلة الهبوط وتعطى لها الأولوية . فالصعود مرتبط بسيطرة الفكرة أو المبدأ .. والانهيار هو ثمرة تسلط الغرائز وانحسار الرادع الفكري والديني ..

فالانحلال الخلقي وفقدان الحرام والحلال في العلاقة بين الجنسين هو نذير السوء للأمة التي حكمت على نفسها بالسقوط حين تجاوزت الضوء الأحمر وضربت بالحواجز عرض الحائط فحق عليها أن تصطدم وتسقط[1]. ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً . أعد الله لهم عذاباً شديداً . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً .﴾ (سورة الطلاق ــ ٧) .

ولا ينبغي أن تخدعنا مظاهر السلامة والقوة في الأمم المعاصرة التي تنكبت هداية الدين والأخلاق في حياتها .. لأن عمر الأمم يقاس بمئات السنين . فالأمة لا تصل إلى القمة بين عشية وضحاها كما أنها لا تنهار بهذه السرعة . ولكن تبدأ خطوات الانهيار بسيطة لا يكاد يشعر بآثارها أحد ، وتظهر الآثار تدريجياً . وأول من يبصرها ويدرك عواقبها العلماء والمفكرون فيوجهون التحذيرات . ومثل الحضارة في ذلك كمثل شجرة نخر فيها السوس خلال سنين وهي ما زالت قائمة على ساقها .. لكن لا بد أن يأتي اليوم الذي تسقط فيه أمام الضربات . والأمم الحالية التي شاع فيها التحلل الخلقي قد بدأت بالانهيار وإن كانت في أوج تقدمها العلمي .. وهذا ما يشير إليه بعض المبصرين والعلماء عندهم .. ففي عام ١٩٦٢ صدر تصريحان متماثلان عن مسؤولَيْن كبيرين في روسيا وأمريكا :

الأول : قال خروتشوف : (إن الشباب الشيوعي قد بدأ ينحرف ويفسده الترف) ، وأنذر بأن الحكومة السوفييتية تبحث إطلاق يد البوليس في معالجة هؤلاء

---

١ ــ تحدث المودودي عن هذا الموضوع في كتابه الحجاب صفحة ١٤ ــ ٢٤ وبحثه مفيد لمن يرجع إليه .

ـــ البلطجية ـــ . كما أنذر بأن معسكرات جديدة قد تفتح في سيبريا للتخلص من الشباب المنحرف لأنه خطر على مستقبل روسيا .

والثاني : قال كنيدي : (إن الشباب الأمريكي مائع منحل مترف غارق في الشهوات . وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين بسبب انهماكهم في الشهوات ...) . وأنذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا . وأهاب بالعلماء والمصلحين أن يبحثوا هذا الخطر ويقرروا العلاج .[1]

ولقد اطلعت على نص إعلان منشور في مجلة جامعة كولومبيا ـــ منذ عشر سنوات تقريباً ـــ بعنوان : (هل تحتاجين إلى مال .. ؟) وتحته (مطلوب فتيات جذابات بأجسام رشيقة لأخذ صور عارية تماماً بأجر « ١٠٠ دولار في الساعة » ولا يشترط أي ثقافة ولا أي خبرة) .. !!

كان هذا في مجلة جامعة ، وفي الوقت الذي لا يجد فيه حاملي الدكتوراه عملاً بأجر يعادل « ١٫٥ دولاراً في الساعة » .. وكثيراً ما يقبلون بأقل من ذلك .. أليس دماراً للأمة أن تصبح شهوة الجسد أغلى من كل المواهب والكفاءات العقلية .. ؟!

﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمَّن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ (تبارك ـــ ٢٢) .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

إن بيان الحكم والحكمة يحدث التوبة مِنّا لله وعلينا من الله ..

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

شرع لكم عن علم وحكمة .. فهو يعلم حالكم وما يصلح لكم ويضع لكم ما يناسبكم .. ويعلم حاجتكم إلى التوبة والتطهر .. ويتوب توبة عليم حكيم على

---

١ ـــ هذا منذ أكثر من عشرين سنة .. وما زال السوس ينخر ولم تسقط الشجرة بعد.

عباده .. هذا مراد الله ..

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ .

إن مراد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا عن أحكام الله ميلاً عظيماً .. أن تنحرفوا عن جادة الصواب وتبتعدوا عن خط السلامة والنجاة .

ولقد أدرك أعداء الإسلام أن تفوق المسلمين في المجال الأخلاقي يحافظ على كيانهم ويجعل منهم بنياناً مرصوصاً يصعب التصدي له . ولقد حاولوا في الماضي الطعن في هذا التفوق وخرقه بحملات دعائية وإشاعات وإيقاع بين الإخوة . منها إشاعة قصة الإفك . وترويج إشاعات حول زواج النبي ﷺ من زينب رضي الله عنها . والإيقاع بين المهاجرين والأنصار بعد غزوة المريسيع .. وفي الحاضر تطورت أساليبهم وملكوا وسائل الإعلام فكرسوها لإشاعة الفاحشة في العالم الإسلامي وضرب أخلاقه وابتزاز أمواله .. ويكفي أن نتذكر أن غالبية شركات السينما ودور الأزياء ومعامل أدوات التجميل يملكها اليهود . وإن نظرة واحدة تلقيها على مجلة عربية تكشف لك عن هذا المخطط ... فإن نصف المجلة تقريباً ــ إذا سلمنا بأن النصف الأول يتحدث عن أخبار سياسية وعلمية .. ــ يتحدث عن الأفلام والممثلات والأزياء .. ويعلم المرأة العربية كيف تصبح دمية فاتنة تستهوي الرجال .

إن أعداء الإسلام يدركون أن هذا الأسلوب في الاستعمار أقل كلفة ومشقة وأقوى مفعولاً .. ولا يهمهم أن يحتلوا البلاد بشكل رسمي واضح طالما أنهم قد سيطروا على العقول والضمائر والأموال .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ .

يريد الله أن يخفف عنكم مشقة الاهتداء بدون هداية السماء ويختصر لكم الآلام والزمن ، لأن الخطة الوحيدة للوصول إلى نظام صالح للإنسان دون الرجوع إلى هداية الله تجعل من الإنسان حقل تجارب ويكلف البشرية آلاماً كثيرة ويستهلك زمناً

طويلاً ..والإنسان ضعيف لا يستطيع تحمل كل هذا العبء .. وهو ضعيف في علمه وإدراكه للكون ولنفسه التي بين جنبيه مهما تعلم .. فإن علمه لا يقارن بعلم الله الخالق . وهذا ما دفع الدكتور الكسيس كاريل لتأليف كتابه (الإنسان ذلك المجهول) ويقول فيه : (الحقيقة أن جهلنا مطبق .. فكيف نستطيع أن نشرع لأنفسنا النظام الملائم .. ؟!) ويقدم الطبيب كاريل شاهداً على شقاء الإنسان حين يستغني عن هداية الله . فيقول :

(إن شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر ..) .

(إن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشكلات التي يواجهها المجتمع العصري . إن أمراض العقل خطر داهم ، وهي أشد خطورة من السل والسرطان والقلب والطاعون والكوليرا ..)

ويصل إلى النتيجة : (إن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذي تحتويه مدنيتنا . وعلى أن أسلوبنا في حياتنا الجديدة يؤدي إلى تدهور صحتنا العقلية .) .. مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ..﴾ (طه ــ ١٢٤) .

إن القصد من الأوامر والنواهي هو التخفيف .. فهل يشعر المسلم بذلك .. ؟

إن كثيراً من المسلمين يشعرون بأن أمر الله عسير عليهم . ولا يلمسون إرادة الله في التخفيف عنهم .. وما ذلك إلا لأنهم يقصرون نظرهم على النتائج الأولية السريعة للأعمال .. ولو تأملوا العواقب النهائية .. لو حصل لديهم العلم بما هو خير وأبقى لأدركوا رحمة الله وتخفيفه ..

فالمرأة قد تشعر بصعوبة الحجاب وقد تتخذ مواقف سلبية إزاء قضية تعدد الزوجات وقوامة الرجل وإنفاقه على المرأة .. وكل ذلك راجع إلى تسرع وسطحية في النظر . ولو تأملنا النتائج البعيدة لاختلف الأمر . فالمرأة تتحمل أكبر قسط من الآلام

حين يترك شرع الله . ألم تصبح المرأة سلعة رخيصة في العالم الغربي الذي نبذ الحشمة والحجاب من حياته .. ؟! وهل تحافظ الأسرة على كيانها وقداستها هناك ..؟!

وماذا يحدث عندما تنفك عرى الأسرة هناك ..؟! يكون الأولاد من نصيب الأم وعليها أن تعمل وتتولى الإنفاق عليهم ، ولا يكفيها ما تعاني في تربيتهم وتوجيههم .. بينما التشريع الإسلامي يقرر لها حضانتهم ويوجب النفقة على والدهم لها ولهم .

والمرأة في ألمانيا هي التي اعترضت على عدم السماح بتعدد الزوجات ـــ بعد الحرب ـــ وهي التي طالبت به .

هذه ملاحظات سريعة في قضية واحدة .. ويمكن للمسلم أن يتأمل العواقب في كل أمر من أوامر الله .. حتى الأمر بإقامة الصلاة يتمثل فيه التخفيف عن الإنسان الضعيف .. حيث يتصل برب السموات والأرض ومن بيده الأمر كله . فيحس بالقوة بعد الضعف وبالأمن بعد الخوف والاطمئنان بعد القلق . وقد تحدث ديل كارينجي في كتابه (دع القلق وابدأ الحياة) عن أثر الإيمان والصلاة في شفاء كثير من الأمراض .

هذه الآيات الثلاث قواعد في طريق تحصيل القناعة إلى أحكام الله .. في طريق حصول التسليم باطمئنان بعد رؤية البرهان . والله لا يريد منا التسليم بغير علم ولا هداية ولا برهان : ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ (الإسراء ـــ ٣٦) ، ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ (يوسف ـــ ١٠٨) .

الفَصل الخامِس

في المال وَقوامَة الرِّجال

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن
تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا
وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ
وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ
وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ
نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾
ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ
قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ
نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ

وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

كان الكلام من أول السورة إلى هنا في معاملة اليتامى والأقارب والناس ومدار هذه المعاملة على المال. وبعد ذكر تلك الأنواع من الحقوق المالية يذكر الآن قاعدة عامة للتعامل المالي.

أولاً ــ النهي عن أكل المال بالباطل وقتل النفس

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ .

نداء بأحب الأسماء إلينا .. وتذكير بالصفة المميزة لنا التي تقتضي منا الاستجابة والطاعة . يقول ابن مسعود : إذا سمعت النداء ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأَرْعِهِ سمعك فهو إما خير يأمرك به أو شر ينهاك عنه .

﴿ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ .

نلاحظ أنه أضاف الأموال للجميع . ولم يقل لا يأكل بعضكم أموال بعض .. للتنبيه على تكافل الأمة فالمال للجميع .. والأمة كالجسد الواحد . كذلك يشير إلى العواقب .. فإذا استباح أحدكم أكل مال غيره فكأنه أباح لغيره أكل ماله ، وحين تنتهكُ حرمة القانون وتعتدي فأنت من يجني الثمار ، فقد كسرت قداسة القانون في نفوس الآخرين وسيعتدون عليك .

والإسلام حين يتفق مع الاشتراكية بأن المال للجميع يختلف عنها في جوانب عدة : منها أنه لا يلغي الملكية الفردية .. ولا يبيح للفقير أن يأخذ من الأغنياء ما يريد .. لأن الإسلام حريص على تنمية الفضائل وإعطاء الفرد أقصى ما يمكن من الإيجابية في الشعور والإنتاج . فالفقير يعتمد على نفسه ويحترم كرامتها ، ويحاول أن يستغني ويستعفف عن السؤال قدر طاقته . ومع ذلك فإن إخوانه الأغنياء يتفقدونه بهداياهم فيحبهم ولا يحقد عليهم أو يتمنى زوال نعمتهم .. لأنه يعلم أنهم معه في سرائه وضرائه .. والغني لا تعميه الأثرة والأنانية . ولكنه ربي على التفكير في أحوال إخوانه

المؤمنين وتفقد حاجاتهم .. فهو سعيد بوقوفه إلى جانبهم وتقديم العون لهم .. ومن الواضح أن المجتمع الاشتراكي محروم من هذه الفضائل .

والآية هنا يمكن أن تكون قد نزلت قبل آيات الربا ــ التي في سورة البقرة ــ أو بعدها فإن كانت قبلها فهي تهيىء النفوس لتحريم الربا . وإن كانت بعدها فهي تشمل كل المعاملات الباطلة الجائرة(الغش ــ الرشوة ــ القمار ــ الاحتكار ــ الربا ــ أكل مال اليتيم ..) . وذكر ابن عباس أن الله لما أنزل هذه الآية قال المسلمون : الطعام هو أفضل أموالنا فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد . فأنزل الله بعد ذلك ــ في سورة النور ــ ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم ..﴾ (النور ــ ٦١) .

إن تذكر هذه الحادثة وأمثالها يبين الفرق الشاسع بين المسلمين الأوائل والذين يدَّعون الإسلام الآن .. !!

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ .

يستثني التجارة من النهي السابق وقد كان المرابون يحاولون التضليل فيقولون : إنما البيع مثل الربا .. أي أن التجارة تنشأ عنها زيادة في الأموال وربح فهي مثل الربا ــ وهو بيع للعملة ــ وتناسوا أنّ الفرق كبير بين الربا والتجارة. فالتجارة تعتمد على الجهد والمهارة وتتعرض للربح والخسارة وفيها منافع للناس. ولكن الربا على العكس من ذلك تماماً. ويكفي أن يكون الله قد أحل هذه وحرم ذلك ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ (البقرة ــ ٢٧٥).

والأبحاث الاقتصادية المتخصصة تظهر كيف أن الربا من شأنه أن يحول الناس جميعاً إلى عبيد مستخدمين لدى فئة قليلة تكدست بيدها الثروة والعملة العالمية[1] .

ويشترط في المعاملات المالية بعد تحري الحلال والحرام فيها أن تكون عن تراض بين الناس . والسماحة هنا طابع المسلم : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى » (رواه البخاري والترمذي) .

---

١ ــ من هذه الأبحاث كتاب الربا لأبي الأعلى المودودي .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ .

والآية تستوعب تأملات عديدة :

١ ـــ فقد تكون نهياً عن الانتحار .. والارتباط واضح مع ما سبق . فكثيراً ما تؤدي الصدمات المالية والمعاملات الجائرة فيها إلى التفكير بالانتحار . فحذار أن تفكروا في ذلك لأن الله رحيم وسيجعل لكم من بعد عسر يسراً . وقد وردت أحاديث تفيد بأن المنتحر في نار جهنم لأنه فقد إيمانه بالله حين يئس وقتل نفسه .

كذلك ينبغي الانتباه إلى حالات يقتل الجاهل بها نفسه دون قصد . فإن ترك التداوي للمريض قتل للنفس .. وترك الرخص عند الحاجة إليها قد يؤدي إلى قتل النفس .. كما حدث للرجل الذي أصابته جنابة ورأسه فيه جرح فاستفتى أصحابه .. فقالوا لا نرى لك بداً من الاغتسال . فاغتسل فمات .. فقال لهم ﷺ بعد ذلك : « قتلوه قتلهم الله . ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال . إنما كان يكفيه أن يتيمم » (رواه أبو داود وابن ماجه والدارقطني وصححه ابن السكن) .

٢ ـــ وقد تكون نهياً عن قتل الناس .. لأن الأمة كالجسم الواحد ومن قتل عضواً منها فكأنما قتلها : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » (المائدة ـــ ٣٢) . ومن يقتل أخاه المسلم فقد قتل نفسه وضميره وإنسانيته . ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ (الشمس ـــ ٧) .

ألا يكفي أنه انحط بنفسه إلى نفسية المجرم ..؟!

٣ ـــ لا تقتلوا أنفسكم بارتكاب ما حرم الله وأكل الأموال بالباطل لأن الله أمركم ونهاكم رحمة بكم ولكي يجنبكم أسباب الهلاك .. فإن أبيتم فقد أهلكتم أنفسكم .. وهذه لفتة هامة : فإن الخلافات المالية والسرقات تؤدي إلى جرائم القتل على مستوى فردي .. ثم يتسع الأمر على مستوى الجماعة . وإن الأمة التي يروج فيها أكل الأموال بالباطل تتردى وكأنها حكمت على نفسها بالقتل .. ألم تكن الثورة الشيوعية الحمراء ـــ وسميت كذلك لكثرة القتل الذي حدث فيها ـــ نتيجة لأكل مال الناس بالباطل من قبل أرباب

العمل والإقطاعيين والأباطرة ..؟!

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ .

رغبهم برحمة الله ﴿ **إن الله كان بكم رحيماً** ﴾ .

ثم هددهم بعذاب الآخرة .. بعد أن حذرهم من هلاك الدنيا . وإن حلم الله في الدنيا على المعتدين وإمهاله لهم لا يقتضي نجاتهم من عقابه .. وأنه لا يقدر عليهم .
﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً ﴾ (مريم ــ ٤) .
﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ (آل عمران ــ ١٩٥) .

وبعد أن نهى عن أكل المال بالباطل وقتل النفس وهما أكبر الذنوب المتعلقة بالعباد وحقوقهم .. ينهى عن جميع الكبائر التي يعظم ضررها ..

ثانياً ــ اجتناب الكبائر

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ .

هذه الآية من الآيات الثمانية التي قال عنها ابن عباس أنها خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت .

الآن يفتح باب المغفرة بعد التهديد .. إن الله يحيي الأمل في نفس الإنسان ويعطيه فرصة للمغفرة . وتلك خطة القرآن أن يذكر الترغيب بعد الترهيب وبالعكس .. حتى لا تغلب على الإنسان حالة اليأس ولا حالة الأمن .. وإنما يوضع في توتر دائم بين اليأس والأمن .. بين الخوف والرجاء .. فهو يخاف الهلاك ويرجو النجاة .. وهذه هي الحالة التي تدفع الإنسان إلى السعي وبذل الجهد للوصول . يقول علي رضي الله عنه :

(العالِم كل العالِم من لم ييئسهم من رحمة الله ولا يؤمنهم مكر الله) .

ومن المفيد هنا مراجعة ما جاء عن دوافع الحركة في كتاب (الإنسان حين يكون كلًّا وحين يكون عَدْلًا) للأستاذ جودت سعيد . فمن الواضح أن العالم الإسلامي في حالة عطالة قد توقفت حركته منذ أجيال .. وينبغي للدعاة أن يبحثوا عن دوافع الحركة وأسباب العطالة .. عليهم أن يكشفوا الأزرار التي يتحرك الإنسان بالضغط عليها .. لتعود إلينا نهضتنا من جديد . نعود إلى الآية :

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ .

والاجتناب هو ترك الشيء جانباً . والآية تشعر أن المنهي عنه نوعان : كبائر وسيئات .. فالسيئة هي الفعلة التي تسوء صاحبها . وهي تنتج عن لحظات الغفلة والخطأ والضعف البشري . ورحم الله عمر حيث يقول : (قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات) .. ورسول الله ﷺ حين يصف المؤمن لا يصفه بأنه منزه عن السيئات ، وإنما يصفه بيقظة الضمير ودقة الميزان الذي يحرك المؤشر عند كل سيئة : « إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن » (رواه أحمد) .

فالآية وعدٌ من الله تعالى بالعفو عن لحظات الضعف والخطأ طالما أن الإنسان يحاول وسعه الاستقامة وترك الكبائر ، وأن يجعل اجتناب الكبائر مكفراً لما بدر من الإنسان من سيئات . وقد وصف الله عباده في آية أخرى : ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة﴾ (النجم ــ ٣٢) .

وفسروا اللمم بما قل وصغر من الذنوب . وقد يكون بمقاربة الكبيرة بإتيان بعض مقدماتها مع اجتناب اقترافها .

فما الكبائر ..؟

وردت أحاديث متفرقة تعدد أنواعاً منها :

١ ــ « اجتنبوا السبع الموبقات »[1] . قالوا : وما هي يا رسول الله ؟ قال :

---

١ ــ أي المهلكات .

« الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (مروي في الصحيحين) .

٢ ـ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : « الإشراك بالله وعقوق الوالدين » وكان متكئاً فجلس فقال : « ألا وشهادة الزور ألا وقول الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت (أخرجه الشيخان) .

٣ ـ « من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه » قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه . » (رواه البخاري ومسلم) .

وفي أحاديث أخرى ذكر اليمين الغموس ، وذكر الإضرار بالوصية .. وهذا ما يجعلنا نستنتج أن أحاديث النبي ﷺ في الكبائر أمثلة وليست للحصر .. وهذا ما جعل ابن عباس يجيب عندما سئل : ما السبع الكبائر ؟ قال : « هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع » . وقال أيضاً : « كل ما عصي الله به فهو كبيرة » وقال : الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب .

والغزالي يقول عن الكبائر: إنها كل ما يشعر بالاستهانة بالدين وعدم الاكتراث به . ويوافقه الإمام محمد عبده حين يقول : (وأكبر الكبائر في كل ذنب عدم المبالاة بالنهي والأمر .. لذا قال ﷺ : « كل أمتي معافى إلا المجاهرون ») .

وأبو الأعلى المودوي مثّل لهذا الموضوع بتعليم الإنسان النظافة فيقول بما معناه : لا يفترض أن نستعرض لهذا الإنسان جميع الأشياء القذرة ولكن نرشده إلى القاعدة العامة في النظافة . وكذلك فإن الله سبحانه وتعالى يربي ضمير المسلم بالقرآن على أسس الإسلام والسلوك المستقيم . وهو بممارسة إسلامه يكتسب ذوقاً إسلامياً يستطيع تمييز الكبائر . فإذا ذكرنا قول أحد الصحابة لجيل التابعين : (إنكم تعملون أعمالاً هي في أعينكم مثل الذر ، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر) فكيف بالمسلم المعاصر ..؟! قد يظن بأنه يتجنب الكبائر وهو متمرغ بها .. !!

العالم الإسلامي تتقطع أوصاله ويزخر بالمآسي الدامية .. والمسلمون مشغولون بأجمل الملابس .. وأحلى نكتة .. وآخر فِلْم .. و . .

ورسول الله ﷺ يقول : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (حديث حسن بمجموع طرقه حسنه ابن حجر والألباني في صحيح الجامع) . والمسلمون لا يسعون لتحصيل هذه الفريضة ويغرقون في ظلمات الجهل .. حتى أصبحت خلافة الأرض بأيدي شياطين الإنس الذين استخدموا علومهم في إفساد البشر واستغلالهم .. بما فيهم المسلمين .

والقرآن يتحدث عن كتمان العلم كجريمة كبرى يتوعد عليها بأشد العذاب ﴿ يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ (البقرة ــ ١٥٩) . فمن من المسلمين اهتم بتبليغ كل ما يعلم لأكبر عدد ممكن .. ؟!

ورسول الله ﷺ يقول لمعاذ : « أمسك عليك هذا ــ ويشير إلى لسانه ــ وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » (رواه الترمذي) . فمن منا تعلم كيف يضبط لسانه ؟ وإن عواقب أخطاء اللسان وخيمة في الدنيا قبل الآخرة ، فكيف ينسى المسلم أنها من الكبائر .. ؟!

ومع ذلك فنحن بشر .. لا نملك العصمة فتأتي كلمة ابن عباس في موضعها موضحة الفارق : (لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار) . لأن تكرار الصغيرة يشعر بقلة المبالاة . ووصية رسول الله ﷺ : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها » (صحيح أخرجه الترمذي وأحمد) .

والغزالي له ملاحظة يقول فيها : (اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة) لأنه في هذه الحالة إنما يجتنبها خوفاً من الله وحرصاً على طاعته . ويقصد بالإرادة هنا : أن الغرائز موجودة ولم تنطفىء جذوتها بعد .

ثالثاً ــ النهي عن تمني ما للغير

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ .

لما نهى عن القتل وأكل المال وهما من أعمال الجوارح ليصير الظاهر طاهراً .. نهى عن تمني ما للآخرين لتطهير الباطن من الأخلاق الذميمة .

ورد عن عكرمة أن النساء سألن الجهاد فقلن : وددنا أن الله جعل لنا الغزو فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال فنزلت الآية ..

هذا الخبر الغريب يدل على نفسية الناس في ذلك المجتمع الوليد . فالمرأة تتمنى أن تؤدي واجبات أكثر .. وتطمع في الحصول على رضى الله .. إنه تنافس على الخيرات والواجبات بين الرجل والمرأة .. إنه تنافس على البذل والعطاء .. بينما نحن الآن نتقاتل على الأخذ . وإن الله كلف كلاً من الرجال والنساء أعمالاً تتناسب مع قدراتهم ووظائفهم . فللرجال حقوق وواجبات ، وللنساء حقوق وواجبات تتناسب معهن **(مثال: نصيب المرأة في الإرث). وقالوا بأن الآية ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ دليل قانوني على المساواة في** حق التملك وحق الكسب بين الرجال والنساء . يقول الدكتور عبد الواحد وافي في كتاب حقوق الإنسان : (للمرأة المتزوجة في الإسلام شخصيتها المدنية الكاملة وثروتها الخاصة المستقلة عن شخصية زوجها وثروته . وهذه المنزلة من المساواة لم يصل إلى مثلها بعد أحدث القوانين في أرقى الأمم . يقول القانون المدني الفرنسي : « المرأة المتزوجة لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تمتلك بعوض أو بغير عوض بدون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » . ويقضي العرف هناك أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان بل تحمل اسم زوجها وأسرته .. وفقدان اسم المرأة وحملها لاسم زوجها كل ذلك يرمز إلى فقدان الشخصية المدنية للزوجة واندماجها في شخصية الزوج .) . وفي الأجر كل له جزاء

على عمله بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر .. بينما الناس تميز بين الأعمال وتعطي العمل الواحد قيمة مختلفة بحسب من قام به ..

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ ﴾ .

القاعدة العامة في الحصول على الفضل هي الكسب والسعي الذي يقوم به الإنسان . واسألوا الله الإعانة والقوة على ما كلفتم به . فمهما أصاب الإنسان بالجد والاكتساب فإنه بحاجة إلى فضل الله الذي لا يصل إليه علمه وكسبه .. لأن علمه ناقص وقدرته ضعيفة . وكما ورد فإنه لن يدخل أحد الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته وفضله وقد روى مسلم حديثاً بهذا المعنى .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

فإن عجزت أنت أن تفهم لم حكم الله بهذا فالله يعلم كل شيء ويعلم الأحكام التي تناسب المرأة والرجل .

رابعاً ـــ الوفاء بالعقود

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ .. ﴾ .

موالي : ناس من قرابته يرثونه .. والمعنى مرتبط بالآية التي قبلها إذا فهمناها على أنها تشير إلى الحصص في الميراث .

﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ ﴾ .

والزواج عقد يؤكد الله على الوفاء به .. والعقود التي كانت تقوم بين الناس في الجاهلية ويسمونها عقود الموالاة ؛ يقول فيها الرجل للآخر : (دمي دمك وترثني وأرثك) . وما عقده الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار من مؤاخاة شملت في البداية حتى الميراث .. القرآن هنا يصفي العقود القديمة بتقرير أن الميراث سببه القرابة . لكنه

لا يبطل المؤاخاة والنصرة . والإسلام يشدد على الوفاء لأنه من الأخلاق التي جاء ليتممها .

يقول ابن عباس في تفسير الآية : (منع الوراثة إلا للقرابة ، واستبقى للذين عقدت أيمانهم النصرة والنصيحة ﴾ . ويعقب الله تعالى بقوله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

تهديداً لمن يهمل الوفاء بالعقود .. فإن الله شاهد لا تخفى عليه خافية .

خامساً ـــ قوامة الرجال

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ .

ينتقل القرآن إلى تنظيم الأسرة وتوزيع المسؤوليات فيها وطرق معالجة الانحراف فيها . والإسلام يعتبر الأسرة المؤسسة الأولى في المجتمع ، ولهذا يهتم بتنظيمها والمحافظة عليها . وكل مؤسسة تحتاج إلى رئيس يدير أمورها . فإذا كانت المؤسسات الأخرى الأقل أهمية ـــ كالمؤسسات الصناعية والمالية ـــ لا يوكل أمرها إلا إلى المتخصص في هذا الفرع علمياً وتدريبياً ، ويستطيع أن يتفرغ لهذه المهمة .. فالأولى أن تتبع هذه القاعدة في مؤسسة الأسرة التي تنتج أثمن عناصر الكون وهو الإنسان . ومعنى القوامة : الرعاية والتوجيه والرئاسة والمسؤولية .

وفي توزيع الأعباء والتكاليف في الأسرة يتجلى عدل الله تعالى ورحمته وعلمه . فلقد جعل الله مهمة المرأة في الذرية أشق من مهمة الرجل . والإنسان طفولته طويلة الأمد والمرأة هي المسؤولة عن هذه المرحلة وقد أعدها الله لهذه الوظيفة جسمياً ونفسياً ؛ فمن الظلم والإرهاق أن نضاعف عليها الجهد ونكلفها بالقوامة والإنفاق ، بل على العكس إن المرأة تحتاج إلى من يرعاها ويدير شؤونها وينفق عليها ويحميها حتى تقوم

بوظيفتها على أتم وجه . هذا بالإضافة إلى عدم صلاحيتها للقوامة بما تتعرض له أحياناً من تغلب العاطفة على التفكير ، ولكون خبرتها وصلتها بالحياة الخارجية أقل من الرجل ، وهي مشغولة بوظيفتها الطبيعية ــ صناعة الإنسان ــ بينما أعد الرجل للقوامة بما أعطي من صلابة وقدرة على التروي وعدم الانفعال ، وهذا هو ما تشير إليه الآية ﴿**بما فضل الله بعضهم على بعض**﴾ .. أي بما وهب لكل منهما من صفات تساعده على القيام بوظيفته ..وليس القصد بأن الله قد آثر جنساً على جنس .. ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ :وهذا سبب ثان لأن الإنفاق فرع من القوامة ،وإن تدخل المرأة في هذه الجوانب كثيراً ما يؤدي إلى مشكلات وخلافات ونكد في الأسرة .

ملاحظات :

١ ــ ليس معنى القوامة إلغاء شخصية المرأة في البيت والمجتمع ، ولا إلغاء حقوقها المدنية ، وإنما هي وظيفة داخل الأسرة لإدارة هذه المؤسسة وحمايتها ، وقد جعل الله لها حدوداً : « خيركم خيركم لأهله » (رواه الطبراني . وهو صحيح . انظر آداب الزفاف للألباني) . فهي لا تعني أن يستبد الرجل برأيه .. بل يستشير ويناقش الأمور ثم يتخذ القرار .

٢ ــ سوء فهم القوامة عند كثير من المسلمين وتطبيقهم السيّىء للآية سيسألون عنه أمام الله . وذلك أمر يلام عليه المسلمون لا الإسلام .. !!

٣ ــ إن المرأة نفسها لا تحترم الرجل الذي لا يقوم بدوره في القوامة .

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ .

﴿**قانتات**﴾ : القنوت هو الطاعة عن رضى ورغبة من النفس دون الشعور بالضيق أو الحرج . وهذا النوع من الطاعة هو الذي يملأ جو الأسرة بالود والسكينة والسلام .

﴿**حافظات للغيب**﴾ : تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله وأهله .. فلا تبيح من نفسها لأحد ما لا يباح إلا للزوج . وما لا يباح لا تقرره هي ولا يقرره هو ، إنما يقرره الله تعالى .

﴿بما حفظ الله﴾ : في الحدود التي رسمها الله وضمن أوامر الله . ولو كانت رغبة الزوج مخالفة لذلك . فطاعة الله قبل كل طاعة .

ولقد تحدث رسول الله ﷺ عن واجبات المرأة نحو أسرتها : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .. فالرجل راع...والمرأة راعية على بيت زوجها وولده .. » (متفق عليه) .

« إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها . قيل لها : ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت . » (رواه الإمام أحمد) . وفي حجة الوداع قال ﷺ : « واتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح . ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . » (رواه مسلم) .

ومن المؤسف أن نرى الرجل في الحالة العادية يفضل زوجته على نفسه في الطعام والملبس ، بينما أكثر النساء لا ينتبهن إلى واجبهن الأساسي نحو الزوج من طاعة وحسن معاملة وحفظ لماله ولنفسها وللأولاد خاصة . أين التي تستقبل زوجها عندما يعود من عمله ــ متعباً ــ بالود والإيناس فلا تحدثه بما يزعجه .. ولا تملأ صدره هماً بشكواها ومتاعبها ..؟! أين نحن من الصحابية أم سليم التي مات ولدها في غياب أبيه فلم تستقبله بالنبأ الفاجع بل آنسته وترفقت به حتى أكل وارتاح ثم مهدت للخبر بتحريك الإيمان بالله وقبول قضائه .. ؟! « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » (أخرجه الترمذي) .

وقد يأتي اعتراض : ماذا تفعل المرأة المسلمة إن أساء زوجها فهم القوامة واستعملها على غير وجهها .. ؟!

إن أداء الواجب هو الذي يوصل إلى نيل الحقوق .. فالمرأة التي تحرص على القيام بواجبها نحو الرجل وتحرص على الود والرعاية له ، لا بد أن تحصل على الثمار ولو بعد حين . ولقد قال بعضهم : إن الرجل باب مغلق ومفتاحه المرأة . واستعمال الذكاء والحكمة في المواقف والتصرفات أمر هام هنا .. فكيف تستخدم المرأة ذكاءها في سبيل الوصول إلى أشياء دنيوية ولا تفعل ذلك في سبيل الله .. ؟!

وأذكر في هذا المجال خبراً عن امرأة صالحة : أن رجلاً فقيراً طلب منها أن تأذن له بالجلوس قرب بيتها ليبيع بضاعته البسيطة .. فذكرت في نفسها غيرة زوجها .. وفكرت ثم قالت للرجل : اذهب الآن وتعال فاستأذن حين يأتي زوجي . فلما جاء يستأذنْ قالت للرجل بحدة مصطنعة : أما وجدت مكاناً تبيع فيه إلا هنا .. ؟! فقال زوجها : وماذا عليك لو أذنت له بذلك .. ؟!

إنها بذكائها استطاعت أن تدفع زوجها إلى عمل خير متناسياً غيرته .

يقول ﷺ : « إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها » قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم » (متفق عليه) . إننا بحاجة الآن إلى أناس يقومون بواجباتهم .. لا إلى أناس يطالبون بحقوقهم .. وطريق الواجبات هو الطريق الذي دعا إليه الأنبياء وعاشوا عليه . وتلك هي ميزتهم عن الزعماء السياسيين .. ففي الوقت الذي يتحدث فيه الزعماء عن حقوق الشعب ويملأون خطبهم بما سيعطونه من مكاسب وحقوق و ... كان نداء الأنبياء للناس عبر الأجيال « اعبدوا الله . . اتقوا الله . . » ، بالرغم من أن الحديث عن الحق أحب إلى الإنسان من الحديث عن الواجب . لكن خطة الأنبياء لا يمكن أن تقارن بخطط الزعماء .. لا من حيث التأثير في النفوس ولا من حيث النتائج والعواقب . فلقد ذهبت كل الخطب الرنانة عن حقوق العرب والشعب الفلسطيني أدراج الرياح .. لأننا لم نحاول حتى الآن أن نحل المشكلة بسلوك طريق الواجبات .. أن يبحث كل فرد عن واجبه ويؤديه .. إن أسلوب الهتاف والتصفيق لن يحقق لنا شيئاً طالما أننا لم نغير أعمالنا .. فكما قال أحدهم : (إن شدة صياح أعمالك حالت دون سماع ما تقول) . القضية بالأعمال لا بالأقوال ..

وموضوع حقوق المرأة وتحريرها خاضع للسنة نفسها .. فحين تعود المرأة إلى طريق الواجبات تصبح جديرة بالاحترام والتكريم .

سادساً ــ معالجة مشكلات الأسرة

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ .

النشوز في الأرض : الارتفاع والوعورة . والمرأة الناشز : المترفعة على زوجها تترك أمره وتعرض عنه . فهي تحمل أفكاراً تدفعها إلى الطريق الوعرة المنحرفة . والإسلام لا ينتظر حتى يقع النشوز بالفعل وتنقسم المؤسسة إلى طرفين متباعدين وتصعب المعالجة .. بل يبدأ العلاج منذ أن يحس ببوادر الشقاق ويخشى أن يؤدي إلى النشوز ..

ها هي المؤسسة الأولى في كيان المجتمع تصبح معرضة للخطر والانهيار .. ومديرها المسؤول عنها مكلف ببذل جهده لحمايتها واتخاذ التدابير الواقية لها .. وقد أذن الله لهذا المسؤول ــ بل أمره ــ أن يستخدم بعض أنواع التأديب لا للانتقام ولا للإهانة أو التعذيب وإنما للإصلاح والصيانة . كما يتصرف مدير مؤسسة مع موظف يخالف النظام ويقوم بأعمال تضر بالمؤسسة . فينذره .. ثم يعاقبه .. فإن لم يرجع إلى الحق فصله .

أ ــ علاج النشوز :

وأول علاج يؤمر به : الموعظة ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾.. وهو واجب مطالب به رب الأسرة في الحالة السوية ويتضاعف في حالة النشوز .. ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ..﴾ (التحريم ــ ٦) .

والوعظ يختلف باختلاف حال المرأة . فمنهن من يؤثر فيها التخويف من الله والترغيب في ثوابه ، ومنهن من يفعع معها التحذير من سوء العاقبة كشماتة الأعداء ، والمنع من بعض الرغائب الدنيوية كالثياب و ..

وأول خطوة في الموعظة :

١ ــ التعليم : فقد تكون جاهلة لأحكام الله لا تبصر عواقب الأمور ولا تدرك ما سيسبب هذا النشوز لها ولأسرتها .

٢ ـــ التذكير بآيات الله .. فهي وإن كانت تعلم معرضة للنسيان وتحتاج إلى التذكير .

٣ ـــ تحريك الإيمان بالله واليوم الآخر ترغيباً وترهيباً .

ومن المعروف أن الوعظ هو التذكير بعواقب الشر والفساد .. فكيف نقصر الوعظ على تحريك العواطف ، بينما هو في جوهره لا يصدر إلا عن مستوى راقٍ من العلم والقدرة على التعليم .. فالعلماء هم الذين أدركوا الأسباب ونتائجها وكشفوا السنن والعواقب و﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر ـــ ٢٨) . والمرأة المؤمنة العادية ينفع معها هذا الأسلوب الذي هو علاج للفكر والضمير .. فإن لم ينفع هذا فقد تكون النفس بحاجة إلى معالجة ضد العناد والغرور والهوى و ..

وهنا تأتي الوصفة الثانية :

﴿ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾ .

وهي حركة استعلاء من الرجل على المرأة .. يذكرها فيها بقوة إرادته وقدرته على التحرر من سلطان إغرائها .. ويشعرها بأنها قد عرضت نفسها لإعراضه ونفوره وأن مكانتها عنده في خطر .. إنها عقوبة نفسية تهز أعماق المرأة وتدفعها إلى مراجعة الذات والتصحيح .

وأدب هذا الإجراء وشرطه أن : « لا تهجر إلا في البيت »[1] . بحيث لا يحس به الأطفال والغرباء حتى لا تشعر الزوجة بالثورة لكرامتها فتزداد نشوزاً . فالقصد هو الإصلاح وليس الثأر ولا إفساد الأطفال . فإن لم ينفع هذا الإجراء فإن هذه المرأة تكاد تنعدم المشاعر الإنسانية الكريمة فيها . وقد ينفع معها إجراء آخر .

﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾: والضرب على قسوته أهون من تحطيم الأسرة وتشتيت فراخها..

وقد قيل في سبب نزول هذه الآية : أن زوجة سعد بن الربيع حبيبة بنت زيد نشزت عليه فلطمها . فاشتكت هي وأبوها إلى النبي ﷺ فقال : « لتقتص من

١ ـــ جاء في السنن والمسند (راجع تفسير ابن كثير للآية) .

زوجها » فانصرفت فقال ﷺ : « ارجعوا . هذا جبرائيل أتاني » وأنزل الله هذه الآية .. وقال ﷺ : « أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراده الله تعالى خير »[1] .

وقال النبي ﷺ : « لاتضربوا إماء الله » . فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال : (ذئرت النساء على أزواجهن) . فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين من أزواجهن . ليس أولئك بخياركم » (رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه) .

وأدب هذا الإجراء وشرطه أن يكون ضرب تأديب لا ضرب تعذيب .. فالنبي ﷺ يتوجه إلى الرجال بوصية في النساء : « اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان . ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح . ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف » (رواه مسلم) .

ولا بد أن نتذكر أن رسول الله ﷺ نهى نهياً عاماً عن ضرب الوجه واعتبره ذنباً يتوجب على فاعله أن يعتق رقبة .. لأن الوجه أكرم شيء في الإنسان ، وإن الله قد كرم بني آدم وحرَّم إذلالهم . ويعقب القرآن على ذلك :

﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾

وهو تهديد للرجال وتحذير من نوايا البغي والاستعلاء وتذكير بسلطان الله وقدرته عليهم ولقد ربى الإسلام الضمائر على خوف الله وخشيته . وأن الله أكبر من كل متكبر مستعلٍ على الناس .. رأى رسول الله ﷺ رجلاً يضرب عبده فقال له : « اعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك عليه » فقال : هو حر لوجه الله تعالى . فقال ﷺ : « أمَا لو لم تفعل لمستك النار » (رواه مسلم) . وقبل أن ننهي هذا الموضوع لا بد من ذكر ملاحظات :

١ ــ هذه الإجراءات لا موضع لها في حالة الوفاق ، وإنما هي لمواجهة خطر الفساد في الأسرة . ولقد اعترضت امرأة : كيف يسمح الإسلام بضرب المرأة ..؟! فقيل لها : ولِمَ وضعت نفسك في مكان المرأة المنحرفة الناشز ..؟!

---

١ ــ ذكره رشيد رضا في تفسيره للآية في المنار .

إن الناشز هي امرأة منحرفة قد يؤدي انحرافها إلى الجريمة . ولذا سمح الإسلام بتأديبها حتى يردعها ذلك عن الانحراف . وذلك كما أمر بتأديب السارق والزاني لردعهم عن الانحراف ..

٢ ــ كذلك إن هذه الإجراءات لا موضع لها في حالة كراهية المرأة لمعيشة لا ترضاها .

٣ ــ أحيطت هذه الإجراءات بالتحذيرات من سوء استعمالها وتولى رسول الله ﷺ بسنته العملية وبتوجيهاته علاج الغلو والخطأ في استعمالها . فرسول الله ﷺ لم يضرب واحدة من نسائه .. بل قال : « ولن يضرب خياركم » (رواه البيهقي) .

٤ ــ إن الذي قرر هذه الإجراءات هو الله الخالق وهو أعلم بمن خلق . وهو المشرع الذي أرسل نظاماً يستوعب عامة الناس ــ وليس لطبقة خاصة منهم ــ يقول صاحب المنار عند تفسيره للآية : (إن بعض الإفرنج يعترض على سماح الإسلام بضرب المرأة . وكثير منهم يضربون نساءهم العاملات لأتفه الأسباب فكيف يستنكر إباحة الضرب للضرورة في دين عام للبدو والحضر .. ؟! وإنما يباح الضرب إذا رأى الرجل أن رجوع المرأة عن نشوزها يتوقف عليه .. لا أن الضرب يزيد الطين بلة ؛ فلكل حالة حكم يناسبها . ولا ننس الأمر بالرفق بالنساء واجتناب ظلمهن وإمساكهن بمعروف أو تسريحهن بإحسان) .

أما حين تستعصي الحالة ولا تنفع الإجراءات السابقة فإن لدينا محاولة أخيرة لإنقاذ الأسرة من الانهيار وهي التحكيم .

ب ــ التحكيم :

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ..﴾

فعندما تظهر بوادر الشقاق بين الزوجين ــ كأن بينهما شقاً يصعب اجتيازه ــ ينتقي كل طرف حكماً من أهله يرتضيه ويثق بحكمته وإخلاصه ورغبته في الإصلاح .

ويجتمع الحكمان في هدوء يبحثان الأمر ويحاولان تقريب وجهات النظر .

﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ .

والفعل ﴿**يريدا**﴾ : يعود على الزوجين أو الحكمين . فإن أرادا الإصلاح وفق الله بينهما .. فالصلة قوية بين إرادة الإنسان وسعيه وإرادة الله به . وقدر الله فينا يمشي وفق سنة وضحها لنا القرآن أكثر من مرة : ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد ــ ١١) . إن تغيير ما بالأنفس يؤدي إلى تغيير الأعمال وهذا يؤدي إلى تغيير ما بالقوم .. أي :

وجود الإرادة ينتج عملاً ، وهذا العمل يؤدي إلى الوصول للهدف . هذه الآية تشير إلى شرط واحد من شروط العمل وهو الإرادة . بينما يحتاج العمل إلى شرط آخر حتى يتم وهو القدرة . وحين يفقد الإنسان القدرة يرفع عنه التكليف بالعمل : ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله » (التوبة ــ ٩١) .

والقدرة نوعان : فهمية ومادية ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ (البقرة ــ ٢٤٧) . فبالعلم والفهم يضع خطة العمل . وبالجسم والمال ينفذ . فالإصلاح بين الزوجين هنا يحتاج إلى إرادة للإصلاح وقدرة عليه عند الحكمين ــ والقدرة هنا تتمثل في إدراك أبعاد المشكلة وكيفية علاجها ــ لكن الآية هنا تذكر الإرادة فقط لأن وجود الإرادة للإصلاح يدفع إلى تحصيل القدرة اللازمة ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ (التوبة ــ ٤٦) . كما أن توفر القدرة ــ أي الفهم ــ عند الحكم الذي يختار لأداء هذه المهمة مفهوم ضمنياً[1] . إذ لا يختار لأداء هذه المهمة إلا القادر على فهمها وحلها . ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال : (إذا توافرت الإرادة الجازمة والقدرة التامة حصل المراد) .

ونلاحظ أنه لم يذكر مقابل التوفيق الحالة الأخرى وهي التفريق .. وكأن الله يبغضه ويستبعده كلياً ويصرف الأذهان عنه .

---

١ ــ انظر كتاب العمل قدرة وإرادة لجودت سعيد .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ .

فليحذر المتنازعان والحكمان فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . فالظالم والماكر والمخادع لن يفلت من عقابه .

تلك هي بعض التنظيمات التي تدل على عناية الله بصيانة الأسرة وحفظ كيانها من التفتت .. وينبغي للزوجين أن يدركا قداسة هذا الرباط الذي يربط بينهما وخطورة هذه المؤسسة التي يشرفان عليها فلا يعرضانها للدمار إرضاء لنزوة عابرة أو أنانية طارئة .

ويذكر أن عمر رضي الله عنه قال لامرأة صرحت بأنها لا تحب زوجها : (إذا كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تخبره بذلك ، فإن أقل البيوت ما بني على المحبة . وإنما يعيش ــ أو يتعاشر ــ الناس بالحسب والإسلام) . أي أن حسب كل من الزوجين وشرفه إنما يحفظ بحسن عشرته للآخر . وكذلك الإسلام يأمرهما أن يتعاشرا بالمعروف .

كذلك قال للرجل الذي أراد أن يطلق زوجته لأنه لا يحبها : (أوَ كل البيوت تبنى على الحب .. ؟! فأين التذمم[1] والمروءة .. ؟!) .

---

١ ــ التذمم : أي البعد عن المواقف التي تسبب له الذم من الله والناس .

الفصل السادس

وصايا في الإحسان والرياء والشهادة والصلاة

۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ
ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن
كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾
وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي

سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ
أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً
فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

الآيات تنتقل بنا من الأسرة الصغيرة إلى المجتمع المسلم الذي يمثل الأسرة الكبيرة للمسلم . فيضع خطة للمسلم في علاقاته الاجتماعية .

لكن شبكة العلاقات كلها ــ مع الله ثم الناس ثم الكون ــ لا تنتظم إلا بتصحيح الصلة مع الله وإحكامها .. ولهذا يأتي البدء بالوصية الأولى .

أولاً ــ عبادة الله وحده وعدم الشرك به

الوصية الأولى : ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ .

كلام رائع الإحكام .. يرتبط بما قبله وما بعده .. إن واو العطف تشعرنا أن **رعاية الأسرة والتزام العدل والإحسان في شؤونها هي من لب العبادة لله . . وكذلك واو العطف الثانية ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ . إن عبادة الله هي الإحسان في هذه العلاقات الاجتماعية . إن العبادة والتشريع في الإسلام شيء واحد . . وإن عبادة الله هي طاعته فيما** أمر ونهى، واللجوء إليه في الدعاء وسائر العبادات . وإن الفصل بين العبادة والتشريع .. بين الدين والمعاملات .. ينتج مسخاً مشوهاً عاجزاً هو حال العالم الإسلامي اليوم . بينما نجد مفهوم العبادة واضح عند أناس بعيدين عن الإسلام . فهم يدركون أن معبود الإنسان هو الشيء الذي يستأثر باهتمامه ويصرف له معظم وقته وجهده وماله . فيقولون عن رجل : إنه يعبد المال .. وآخر يعبد النساء .. وتوماس كارليل يكتب في كتابه (فلسفة الملابس) عن عشيرة المتأنقين فيصفهم بأنهم قوم لهم معابدهم ــ دور عرض الأزياء ــ وصلواتهم ــ الحفلات المقامة بها ــ ...

والعبادة نظام كامل للحياة يضع سمته على كل جزئية منها .. فالذي يعبد الله تبدو عبادته في حركته وسكونه .. في طريقة سيره ولقائه مع الناس وتعامله معهم ..

﴿وعباد الرحمن الذين : يمشون على الأرض هوناً . وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقامـاً .

والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً . والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً . إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً .

والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً .﴾ (الفرقان ـــ الآيات ٦٣ ـــ ٧٤) .

تلك هي الصورة الحقيقية لعباد الرحمن .

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ .

ولم يقل أحداً . حتى تشمل جميع أنواع الشرك من خضوع لبشر .. أو عبودية لهوى .. أو طاعة لتقاليد .

يقول النبي ﷺ لمعاذ : « أتدري ما حق الله على العباد » ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال ﷺ : « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك .. أن لا يعذبهم » (رواه مسلم) .

إن قضية توحيد العبادة لله هي التي احتاجت إلى تربية طويلة المدى . ولقد كان الصحابي ينخلع من جاهليته بمجرد إسلامه لأن طريقة حياته كلها ستختلف بعبادة الله .. فهي منهاج حياته الجديد .. لكن المسلم المعاصر لا يدرك ذلك فهو يرقع جاهليته برقع من الإسلام فمن أين له أن يرسم الصورة الحقيقية للإسلام .. ؟!كما قال الشاعر :

نرقـع دنيانـا بتمزيـــق ديننـــا   فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

ثانياً ــ الإحسان للوالدين

الوصية الثانية : الإحسان .. ويبدأ بالوالدين ثم الأقرب فالأقرب ..

فما الإحسان .. ؟ ولمن يكون .. ؟

حين نتأمل أنواع العلاقات الإيجابية التي أمر بها القرآن يمكن أن نلاحظ ثلاثة :

١ ــ العدل .   ٢ ــ الإحسان .   ٣ ــ الموالاة .

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ (النحل ــ ٩٠) .

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ (التوبة ــ ٧١) .

أما الموالاة فهي أرق العلاقات الإيجابية . وهي علاقة حب وثقة وتكافل وتناصر وإيثار .. بل تصل أحياناً إلى خفض الجناح والذل : ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ (الشعراء ــ ٢١٥) . ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ (المائدة ــ ٥٤) .

فمن الطبيعي أن لا تكون إلا بين أصحاب العقيدة الواحدة والهدف الواحد : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » (الممتحنة ــ ١) .

وأما العدل فهو أدنى مرتبة من العلاقات وقد أمرنا به حتى مع أعدائنا :

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ (النساء ــ ١٣٥) . ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ (المائدة ــ ٨) . ومن يترك العدل يكن ظالماً آثماً . لأن

العدل هو المرتبة الدنيا في العلاقات ولا يجوز للمسلم أن ينزل عنها .

فما الإحسان .. ؟

لدينا في الإحسان حديثان يمكن أن يحددا لنا معنى الإحسان :

١ ــ « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك » (رواه مسلم) .

٢ ــ « إن الله كتب الإحسان على كل شيء . فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته . » (رواه مسلم) .

ويمكن أن نلاحظ أنه في الحديث الأول عرَّف الإحسان كشعور في القلب . فهو في جوهره استحضار القلب لرقابة الله .. وهذا ما ينشىء الإحسان في العمل الذي يصفه الحديث الثاني . فهو يؤدي العمل على أحسن صورة .. « وإن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » (صحيح الجامع الصغير للألباني) . فوجود الأول (الشعور برقابة الله) يقتضي وجود الثاني (إتقان العمل) . لكن العكس ليس صحيحاً دائماً .. فقد يحسن الإنسان عمله رياء ..

والإحسان هو الزيادة على العدل .. لأنك تعطي الآخر حقه وزيادة من نفسك لا على حساب الآخرين . وهذا ما توضحه الآيات : ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ (آل عمران ــ ١٣٤) .

﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تكُ في ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (النحل ــ ١٢٦) .

فالعفو تنازل عن الحقوق . وترك المعاقبة بالمثل هو الإحسان : ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (فصلت ــ ٣٤) .

والذي تشير إليه الآيات أن الإحسان أن تقوم بواجبات أكثر مما تنال من حقوق ...

تستطيع أن تعبس في وجه أخيك كما يعبس هو في وجهك .. ذاك عدل ؛ لكن الإحسان أن تلقى أخاك بوجه طلق ولو عبس .. أن تدخل إلى عيادة الطبيب في دورك هو العدل ؛ لكن أن تتنازل عن دورك لأخ جاء بعدك هو الإحسان .. من أجل ذلك نهى رسول الله ﷺ من يأتي متأخراً إلى المسجد أن يتخطى الرقاب .. أن لا ترمي فضلات وأقذاراً في الشارع .. ذلك هو أدنى المراتب ؛ لكن الإحسان أن تميط الأذى عن الطريق .. فأين المسلم من هذا ..؟! إنه لم يصل إلى أدنى المراتب وهي كف الأذى فكيف بالإحسان .. ؟!

وإن الله كتب الإحسان في كل شيء .. ومع كل الناس ..

في القول : ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ (البقرة ــ ٨٣) . ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ (الفرقان ــ ٦٣) ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ (الإسراء ــ ٥٣) .

وفي المعاملة : ﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾ (الرعد ــ ٢٢) . أو على الأقل كما قال رسول الله ﷺ « فليقل خيراً أو ليسكت » (رواه مسلم) .

حالة واحدة أمر فيها الله بالعدل لا بالإحسان .. وهي : ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل .﴾ (النساء ــ ٥٨) . لأن الإحسان لا يكون على حساب حقوق الآخرين .. وإنما هو عطاء من نفسك وعلى حسابك . والقرآن يعلق قلب المؤمن بالإحسان بأسلوب فذ .. نرى بعض لمحاته في التعقيب المتكرر ﴿والله يحب المحسنين﴾ (المائدة ــ ٩٣) .. ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ (البقرة ــ ١٩٥) .. وأي شيء أحب إلى المؤمن من أن يكون في زمرة أحباب الله ..؟!

وكل هذه المكانة للإحسان ، لأن الله جعل نمو الحياة الإنسانية لا يحدث إلا بالإحسان والإيثار . فحين تتساوى الحقوق والواجبات ــ الاستهلاك والإنتاج ــ فإن الحياة الفردية والجماعية تتجمد في مكانها ، ولا بد من فائض في الواجبات ــ أي الإنتاج كي يحدث النمو والتقدم في حياة الأمة . ويتجلى ذلك بوضوح في الحياة العضوية حيث تؤثر الأم جنينها بالغذاء وهو في بطنها فيأخذ كفايته ولو على حساب صحتها . ويستمر الإيثار بعد ذلك في حياة الأبوين مع طفلهما إلى أن يعجزا عن العطاء .. تلك

غريزة في الآباء .. فاحتاج الولد إلى التذكير باستمرار بضرورة الإحسان مع والديه حتى تستمر المعاني الإنسانية في نموها .. وقد ظهرت أهمية هذه الوصية في عصرنا هذا أكثر . لأن العناية الصحية أدّت إلى زيادة نسبة المسنين في الحضارة المعاصرة .. وكشفت مراكز العناية بالمسنين عن قصورها في إعادة الدفء إلى قلوبهم لأنها لم تستطع أن تقدم لهم البر والحنان الذي فقدوه في أبنائهم . وهكذا نجد أن أول من نقوم بواجب الإحسان معه الوالدين .

١ ــ ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ : فهما أول من يبدأ الله به في وصيته بالإحسان . وصاحب المنار يتكلم عند الآية فيقول بما معناه :

إن جماع الإحسان المأمور به أن يقوم بخدمتهما ، ولا يرفع صوته عليهما ، ولا يخشن في الكلام معهما ، وأن ينفق عليهما بقدر طاقته . ومن فعل ذلك وهو لا يلقاهما إلا عابساً مقطباً لا يعد محسناً . والعبرة بما في نفس الولد من قصد البر والإحسان والإخلاص . ويجمع هذه الحقوق كلها آيتا سورة الإسراء . ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً . إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً .. ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ (الإسراء : الآيات ٢٣ ــ ٢٥) . وبعض الوالدين يتعذر رضاهما بما يستطيعه أولادهما ، ويكلفون أولادهم بما لا طاقة لهم به . وقلما نجد ذا سلطة لا يجور ولا يظلم .. حتى الوالدين .. وكثيراً ما يستبد الوالدان بالرأي عند زواج الولد أو البنت .. ثم يتدخلان في حياتهما .. فماذا يمكن للأولاد أن يفعلوا .. ؟

وهنا لا بد من الانتباه إلى أن الوالدين إذا أراد أحدهما أو كلاهما أن يستبد في تصرفنا فليس من البر أو الإحسان شرعاً أن نترك ما فيه الخير العام أو الخاص عملاً برأيهما واتباعاً لهواهما . فالبر والإحسان لا يقتضيان سلب الحرية والاستقلال .

﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ (لقمان ــ ١٥) .

٢ ــ ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ : فالأقربون أولى بالمعروف ؛ ونظام الله لا يعارض

الفطرة السليمة التي تنعطف للقرابة والرحم . بل يؤكد الصلة الإيجابية هنا . وأحاديث صلة الرحم كثيرة في هذا المجال . وتضامن ذوي الأرحام وتعاطفهم كفيل بإعطاء تماسك اجتماعي عام .

٣ً ـــ ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ :يلحقون بذوي القربى مباشرة لتعويضهم عما لحق بهم من خلل في أسرهم ونقص في مجال صلة الرحم . وحاجة اليتيم للإحسان هي نفسية بالدرجة الأولى .. وقد تكون معها حاجة مادية . ولا بد من استيفاء الجانبين .

٤ً ـــ ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ : والحاجة هنا تبدو مادية . والمساكين على نوعين :

آ ـــ مسكين معذور يساعَد بالمال أو يعان على تحصيله .

ب ـــ مسكين غير معذور يرشد إلى تقصيره ولا يساعد على إسرافه أو كسله . بل يُعلَّم ويرشد إلى طرق الكسب الحلال .

٥ً ـــ ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ :والآية تشير إلى نوعين من الجيران : ذي القربى والجار الملاصق بيته لبيتك . ومن السلف من حدد الجوار بأربعين داراً من كل جهة . لكن الأقرب : أن الجار من تجاوره ويتراءى وجهه ووجهك في غدوك ورواحك إلى دارك . ولا شك بأن دائرة الجوار قد توسعت الآن بسبب أساليب البناء والسكن . فالعمارة الواحدة تتضمن عشرين بيتاً أو أكثر في المدن الكبرى . ومالك بن نبي ـــ رحمه الله ـــ يقول : إن دائرة الجوار قد توسعت بسبب تطور وسائل المواصلات . كما أن الأمر أصبح ينظر إليه كعلاقات جوار بين الدول .

وعلاقة الجوار لها ثلاثة أنواع تتدرج بحسب الأهمية :

١ ـــ جار له عليك حق الجوار وحق القرابة وحق الأخوة في الدين .

٢ ـــ جار له عليك حق الجوار وحق الأخوة في الدين .

٣ ـــ جار له عليك حق الجوار فقط .

وقد ورد في الصحيح أن رسول الله ﷺ عاد ابن جاره اليهودي . وروى البخاري في الأدب المفرد عن ابن عمر أنه ذبح شاة له ، فجعل يقول لغلامه : أهديت

لجارنا اليهودي ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه » .

٦ً ــ ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ : وهو كل صديق تعرفت عليه وصادقته ولو لمدة قصيرة .

٧ً ــ ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ : الضيف والمسافر الغريب عن أهله ودياره ، كأن السبيل أمه وأبوه.

٨ً ــ ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يقول ﷺ :« هم إخوانكم وخَولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » (رواه الشيخان) .

وهكذا يتوسع الأمر بالإحسان بادئاً من الأقرب حتى يشمل المجتمع المؤمن ، ويتعداه إلى العلاقات مع سائر أفراد الإنسانية .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ .

والمختال : يتعالى في حركاته ، والفخور : بكلامه . وإن المختال لا يدرك معنى عبادة الله ، لأن عملاً ما لا يسمى عبادة إلا إذا كان صادراً عن الشعور بعظمة المعبود وسلطانه الأعلى . ومن أوتي هذا الشعور خشع قلبه ، ومن خشع قلبه خشعت جوارحه فلا يكون مختالاً فخوراً . يقول ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » . فقال رجل : إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة فقال ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس » (رواه مسلم) . فالكبر هو الترفع على الحق واحتقار الناس . وليس من الكبر أن يكون المرء وقوراً من غير غلظة ، عزيز النفس مع الرقة والأدب وحسن الثياب .

إن المختال الفخور لا يرى إلا نفسه ، فكيف يبذل ويعطي أكثر مما يأخذ ..؟! إنه أبعد ما يكون عن الشفقة والإحسان .

كذلك ينبغي أن ننتبه إلى تمحيص النية في الإحسان ، فيكون خالصاً لله وليس للفخر .. ذلك هو الإحسان : عطاء وتضامن مادي ومعنوي يجعل أفراد المجتمع

كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . ولقد عرف مالك بن نبي الحضارة بأنها : (مجموعة الضمانات المادية والمعنوية التي يقدمها المجتمع للفرد) . ولا تتوفر هذه الضمانات إلا بغرس بذرة الإحسان في النفوس . ولقد حققت الحضارة الإسلامية مستويات من التكافل لم تسبق إليها انطلاقاً من قوله ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (رواه مسلم « مع إضافة لجاره ») . واشتمل هذا على التكافل :

١ً ــ العلمي : فإنه يتوجب على كل من تعلَّم أمراً أن يعلِّمه للآخرين . و« من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » (أخرجه أبو داود والترمذي) . وكان العلم يقدم مجاناً للجميع .

٢ً ــ الدفاعي : فإذا أسر العدو واحداً من المسلمين في المغرب وجب على آخر رجل في المشرق أن يهب مع إخوانه لتخليصه .

٣ً ــ الأخلاقي : وذلك لصيانة الفضائل في المجتمع ومحاربة الفساد . « من رأى منكم منكراً فليغيره » (رواه مسلم) .

٤ً ــ المادي : وهو إلزام المجتمع بسد حاجات كل محتاج . وهو يشمل ضمان الفقر والمرض والعاهة والعجز والشيخوخة والأداء عن الغارمين . وقد عرف الضمان العائلي في النظام الإسلامي من حيث الإعانة على الزواج أولاً . ثم يفرض لكل مولود عطاء من بيت المال وقد شمل هذا التعويض العائلي كل أفراد المجتمع . بينما تقصره جميع الدول حتى الآن على موظفي الدولة . ولنا أن نلاحظ أن الدول الغربية لم تعرف التكافل الاجتماعي كحقيقة واقعة إلا في القرن التاسع عشر . ولم تعرف منه سوى الجانب المادي في أكثر الحالات .

وأحب أن أختم هذه الإشارات السريعة في موضوع الإحسان بذكر خبر واحد من أخبار لا تحصى عن مدى تشرب السلف الصالح لمبدأ الإحسان حتى صار خلقاً يومياً لهم .. خرج علي بن الحسين ــ المعروف بزين العابدين ــ يوماً من المسجد فسبه رجل فانتدب له الناس . فقال : دعوه . ثم أقبل عليه فقال : ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر . ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل . فألقى إليه خميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم . فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول : إنك من أولاد الأنبياء .

ثالثاً ــ التنفير من البخل والرياء واتباع الشيطان

الوصية الثالثة : فيها تحذير من البخل والرياء .. المرضين اللذين يصيبان الإنفاق . والآيات تعرض ثلاثة مواقف للأغنياء .

١ً ــ البخل وكتمان نعمة الله .

٢ً ــ الإنفاق رياء وفخراً .

٣ً ــ الإيمان والإنفاق لله .

١ً ــ ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ ﴾ .

روى ابن جرير بسند صحيح عن ابن عباس : كان كردم بن زيد حليف كعب ابن الأشرف وأسامة بن حبيب ونافع .. وحيي بن أخطب و .. ــ كلهم من اليهود ــ يأتون رجالاً من الأنصار يتنصحون لهم فيقولون لهم لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ولا تسارعوا في النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون . فأنزل الله الآية .

وروى غيره أن الحديث عن أهل الكتاب : بخلوا بحق الله تعالى عليهم وكتموا الإسلام ومحمداً ﷺ وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .

والآية عامة في كل من يفعل ذلك .. وشاملة للبخل المادي والمعنوي الذي منه كتمان العلم وإمساك المعروف والضن بالعفو والإحسان عن الناس .

والبخل مرض نفسي لأن البخيل يجعل المال غاية لا وسيلة . وقد يحرم نفسه من الحاجات الضرورية في سبيل أن يحرز المال ويكنزه .

﴿ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ ﴾ : حتى يكون لهم عذر عدم الإنفاق . بينما يأمر الله : ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ (الضحى ــ ١١) .

وقد جاء في الأثر : « إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه »[1] .
ويبين الله عاقبة هذا الموقف :

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ ..

يصفهم الله بالكفر .. لأن الكفر هو الستر والتغطية .. يقال : ليل كافر إذا كان شديد السواد ساتراً .

فالبخيل يخفي نعمة الله ويكتمها ولا يشكر الله عليها ، فهو كافر بنعمة الله جاحد لها .. والآية نص واضح على أن البخل من صفات الكافر .

ويهددهم الله بالعذاب المهين مقابل فخرهم واختيالهم. فالجزاء من جنس العمل.

ومداخل الشيطان هنا كثيرة ، فهو يحاول تسويغ البخل بحجج منطقية .. ولهذا يردد الناس : (اتق شر من أحسنت إليه) ، ويذكرون الحوادث التي قابل الناس فيها الإحسان بالإساءة فيصاب السامع بالخوف والحذر الزائد عن الحد حتى لا تبقى لديه رغبة في عمل البر . وهكذا نقع من حيث لا ندري ضمن الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل . ولو كان بذلنا وإحساننا ابتغاء مرضاة الله لما أهمتنا مواقف الناس سواء قابلوا الإحسان بالإساءة أو بالإحسان . والذي يترك الإحسان لأن الناس قابلوه بالإساءة .. إنما كان يبتغي الأجر من الناس .. ولهذا تشير الآية إلى الموقف الثاني :

٢ ـــ ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ .

لنجاح العمل وقبوله عند الله شرطان : الإخلاص والصواب . والدافع عند هؤلاء في إنفاقهم ، إنما هو الفخر والحصول على ثناء الناس لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يرجون بالتالي ما عنده .. وهؤلاء يقول الله عنهم في آية أخرى : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ (الفرقان ـــ ٢٣) . ويقول رسول الله ﷺ عنهم : « ثلاثة هم أول من تسجر بهم النار وهم : العالم والغازي والمنفق ؛ المراؤون

---

١ ـــ ذكره ابن كثير عند تفسير الآية .

بأعمالهم . يقول صاحب المال : ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك . فيقول الله : كذبت . إنما أردت أن يقال جواد فقد قيل » (رواه مسلم) .

﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ .

والقرين هو الصديق الملازم الذي قلما يفارق .. والذي يعيش في جو ينشر الشيطان فيه ما يريد من ضلال وبين أناس استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، فقد عرض نفسه لقرانة الشيطان ﴿ من الجنة والناس ﴾ وما أفظع أن يلازم الإنسان عدوه اللدود ويتخذه صديقاً ، ويستسلم إليه حتى يرديه في نار جهنم ..!! ﴿ **فساء قريناً** ﴾ .

٣ ـــ ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ .. ﴾ .

هل هناك خسارة عظمى تمنع السير في طريق الله ..؟! بل إنهم يتركون الطريق المستقيمة إلى ما فيه الخسران المبين . وهم حين ينفقون إنما ينفقون مما رزقهم الله ، فالجسم والعمر والمال والعلم كلها منح من عطايا الله . ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (إبراهيم ـــ ٣٤) . والإنسان يصبح كل يوم وعلى كل سلامى من جسده صدقة .. يقدمها شكراً لله على العافية وما حباه الله من الاقتدار .. عدا عن صدقات المال والعلم .. فماذا عليهم لو أنفقوا من عطايا الله .. والرزق رزقه والعطاء منه وحده . وهو الذي لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه معروف في ليل أو نهار ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ ..

قد لا تجد من الناس تقديراً لجهودك وظروفك ومشاعرك .. وقد لا تجد عرفاناً لجميلك وتضحياتك . ولكن الله لا يخفى عليه شيء من ذلك ولا يغبنك ولا بمثقال ذرة ـــ من إحسان ـــ عملتها .. بل يضاعف ويزيد من فضله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

هذه هي الآية الخامسة من الثمانية التي قال عنها ابن عباس خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس . فمع أنك تنفق من رزق الله وفضله ، لكنه يسجل ذلك لك

حسنات ويعطيك من الأجر أضعافاً . فأي إنسان يترك هذا الربح الوفير ويختار الخسران المبين ..؟! وقوله : ﴿ **يؤت من لدنه** ﴾ أدق مما لوقال : (عنده) . وذلك أن الإنسان يقول عن مال ولو كان بعيداً عنه : عندي مال . لكنه لا يقول : لدي .. إلا إذا كان بين يديه .

وهل الآية عامة في كل من قام بحسنة ولو كان مشركاً .. ؟

ورد في أحاديث أن بعض المشركين يخفف عنه العذاب بعمل له مثل حاتم بكرمه .. وأبو طالب بحمايته للنبي ﷺ . وورد حديث بالتخفيف عن أبي لهب لعتقه ثويبة حين بشرته بولادة النبي ﷺ مع أن الله قال: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ (اللهب ــ ١) . وأحسن ما قيل هنا : إنه لا يقابل الشرك عمل صالح فيمحوه بل الأعمال الصالحة بإزاء الشرك هباء . ولكن المشرك العاصي أشد عذاباً من المشرك المحسن . ولا يعقل أن يكون المحسن والمسيء عنده تعالى سواء فإن هذا من الظلم المنفي عنه تعالى . وقد قال في سورة الزلزلة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ (الزلزلة ــ ٧) . وقد يعطيه الله ثوابه في الدنيا لأنه من أهل النار في الآخرة .

ويعقب على هذه الوصية بعرض مشهد من القيامة :

رابعاً ــ اليوم الآخر وشهادة الرسل على الأمم

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ .

والشهادة هي عبارة عن مقابلة عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد أنبيائهم وأعمالهم .. فكيف يكون حالكم أمام الله ورسوله وأنتم تسألون عن القرآن كيف فرطتم به ..؟! وعن سنة رسوله التي أهملتموها . .؟! هؤلاء الذين لم يقدموا إيماناً ولا عملاً . . لم يقدموا إلا الكفر وسوء العمل .. فكيف يكون حالهم يوم القيامة حين يؤتى بالأمم والشهداء .. ويؤتى بهم وبك شهيداً عليهم ..؟!

إنهم في حضرة الخالق الذي كفروا به ..

الرازق الذي كتموا فضله ونعمته وبخلوا بها ..

في اليوم الآخر الذي لم يؤمنوا به ..

وأمام الرسول الذي عصوه ..

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ..

يتمنون لو تسوى بهم الأرض كما قال في آية أخرى ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ (النبأ ـ ٤٠). أو يتمنون أن تكون الأرض لهم فيدفعونها فدية لأنفسهم من النار. عن عبدالله بن مسعود: قال لي رسول الله ﷺ: «إقرأ علي» فقلت : يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « نعم إني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ .. ﴾ فقال : « حسبك الآن » فإذا عيناه تذرفان . (رواه البخاري) .

ذاك رسول الله وحبيبه يبكي رهبة من هذا الموقف .. فكيف بنا نحن ..؟!

وعلى كل من يجد صعوبة في تنفيذ أمر الله أن يراجع نفسه : هل هو مؤمن حقاً باليوم الآخر ..؟

خامساً ــ في الصلاة

الوصية الرابعة :

إن الوصية الأخيرة في هذا المقطع تتضمن : تمهيداً لتحريم الخمر ، وحكم التيمم .

أً ــ تمهيد لتحريم الخمر :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ ﴾ .

كانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأُصيلة ــ وهي ظاهرة مميزة لكل جاهلية في القديم والحديث ــ حتى كان وصف الخمر وأحوال الشرب جزءاً لا بد منه في أشعار العرب . والخمر أم الخبائث تدرك الأمم المتقدمة أضرارها . وقد سعت أمريكا إلى منعها فسنت قانوناً عام (١٩١٩) سمي قانون الجفاف لمنعه الخمر . وقد حاولت تطبيق هذا القانون خلال أربعة عشر عاماً ، واستخدمت في ذلك جميع وسائل الدعاية ، وأنفقت ما يقدر بستين مليوناً من الدولارات في الدعاية ضدها ، و(٢٥٠) مليون جنيه في سبيل تنفيذ القانون . وسجنت وأعدمت وصادرت الأملاك حسب هذا القانون .. لكن النتائج كانت أسوأ ، فقد أصبحت الخمر تهرب بعيداً عن رقابة الدولة مغشوشة وذات ضرر أكبر .. وتغلبت الشهوات على العقل فاضطرت إلى إلغاء القانون في سنة (١٩٣٣) بعد أن فشل .

فكيف استطاع الإسلام أن يقضي على هذه العادة عند العرب ..؟!

حين نتأمل بسرعة مراحل تحريم الخمر .. وننظر في سبب نزول الآية نشعر بفوائد جمة ..

يذكر أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً فأكلوا وشربوا .. وحضرت الصلاة فقرأ الإمام سورة الكافرون (ونحن نعبد ما تعبدون) (رواه ابن أبي حاتم والترمذي) .

وذكر عن عمر أنه حين نزلت آية : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ (البقرة ــ ٢١٩) . قال : (اللهم بيِّن لنا بياناً شافياً في الخمر) . فنزلت بعد ذلك : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ (النساء ــ ٤٣) . فصاروا لا يشربون إلا بعد العشاء . وقال عمر : (اللهم بين لنا بياناً شافياً في الخمر) .. فنزلت : ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟﴾ . قال عمر : (انتهينا انتهينا)[1] .

إن هذا كله ليدل على تأصل الخمر في نفوس العرب . ولهذا لم يأت التحريم دفعة واحدة ، وإنما جاء العلاج بطيئاً ودقيقاً :

١ ــ فلقد ملأ الإسلام النفس بالإيمان بالله والشعور برقابته .. وأصبح للمسلم أهداف ومسؤوليات تستوعب كل دقيقة من عمره . فقد جعله الله خليفة له في أرضه ، وعليه أن يسعى لإنقاذ البشرية من الضلال . وبهذا تحرر المسلم من الخواء النفسي والضياع الذي يدفع الناس إلى الهروب من واقعهم بالخمر والمخدرات .

٢ ــ أيقظ الشعور بالكرامة الإنسانية حتى صار يأنف عن مواضع المهانة .

٣ ــ نظم الحياة وهيأ أسباب الأمن والسلام لكل فرد . فلم يعد هناك مجال للهروب من المآسي والمشكلات بالخمر .

٤ ــ تدرج في تحريم الخمر فلم يشر إليها في مكة سوى إشارة عابرة حين فصلها عن الرزق الحسن بقوله تعالى : ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه

---

١ ــ راجع تفسير ابن كثير للآية .

سكراً ورزقاً حسناً﴾ (النحل ــ ٦٧) . وفي المدينة بدأ ضمير المسلم يتحرك متسائلاً عن الخمر ؟ فجاءت الآية الأولى التي فهم منها كثيرون التحريم الضمني لأنه قال فيها : ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ (البقرة ــ ٢١٩) . ثم جاءت هذه الآية في وقت أصبح المسلم فيه يفهم أن الصلاة عماد الدين ويدرك قيمتها وحاجته إليها .. حتى أنه أصبح متعلقاً بها فلم يخطر على بال أحد أن يترك الصلاة من أجل الخمر . ثم جاء التحريم النهائي بعد أن تحررت النفوس من عادة الإدمان على الشرب . فتلقاه المسلمون بالطاعة المطلقة . ونحن نعلم الآن أن كثيراً من المدمنين على المخدرات لا يعالجون بمنعها عنهم دفعة واحدة ــ فقد يسبب لهم ذلك أزمات شديدة ــ وإنما بالتدريج .

﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ .

حتى لا يحدث خلل أو نقص في الصلاة وأركانها . روى أنس عن رسول الله ﷺ : « إذا نعس أحدكم وهو يصلي فلينصرف فلينم حتى يعلم ما يقول » (رواه الإمام أحمد) . إن أناساً ليسوا بسكارى يصلون ولا يعلمون ما يقولون .. هل نتدبر معنى ما نقول ونقرأ في الصلاة ؟ أتذكر هنا وصية والد محمد إقبال له حين كان يراه وهو يقرأ القرآن يومياً .. فيسأله : ماذا تفعل يا بني ؟ فيقول لأبيه : أقرأ القرآن .. إلى أن قال إقبال مرة : إنك تسألني في كل يوم هذا السؤال يا أبتِ وأنت تراني أقرأ القرآن ..؟ فقال الأب : (يا بني اقرأ القرآن وكأنه يتنزل عليك) . وعندما نشعر أن معنى الآية مرتبط بواقعنا يمكن أن نقول : إننا نعلم ما نقول ..

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ﴾ .

تفيد الآية منع الجنب من الصلاة والجلوس في المساجد حتى يغتسل . أما المرور والاجتياز بالمسجد فقد سمح به للجنب رفعاً للحرج ، فقد كانت بيوت بعض الصحابة تفتح أبوابها على المسجد .

والاغتسال للجنب يعيد إليه نشاطه ونظافته . فمن شأن الجنابة أن تحدث تهيجاً عصبياً ؛ يتأثر به البدن كله ويعقبه فتور وضعف يزيله الماء . وينبغي للمسلم أن يتحرى في صلاته النظافة والنشاط . وأهم شيء في الاغتسال إفاضة الماء على البدن كله .

ويكفينا في هذه العجالة أن نذكر حديثاً رواه مسلم يذكر صفة غسل النبي ﷺ — ومن أراد التوسع فعليه بكتب الفقه — عن ميمونة زوج النبي ﷺ قالت : (أدنيت لرسول الله ﷺ غسله من الجنابة . فغسل كفيه مرتين أو ثلاثاً ، ثم أدخل يده في الإناء ، ثم أفرغ به على فرجه وغسله بشماله ، ثم ضرب بشماله الأرض فدلكها دلكاً شديداً ، ثم توضأ وضوءه للصلاة ، ثم أفرغ على رأسه ثلاث حفنات كل حفنة ملء كفه ، ثم غسل سائر جسده ، ثم تنحى عن مقامه ذلك فغسل رجليه ، ثم أتيته بالمنديل فرده) .

٢ً — حكم التيمم :

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ .

تفيد الآية الكريمة جواز التيمم بدلاً عن الوضوء أو الغسل في حالات ثلاث :

١ — للمريض مطلقاً .   ٢ — للمسافر مطلقاً .   ٣ — لمن لم يجد الماء .

ويذكر في سبب نزول الآية حديث عائشة — رضي الله عنها — عندما ضاع منها عقدها وهم في سفر ؛ فأقاموا في فلاة لا ماء بها وهي تلتمسه .. (فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ..؟! أقامت برسول الله ﷺ وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء . فجاء أبو بكر وعاتبني وقال ما شاء الله أن يقول . فأصبحوا فنزلت آية التيمم ، فقال أسيد بن حضير : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر) (رواه البخاري) .

﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ : وهو المكان المنخفض من الأرض . وكانوا يختارون ذلك لقضاء الحاجة . وهي كناية تلفت الانتباه إلى الأدب في الكلام واجتناب الفحش .

﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ : وقرئت أيضاً : ﴿ لمستم ﴾ . وفي الآية قولان :

١ً ــ أي لمس باليد أو بغيرها لجسم امرأة ليست من المحارم .

٢ً ــ كناية عن الجماع وهو قول ابن عباس . وهو أقوى القولين لأنه :

١ ــ صح عن رسول الله ﷺ : أنه كان يلمس بعض نسائه ثم يصلي ولا يتوضأ .

٢ ــ بقراءة لامستم : مثل تضاربتم ــ تفيد المشاركة ــ بينما لمستم مثل ضربتم .

٣ ــ نص على الحدث الأصغر قبلها فجاءت هذه الآية تنص على الحدث الأكبر لأن التيمم يعوض عن الوضوء والغسل .

﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ . التيمم : هو القصد والاتجاه .﴿صَعِيدًا﴾ : جاء تفسيره في المصباح : بأنه وجه الأرض تراباً كان أو غيره . وقالوا : ما كان من جنس التراب فهو صعيد . ويقوي هذين الرأيين ما روي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ تيمم في المدينة من جدار . وما رواه جابر عن رسول الله ﷺ : « وجعلت لي الأرض طيبة وطهوراً ومسجداً » (ورد في الصحيحين) .

ويقول آخرون بأن الصعيد هو التراب فقط . يقول صاحب تفسير المنار : (رأيت بعض المتمسكين بهذا المذهب يحملون في أسفارهم أكياساً فيها تراب ناعم يتيممون به) ؟!! إن القاعدة في الدين أن الله يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر . ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ (المائدة ــ ٦) . « يريد الله ليخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » (النساء ــ ٢٨) . فإن لم يتيسر التراب فغيره . والتيمم رخصة للتسهيل فلا ينبغي أن يصبح إعناتاً .

أما كيفية التيمم :

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾من هذا الصعيد الطيب الطاهر .

لكن هل القصد : اليدين إلى الرسغين أم إلى المرفقين ؟

هناك رأيان في الموضوع أقواهما : أن القصد هو الكفين فقط . لأنه :

١ً ـــ جاء في الصحيحين من حديث عمار : (أن رجلاً أتى عمر فقال : إني أجنبت ولم أجد ماء . فقال له : لا تصلِّ . فقال عمار : أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأصابتنا جنابة فلم نجد الماء ، فأما أنت فلم تصلِّ وأما أنا فتمعكت في التراب وصليت . فقال ﷺ : « إنما كان يكفيك أن تضرب بيدك في الأرض ثم تنفخ ثم تمسح بها وجهك وكفيك » . فقال عمر : اتق الله يا عمار . فقال عمار : إن شئت لم أحدث به . فقال : نوليك ما توليت ـــ أي أذن له بالإفتاء ـــ) .

٢ً ـــ احتج ابن عباس بإطلاق الأيدي في آية السرقة : ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ (المائدة ـــ ٣٨) . والاتفاق على أن المراد بهما الكفان .

٣ً ـــ آية الوضوء قال فيها : ﴿**وأيديكم إلى المرافق**﴾ (المائدة ـــ ٢) . وهنا اكتفى بـ ﴿وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ .

كذلك اختلف الفقهاء : فمنهم من يقول بضربة واحدة ، ومنهم من يقول بضربتين .. لا يهمنا الدخول في هذه الخلافات : واسمع إلى ما قال رشيد رضا : (درست أحكام التيمم شهرين ثم وجدت أن الصحابة لم يتكلموا عنه ولا بساعتين) .

ويعقب الله على ذلك : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ .

والعفو : أبلغ من المغفرة ، ومعناه محو الذنب كأنه لم يكن . وإن الله يعفو ويغفر ، سواء كان التيمم على تراب أم حجر .

والمتيمم لا يعيد الصلاة إن وجد الماء ، وذلك استناداً إلى ما رواه أبو داود والنسائي والدارمي : (خرج رجلان في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيمما صعيداً طيباً فصليا . ثم وجد الماء في الوقت فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة ولم يُعد الآخر ، ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا له ذلك فقال للذي لم يعد : « أصبت السنة وأجزأتك صلاتك » وقال للذي توضأ وأعاد : « لك الأجر مرتين » .

قد يقول قائل هنا : ما الحكمة من التيمم ؟ إذ أن الوضوء تظهر فيه حكمة النظافة ..؟ وهنا نتذكر موضوع : الحكم والحكمة . فكل حكم شرعي له حكمة ـــ

أي فائدة للبشر ــ وقد يكشف البشر بعضاً من الحكم وقد تغيبُ عنهم . فالمؤمن حين يعرف بعض الحِكَم من الأحكام الشرعية يزداد يقيناً وثباتاً والتزاماً . لكنه حين تخفى عنه الحَكم يقول : سمعنا وأطعنا .. والله أعلم وأحكم ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ (الإسراء ــ ٨٥) . وجدير بنا أن نتذكر أمام كل حكم وحكمة أن هذا هو ما ظهر لنا حتى الآن .. ونسأل الله أن يزيدنا علماً . ولو كانت الحكمة من الوضوء هي النظافة فقط ، لادعى كثيرون بأنه لم يعد ضرورياً الآن .. ولما جعل الله البديل عن الوضوء التيمم .

ولعل الغاية هي إعداد النفس للقاء مع الله بهذا العمل الذي يمثل فاصلاً بين مشاغل الدنيا والصلاة . وكأنه مرحلة أولى لتهيئة النفس للصلاة . ووراء ذلك علم الله الكامل الشامل .. وقد تكشف الأيام أكثر من ذلك ..

وبعد .. فإن المتأمل في حكم التيمم يلمس مقدار أهمية الصلاة عند الله .. حيث أنه لم يترك عذراً لأحد في ترك الصلاة أو تأخيرها عن موعدها المحدد : ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ (النساء ــ ١٠٣) . فمن لم يجد الماء أو عجز عن استعماله يتيمم .. ومن كان مريضاً صلى بقدر استطاعته ولو بالإيماء . والمسافر له أن يقصر ويجمع في الصلاة . وحتى أثناء القتال مع العدو فقد شرع الله صلاة الخوف ــ وسيأتي ذكرها ــ كل هذا يشير إلى مكانة الصلاة في الإسلام .. فهي صلة بين العبد وربه لا يحب الله لها أن تنقطع .. فهل هذا لحاجة منه ــ سبحانه وتعالى ــ إلى عباده ؟ ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾ (فاطر ــ ١٥) . و« يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني .. » (رواه مسلم) . إن الله العليم الحكيم قد فرضها علينا لعلمه أنها ضرورية لنا وأننا محتاجون إليها .. فمن لهذه الذرة الضعيفة ــ الإنسان ــ التائهة في هذا الكون العريض إن قطعت نفسها عن الله ..؟!

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ (البقرة ــ ٤٥) .. إن الله يدلنا على الملجأ الذي نركن إليه عند الشدة . فلقد كانت الصلاة واحة ظليلة لرسول الله ﷺ واستجماماً

حبيباً من تعب الدنيا ونصبها ..« أرحنا بها يا بلال » .. هكذا كان يهتف ﷺ متلهفاً عليها .. « وجعلت قرة عيني في الصلاة » (رواه النسائي وأحمد وصححه الحاكم) .. فأين ذلك ممن يشعر بأنها عبء ثقيل .. ويجد حرجاً في أدائها والمحافظة عليها ..؟! إنه لا يحس بمعانيها ولا يدرك روحها .. ومن حرم من روح الصلاة لم يدرك أهميتها ولم يتشوق إليها .. فذاك هو المسكين المحروم .. ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ (طه ــ ١٢٤) .

يقول محمد إقبال :

درة التوحيد فاحفظها الصلاة
حجك الأصغر .. فاعرفها الصلاة
بيد المسلم هذا الخنجر
يقتل الفحش به والمنكر



الفَصْل السَّابِع

عَن اليَهُود

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ
ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾
مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ
وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا
مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا
عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ
ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا
﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ
وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ
وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا
مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾
أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ
يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ
ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾
فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا
﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ
جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ
لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

أشارت الآيات في المقطع السابق إلى الكفار ومصيرهم في الآخرة حين يتمنون لو تسوى بهم الأرض ولا يقفون هذا الموقف العسير .. وفي هذا المقطع يتعرض لكفر اليهود وكيدهم وبعض أعمالهم المشينة ويرغبهم في التوبة ويذكرهم بعذاب الآخرة . ولقد كان لليهود صولة وجولة في المدينة قبل هجرة المسلمين إليها . فقد كانوا يستعلون على العرب بأنهم أهل كتاب بينما العرب أميون .. وكانوا يثيرون المشكلات والحروب بين الأوس والخزرج ، وتتحالف كل قبيلة من اليهود مع إحدى الطائفتين إيقاعاً بهما .. حتى ضعفت شوكتهما .. وكان اليهود يتبجحون على العرب ويقولون : سيأتي نبي منا نؤمن به ونقاتلكم فنقتلكم قتل عاد وثمود .. فلما بعث النبي ﷺ من العرب خابت آمالهم .. وهاجر ﷺ إلى المدينة فآمنت به الأوس والخزرج فألف بين قلوبهم وآخى بين المهاجرين والأنصار ، وبدأ المجتمع الجديد ينمو ويزداد تماسكاً .. بينما يتقلص سلطان اليهود ويأفل نجمهم .. وقد بدأ رسول الله ﷺ تعامله مع اليهود بعقد معاهدات عادلة تتضمن سلماً واحتراماً متبادلاً بين الطرفين .. وكان يمكن لهذه المعاهدات أن تستمر لولا نقض اليهود لها وغدرهم بالمسلمين . فحدثت معارك عدة مع اليهود أسفرت في النهاية عن خروج اليهود من الجزيرة العربية وجلائهم عنها بعد أن بذلوا كل ما يملكون من كيد وتدبير وحقد للقضاء على هذا المجتمع الوليد ، بل قد تآمروا مراراً على قتل محمد ﷺ . ولكن الله سبحانه عصم نبيه ونصر أولياءه ...

والمتأمل في قصص القرآن وحديثه عن الأمم السابقة ، يرى الحديث عن بني إسرائيل أكثر من أي أمة أخرى .. ففي سورة البقرة يستهلك الحديث عنهم أربعاً وثمانين آية . وفي الأعراف .. والقصص .. ولعل السبب يرجع إلى أن رسالة موسى عليه السلام استوفت مرحلتين : مرحلة الدعوة والتربية ، ثم مرحلة تكوين مجتمع يحكم بشريعة الله في ذلك الزمان ـــ وهي التوراة ـــ .. ويمثل تاريخ بني إسرائيل نموذجاً لأمة استخلفها الله فترة طويلة من الزمن فكانت لها أخطاء ، ووقعت في محن وابتلاءات يجدر بالبشرية أن

تعتبرها تجارب مفيدة تنير لها الطريق . والقرآن حين يتولى إقامة مجتمع جديد رباني ؛ يتوجه إلى المسلمين ليحدثهم عن تجارب الأمم السابقة ــ وتجربة اليهود خاصة ــ ليعرض عليهم الأخطاء ويختزل لهم أسباب التقدم وأسباب الانهيار .. وهكذا نرى الآيات تدخل ميداناً جديداً يخص عالم الاجتماع .. ولا بد لكل من يبني أمة ــ أو يبعثها من خمودها ــ أن يقدم دراسة تاريخية وافية تكشف عن سنة الله في نهضة الأمم .

في هذه الآيات نجد الله سبحانه وتعالى يتولى المعركة ضد اليهود ، فهو ولي الذين آمنوا يدافع عنهم ويحذرهم وينصرهم .. والكافرون لا مولى لهم ..

والمقطع يبدأ بذكر انحرافهم وضلالهم وعدائهم للمسلمين بأسلوب التعجب والاستنكار فهم أصحاب كتاب .. فكيف يصدر عنهم ذلك ..؟!

أولاً ــ انحراف اليهود وعداؤهم للمسلمين

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ ؟!

﴿ أَلَمْ تَرَ .. ﴾ ؟! تأتي هذه الكلمة في القرآن كثيراً لإثارة الانتباه إلى أمر هام أو حادثة هامة يحدثنا الله عنها . وهل يقصد بها الرؤية الحقيقية أم ماذا ..؟

إن الرؤية التي يلفت نظرنا إليها القرآن إما أن تكون **رؤية واقعية كونية** : مثل قوله تعالى : ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله﴾ (النور ــ ٤٣) . **أو رؤية تاريخية** : حدثت في التاريخ ، واطّلعنا عليها من خلال دراسة التاريخ مثل قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك . إذ قال إبراهيم** ... ﴾ (البقرة ــ ٢٥٨) . **أو رؤية مثلية** : حين تكون حدثت في التاريخ ونرى مثلها يحدث في الواقع كالآية التي بين أيدينا :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟

ٱلسَّبِيلَ ﴾ .

والتعبير بالشراء يفيد القصد والعزم في المبادلة ، فهي صفقة مقصودة يتركون فيها الهداية ويأخذون الضلالة . هكذا كان موقف اليهود في تكذيب محمد ﷺ والتأليب عليه والتحالف مع المشركين عبدة الأوثان على حربه . وهذا ما يفعلونه الآن أيضاً في كيدهم للإسلام والمسلمين .. بل إن المسلمين أنفسهم قد أصبحوا يشترون الضلالة ويسعون إلى إضلال الناس .. فهم يتركون هداية القرآن ويحكمون بنظم الغرب والشرق .. يشترون الضلالة بأموالهم .. يشترون الأفلام الخليعة والعنيفة من الشركات اليهودية التي ما صنعتها إلا لإضلال المسلمين وكسر شوكتهم .. ويعرضونها على أبنائهم وبناتهم وفي داخل بيوتهم .. هذا مثل واحد على الحال المؤلمة التي وصل إليها العالم الإسلامي ..

والعجيب أنهم : ﴿**أوتوا نصيباً من الكتاب**﴾ .. والمسلمون أيضاً ..!! كيف وصلوا إلى هذه الحال ، وقرآنهم ما زال محفوظاً بين أيديهم ..؟!

هنا نتذكر حديث زياد بن لبيد حين تعجب من قول رسول الله ﷺ وقد ذكر شيئاً فقال : « وذاك عند ذهاب العلم » فقال زياد : وكيف يذهب العلم يا رسول الله ونحن قرأنا القرآن ونقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرئون أبناءهم ..؟! قال ﷺ : « ثكلتك أمك يا بن لبيد .إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة .أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء ؟! » (أخرجه الإمام أحمد وصححه ابن كثير في تفسير المائدة آية : ١٣) .

فالرسول ﷺ في هذا الحديث يصف مرحلة التخلف عند الأمة حيث تتدهور المدارك والعلوم .. فتعجز الأمة عندها عن التفاعل مع كتابها السماوي والانتفاع به .. فالقرآن وحده لا يتحرك لإنهاض الأمة .. لكنه نزل لأصحاب العقول والألباب : ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾(طه ــ ٥٤) . ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (العنكبوت ــ ٤٣) . فلا بد للأمة من تحقيق التزاوج بين العلم والقرآن حتى تنهض وتحقق هداية السماء . ويحذر الله المسلمين من كيد اليهود وغدرهم .. فإنهم

لا يضمرون لكم خيراً ..

﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ .

ولقد كان هذا التحذير ضرورياً إذ أن كثيراً من الأنصار كان مرتبطاً مع اليهود بعقود موالاة منذ جاهليته . فلما أسلم زاده ذلك حرصاً على الوفاء بعهده .. خاصة وأن اليهود كانوا يتظاهرون بموادعة النبي ﷺ ، والالتزام بنصوص الصلح الذي كتبه بينه وبينهم عندما قدم المدينة .. ولم يكشفوا قناعهم إلا قبيل حدوث الغزوات الثلاث : (بني قينقاع — بني النضير — بني قريظة) . فالآيات تفتح عيون المسلمين كي يكونوا على حذر .

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ .

فهم أعداؤكم .. وحسبكم الله ولياً ونصيراً . فلم لا ينصرنا الله عليهم في هذا الزمان ..؟! ومتى يكون الله ولياً ونصيراً لنا ..؟!

لفهم ذلك علينا أن ننتبه إلى نقطتين :

١ — هل اتخذنا الله وحده ولياً ونصيراً ..؟ هذا سؤال يتعلق بجانب الإخلاص .

٢ — وهل قمنا بما نستطيع من أسباب النصر .؟ وهذا يتعلق بتوفير الصواب .

كنت ذكرت أن الأعمال لا تنجح في الدنيا ولا تقبل في الآخرة، إلا إذا توافر فيها الإخلاص والصواب . ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ (محمد — ٧) . وكما يقول ابن تيمية : (إذا توافرت الإرادة الجازمة والقدرة التامة تحقق المراد) .

إن وسائل حل المشكلة بيد المجتمع بشرط رفع مستوى الإخلاص والصواب . وبتعبير آخر : الإرادة والقدرة .[1] .

---

١ — راجع كتاب العمل قدرة وإرادة لجودت سعيد .

إن كشف سنة التمكين في الأرض أمر جوهري .. ومن يظن أن وسائل حل مشكلته يأتي من الخارج ، فإنه لن يتمكن من حلها في يوم من الأيام .. هل استطاعت القروض التي أخذتها الدول المسلمة من الدول الكبرى أن تحل المشكلة ..؟! ألم يكن بالإمكان أن نوفر أكثر منها لو خففنا من إنفاقنا على الكماليات ..؟!

في غزوة تبوك لم يحاول رسول الله ﷺ أن يستعين بقروض من الفرس أو بمساندة منهم ضد أعدائهم الروم .. لكنه حرك القوى والطاقات الموجودة لدى المسلمين كأحسن ما يمكن ؛ فساهم أبو بكر بكل ماله ، وعمر بنصفه ، وجاء عثمان بأموال كثيرة ..

إن المسلمين ما زالوا في حيرة .. كيف ينتصر عليهم أعداؤهم باستمرار مع كفرهم ..؟! إن من يطبق السنة ويسخر الأسباب ــ مؤمناً كان أم كافراً ــ يحصل على النتيجة .. لكن حين يطبقها المؤمن والكافر فإن الله ينصر المؤمن . وأبرز مثال على ذلك هزيمة أحد بعد الخطأ الذي وقع به رماة المسلمين .

والرسول ﷺ يبين لنا أن الخطر لا يأتي من العدو الخارجي .. بل إنه من الخلل الداخلي . « سألت الله أن لا يهلك أمتي بسَنَة قحطٍ فاستجاب لي . وسألت الله أن لا يسلط عليهم من يكسر بيضتهم فاستجاب لي . وسألت الله أن لا يجعل بأسهم بينهم فلم يستجب لي »[1] . إن الاعتماد على الدول الكبرى لا يفيد .. وترك السعي بدعوى طلب النصر من الله لا يفيد . ولكن تحريك الطاقات والإمكانات وتسخيرها للقضية هو الذي يجدي .

أذكر أنني قرأت مرة تعليق أحد المسلمين على حادثة رآها عندما **كان خارجاً** من صلاة في مسجد حيث افتقد أحدهم حذاءه ولم يجده فأخذ يبكي عليه . فقال أحدهم : يبكي على حذائه ولا يبكي على الإسلام ..؟! فقال المعلق : المهم أن لديه قدرة على البكاء ، ولو أشعرناه بأهمية إسلامه وما حلَّ به لتحرق عليه وبكى . **أقول : بل**

---

١ ــ رواه مسلم بلفظ قريب من ذلك . انظر الحديث رقم ٢٠٠٠ من مختصر صحيح مسلم للألباني .

إننا نضيع طاقته بالبكاء.. ولو تعلم سنة الخروج من الانحطاط لأمكن أن نسخر حماسه وطاقته بما يجدي ويساعد في حل المشكلة.

لكن المؤلم حقاً أن نرى الخبثاء ــ من اليهود والمستعمرين وغيرهم ــ يحركون طاقات المسلمين لنوازع فردية تجعل المسلمين يقتل بعضهم بعضاً لأتفه الأسباب .. ألم يحركوا قضية الأرض بين العراق وإيران فإذا بها تطحن الملايين من المسلمين ..؟! فكيف لا تتحول كفة النصر إلى أعدائنا ..؟!

إن عدد المسلمين الآن أكثر بكثير مما كانوا عليه في بدر وتبوك والخندق وحنين .. فكيف لو حركت الطاقات ووجهت في الاتجاه السليم ..؟!

إن اليهود لا يتورعون عن الكذب والافتراء والبهتان في سبيل إضلال الناس . ولقد قال عبد الله بن سلام لرسول الله ﷺ قبل أن يشهر إسلامه : إن اليهود قوم بُهت لوعلموا إسلامي لبهتوني فاسألهم عني قبل أن يعلموا . فسألهم ؟ فقالوا : هو عالمنا وحبرنا وابن حبرنا .. فخرج عليهم ابن سلام فقال : إني أسلمت فأسلموا .. فنكصوا عن كلامهم وصاروا يذمونه وينكرون فضله فيهم ..!!

وينبغي أن نتذكر أثناء استعراضنا لصفات اليهود وأفاعيلهم في القرآن أن هذه الصفات ليست خاصة بهم .. وإنما هي عوارض تصيب كل أمة تستسلم للارتكاس والتردي ، فتفقد أصالة الفطرة وتصبح أسيرة الأخلاق والعادات التي مارستها وتعودت عليها . ورسول الله ﷺ أشار إلى خطورة الممارسة والتعود في مسخ الفطرة : « وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور .. وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (رواه مسلم) .

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ .

ولقد جاء اسمهم من قولهم : ﴿إنا هدنا إليك﴾ (الأعراف ــ ١٥٦) . والتحريف : هو تغيير معنى الكلام وفهمه على غير وجهه .. وقالوا : إن المقصود هو تحريفهم لعبارات التوراة وتأويلها بغير المقصود منها لإخفاء ما فيها من دلائل على صدق

نبوة محمد ﷺ . ولقد تعرضت الكتب السماوية لثلاث آفات :

١ ــ التبديل : وهو تغيير النصوص .
٢ ــ التحريف : وهو تأويل النصوص بغير المقصود منها .
٣ ــ الكتمان : أي تعطيل عملية التبليغ والدعوة ، وترك التعلم والتعليم لآيات الله .

ولقد سلم القرآن الكريم من آفة التبديل وصدق الله العظيم : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر ــ ٩) . أما ظاهرة التحريف : فقد أصابت العالم الإسلامي منذ انحطاطه . والفكر المنحط يعمى عن رؤية الإشعاعات الحقيقية لكثير من الآيات . وحين يذهب العلم تعجز الأمة عن الاستفادة من آيات كتابها السماوي كما أشار حديث رسول الله ﷺ مع زياد بن لبيد . وأوضح مثال على ذلك : فكرة التوحيد التي ركز عليها القرآن وعرضها بإشراق وبساطة .. فكرة التوحيد التي حررت العالم من الخرافة والظلم والاستعباد .. والتي قال عنها توينبي بأن الفضل يرجع إليها في كل التقدم المادي ــ التكنولوجي ــ الذي نستمتع به الآن .. إذ لم يكن من الممكن أن يتحرك الإنسان لكشف قوانين الكون وتسخيره ما لم يؤمن أنه عبد لله لا لظواهر الكون .. وأن الله قد سخر له الكون[1] .

إن فكرة التوحيد هذه أصبحت علم كلام ــ عندما توقف خط الصعود في حضارتنا ــ ونشأت الفِرق العقائدية التي تحرف الآيات وتؤولها على غير وجهها . . وبدؤوا يتنازعون: هل القرآن قديم أم مخلوق . . ؟! واستبد المعتزلة ببدعتهم فكفروا الناس وقتلوا كثيراً من العلماء. وامتحن ابن حنبل الذي حاول أن يوقف هذا التيار الكلامي الذي هو ترف فكري مميت . . . إن مسلمي الصدر الأول فهموا التوحيد على بساطته وإشراقه؛ فكان بالنسبة إليهم العنصر المجمِّع المركّب الذي جعل المجتمع كالبنيان المرصوص. بينما تشنج مسلمو عصر الانحطاط أمام

١ ــ كان المصريون القدماء يقدمون عروس النيل وقت الفيضان لإرضاء إله النيل .. فلو استمرت هذه العقيدة هل كان بالإمكان بناء السد العالي ..؟!

النصوص . . وعقدوا فكرة التوحيد بالأبحاث الكلامية حتى صار الموضوع عنصراً مفتتاً مفرِّقاً . . ولقد صدق من قال: «**عِلَّة يصبح ما مسَّ العليل**» .

ولنا أن نلاحظ أن آفة التحريف غالباً ما تكون نتيجة لانتشار الافة الثالثة وهي : الكتمان ، وإهمال واجب البيان والتعليم .. فحين يسود الجهل يمكن أن يحدث سوء الفهم والتلاعب والتحريف وتضليل الناس . أما المجتمع الذي يمشي في طريق العلم ، فإن الخرافات والضلالات تنزوي فيه وتتقوقع .

من تحريف اليهود : ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ بدلاً من أطعنا[1] . ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ . يتظاهرون بالتأدب والمجاملة للرسول بينما يقصدون الدعاء عليه . . وذلك أن كلمة :**غيرمسمع** تحتمل معنيين :١ ــ غير مأمور بالسمع(من باب الاحترام) .
٢ ــ غير مطاع : أي لا سمعك أحد . أو : لا سمعت .

﴿وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ .

راعنا أيضاً تحتمل معنيين :

١ ــ انظر إلينا نظرة رعاية واهتمام واحفظنا . (راعي القطيع : هو الذي يهتم به ويحفظه) .
٢ ــ وراعن : أحمق سفيه .

فنهى الله المسلمين عن استعمال هذه الألفاظ وأمثالها بقوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم﴾ (البقرة ــ ١٠٤) .

فالمسلم ينبغي له أن يتجنب الكلمات التي تحمل معنيين متعاكسين ؛ حتى يكون أقرب للاستقامة وكف الأذى ، وحرصاً على إقامة العلاقات الاجتماعية السليمة على الوضوح والود الخالص .

هذه التصرفات من اليهود تدل على حقارة وضعف وخسة . فهم أعداء مداهنون متلاعبون . وهذا النوع من الأعداء خطير لأنه لا يكشف أوراقه .. لهذا يهتم القرآن بكشفهم والتحذير من كيدهم . وعلى المسلم أن يكون فطناً حذراً . ألم يقل عمر ــ

---

١ ــ قالوا أطعنا بألسنتهم . . لكن أعمالكم قالت عصينا.

رضي الله عنه ــ (لست بالخب[1] وليس الخب يخدعني) ؟ لا تكن ماكراً توقع بالآخرين .. ولا تكن غراً مغفلاً يأكله الآخرون ..

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ .. ﴾ .

فلقد كان الجدير بهم باعتبارهم أهل كتاب سابق ــ وليسوا ضالين جاهلين كالمشركين ــ أن يتصرفوا بخلاف ذلك فيقولوا : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا ﴾ .

﴿ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ .

فعمل الله مرتبط بعمل الإنسان .. وعمل الله لا يتم حتى يتحرك الإنسان : ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد ــ ١١) . وذلك هو القانون الذي يفسر كل الآيات الأخرى التي تحدثت عن عمل الله وحده من مثل : ﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ (المدثر ــ ٣١) . فإن الله قد لعنهم وطردهم من رحمته لما كفروا وظلموا أنفسهم بهذه المواقف .

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

والمعنى : إما عدد الذين يؤمنون منهم قليل . أو مستوى إيمانهم قليل وضعيف . والاستثناء هو خطة القرآن في إطلاق الحكم . وبذلك تكون أحكامه دقيقة شاملة لا تهمل حتى الحالات الشاذة والاستثنائية .

وصدق الله .. فلم يؤمن منهم في الماضي والحاضر إلا قليل . فهم يختلفون عن سائر أتباع الديانات الأخرى بشدة انغلاقهم على ذاتهم ، وفقدانهم القدرة على رؤية الحق عند غيرهم : ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ (آل عمران ــ ٧٣) . ذاك هو القيد الذي يشل عقولهم .

ثم يتوجه إليهم بنداء فيه رحمة .. يدعوهم فيه أن يسرعوا للإيمان قبل فوات الأوان .

---

١ ــ الخب : هو الماكر .

ثانياً ــ دعوتهم للإيمان وتهديدهم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ ﴾ .

يناديهم بالصفة التي كان من شأنها أن تجعلهم أول المستجيبين للإسلام .. أن يؤمنوا بهذا الكتاب الذي نزل مصدقاً لما جاء في كتابهم . إنه يدعوهم ليؤمنوا ويحبوا كل الأنبياء لا ليكونوا أعداء للأديان السابقة وأنبيائها .. وتلك هي ميزة المسلم : أنه لا يفرق بين الأنبياء ، ويؤمن بأن القرآن متمم ومصدق للكتب الأولى . سئل نصراني عندما أسلم : أخرجت عن دينك ؟ قال : بل صرت نصرانياً أفضل .. ولو كان الإيمان يتم بالبيِّنة والبرهان فحسب، لآمنت اليهود وسبقت للإسلام .. ولكن الحقد والهوى والحرص على الدنيا .. كل ذلك يتدخل في موضوع الإيمان . ولقد عرض علينا القرآن نوعين من الإعراض :

١ ــ ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ (الأنبياء ــ ٢٤٠) . فمرض الأكثرية الذي يدفعهم للإعراض هو الجهل .

٢ ــ ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ (النمل ــ ١٤) . فهؤلاء يعرفون الحق ولا ينقصهم البرهان والدليل ؛ لكن إعراضهم لدوافع نفسية أخرى .

الصنف الأول : (ضالون) . والصنف الثاني : (مغضوب عليهم) . والداعي إلى الله عليه أن يميز نوعيّة مَنْ يخاطب . فقد كان النبي ﷺ يعالج كلاً حسب مرضه . ومع ذلك فإن البيان والتبليغ دواء الأكثرية .. وإذا عالجنا الأكثرية فقد أمسكنا بقانون الدنيا .. فما من أمة ــ مهما بلغت من التقدم ــ إلا وفيها قلة منحرفة ومعاندة .. وحتى المجتمع المسلم الأول كان فيه قلة من المنافقين ، لأن وجود الأكثرية

الصالحة المهتدية يحمي المجتمع .. ونتائج الدنيا تجنيها الأمة بحسب أعمال الأكثرية فيها : (أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال ﷺ : « نعم إذا كثر الخبث ») (رواه مسلم) .

﴿ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ .. ﴾ .

الطمس : إزالة المعالم المميزة للإنسان . ونردها على أدبارها : أي دفعها لأن تمشي إلى الوراء . وقد يكون التهديد بمعناه المادي ــ أي يهددهم بالمسخ ــ وقد يكون الطمس معنوياً .. على بصيرتهم ونفوسهم بحيث تنمحي منها معاني الإنسانية . والفطرة قد تصل في الفساد إلى درجة تفقد معها القابلية للاهتداء بسبب كثرة الذنوب : ﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ (المطففين ــ ١٤) . هذه سنة من سنن النفس[١] .

ويمكن أن نضرب مثلاً بالتدخين : فإن الفطرة السليمة تنفر منه ، ولكن تعويد النفس عليه بالتزيين والاقتداء بالكبار .. يؤدي بعد ذلك إلى أن يراه لذيذاً وضرورياً لا يستطيع الاستغناء عنه . وهنا تكون الفطرة قد فسدت وتغيرت فصارت تنكر المعروف وتستسيغ المنكر .. ويتمثل ردهم على الأعقاب : في أنهم بعدم إيمانهم بمحمد ﷺ قد تراجعوا عن دينهم أيضاً لأن دينهم يأمرهم بالإيمان به .

﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ ﴾ .

فقد كانوا يحتالون ليصطادوا في يوم السبت الذي نهاهم الله فيه عن الصيد . فأصابتهم اللعنة والمسخ .

وإن التذكير بمواقف اليهود وحيلهم ؛ من شأنه أن يردع المسلمين حتى يستقيموا على الصراط ، ويجتنبوا الحيل الشرعية لاستباحة ما حرم الله ، فإنهم بذلك يعرضون

---

١ ــ ويمكن تأمل الحديث الوارد في شرحها : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء . وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء . حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفاة فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مربادّ كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً » رواه مسلم .

أنفسهم لسخط الله ولعنته . إن اللجوء إلى الحيل الشرعية هو استهزاء بآيات الله : ﴿ولا تتخذوا آيات هزواً﴾ (البقرة ـــ ٢٣١) . لأن الله خبير بالنوايا .

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ .

تعقيب يؤكد التهديد . فكأن الأمر قد حصل وانتهى . يروى أن كعب الأحبار جاء إلى المدينة لينظر في أمر الرسول ﷺ فسمع تـاليـاً يتلو هـذه الآية.. فقال : بادرت إلى الماء فاغتسلت ، وإني لأمس وجهي مخافة أن يطمس .. ثم أسرعت فأسلمت[1] .

ثالثاً ـــ آية الشرك

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ .

تأتي آية الشرك في مجال الحديث عن أهل الكتاب وانحرافهم .. وهذا يعطي إشارة إلى إدانتهم بالشرك . ولقد تحدث القرآن في مواضع أخرى عن شركهم : ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ (التوبة ـــ ٣٠) . ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ (التوبة ـــ ٣١) ، حين أطاعوهم في الحلال والحرام .

فالشرك : هو الظلم العظيم الذي يقطع الصلة بين الله وعباده ، كما قال لقمان لابنه : ﴿لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان ـــ ١٣) . أما ما وراء هذا الإثم العظيم من الذنوب والأخطاء فإن الله يغفرها . ولهذا عدَّ ابن عباس هذه الآية واحدة من ثمان آيات وردت في سورة النساء هي **خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت** .

فما هذا الذنب الذي لا يمكن أن يغفر .؟! والذي استثناه الله سبحانه من التعميم الوارد في آية أخرى : ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ (الزمر ـــ ٥٣) . وكيف

---

١ ـــ في تفسير ابن كثير أن ذلك حدث في زمن عمر .

ينزلق الإنسان إليه ..؟

إن الله سبحانه وتعالى يأمرنا بالبحث عن الأمور كيف تبدأ : ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ (العنكبوت ــ ٢٠) . لأن معرفة البداية ضروري جداً لسلامة التخطيط لتنمية الجوانب الإيجابية وقمع الجوانب السلبية . ففي الأمراض مثلاً : لابد من معرفة جرثومها وكيف تبدأ ، والأطوار التي تمشي فيها ؟ كي نحدد العلاج واللقاح ضدها .

ولكن كيف بدأ الشرك .. ؟

كان الناس على عبادة الله بعد آدم .. ثم عبدوا يغوث ويعوق ونسرا و .. وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام . فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم . ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت (رواه البخاري عن ابن عباس) .

وكان العرب حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحي الذي ابتدع لهم عبادة غير الله وصنع لهم الأصنام ، فاختلفوا بأن أشرك بعضهم وثبت آخرون على الحنيفية . يقول ﷺ : « إن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو ابن عامر . وإني رأيته يجر أمعاءه في النار » (رواه البخاري عن أبي هريرة) .

قال ابن هشام : إن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم وآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه ؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا . فقال : ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه . فأعطوه صنماً يقال له هبل . فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

قال ابن اسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ــ حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد ــ إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم . فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به

كطوافهم بالكعبة حتى سنح ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة .. حتى وصل بهم الأمر ــ كما جاء في الصحيح ــ أنهم إذا لم يجدوا حجراً جمعوا حيثة من التراب وحلبوا الشاة عليه ثم طافوا به .

إن هذا الاستعراض لبداية الشرك يشعرنا بخطورة البدع مهما كانت صغيرة وبنيَّة حسنة ــ ولابد للمجتمع من التدقيق المستمر حتى لا تتسرب اليه البدع وتسيطر عليه ــ ولقد كانوا يقولون عن الشرك بأنه : (أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء)[1] .

ونحن الآن بحاجة إلى أنوار كشافة تسلط على موضوع الشرك لأننا نقع فيه دون أن ندري . فلئن كان الشرك القديم معروفاً وهو عبادة الأصنام والملوك والسلاطين ، فإن الشرك الحديث قد صارت له أنواع وألوان جديدة .. عبادة المجتمع .. التقاليد والعادات .. النظم البشرية ..

تلوَّن في كل عصر مناة   شاب بنو الدهر وهي فتاة

كانت دعوة الرسل كلهم للناس كافة أن يؤمنوا أنه لا إله إلا الله .. بمعنى :

١ ــ لا خالق إلا الله : وهذا ما يؤمن به أكثر الناس قديماً وحديثاً .. وحتى المشركون الأوائل كانوا يؤمنون بذلك . ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ (لقمان ــ ٢٥) .

٢ ــ لا مجيب للدعاء إلا الله : ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون له بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ (الرعد ــ ١٤) .

وصاحب المنار يسمي الشرك في هذا الجانب : بأنه شرك في الألوهية ويعرِّفه بأنه : الشعور بسلطة وتأثير ــ وراء الأسباب والسنن الكونية ــ لغير الله تعالى . أي

---

١ ــ لعل العبارة يقصد بها الشرك الخفي وهو الرياء في العمل .

أنه التوجه بالخوف والرجاء لغير الله تعالى : « وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ما ضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء ما نفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك »[1] .

ولقد وقع القدماء بالشرك من هذا الباب .. وكثيرون حتى الآن يشركون بالله في هذا الجانب .. فمن ذلك اللجوء إلى السحرة والمنجمين وضاربي الرمل .. والتوجه إلى قبور الأولياء والصالحين . ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ (فاطر ــ ١٤) . فالدعاء والنذر لا ينبغي أن يكون إلا لله .. وحتى الرسل .. إن تقديسهم والاستغاثة بهم يؤدي إلى الشرك . ولقد قال رجل أمام رسول الله ﷺ (ما شاء الله وشئت) فقال له ﷺ : « أجعلتني مع الله نداً » ؟! (أخرجه ابن ماجة والطحاوي والبيهقي وأحمد وحسنة الألباني) .

كما يقول العامة الآن في معرض الاستنجاد : (الله والنبي ..) و(يا محمد أنت لها ..) !! والرسول ﷺ يحذر من هذا الانحراف : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » (أخرجه البخاري) .

ولقد قص صاحب المنار في هذا المجال قصة طريفة مفادها : أن عاصفة أصابت مركباً وهددته بالغرق .. فتوجه الركاب يستغيثون بأسماء مختلفة .. يا بدوي .. يا شيخ محيي الدين .. يا جيلاني .. فهتف أحدهم قائلاً : يا رب أغرق أغرق .. ما عاد أحد يعرفك ..!!

والقرآن يسمي الشرك في هذا الجانب (عبادة الجبت) . وهو لون من الخرافة والدجل يمارسه الكهنة ورجال الدين في كل عصر للسيطرة على الشعب الجاهل وابتزاز أمواله .. فالشرك هنا هو الفهم الخاطىء للكون وسننه .. وهو المعوق الأول للتقدم الفكري والمادي[2] .

١ ــ انظر رياض الصالحين للنووي

٢ ــ **انظر من هدي سورة لقمان صفحة ٤٩ للمؤلفة .**

٣ ــ لا مشرع إلا الله : ﴿ إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ (يوسف ــ ٤٠) . والقرآن يذكر الناس أن الذي خلق هو الجدير بأن يحكم ويطاع : ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ (الأعراف ــ ٥٤) .. فكيف تعطون هذا الحق للمخلوقين ..؟!

وأكثر الشرك بالله قديماً وحديثاً يأتي من هذا الجانب .. فرعون مثلاً عندما قال : ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ (النازعات ــ ٢٤) . لم يكن يقصد أنه هو الخالق .. وإنما شرح في موضع آخر : ﴿أليس لي ملك مصر ..﴾ (الزخرف ــ ٥١) . ولقد كان الناس في الماضي يجعلون هذا الحق للملوك ورؤساء الدين ثم ارتقوا بهذا الأمر فجعلوه بيد الشعب (الديموقراطية) . لكنهم حتى الآن لم يرتقوا في إعادة الحق إلى نصابه : ﴿إن الحكم إلا لله﴾ (يوسف ــ ٤٠) . أي أن شريعة الله وقرآنه هو الذي يجب أن يحكم حياتنا بكل جوانبها . وهذا ما غفل عنه الناس عامة والمسلمون خاصة .

ويطلق صاحب المنار وغيره على هذا الجانب : توحيد الربوبية . بينما يتحدث عنه صاحب الظلال بمصطلح : الحاكمية لله . ويسمي القرآن الشرك في هذا الجانب : (عبادة الطاغوت) . فكل من يدعي لنفسه حق التشريع والحكم للناس من دون الله طاغوت .. وكل من يطيعه ويخضع له يعبد الطاغوت ولو كان منتسباً للإسلام . ولا بد من توضيح : فليس كل من سنَّ قانوناً لم ينص عليه القرآن يكون طاغوتاً .. وإنما من سنَّ قانوناً يخالف صريح القرآن والسنة هو الطاغوت .. أما سنُّ قوانين للسير والمدارس ولعمل الموظفين والعمال .. الخ .. لا تتعارض مع قواعد الإسلام ومنطلقاته .. فهو عمل لا بد منه لتنظيم حياة المجتمع . وهو من الصلاحيات التي أعطيت لأولي الأمر في الأمة ، وأُمر المسلمون بطاعتهم في ذلك ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ (النساء ــ ٥٩) .

ومن المؤلم أن العالم الإسلامي قد تهاون في هذا الجانب ، حتى لا يكاد يشعر بخطورته .. ثم بعد ذلك تسمع مسلماً يستغرب ويستفهم .. (أدعو كثيراً .. ولا يستجاب لي) ؟! وهنا أتذكر قول إبراهيم بن أدهم لمن سأله : (ما بالنا ندعو ولا يستجاب لنا) ؟! قال : ماتت قلوبكم من عشرة أشياء :

١ ــ عرفتم الله ، ولم تؤدوا حقه .

٢ ــ وقرأتم كتاب الله ، ولم تعملوا به .

٣ ــ وادعيتم عداوة الشيطان ، وواليتموه .

٤ ــ وادعيتم حب الرسول ﷺ ، ولم تعملوا بسنته .

٥ ــ وادعيتم حب الجنة ، ولم تعملوا لها .

٦ ــ وادعيتم خوف النار ، ولم تتجنبوها .

٧ ــ وتدعون أن الموت حق ، ولم تستعدوا له .

٨ ــ واشتغلتم بعيوب غيركم ، وتركتم عيوبكم .

٩ ــ وتأكلون رزق الله ، ولا تشكرون .

١٠ ــ وتدفنون موتاكم ، ولا تعتبرون .

فلذلك تدعون فلا يستجيب الله لكم .

﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ (فاطر ــ ٤٥) .

وصدق رسول الله ﷺ « ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عزوجل إنهم يجعلون له نداً ويجعلون له ولداً ؛ وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم » (رواه مسلم) .

وبعد أن قرر قاعدة عامة فيما يتعلق بمغفرة الله والشرك .. يعود ليندد بأفعال اليهود ويذكر بعض صفاتهم .

رابعاً ــ بعض صفات اليهود

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ .. ﴾ ؟!

الزكاة تنمية الفضائل . وسميت الزكاة كذلك : لأنه يحصل منها نمو في المنافع الاجتماعية . ومن لهجة الاستنكار في الآية نفهم أن تزكيتهم كانت بالقول والادعاء . والله سبحانه وتعالى يصف لنا هنا حالة أمة متخلفة متردية مصابة بالغرور تتبجح بالادعاء : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ (المائدة ــ ١٨) . ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ (البقرة ــ ١١١) .

ولا نغفل الإشارة ﴿ **ألم تر** ﴾ : فهي تنبيه للاهتمام بالأحداث الجارية في التاريخ (رؤية تاريخية) والمعاصرة (رؤية مثلية) . فالبصر إحدى وسائل المعرفة . فما بالنا نمر على الأحداث كالأصم الأعمى ..؟! استخدم البصر للكشف عن الخطأ والصواب . فإذا رأيت أخطاء الآخرين فاعتبر ولا تقع في مثلها ..

يقول صاحب المنار : (قد أجمع العلماء على استقباح تزكية المرء لنفسه ومدحها ولو بالحق ، وبالباطل أشد قبحاً .) ومصدر ذلك : (الجهل والغرور . ومن آثاره العتو والاستكبار عن قبول الحق والانتفاع به) .

وليس للمسلمين أن يقولوا : نحن أمة محمد .. لسنا كسائر البشر .. لكنهم قالوها كما قالها اليهود . فالتبجح والادعاء مرض يصيب الأمة عند تخلفها .

﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ .

ولقد جاءت التوجيهات في السنة في النهي عن المدح إطلاقاً ، فالله هو الذي يعلم السرائر والنوايا ويزكي الناس على أساسها . عـن المقداد بن الأسود : (أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب) (رواه مسلم) .

وأثنى رجل على صاحبه أمام رسول الله ﷺ فقال له : « ويحك قطعت عنق صاحبك . إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل أحسبه كذا . ولا يزكي على الله أحداً » (رواه البخاري ومسلم) .

فكيف بمن يمدح نفسه ..؟! إن هذا لايصدر عن المؤمن لأنه :

١ً ـــ يشعر بتقصيره دائماً ، ويحاسب نفسه على الصغيرة والكبيرة ، بل ويتهم نواياه .. ماذا أردتُ بعملي ..؟

٢ً ـــ إنه يعمل لوجه الله تعالى ، فهو حريص على كتمان حسناته حتى لايحبط عمله بالرياء . بينما المنافق يبتغي مدح الناس والظهور بينهم .

وقصة صاحب النقب مع قائده مسلمة بن عبد الملك ، نموذج فريد لإخلاص المؤمن وتوجهه بأعماله لله وحده[1] .

وهنا لا بد أن نلاحظ توجيهين في القرآن قد يبدو للناظر فيهما لأول وهلة بعض التعارض . فالله سبحانه يقول مرة : ﴿**فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى**﴾ (النجم ـــ ٣٢) . ويقول في أخرى : ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ (الضحى ـــ ١١) . فكيف نجمع بين الأمرين ..؟!

إن الحكمة هي وضع الأمور في مواضعها . ورسول الله ﷺ كان أشد الناس تواضعاً وحياء . كان يقول عن نفسه : « إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد » (رواه ابن ماجه) .

---

١ ـــ استعصى فتح إحدى المدن على المسلمين فخصص القائد مسلمة جائزة لمن يفتح نقباً في الحصن . فقام جندي بذلك وفتحت المدينة ومكث مسلمة ينادي في خطبته أياماً : أين صاحب النقب ؟ حتى قال : عزمت عليه أن يأتيني . فجاءه رجل ملثم وقال أنا أخبرك عنه لكنه يشترط : أن لا تسأله عن اسمه ولا تعطه جائزة ولا ترفع أمره للخليفة . فقبل القائد بالشروط . فقال الرجل : أنا هو . وانصرف . فصار مسلمة كلما اجتهد في الدعاء يقول اللهم اجعلني مع صاحب النقب .

وجذبه أعرابي من ردائه حتى أثر في عنقه وقال : أعطني حقي فإنكم يا بني عبد المطلب قوم مطل .. فلم يدافع عن نفسه ولم يزكها .. وكان رده أن ابتسم وأمر بإعطائه أكثر مما طلب . وقال للناس جميعاً : « إني رسول الله إليكم .. » وحدثهم بما أنعم الله عليه من النبوة وما أنزل عليه من الآيات وما آتاه من العلم . « أدبني ربي فأحسن تأديبي »[1] . والا فكيف يمكن أن يؤدي الرسالة ويبلغ العلم .؟! .

كذلك يمكن أن نذكر قول يوسف عليه السلام : ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ (يوسف ــ ٥٥) فهو يعلم من نفسه الكفاءة والأمانة ، ويرى أنه لا يوجد من يقدر على حمل هذه المهمة مثله . وإن كان الأصل في مجتمع مسلم يحكمه حاكم مسلم ، أن طالب الولاية لا يولى . كما قال ﷺ : « إنا لا نولي هذا الأمر من طلبه » ، وإنما يرشحه ويزكيه أهل الحل والعقد .

والشخصية المتوازنة تعرف ما لديها من الخير وما ينقصها .. فلا تقع بالغرور ولا باحتقار الذات ــ الشعور بالنقص ــ وتعرف ما يجب إخفاؤه من عملها الصالح وما يجب الحديث عنه ومتى تتكلم ومتى تسكت .. ويمكن أن نذكر مثلاً بسيطاً على ذلك : ما قاله العلماء عن الصدقة ــ هل يجب إخفاؤها دائماً ــ في قول الله تعالى : ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾ (البقرة ــ ٢٧٤) . فالإنفاق في بعض المواضع علناً يكون أفضل : مثل أداء الزكاة ، لأن في إعلانها إقامة لشرائع الدين . والصدقة في موضع القدوة يستحسن فيها الإعلان لأن فيها تحريك النفوس للتأسي . وفي بعض المواضع يجب أن تكون سراً . والحكيم هو الذي يعرف كيف يضع الأوامر في مكانها المناسب .. فلا يزكي نفسه ولا يخفي نعمة ربه .. والوصول إلى هذا المستوى ليس سهلاً ولا مستحيلاً ، وإنما يحتاج إلى استنفار العقل والاستفادة من التجارب والأخطاء .

---

١ ــ ضعيف . قال ابن تيمية عنه في مجموعة الرسائل الكبرى ٣٣٦/٢ : (معناه صحيح ، ولكن لا يعرف له إسناد ثابت) .

﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ .

فالأمر متعلق بمشيئة الله . وقد ذكر العلماء نوعين من المشيئة الإلهية :

١ ــ مشيئة كونية : وهي سنن الكون . ومن خالفها لحق به الضرر .. (مثل القوانين الصحية لسلامة الجسم ، وقوانين الفيزياء والكيمياء ..) .

٢ ــ مشيئة شرعية : وهي الأحكام الشرعية التي أمر بها في دينه ، ومن تركها يعاقب . وكل مخالفة لسنن الله الشرعية والكونية لها عواقب دنيوية . وكل من **جهل السنن وفقد التعامل السليم معها ، لا بد أن يقع في العواقب نفسها التي وقعت للأمم من قبله حين انقطعت عن سنة الله . ولقد ضربت الذلة على اليهود في الماضي لجهلهم** ومخالفتهم بعض السنن الإلهية . لكن المسلمين لم يعتبروا ، ودارت الدائرة عليهم وهم غافلون حائرون لا يدركون علة ضعفهم .

ولن يخرج المسلمون من التيه حتى يؤمنوا بالسنن ، وأنها تحكم الجميع ، ولا تحابي أحداً .. فيتعاملوا معها ويدخلوا عالم التسخير ..

ومشيئة الله هنا في تزكية الناس هي : ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ (الشمس ــ ٧) .

ويمكن أن نضرب مثلاً برجل أعطى شخصين مبلغين من المال متساويين . فأما الأول فعمل في المال وثمَّره وتصدق منه . وأما الثاني فبدد المال على موائد الخمر والقمار وخسر صحته وأعصابه بل وربما أسرته فهل الذنب يعود على من أعطى له المال ..؟ وهل يمكن أن نقول : إنه أحسن للأول وأساء للثاني .؟! لقد أحسن للاثنين من حيث إعطاء القدرة ؛ لكن كل واحد منهما قد اختار لنفسه طريقاً . فالأول زكاها بتنمية الفضائل ، والآخر دساها .

وهكذا ينبغي أن نفهم الآيات التي تحدثت عن عمل الله وحده على ضوء الآيات الأخرى التي شرحت العلاقة وحددتها بين عمل الله وعمل العبد . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .. وهو أفضل أنواع التفسير ..

﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ .

والفتيل هو الخيط الدقيق في شق نواة التمر .. إن الله لا يظلم ولا بهذا المقدار الضئيل .. ولكن يجب أن نتبع السنن حتى نصل إلى النتائج ولا بد من الانتباه إلى نقطتين فيما يتعلق بنتائج الدنيا :

١ ــ نتائج الدنيا تأتي جماعية : أي بحسب أعمال الأكثرية . ويدل على ذلك قول الله تعالى : ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ (الأنفال ــ ٢٥) . وقول رسول الله ﷺ حين سئل : (أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث ») (رواه مسلم) . فقد يعم البلاء في الدنيا حتى يصيب الصالحين دون ذنب منهم ، لكنهم يحصلون في الآخرة على ما يستحقون من أجر .. فالحساب هناك فردي ولا تغني نفس عن نفس شيئاً ﴿ويأتينا فرداً﴾ (مريم ــ ٨٠) . ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ (المدثر ــ ٣٨) .

٢ ــ إن من طبيعة الدنيا أنه لا يتحقق فيها العدل الكامل . وأبرز مثال : إن صانع القنبلة الذرية الذي سبب آلاماً ودماراً لأجيال من الناس ــ قد لا نستطيع حصرهم ــ كيف يمكن أن يحكم عليه في الدنيا بعقوبة تجمع بين حقوق كل من تضرر بذلك ..؟!

وهذا أكبر دليل على ضرورة الإيمان بحياة أخرى يتحقق فيها العدل الكامل . ولهذا يقولون : إن الدنيا دار ابتلاء وامتحان ، وليست بدار جزاء .

﴿ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ .

بادعائهم أنهم شعب الله المختار .. وادعاؤنا أننا أمة محمد لنا مكانة وميزة خاصة .. وكل من يدعي مثل هذه الادعاءات فقد افترى على الله الكذب ونسب إليه أشياء تخالف سننه .. وأي إثم أعظم من أن تنسب لله الظلم والمحاباة والخروج عن الوعود والسنن التي منحها لعباده ، كي يعرفوا كيف يؤدون دورهم على الأرض ، ليفوزوا برضى ربهم في السماء ..؟!

﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ .

إن المسلم ينبغي أن يتحرر من عقدة التسامي ــ أو الغرور أو تنزيه الذات أو الاكتفاء الذاتي ــ فالأسماء لا تهم وإنما قصدنا هذه العلة التي أصابت المسلم حتى انطبق عليه وصف رسول الله ﷺ : « العائل المستكبر » ... هذه العلة التي تجعله محروماً من الاستفادة مما عند الآخرين وإنما ينظر إليهم من علٍ ويقول : هم كفار .. وقد يعبر بلسانه ــ وهو الفخور الذي يزكي نفسه . وقد يعبر بسلوكه وحركاته ــ فهو المختال . وقد يبقى الأمر مسيطراً في لا شعوره متمثلاً في الإعراض والاستخفاف بما قدمه الآخرون من كشوف وأبحاث وعلوم . وصدق رسول الله ﷺ : « من تواضع لله رفعه » . فكيف يرتفع العالم الإسلامي وهو لم يتحرر بعد من هذه الآفات النفسية ..؟!

ومن صفات اليهود :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ.. ﴾ .

مع أن الله أعطاهم نصيباً من الكتاب .. !!

والجبت كما ذكر الجوهري : كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر .. (لأن الناس يتوجهون إليهم في قضاء حوائجهم فيقعون بالشرك من جانب لا مجيب للدعاء إلا الله .. أي جانب الألوهية كما سبق أن أشرت عند موضوع الشرك) .

أما **الطاغوت** : فهو كل من يدعي لنفسه حق التشريع من دون الله . ولنا أن نلاحظ أن الطاغوت يسلب إرادة الناس بالقوة والتسلط .. بينما الجبت يسيطر عليهم بالدجل والأوهام والخرافات .. فهو يتسلط على عقولهم ويصبحون خاضعين له بإرادتهم .. ولهذا يعتبر الجبت أخطر من الطاغوت لأنه يستعبد فكر الإنسان بينما الطاغوت يستعبد جسمه .. والخبثاء في كل عصر يتلاعبون بالناس ويتحينون لكل ظرف ما يناسبه من أساليب الاستعباد .. فالشعوب المتخلفة تُستعبد بالجبت . فإذا ظهرت بوادر الوعي وبدأ الجبت يفقد سلطانه .. لجأ الخبثاء إلى القوة وفرضوا الطواغيت على الناس . ولقد تحدث مالك بن نبي في كتبه (مشكلات الحضارة) عن أساليب

الاستعمار وعمليات الصراع الفكري التي يشرف عليها في البلاد المستعمرة . فقال : (إن الاستعمار يخرج من **محفظته** ــ كلما لمس تغييراً في الأفكار والظروف عند المستعمرين ــ وسائل جديدة تناسب التغيير الذي حدث لإلهاء الناس واستعبادهم) .

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ .

وتأمل أحداث السيرة .. وما جاء من روايات في سبب نزول الآية يوحي بجذور الحادثة .. فلقد أنذر رسول الله ﷺ بني النضير ــ بعد أن نقضوا العهد مع النبي ﷺ ــ بالخروج من المدينة وإلا قاتلهم . فخرجوا من المدينة وذهب بعض زعمائهم إلى قريش ليطلبوا منهم المعونة ويحزّبوهم ضد المسلمين .. (وذكروا من زعمائهم حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف) فسألهم زعماء قريش : ألا ترون إلى محمد يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية .. قالوا : بل أنتم خير[1] . فشهدوا للباطل ضد الحق حرصاً منهم على استمالتهم لنصرتهم .. فاستحقوا لعنة الله بذلك وطرده من رحمته .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ .

فلقد جاؤوا يستنصرون بالمشركين وقدموا شهادة زور ليستميلوا بها الكفار إلى نصرتهم . ولقد استجاب لهم المشركون وحزّبوا الأحزاب ضد المسلمين وحاصروا بهم المدينة . لكن الله سبحانه نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده . لأن من أغضب ربه حتى استوجب لعنته فما له من ناصر ولو كان أهل الأرض كلهم معه .

ولئن كان موقفهم هذا عن جهل فقد بلغ بهم الجهل حداً قبيحاً .. وإن كان عن عمد فقد بلغ بهم الفساد حداً كبيراً . والجهل والعمد كلاهما علة يؤاخذ عليها الناس .. (الضالون والمغضوب عليهم) .

وما زال اليهود يتخذون هذا الموقف ضد الإسلام ويستخدمون وسائل الدعاية للإيحاء إلى الناس بأن الإسلام هو الانحطاط والجمود والتأخر ، بينما الأمم المعادية له تحمل

---

١ ــ راجع الروايات المذكورة في ذلك في تفسير ابن كثير .

الرقي والتقدم .. لكن ما بالهم ينجحون في مساعيهم ونتخاذل ..؟! وتنصرهم الدول الكبرى وننهزم ..؟!

لقد كان الله يخاطب الأمة المؤمنة ويعدها بالقضاء على عدوها .. فهل جربنا أن نكون مسلمين حقاً ملتزمين بدين الله وتوجيهاته .. ثم ننظر : هل يبقى لليهود من نصير ..؟! أم هل ينفعهم في ذلك الوقت نصير ..؟

ويتابع في عرض صفاتهم فيذكر بخلهم :

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ .

وماذا يفيد حكمهم وقولهم : هؤلاء أهدى من هؤلاء .. هل شاركوا الله في ملكه ..؟ وهل يستطيعون أن يمنحوا حلفاءهم شيئاً من النصرة أو الملك ..؟ ولو كان لهم شيء لما أعطوا نقيراً لأحد ــ والنقير : هو البروز الصغير في رأس نواة التمر ــ كما أنهم لم ينفعوا أحداً بنصيبهم من الكتاب الذي أعطاهم الله، وإنما كتموه عن الناس وبخلوا به . ولقد كانوا مغتاظين لأن محمداً ﷺ ظهر من العرب وليس منهم .. ولأن الله أنعم عليه وعلى أتباعه بالدين الأخير والنصرة والتمكين في الأرض .

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ؟!

يستنكر عليهم هذا الحسد وهذه الأنانية .. فقد سبق أن أعطى الله آباءهم وغمرهم بفضله .

﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ .

والحسد مرض نفسي ينشأ من التفسير الخاطىء للأمور .. فالحاسد يظن أن الفضل والنعم لا علاقة لها بالسعي والكسب والجدارة .. بل هي مسألة حظوظ .. ولهذا لا يتوجه الحاسد إلى مراقبة نفسه وتصحيح أخطائه وإنما يراقب الآخرين ويكيد لهم ويتمنى زوال نعمتهم .. وهو بهذا لن يصل إلى مبتغاه لأنه لا يأتي الأمور من أبوابها ..

وفضلُ الله مفتاحه السعي والكسب . فمن يضيع عمره بالحسد والكيد لغيره

فإنه يخسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

ولقد دفعهم الحسد إلى أن كفروا بنبوة محمد ﷺ ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ (الأنعام ــ ١٢٤) فالنبوة فضل كبير من الله .. لكن الله قد أعطاها للجديرين بها .

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ .

والكتاب: هو آيات الله وأوامره. ويطلق عليه في آيات أخرى: الحكم. والحكمة: معرفة أن سعادة البشر لا تتحقق إلا بتنفيذ أوامر الله.

والناس في موضوع الحكم والحكمة على أربعة أنصاف :

١ ــ من يعرف الحكم والحكمة .. وهم الأنبياء وأتباعهم إلى يوم الدين .

٢ ــ من يجهل الحكم والحكمة .. وهم البدائيون الذين خسروا الدنيا والآخرة .

٣ ــ من يعرف الحكم ويجهل الحكمة .. وأكثر المسلمين الآن من هذا النوع .

٤ ــ من يعرف الحكمة ويجهل الحكم . وهم العلماء من غير المسملين الذين تنكشف لهم آيات الآفاق والأنفس ...

والمؤمن ينبغي له أن يطلب الحكمة دائماً ليزداد إيماناً ورسوخاً .. لكنه إن جهل الحكمة يسلم إلى الله العليم الحكيم ويقول : سمعنا وأطعنا .

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ : وهم المسلمون ، لأن القرآن قد سمّى أتباع الأنبياء في كل عصر مسلمين .

﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ : والذي يكفر بالحق لا يكتفي غالباً بهذا الموقف لنفسه بل يحاول صرف الناس أيضاً عنه .

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾: للفصل بين الفريقين ، فإنها ستضم أبناءها إليها ..

وبعد تعداد هذه الصفات الشنيعة لليهود :

١ ـــ يزكون أنفسهم .

٢ ـــ يؤمنون بالجبت والطاغوت .

٣ ـــ يقفون في صف المشركين ضد المسلمين .

٤ ـــ يبخلون بما آتاهم الله من فضله .

٥ ـــ يحسدون الناس مع ما أعطاهم الله .

يختم المقطع بمشهد من القيامة يتهدد به كل من يتصف بهذه الصفات ، ويرغِّب كل المؤمنين المصلحين بحسن الثواب .

خامساً ـــ مشهد من القيامة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم.. ﴾ .

أولئك الذين عطلوا وسائل المعرفة عندهم : العقل والسمع والبصر فلم ينتفعوا بها . ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ (الأعراف ـــ ١٧٩) . أولئك الذين أعرضوا عن أوامر الله وعطلوا آياته عن التطبيق العملي ، سيلقون هذا المصير . وأكثر المسلمين يمر بهذه الآيات آمناً لا يختلج قلبه .. فالحديث عن اليهود والذين كفروا[1] .. لكن الفطنين هم الذين يدركون أبعاد التهديد فيخشعون .. روي عن الحسن البصري أنهم جاءوه بكوب من الماء البارد وكان ظمآناً .. فأغمي عليه .. فسئل حين انتبه ؟ فقال : ذكرت قول أصحاب النار لأصحاب الجنة : ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا

---

١ ـــ أصل معنى الكفر : الستر والتغطية ، فهم يحجبون آيات الله من أن تصبح حقيقة مشاهدة بالممارسة .

علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين﴾ (الأعراف — ٥٠) .

وسمع عمر قارئاً يقرأ : ﴿والطور وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ..﴾ (الطور : الآيات ١ — ٨) . فارتكن إلى الجدار ثم رجع إلى بيته يعوده الناس شهراً مما ألمَّ به .

﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ .

والجلد أشد إحساساً بالألم مما يليه من العضل ، فهو منطقة الإحساس وفيه النهايات العصبية .. فهي صورة رهيبة من التقليب على النار . وكلما سقطت الجلود بدلوا بغيرها ليذوقوا العذاب المستمر ..

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

قادر على ذلك .. وحكيم يعذب من يستحق .. وكعادة القرآن يأتي الترهيب مشفوعاً بالترغيب لوضع الإنسان في أفضل شروط الحركة : بين الخوف والرجاء . ومن الناس من تؤثر فيه مناظر التعذيب ، ومنهم من تستهويه مشاهد النعيم ..

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ .

الصورة الآن مقابلة ومعاكسة تماماً لأصحاب النار .. ﴿**سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً**﴾ ..

إن حياتنا الدنيا لا تدوم سعادتها ولا تكتمل ولا تخلو من غصة . فلم لا نعمل لسعادة دائمة في حياة خالدة ..؟!

« كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى » قيل : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال

ﷺ : « من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » (رواه البخاري) .

وعن أبي هريرة عنه ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلها ، وللجنة ثمانية أبواب . فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد » . فقال أبو بكر رضي الله عنه : (والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي . فهل يدعى أحد منها كلها ؟!) قال ﷺ : « نعم وأرجو أن تكون منهم » (متفق عليه) . هكذا كانت الرغبة والمسارعة للخير عندهم .

وقوله تعالى : ﴿**آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ جدير بالانتباه . ولقد سئل الفضيل ابن عياض عن العمل الصالح ؟ فقال : (أخلصه وأصوبه) .

ولا بد لنجاح الأعمال في الدنيا وقبولها في الآخرة من الإخلاص والصواب معاً .. ولا يغني أحدهما عن الآخر .

والمقصود من الصواب : أن يكون موافقاً لآيات الله وسننه في الكتاب والآفاق والأنفس .

الفصل الثامن

آية الأمانات والأمراء والرعية

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ

جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ
لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ
فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾
وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن
دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ
بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن
لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم
مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ
أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾

أولاً ــ أداء الأمانة والحكم بالعدل

ولقد عرَّف ابن تيمية الآية الأولى بأنها آية الأمراء ، والثانية آية الرعية .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ .

والخطاب في الآية عام لكل المسلمين . لكن الأمراء بصورة خاصة هم الذين يؤدون حقوق الناس ويتولون الحكم بينهم .

إن القرآن كتاب الحياة ينتقل بنا من الأسرة ومشكلاتها ، إلى المجتمع والعلاقة بين أفراده ، إلى أعدائه والتحذير منهم .. ثم يعود إلى الجماعة المسلمة وحكامها ، فيوصي كل طرف بأداء واجبه .. إنه يدخل مع المسلم في كل مجالات حياته ، ليعلمه كيف يكون السلوك الأمثل ، ويطبعه بالطابع القرآني الفريد . لقد كان القرآن ينشىء أمة ويخوض بها المعركة في مواجهة الجاهلية المترسبة في نفسها ومن حولها. إن القرآن ينشىء أمة وهو يصنع ذلك ، كان يبدأ فيبين للجماعة المسلمة معنى الإسلام وشرط الإيمان ؛ فيبين أن المصدر الذي تأخذ منه الجماعة المسلمة وترجع إليه في كل صغيرة وكبيرة من حياتها هو : الله ورسوله ﴿ **إن الله يأمركم** .. ﴾ . والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى التي حملها الإنسان وهي معرفة الله والإيمان به والقيام بدور الخلافة على الأرض .

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ (الأحزاب ــ ٧٢) . إنها الخلافة على الأرض ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .. ﴾ (البقرة ــ ٣٠) . فالأمانة هي المسؤولية التي ترتبت عن وجود : طاقة + إرادة حرة + ضمير (جهاز مميز) عند الإنسان .

والمخلوقات التي أبت حمل الأمانة .. لم تقل : لا أريد ، ولكن لسان الحال أبلغ من المقال ؛ فهي لم تهيأ لحمل هذه الأمانة لأنها لا تملك العناصر الثلاثة معاً .. فالسموات والأرض لا تملكان إلا طاقة .. وهذه الطاقة محكومة بنظام دقيق لا فكاك لها منه .. وعالم الحيوان يملك الطاقة وحرية التوجه إلى حد ما .. لكنه لا يملك الجهاز المميز بين الخير والشر ...

إن توفر هذه العناصر الثلاثة يستوجب المسؤولية والتكليف أي : الأمانة ــ بينما لا يكلف المجنون ، ولا الأسير المقيد ، ولا من فقد طاقته بالمرض أو الشيخوخة ــ فمن عرف هذه الأمانة وقام بها كان من المنعم عليهم . ومن عرفها ولم يقم بها كان ظلوماً (من المغضوب عليهم) . ومن لم يهتم بمعرفتها ولم يقم بها كان جهولاً (من الضالين) .

والمؤمن يسأل ربه العون والهداية لضميره وعقله ، حتى يكشف الصراط المستقيم ويمشي فيه فيؤدي الأمانة : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ (الفاتحة : الآيتان ٦ ، ٧) .

ومن ذلك ، يأتي التنبيه الإلهي لأهمية الطاقات التي وهبت للإنسان والمسؤولية عنها . ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ (الإسراء ــ ٣٦) .

ثم تتفرع بعد ذلك الأمانات .. فأمانة التبليغ والبيان لآيات الله : « بلغوا عني ولو آية » (رواه البخاري) ، وأمانة تربية الأولاد : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .. » (متفق عليه) ، وأمانة الحاكم ومسؤوليته عن الأمة .. ورضي الله عن عمر فقد حمل الأمانة وشعر بثقلها حتى قال : (لو سقطت شاة على نهر دجلة لعلمت أن الله سيسألني عنها) . ومن ذلك أيضاً وضع الرجل المناسب في المكان المناسب . فلو عيّن الحاكم والياً أو مسؤولاً ، وكان في الناس من هو أقدر وأجدر منه فيكون قد خان الأمانة . ومن الأمانة أن تعرف فضل إنسان وحقه : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ (الأعراف ــ ٨٥) . والمجالس أمانة .. فإذا حدثك صديقك حديثاً دون أن يُسمع الآخرين فحديثه أمانة ، وعليك أن تحفظ الأمانة . وبيوت الناس وحياتهم الخاصة وكتبهم ورسائلهم كلها أمانات . ولا يحل لأحد أن ينظر في كتاب أخيه بغير إذنه .

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾ .

والعدل : أن تعطيه حقه كاملاً دون زيادة أو نقصان .. لأن الزيادة ستكون على حساب الخصم ، وعندها سيفقد الحاكم عدالته . فالحكم بين الناس لا يقبل فيه إلا العدل . أما في التعامل مع الناس فالإحسان أفضل . وينبغي للحاكم أن تكون صلته بالطرفين واحدة .. وأن لا يحكم حتى يسمع للطرفين .. وقد ذكر رسول الله ﷺ على رأس السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل .

ولقد حقق المسلمون ــ في عصرهم الذهبي ــ مستوى من العدل لم ترقَ إليه البشرية حتى الآن ، وذلك حين تخلقوا بأوامر الله والتزموا بها ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ (المائدة ــ ٨) . فلقد نزل الإسلام لرفع الظلم والاستعباد عن البشر .. وحارب الشرك في كل صوره لأنه ظلم عظيم واستعباد للناس بغير حق .. كما قال ربعي : (جئنا لنحرر العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد . ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام) . ولنا أن نتذكر نماذج من هذه العدالة في حادثة القبطي الذي اشتكى إلى عمر ــ رضي الله عنه ــ ضربة سوط تلقاها من ابن الوالي المسلم في مصر بغير حق ، فأمر عمر بالقصاص وقال كلمته المعروفة : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) ؟!

ويروي لنا التاريخ حادثة عجيبة عند فتح سمرقند مفادها : أن أهل سمرقند أرسلوا إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز ــ رضي الله عنه ــ يشتكون بأن المسلمين قد دخلوا إلى سمرقند وفتحوها قبل أن يعرضوا على أهلها الإسلام أو الجزية أو القتال . وأنه كان هناك تقصير في التفاوض بين الطرفين . فأرسل عمر إلى قاضي المسلمين هناك أن ينظر في الأمر بكل نزاهة وتجرد ، فإذا تحقق أن دعوى هؤلاء على حق ، فليخرج جنود المسلمين من سمرقند كلياً .. ثم يقوموا بالعرض والتفاوض من جديد . وقد حكم القاضي بذلك ، فأسلم أهل سمرقند .

إن مسؤولية الحاكم : أن يؤدي الأمانة ويحكم بين الناس بالعدل . والعدل هو شرع الله : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. ﴾ (النحل ــ ٩٠) . لأنه هو العليم

بعباده ، الحكيم الذي يضع الأحكام في مكانها المناسب .. وما عليك إلا أن تنظر في المبادىء الأخرى والنظم ومدى ما تحققه من عدالة .. وتقارن ذلك بأحكام الإسلام .. ومن العجيب أن تتطاول ألسنة أعداء الإسلام وهي غارقة في الظلم ...لتهاجم بعض الأحكام الإسلامية ولقد سمعت إذاعة لندن تهاجم حكومة السودان ، لأنها حكمت على سارق يبدو أنه وصل في الجريمة إلى حد الإفساد في الأرض ، حتى استحق حكم الحرابة الوارد في سورة المائدة بأن تقطع يده ورجله من خلاف . وتصف ذلك بأنه حكم قاس لا يرضى به الناس .. !! سبحان الله .. معاقبة مجرم يهدد أمن المجتمع كله تعتبر قسوة ..!! أما قتل آلاف الأبرياء واستعمار الشعوب .. والتدخل العسكري في شؤون الدول الأخرى ــ مثل فوكلاند ــ فهو عدل وقسط ورحمة ..؟! إن هؤلاء الذين يتشدقون بعبارات الحرية والعدالة والسلام قد ملؤوا الأرض إفساداً وجوراً .. لقد دخلوا إلى أمريكا ــ عند اكتشافها ــ فقاموا ــ هم والبرتغاليون والإسبان ــ بعملية إبادة لشعوبها الأصلية من الهنود الحمر والأنكاو .. ولولا جهل المسلمين بدينهم وبما يجري من حولهم لما أمكن أن يقال مثل هذا الكلام أو يلاقي أذناً صاغية . ويكفي أن نذكر مقابل هذه الصــورة الهمجية في إبادة الشعوب ،صورة القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي ؛ حين حرر القدس من الصليبيين ، فعفا عن السفاحين وقدم الدواء لقائد الصليبيين حين مرض .. حتى شهد له أعداؤه بالفضل .. وقالوا الكلمة التي تردد صداها في الأرض دون منازع : (ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب) . مع أن صلاح الدين لم يكن عربياً .. لكنه تخلق بأخلاق القرآن .. فالفضل للإسلام .

ويعقب القرآن على هذا الأمر :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ .

نِعمَّا : نعم ما يعظكم به . أو نعم الآمر ونعم الأمر الموجه منه . أو : إن أداء الأمانة والحكم بالعدل أمران : نعما هما ..

ولقد كان الخطاب أمراً .. ثم وصف هنا بأنه موعظة .. فالقرآن هنا يقوم بعملية إدخال الحكم إلى الضمير .. لأن الموعظة تحمل النصح والإشفاق ، وترشد إلى الخير ،

فهي أقرب إلى القلب وأقرب إلى التنفيذ .. وحكمة هذين الأمرين يدركها من يرى الآثار بعد التنفيذ : ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ (سورة ص — ٨٨) . ونحن نلمس من الحياة العملية أنه ما من صلاح بين اثنين أو أكثر إلا وكان سببه الأمانة والعدل . وما من فساد بين اثنين أو أكثر إلا وكان سببه ضياع الأمانة والعدل أو قلتهما ، وذلك في مستوى الأسرة والمعاملات الاجتماعية .. أو تعامل الدولة مع رعاياها والمعاملات الدولية .. فإنه لا يمكن أن تحدث الثقة بين البشر إلا بوجود هذين الأمرين ، فهما ركنا الحياة الإنسانية السوية .. واسمع قول عمر رضي الله عنه لسعد : (عليك بالعدل فإنه وإن رؤي ضعيفاً فإنه أقمع للباطل وأرهب للباغي) . وعلى قدر رسوخ أصول العدالة والأمانة في نفوس الناس تسعد البشرية ، وتجد حلاً لمشكلاتها . وهذا ما يشير إليه مالك بن نبي في كتابه (فكرة الأفريقية الآسيوية) حين يقول : (إن الذين يقودون العالم لا يوجد عندهم عدل ، وهذا ما يجعلهم لا ينالون ثقة العالم ، وهذا هو الذي يجعل مشكلات العالم لا تحل)[1] .

والإسلام يغرس ذلك في نفس المؤمن ويدربه عليه بشكل عملي : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (رواه البخاري ومسلم) . فحين يصبح الإنسان قادراً على أن يفكر بالآخرين كما يفكر بنفسه ، تكون العدالة والأمانة قد تأصلتا في أعماقه .. وعند ذلك يمكن أن نرسخ الأمانة والعدل إلى اللاشعور عند الأجيال ، لأنها تصبح ثقافة يتشربها الناشىء في ذلك المجتمع .. وهو هدف البشرية في ترقية النوع ، وأن يأتي كل جيل أرقى وأفضل ممن سبقه . وأذكر في هذا المجال بعض اللقطات من عهد عمر :

فهذه امرأة فقيرة من عامة الناس تقول لعمر الذي أطعم أطفالها الجياع وهي لا تعرفه : (واهاً لعمر .. يتولى أمرنا ولا يعلم حالنا) ؟! إنها تدرك أبعاد مجتمع العدل والأمانة الذي تعيش فيه .. وذاك الرجل الغريب الذي جاء رسولاً إلى عمر من دولة مجاورة يراه نائماً على التراب دون حرس ولا حجاب ولا أبهة .. إنه يلمس البون الشاسع

١ — كتاب الإفريقية الآسيوية ، ص — ٨٨ ، مالك بن نبي .

بين بيئته وهذا المجتمع فيقول : (عدلت فأمنت فنمت ..) . وذاك الطفل الذي كان يلعب مع أصحابه ، وإذا بعمر بن الخطاب يأتي فتنحى الصغار من هيبة عمر ، وبقي الطفل في مكانه واقفاً . فسأله عمر : (لِمَ لَمْ تفعل كما فعل أصحابك ؟) فقال : (لم أرتكب ذنباً فأخافك وليست الطريق ضيقة فأفسح لك) .. لقد كان هذا الطفل يتشرب ثقافة العدل والأمانة من مجتمعه ..

إن وسائل الإعلام في هذا العصر قد تطورت بشكل مذهل .. وصار بمقدورها أن تغرس من القيم والمفاهيم في أعماق الأجيال ما تشاء . ولكن من المؤسف أن المشرفين عليها لا يدققون في التوجيه ، ويعطون الأولوية للإمتاع والتسلية بدلاً من التربية والترقية .. فكيف نحلم بمستقبل أفضل إن لم نهيىء اللبنات الصالحة له ..؟!

ويعقب الله بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ . إن الذي أمر بذلك هو السميع البصير .. الذي لا تخفى عليه خافية .. فاحذروا أن يرى منكم ويُسمَع تهاون أو تلاعب بالعدل والأمانة . كذلك فإن التعقيب يحمل تطميناً للمؤمن .. فقد لا يقدر الناس جهودك وقد لا يطلعون على تضحيتك .. وقد يصدر منهم بعض الأذى لك لأنك تلتزم بالعدل والأمانة .. فلا تخف . إن الله سميع بصير .. ولن يتخلى عنك . كذلك فيها إيحاء للظالم والمظلوم .. فإن الله يسمع ويبصر ، ولا يمكن إخفاء الحقائق عنه بمرافعة بليغة يؤديها لسان مَهَر في تزيين باطله . « واتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » . وإن الله يسمع ويبصر ويمهل ولا يهمل ..

ثانياً ـــ آية الرعية

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ .

نداء للمؤمنين بأحب الأسماء إليهم .. ولو سمعت نداء من إنسان عزيز عليك لأسرعت ، فكيف تلبي نداء الله الذي أحببته أكثر من مالك وأهلك وولدك .. بل ومن نفسك التي بين جنبيك ..؟ وكما يقول ابن مسعود رضي الله عنه : (إذا سمعت النداء فأرعه سمعك ، فإنه إما خير يأمرك به أو شر ينهاك عنه) .

١ ـــ ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ : باتباع كتابه .

٢ ـــ ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ : خذوا بسنته . والقرآن والسنة هما : مقياس العدل وأداء الأمانة . فالرسول ﷺ في أمور الدين معصوم : ﴿ وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (النجم ـــ الآيتان ٣ ، ٤) .

٣ ـــ ﴿ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ : وهم أهل الحل والعقد ؛ المتخصصون من العلماء والرؤساء الذين تثق بهم الأمة . والأمر عام في كل ولي أمر .

ونلاحظ في الآية ملاحظتين :

١ ـــ **منكم** : أي من المؤمنين الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان .

٢ ـــ لم يكرر لفظ : أطيعوا عند **أولي الأمر** ، وكأنه يقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله ورسوله . فهي طاعة فرعية تتفرع عن الأصل الثابت الذي هو طاعة الله ورسوله .

وللطاعة حدود كما قال أبو بكر ـــ رضي الله عنه ـــ في خطبة خلافته : (وليّت عليكم ولست بخيركم . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم) . ولقد ورد في السنة ما يقرر حدود هذه الطاعة بشكل حاسم :

١ً ــ بعث رسول الله ﷺ سرية ، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار . فغضب منهم أميرهم لأمر ما ، فأمرهم أن يضرموا ناراً .. ثم أمرهم أن يلقوا أنفسهم . فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار ، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها .. فلما أخبروه قال ﷺ : « لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً . إنما الطاعة في المعروف » (ورد في الصحيحين) .

٢ً ــ « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . » (رواه أبو داود) .

٣ً ــ « ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا له وأطيعوه » (رواه مسلم) .

٤ً ــ عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : (دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس حوله مجتمعون عليه .. وهو يحدث عن رسول الله ﷺ : « إنه لم يكن نبي من قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم . وإن هذه الأمة جعلت عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور ينكرونها وتجيء فتن يَرفِقُ بعضها بعضاً وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه .. هذه . فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه . ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه إن استطاع » . قال : فدنوت منه فقلت : أنشدك بالله آنت سمعت هذا ؟ فقال : سمعته أذناي ووعاه قلبي . فقلت له : هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ويقتل بعضنا بعضاً .. قال فسكت ساعة ثم قال : أطعه في طاعة الله واعصه في معصية الله) (رواه مسلم) .

إن طاعة أولي الأمر شيء جوهري في حياة الأمة .. وهو نابع من أهمية القانون والالتزام به ، إذ لا حياة لمجتمع بدون قانون . ولا يمكن أن يترك الناس كي يفعل كل

منهم ما يحب ويهوى[1] . ولا بد من قانون وولي أمر يتولى تنفيذ القانون كي تتحقق للإنسان حياة اجتماعية .. إن هذا يبدو ضرورياً حتى للمجتمعات البدائية والقبلية .. حيث يتفق الناس على مجموعة من الأعراف والتقاليد والمقدسات لتصبح قانوناً للقبيلة يتولى الإشراف على تنفيذه زعيم القبيلة . أقول هذا : لإبراز أهمية القانون ابتداء بغض النظر عن مدى صحته وصلاحيته .. ومجتمع بدون قانون يعتبر غابة للقوي لا وجود فيها لكيان اجتماعي .. ثم ترتقي المجتمعات بعد ذلك بحسب توفر الصحة والصلاحية في قوانينها .. إلى أن تصل إلى القمة وهي المجتمعات القائمة على القانون الإلهي .

ورسول الله ﷺ قد سلّط أضواءً على هذه القضية في حديثه الذي شبَّه فيه المجتمع بالسفينة وكيف أن فئة من الركاب فكرت بحسن نية أن تخرق السفينة لتحصل على الماء . فإن تركوهم يفعلوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً . ولا ننكر أن هؤلاء أرادوا خرق السفينة بدافع الحب لإخوانهم .. كي لا يزعجوهم ؛ كالأم التي تريد من ابنتها أن تتبرج بدافع الحب لها . وأكثر الذين يفتحون أبواب الفساد في المجتمع إنما يدفعهم إلى ذلك خدمة المجتمع ؛ إما بالترفيه عنه أو التقدم به ــ على حسب نظرهم المحدود ــ فلا يترك الأمر بدون ضابط .. وإنما للأفراد أن يعرضوا اقتراحاتهم ومشاريعهم على أولي الأمر .. وهؤلاء هم أهل الحل والعقد الذين يفكرون في مصالح الجميع ، ويقدرون كل ما من شأنه أن يرفع مستوى المعيشة في الأمة مادياً ومعنوياً . وعلى هذا الأساس يسنون القوانين ويضبطون حركة الأفراد ضمن الحيز الإيجابي المفيد .

وإن نظام الإسلام يتفرد عن غيره بالتوسط والاعتدال ، وهي حالة التوازن المنشودة . والإسلام في هذا : يبني الشخصية المتوازنة التي لا تنساق إلى التمرد ولا تستسلم للحاكم في كل أمر خيراً كان أم شراً . أي لا يصبح الفرد كالعصا بيد الحاكم يضرب بها الصالح والطالح ، فإنما الطاعة في المعروف . والناس أمام الأمر الجائر الموجه إليهم من الحاكم على ثلاثة أنواع :

١ ــ نوع ينفذ دون تمييز بين خير أو شر . فهو جندي للباطل عنوانه :

١ ــ سبق أن أشرت إلى ذلك عند القسم الثالث من السورة (جزاء الفواحش) .

(حاضر سيدي) . وهو الذي شبهناه بالعصا في يد المستكبر يوجهها كيف يشاء ، وتكون له سلاحاً يستعبد به الناس ، وهو المستضعَف الذي ندد به القرآن وتوعده بالنار . ﴿ يوم تقلَّب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ (الأحزاب ــ ٦٥) .

٢ ــ ونوع لا يطيع ولا ينفذ إذا أمر بمنكر أو ظلم . ويقول : أنا لا أفعل ما يغضب الله . وهي حالة المستضعَف المؤمن يتعرض للأذى من المستكبر لأنه يرفض الخضوع وتنفيذ المنكر .

٣ ــ ونوع يقول: أنا لن أسمح بوجود أو تنفيـذ هذا المنكر ما دامت لي عين تطرف. فهو جندي الحق الذي يستخلفه الله على الأرض.

والإنسان يرتقي عبر هذه المراحل الثلاث . والتدرج في هذا الارتقاء سنة من سنن التغيير . **فلقد بدأ الإسلام من إصلاح إنسان العصا فعلَّمه أن يرفض الباطل : ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ (العلق ــ ١٩) . ولقد تمثل الموقف الثاني في المرحلة المكية حيث** رفض المسلمون أن يعبدوا الأصنام لكنهم لم يكسروا الأصنام ، ولقد نزل بهم الأذى من المستكبرين . أما الموقف الثالث فلم يحدث إلا في المدينة حيث بدأ المجتمع المسلم يمارس دوره في منع الظلم وقمع الباطل .

تلك صور متدرجة نرتقي بها من مجتمع جاهلي .. أو منحرف عن الإسلام إلى مجتمع رباني . لكن الآية هنا تتحدث عن مجتمع مؤمن ، وحكامه ينطبق عليهم وصف الله تعالى :

﴿ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ .. وعلى الحاكم والمحكوم أن يرجعا إلى المصدر الأعلى عند الخلاف .

ثالثاً ـــ دليل الإيمان : التحاكم إلى الله ورسوله

﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ .

عند التنازع بين الأفراد .. وبين الراعي والرعية .. وبين الأمم .. علينا أن نعود إلى مبادىء الدين الأساسية ، ونستوحي منها ونقيس عليها إن لم نجد في القضية نصاً صريحاً . ففي كل ما يعرض ويجدُّ من قضايا ومشكلات ، عليك أن ترجع إلى القرآن والسنة ، وينبغي أن تكون لكل مسلم القدرة على الرجوع إلى الكتاب والسنة ، وأن يعرف نصوصاً منهما تتعلق بمسألته التي يبحثها .. لا أن نبقى على هذه الحال من التقليد الأعمى لآراء السابقين دون نظر إلى الأدلة التي استدلوا بها .. وهذا ما سبب الجمود الفكري وعطل الاجتهاد في عالمنا .. حتى ألقي في روع المسلم العادي أنه لا يستطيع أن يدرس القرآن والسنة ، لأن هذا الأمر لا يستطيعه إلا العلماء . ولقد كتب صاحب المنار ـــ منذ أكثر من سبعين سنة ـــ في تفسيره يشكو من هذه العلة عند المسلمين وبيّن : بأن القرآن يطالب الجميع بالتدبر ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ (النساء ـــ ٨٢) ؟! قال :

(ونحن لا نطلب منه أن يكون مثل الأئمة المجتهدين ، ولكن ينبغي لكل مسلم **بقدر ما عنده من الإمكانات أن يتدبر). أي على الأقل أن يعرف دليل الأئمة في اجتهادهم الذي اتبعهم فيه.**

والآن وبعد مضي سبعين سنة ما زلنا نجد المسلم يؤثر التقليد الأعمى على الرجوع مباشرة إلى القرآن والسنة . هذا في حين أن ناساً من غير المسلمين درسوا **الإسلام وأحاطوا به أكثر من المسلمين.. وبعضهم ألّف فهرساً لأحاديث الكتب** الستة . إن دراسة القرآن والسنة ليست صعبة .. لكنها تحتاج إلى جهد منظم مستمر . ونحن نرى تلاميذ المدارس تقرر لهم مناهج وكتب يدرسونها وينجحون فيها آخر العام .. **فهل يصعب علينا أن ننفذ برنامجاً قوامه: أحد التفاسير المعتمدة ومختصر**

الصحيحين وكتاب معتمد في السيرة. .؟! إن دراسة هذه الكتب الأربعة من شأنها أن تعطي المسلم قاعدة للانطلاق وإلماماً بالقواعد الإسلامية. . وتجعله قادراً على الرجوع فيما يعرض له من مشكلات مستجدة إلى مواضع الأدلة في الكتاب والسنّة.

﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ .

إن رجوعنا في مشكلاتنا (كبيرة كانت أم صغيرة) إلى القرآن والسنة لنجد الحل على ضوئهما .. هو الدليل على إيماننا بالله واليوم الآخر .. والله يجعل ذلك شرطاً للإيمان .. ثم يرغّب في ذلك بأسلوب الموعظة :

﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .

والتأويل : هو التفسير .. وإن تفسير القرآن للأمور هو أفضل وأحسن . أو **أحسن تأويلاً** : أي أحسن عاقبة ومآلاً في الدنيا والآخرة . لأن واضع هذا النظام هو العليم الحكيم وهو خالق الكون والإنسان . وأوامره تعطي الإنسان أحسن النتائج ..

﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرها ﴾ ؟! (آل عمران ــ ٨٣) .

إن قانون الله لا يخرج عنه أحد حتى الإنسان .. صحيح أن الإنسان يستطيع أن يخرج عن أمر الله فلا يطيعه ، لكنه لا يستطيع أن يختار النتائج التي يحبها .. ولا بد أن تأتيه النتائج بحسب سنن الله .. فينال العاقبة الوخيمة للمعصية .

والآيات الآن تؤكد على حقيقة الإيمان وأن دليله الواضح هو التحاكم إلى الله ورسوله .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ .. ﴾ .

يزعمون .. والزعم : القول الذي فيه باطل . ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا﴾ (التغابن ــ ٧) .

ولقد كان المنافقون يتحاكمون إلى بعض زعماء اليهود أو إلى العرف والعادات

الجاهلية .. وكما يفعل الناس الآن .. يزعمون أنهم مؤمنون بالله ؛ لكن يتحاكمون إلى الطاغوت .. فالله سبحانه يستنكر عليهم ويتعجب من حالهم ..

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ !!

والمؤمن مطالب بأمرين : أن يعلن كفره بالطاغوت وإيمانه بالله . ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ (البقرة ـــ ٢٥٦) .

ومن لا يعلن كفره بالطاغوت ـــ ولو أعلن إيمانه بالله ـــ قد يقع بالكفر بالله والشرك به في يوم من الأيام .

﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ .

إنه يدفعهم إلى طريق الطاغوت الذي فيه الضلال البعيد .. والانحراف عن الصراط المستقيم ولو بدرجة واحدة ، ينشيء خطاً جديداً كلما امتد ازداد عن الصراط المستقيم بعداً .. إلى أن يصبح البون شاسعاً . وكلما ابتعد الإنسان عن الحق خطوة صار الرجوع أصعب .. وتلك رغبة الشيطان : أن يبتعد بهم حتى ييأسوا من الرجوع إلى الحق ..

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ .

والآن يصرح باسم هذه الفئة ويكشف عن حقيقتها .. وكل من يظهر بمظهر المؤمن ثم يتملص من الرجوع إلى حكم الله ورسوله في قضايا حياته ، يصمه الله بالنفاق .. ولعل الكلمة مأخوذة من النفق : وهو طريق مخفي ذو منفذين . والمنافق يتذبذب بينهما طلباً لعرض الحياة الدنيا وإيثاراً لسلامة عاجلة .

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ .. ﴾ .

إن من ترك العدل والأمانة ، وترك ميزان العدل والأمانة الذي هو حكم الله

ورسوله فلا شك بأنه مقدم على مصيبة . ولهذا تقول الآية : ﴿**بما قدمت أيديهم**﴾ . ونحن نرى الآن في الحضارات التي بنيت على نظم وضعية .. أن الجوانب التي أفلحت فيها إنما أفلحت لأنها طبقت سنة الله . أما الجوانب التي حدثت فيها مصائب فلأنهم خالفوا سنة الله فيها . وينبغي للمسلم أن يتدبر ما يصيبه من مصائب فعسى أن تكون مما كسبت يداه ، فيؤوب إلى الله ..

ولقد قرأت مرة أن المؤرخ جيزو صنف القدر إلى ثلاثة أنواع : فردي وجماعي وغيبي . ويقصد بالفردي : أنه ناتج عن أعمال الفرد . والجماعي : ما يترتب بحسب أعمال المجتمع . والغيبي : قدر الله الذي لا ندرك أسبابه .

والمسلم يجب أن يميز متى يلوم نفسه ويصحح مساره ؟ ومتى تكون الجماعة هي السبب ؛ فيسعى إلى رفع مستواها ؟ ومتى يكون قدر الله وامتحانه الذي يسلم به ؟

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ..﴾ .

كيف بهم في هذه الحال ..؟ إنهم سيأتونك ويحلفون لك بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ..!

يحلفون على أنهم كانوا ذوي نية حسنة وأنهم كانوا يطلبون الحل الحسن عند الناس والانسجام معهم والبعد عن المشكلات والتعقيد. وهذه دعوى كل معرض عن أمر الله. . فهو يريد مسايرة المجتمع والاتفاق مع الرأي العالم. ومن المعرضين من يقول ذلك عن جهل. . فهذا السلوك الذي سلكوه هو الإحسان والتوفيق بنظرهم ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ (النجم ــ ٣٠). . ومنهم المنافق الذي يقول ذلك ويحلف عليه مكراً ودهاءً؛ وهم الذين يتحدث عنهم الله هنا:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ..﴾ .

ويوجِّه النبيَّ ﷺ إلى محاولة علاجهم بالمعاملة والكلام. . والعجيب أن الله لم يأمر بقتلهم. . أو التنكيل بهم مع أنهم دخلاء على المجتمع المسلم الذي اختار الإسلام. . !! لقد قضت حكمة الله أن يقبل المسلمون منهم ظاهرهم ويكلوا سرائرهم إلى الله فالنوايا علمها عند الله، وأمرهم أن يحاولوا علاجهم نفسياً. .

فإن استمروا في نفاقهم، فإن مردهم إلى الله يرد كيدهم ويفضح أمرهم في الدنيا، ثم في الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار . .

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ .

يعرض هنا ثلاثة أساليب للعلاج :

١ ــ **الإعراض** : وهو صرف الوجه وعدم البشاشة عند اللقاء . إذ أن لنا ثلاثة أنواع من اللقاء : لقاء ودي بشوش مع من تحب ، ولقاء عادي مع عامة من نعرف ولقاء فيه برود وجفاف لا إقبال فيه ولا بشاشة وهو الإعراض .

٢ ــ **الموعظة** : وهي نصح وتعليم ترد الجاهل وتنبه **الغافل** وتذكر بالعواقب .

٣ ــ **القول البليغ** : هو الشديد المؤثر ، فيه توبيخ وتهديد .. قول يدخل إلى أعماق نفوسهم فيؤثر فيهم .

تلك أساليب هامة في علاج النفس البشرية التي لم تطمئن للإيمان ، أو التي عجزت عن الانسجام مع الإيمان . وينبغي للدعاة أن تصبح لديهم خبرة متى يُستعمل كل علاج ؟ متى يعرض ؟ ومتى يعظ ويذكر ؟ ومتى يشتد في القول ؟ إذ لا يشترط أن تستعمل العلاجات الثلاثة بالتسلسل ، فهي ليست كعلاج المرأة الناشز .

ولا بد أنْ ندرك أن الخطأ الواحد يختلف علاجه بحسب نوعية فاعله . فالمؤمن حين يخطىء ، ينبغي أن ينبه مباشرة إلى خطئه وخاصة إذا وصل الأمر إلى درجة عصيان الرسول ﷺ ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ (الشعراء ــ ٢١٥) .

ولنا أن نلاحظ الفارق في مقابلة النبي ﷺ للمنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك ، حيث قبل منهم ظاهرهم وأعرض عنهم ووكل سرائرهم إلى الله ، ومقابلته لكعب بن مالك المؤمن وصاحبيه حين تخلفوا، حيث قاطعهم وأمر المسلمين بمقاطعتهم حتى نزل عفو الله. وإن دراسة السيرة بوعي وتأمل تعطي الداعي هذه الخبرة والمهارة.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ .

فلا يجوز طاعة أحد إلا بإذن من الله . والله قد أرسل رسله ليطاعوا لا ليكونوا مجرد وعاظ ..

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ .. ﴾ .

ويسمي ترك طاعة الرسول ظلماً للنفس .. فإن أمر الرسول فيه الرحمة والخير : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ (التوبة ــ ١٢٨) .

﴿ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ . بدلاً من محاولة تسويغ الأخطاء .. فإن التوبة والاعتراف بالخطأ هو الخلاص .

﴿ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ .

فلقد أتيحت لهم فرصة ثمينة وهي معاصرة الرسول ﷺ والتنعم باستغفاره لهم ودعائه[1] .. .. وهنا يأتي القرار الفاصل الذي يحدد بوضوح لا مثيل له حد الإسلام وحد الإيمان :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا .. ﴾ .

وأول ما نلمس في الآية تكريم الله لمحمد ﷺ حين يضمه إلى اسمه الكريم ﴿ **وربك** ﴾ ، ويجعله مرجعاً للناس يحكمونه في مشكلاتهم وما شجر وتداخل بينهم ، وسمي الشجر شجراً لتداخل أغصانه وتفرعه . قال البخاري في صحيحه في كتاب التفسير : خاصم الزبير رجلاً في شراج الحرة .. فقال النبي ﷺ : « اسق يا زبيز ثم أرسل الماء إلى جارك » . فقال الأنصاري : يا رسول الله أن كان ابن عمتك ؟ فتلوَّن

---

١ ــ .... أراد بعضهم تعميم الأمر بحيث يبقى سارياً بعد وفاة النبي فيأتي المسلمون يستغفرون عند قبره ويطلبون منه أن يستغفر لهم عند الله . لكن هذا لم ينقل عن الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ . والآية خاصة بمعاصريه ﷺ ..

وجه رسول الله ﷺ ثم قال : « اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ثم أرسل الماء إلى جارك » . فاستوفى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري . وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة . فقال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك ..

إن الإسلام ؛ أن يتحاكم الإنسان إلى شريعة الله .. والإيمان ؛ أن يصاحب هذا التحاكم إلى الله : الرضا والتسليم القلبي ، كما وضح ذلك في حديث سؤال جبريل عن الإسلام والإيمان .

وهنا يبدو وكأن الإسلام هو المرحلة الأولى التي يلزم بها الإنسان نفسه لقبول أمر الله ثم يرتقي إلى المرحلة الثانية وهي الإيمان حيث تصبح سعادته في تطبيق أمر الله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » . وهنا يتذوق حلاوة الإيمان كما أخبر رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . وأن يحب المرء لايحبه إلا لله . وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » (رواه مسلم) . ومن ذاق حلاوة الإيمان لم ترق له بعدها أي حلاوة .

ولقد تحدث الغزالي في الإحياء عن ثلاث مراحل يرتقي فيها الإنسان : الصبر ، وأعلى منه : الرضى ، وأعلى منه : المحبة لكل ما يأتي من الله . تلك المرحلة التي وصفها جلال الدين الرومي .

أعشق الضدين هذا عجب ... لطفه والقهر عندي مطرب

ولعل الغزالي حين ذكر هذه المراحل الثلاث : قصد بها علاقة العبد بالشريعة الإلهية — الأمر والنهي — فهو يلزم نفسه بالأمر الإلهي في البداية وهي مرحلة الصبر .. ثم يرضى ويرتاح للأمر الإلهي ، ثم يحبه فلا يجد سعادته إلا فيه .. أما في المصائب فكأن الرضى هو أعلى درجة .. والألم عند المصيبة لا بد منه .. ولقد بكى رسول الله ﷺ عند وفاة ابنه وقال : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » (رواه البخاري) .

أما كيف يصل الإنسان إلى مرحلة محبة أمر الله فلا يجد سعادته إلا فيه ..؟ — ولعلها هي مرحلة **القنوت** : وهو الطاعة عن محبة ورضى — فبالعلم والممارسة نصل إلى محبة الله ورسوله . فالعلم يزيد المعرفة ويكشف عن عواقب الأمور بحيث تستيقن أن أمر الله هو خير وأبقى . والممارسة تحول شريعة الله إلى عادة وإلف حتى تستهجن النفس غيرها وتكره الخروج منها . نعود إلى الآية فنجد أنها تحدد ثلاثة شروط للإيمان الصحيح ، ويؤكد الله على ذلك بالقسم على نفي الإيمان عن من فقدها .

١ — تحكيم الرسول فيما شجر بينهم .
٢ — أن لا يجد حرجاً في نفسه أو ضيقاً من هذا الحكم .
٣ — التسليم : وهو الانقياد بالفعل عن طواعية . كما سلم إبراهيم وإسماعيل في أمر الذبح : ﴿فلما أسلما وتلّه للجبين﴾ (الصافات — ١٠٣) .

ولقد تمثل الصحابة شروط الإيمان وكانوا يسارعون إلى تطبيق أمر الله ويتنافسون على ذلك . ولقد رأينا كيف استقبلوا تحريم الخمر : ﴿فهل أنتم منتهون﴾ (المائدة — ٩١) . فقالوا : انتهينا .. انتهينا .. وأراقوا ما لديهم من دنان الخمر .. بل مجَّ الذين في أفواههم جرعة منها مافي أفواههم امتثالاً لأمر الله .. وأسرعت نساء الأنصار إلى الحجاب عند سماع الآية .. ونزلت آيات فيها تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام فتحول الناس إليه ، حتى أن جماعة كانوا في الصلاة فمر عليهم من بلغهم تحويل القبلة فتحولوا إليها أثناء صلاتهم . ونزلت : ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ (الممتحنة — ١٠) . فطلقوا الكافرات من نسائهم . وحرم الله عليهم الزنى فعافوه .. حتى جاء الزاني إلى النبي يعترف بذنبه ويطلب إقامة الحد على نفسه .. وهذا هو الفارق الرئيسي بيننا وبينهم ..

ولقد سجل بعض المفسرين عند هذه الآية بعض الملاحظات :

١ — يستدل من الآية على عصمة النبي ﷺ من الخطأ في الحكم بدافع الهوى ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ (النجم — الآيتان ٢ ، ٣) .

٢ — أن النبي يحكم بحسب صورة الدعوى وظاهرها : « إنما أنا بشر وإنكم

تختصمون إلي فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليدعها » (رواه مسلم مع اختلاف بسيط في اللفظ) .

٣ ــ يجب التفريق بين الوحي والرأي عند الرسول ﷺ . فلقد مر على قوم وهم يؤبرون النخل فقال ما معناه : « ما أظن أن يفيد هذا » فتركوا ذلك فجاء نتاج النخل رديئاً فأخبروه بذلك فقال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » (رواه مسلم) . وقال : « إنما أنا بشر .. إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به . وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » (رواه مسلم) .

وقد سأله بعض الصحابة يوم بدر : (أهذا منزل أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟) فقال ﷺ : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » . فأشار عليه بتغيير المنزل[1] .

٤ ــ تدل الآية على بطلان التقليد ، فمن ظهر له حكم الله وحكم رسوله في شيء وتركه إلى قول الفقهاء كان غير مطيع لله ورسوله .

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ..﴾ .

كأن الله سبحانه في هذه الآيات ذكر القاعدة وهي الأمر بالطاعة عامة . ثم حد لها حدوداً : ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله﴾ (النساء ــ ٥٩) . ثم بين نعمة الله على هذه الأمة في أنه لم يأمرها بأمور شاقة مثل قتل النفس أو الخروج من الديار . إن هذا الدين منهج ميسر لم يُكلف الإنسان فوق طاقته ، فالله يعلم ضعف الإنسان وهو رحيم به : ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ (النساء ــ ٢٨) . فلم يأمر إلا بما فيه خير للبشر حتى ولو كان هذا الأمر فيه قتل النفس والخروج من الديار .. ويظهر ذلك عند مقارنة نتائج تنفيذ الأمر مع نتائج تركه .. خذ مثلاً على

---

١ ــ ذكره ابن كثير في تفسير الأنفال .

ذلك : قوله تعالى ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى .. ﴾ (البقرة ــ ١٧٨) ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾ (البقرة ــ ١٧٩) . إن القصاص هو حياة للمجتمع كله ، فإذا قطعنا العضو المرِضَ أنقذنا الجسم كله من الموت . ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ (البقرة ــ ٢١٦) . إن ترك القتال وإهمال الاستعداد وتحصين الأمة يجعلها مستعبدة للأمم الأخرى . وكل التكاليف التي أمرنا بها إن ظهرت لنا على أنها شاقة ، فإنما ذلك من قصر النظر عند الإنسان ، فهو لا يرى إلا النتائج السريعة العاجلة . ولو تأمل النتائج البعيدة المدى لأدرك المغزى وعرف رحمة الله بالناس : ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾ (الإنسان ــ ٢٧) . فقد ينتشي شارب الخمر لساعة .. لكنْ الأمراض والآلام التي ستصيبه بعد ذلك لا تقارن بنشوة ساعة .. إنها أبهظ ثمناً وأفدح كلفة .. والله يحضنا دائماً على أن لا نقصر نظرنا على العاجلة ، وأن نفكر فيما هو خير وأبقى .. وضرب لنا مثلاً بسحرة فرعون لما آمنوا فهددهم فرعون بالقتل فقالوا : ﴿لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقضِ ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى﴾ (طه ــ ٧١) .

ولئن كان الله قد أمر السابقين لهذه الأمة بقتل أنفسهم عقاباً لهم على كفرهم ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ..﴾ (البقرة ــ ٥٤) .

فلقد خفف الله عن هذه الأمة وكلفها بما تطيق .. ولم يأمرها إلا بالتحاكم إلى الله ورسوله في شؤون حياتها .

ونلاحظ أنه قرن بين قتل النفس والخروج من الديار :

﴿ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم ﴾ . فالخروج من الديار ليس سهلاً ، وحب الوطن أصيل في النفس .

رابعاً ــ مرتبة من يطع الله ورسوله

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ .

إن في اتباع مواعظ الله الخير والثبات الشديد .. وإن مجرد البدء في طريق الطاعة يتبعه العون من الله والتثبيت والأجر والهداية . وقد بدأ فأوجز في بيان العاقبة : ﴿**لكان خيراً لهم**﴾ وهي شاملة لكل شيء . ثم جاء التفصيل لهذا الخير فذكر جوانب ثلاثة :

١ ــ التثبيت على المضي : ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ .

٢ ــ الأجر العظيم ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

٣ ــ ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ .

والآية هنا توضح السنة في الهداية وفي عطاء الله وأجره العظيم .

فالذي يتبع مواعظ الله ، يهديه الله ويعطيه الأجر العظيم . ومواعظ الله يمكن اختصارها في هذه الآية الجامعة : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾ (النحل ــ ٩٠) .

إنها أوامر ميسرة ليس فيها إعنات ، ومع ذلك فإن المسلمين لا يرتفعون إليها .. فانظر كيف كان الصحابة . قال ابن جرير : لما نزلت هذه الآية : ﴿**ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ..**﴾ قال رجل : لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذي عافانا . فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « إن من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي » .

ويختم هذه الجولة التي قرر فيها أن أصل صلاح نظام العالم يكمن في العدل والأمانة ، وأن مقياس العدل والأمانة هو كتاب الله وسنة رسوله .. ولهذا لا إيمان إلا

بالرجوع إليهما والطاعة لهما .. بعد هذا كله يختم الأمر بالترغيب واستجاشة القلوب للمتاع الحبيب : صحبة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ..

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ .

والصديقون : مرتبتهم بعد النبوة مباشرة .. هم الذين يصدقون في القول والعمل ، ولم يعرف عنهم كذب قط .. هم الذين زكت قلوبهم وصفت سرائرهم ؛ حتى أنهم يميزون الحق من الباطل بمجرد أن يعرض عليهم .

والشهداء : الشهادة ليست عبارة عن القتل فقط . بل الشهيد : (على وزن فعيل) : صيغة مبالغة لاسم الفاعل (شاهد) ؛ وهو الذي يشهد بصحة دين الله ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾ (آل عمران ــ ١٨) . ويقال للمقتول في سبيل الله : شهيد ، من حيث أنه بذل نفسه في نصرة دين الله وشهادته له بأنه هو الحق . ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة ــ ١٤٣) .

يروى عن علي رضي الله عنه قوله : إن الأرض لا تخلو من قائم لله بالحجة . وحجج الله تعالى من الناس هم أعلام الحق والفضيلة : العالم المستقل بالدليل .. والحاكم المقيم للعدل ، والمصلح لما فسد من الأخلاق . والباذل لروحه ..

والصالحون : وهم دون من قبلهم ، الذين صلحت أعمالهم في الغالب . ويكفي أن تغلب حسناتهم على سيئاتهم ، وأن لا يصروا على الذنب وهم يعلمون .

وهؤلاء الأربعة هم صفوة الله من عباده . يتصل كل منهم بمن فوقه ، وبعض الاتصال يكون في حال دون حال . وهو ما يشير إليه التعبير بالفضل في الآية : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ .. ﴾ . فلا بد من تفاضل في الدرجات بينهم وإن اجتمعوا مع بعضهم..

إن طاعة الله والرسول تبلغ بك هذه المرتبة .. مرتبة الذين أنعم الله عليهم ..

تلك المرتبة التي يطلبها المؤمن في صلاته : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم .. ﴾ (الفاتحة ـ الآيتان ٦ ، ٧) . والله قد وضح الصراط ووعد من يمشي فيه بالتوفيق ، حتى يصل إلى هذه المرتبة .. فما أحسن الرفقاء هناك .. وما أسعد هذه الصحبة : ﴿ **وحسن أولئك رفيقاً** ﴾ ..

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ بمن يستحق التوفيق إلى هذه المراتب .

وذكر بعض ما ورد عن هذه الآية ، يلقي بظلال حبيبة تتفيأ فيها النفس المتعبة من كدح الدنيا ومعاناتها :

١ ـ جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون ، فقال له النبي ﷺ : « يا فلان مالي أراك محزوناً » ؟ فقال : يا نبي الله شيء فكرت فيه . فقال : « ما هو » قال : نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك . وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك ..!! فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً ، فأتاه جبريل بهذه الآية فبعث النبي ﷺ فبشره . (رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير) .

٢ ـ عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنت أبيت عند رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي : « سل » فقلت : يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة . فقال : « أو غير ذلك » . قلت : هو ذاك . قال ﷺ : « فأعنّي على نفسك بكثرة السجود » (رواه مسلم) .

٣ ـ سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال : « المرء مع من أحب » قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث .[1]

٤ ـ عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة **ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو**

---

١ ـ ثبت في الصحيح . راجع تفسير ابن كثير .

المغرب لتفاضل ما بينهم . قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ..؟ قال : « بلى والذي نفسي بيده . رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » (أخرجه البخاري ومسلم) .

الفَصْلُ التَاسِع

في الجهَاد

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا

قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا
تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ
حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟
هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن
سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾
مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ
عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا
﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟
فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ
أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى
ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾
فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا

وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ
نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَاۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟
بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾
ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

أولاً ــ أخذ الحذر والنفير

كانت الآيات حتى الآن تهتم بتنظيم المجتمع المسلم من الداخل ، وإعطائه التماسك الداخلي بالأحكام اللازمة والتوجيهات المناسبة ، ونبهت إلى العدو الداخلي (اليهود والمنافقين) . والآن ينتقل إلى التحذير من العدو الخارجي ، ويستنفر الطاقات للوقوف في وجه هذا الخطر وصده عن تحطيم المجتمع المسلم الوليد ــ الذي هو أمل الإنسانية في تحقيق مجتمع الأمانة والعدل ــ ثم يقرر للمسلمين أسس المعاملات الدولية مع من حولهم .

والجهاد ذروة سنام الإسلام ، وبابه واسع وصوره متعددة ، وإحدى هذه الصور القتال . ولفهم موضوع القتال في الإسلام لابد من فهم غاياته .. أي لماذا فرض ..؟ ثم متى يكون مأموراً به ومتى يكون محظوراً .. ومن الذي يُقاتل ..

وإن إلقاء نظرة سريعة على المراحل التي سارت فيها الدعوة الإسلامية يساعد على رؤية أوضح للموضوع . وابن القيم يستعرض هذه المراحل وأنا أختصرها هنا بإشارات سريعة .. بدأ الأمر بأن نبأه الله بقوله تعالى : ﴿اقرأ﴾ .. ثم أرسله بقوله : ﴿قم فأنذر﴾ ..ثم أمره بإنذار عشيرته الأقربين .. ثم أنذر قومه ، ثم العرب ، ثم العالمين .

ولقد مكث النبي ﷺ حوالي ثلاثة عشر عاماً ينذر بالدعوة دون قتال ، ويؤمر بالكف والصبر .. ثم أذن له بالهجرة . ثم أذن له بالقتال : ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ (الحج ــ الآيتان ٣٩ ، ٤٠) .

ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عن الباقي : ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ (البقرة ــ ١٩٠) .

ثم أمره بقتال المشركين كافة : ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ (التوبة ـــ ٣٦) . ولمنع الظلم والفتنة في الأرض قال : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ (البقرة ـــ ١٩٣) .

فكان القتال محرماً ثم مأذوناً به ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ثم مأموراً به لجميع المشركين. **وأقف هنا قليلاً عند قول ابن القيم: (مأموراً به لجميع المشركين).**

فلقد أشاع بعض المستشرقين عن الإسلام أنه انتشر بالسيف ، حتى أن كثيراً من المسلمين صار يردد هذا الأمر عن قناعة . وفي المقابل انبرى بعض المسلمين يدافع عن الإسلام بقوله إنه لم يقاتل إلا دفاعاً عن النفس .

والحقيقة أن القتال بحد ذاته أمر قبيح ، ولا يباح إلا لإزالة ما هو أقبح منه : ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ (البقرة ـــ ١٩١) ، وذلك حين تفشل كل الأساليب الأخرى في المعالجة .[1]

كيف يمكن لدين يأمر أتباعه بالدخول في السلم كافة ، ويجعل التحية المتداولة بين أبنائه : السلام عليكم ورحمة الله .. أن يفهم بأنه دين سيف وقتل وعنف ..؟!

كيف يمكن لرسالة إنسانية جاءت لتحرير الإنسان ونصَّت على تحريم الإكراه في الدين : ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ (البقرة ـــ ٢٥٦) ، أن تفرض نفسها على الناس بالضغط والإرهاب ؟!.. لقد حرص الإسلام على صياغة الشخصية المسلمة الجديدة التي تدرك كرامة الإنسان ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ (البقرة ـــ ٢٥٦) . وترفض الإكراه والاستعباد لنفسها ولكل الناس . فهي لا تسمح لأحد أن يكرهها على ارتكاب معصية : ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ (العلق ـــ ١٩) . ولا تكره أحداً على اعتناق دينها .. وما الفائدة من الإكراه ..؟! هل يمكن تغيير الأفكار بالقوة ..؟ وهل الإسلام بحاجة إلى مزيد من المنافقين ليكيدوا له من الداخل ..؟

وهل الإسلام بحاجة إلى أن يُشعر الآخرين أنه لا بد من الدخول فيه كما يفعل أتباع العقائد الأخرى؟.

---

١ ـــ هذه الفقرة مأخوذة من المنار .

إن الإسلام يعتبر المنافقين في مستوى أحط من الكفار : ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ (النساء ــ ١٤٥) . وإنهم أشد خطراً وعداء للمسلمين .. فهم العدو الخفي الذي لا يكشف أوراقه ؛ بل يندس داخل المجتمع ويطعنه من الداخل . فهل يريد الإسلام أن يحوّل أعداءه إلى درك أسفل وعداوة ألد مع تخفٍّ وتمكّن من الأذى للمسلمين أشد ..؟!

إنما الإسلام رسالة عالمية لتحرير الإنسان يحملها المسلم .. فهو مكلف أن يشهد أحداث العالم ، ويكون له دور ومساهمة في المؤتمرات الدولية لمنع الظلم ونشر السلام . ورسول الله ﷺ قد شهد حلف الفضول في الجاهلية ــ وهو حلف قام به زعماء قريش وأشرافها لنصرة المظلوم وإغاثة الملهوف ــ ويقول عنه : « ولو دعيت به في الإسلام لأجبت » (رواه ابن اسحق في السيرة) .

لكن متى يصل الأمر إلى درجة التدخل المسلح في أحداث العالم ..؟

إن الإجابة تأتي بعد تأمل المراحل السابقة ، وبعد الإلمام بأحداث السيرة :

١ ــ إن الأمر بالقتال لم يأت إلا بعد تكون مجتمع مسلم طهر نفسه من الظلم ، فصار لزاماً عليه أن يتدخل لمنع الظلم في الأرض ورفع الإكراه عن الناس وإزاحة الحكومات الظالمة التي تستعبد الناس وتمنع وصول دعوة الحق إليهم ..

٢ ــ لا يجوز للمسلمين أن يبدؤوا القتال حتى يعرضوا الإسلام على الطرف الثاني ويخيروهم بين أمور ثلاثة :

١ً ــ الإسلام وإقامة شرع الله وأداء التكاليف الإسلامية .

٢ً ــ أو البقاء على دينهم ، والالتزام بعدم قتال المسلمين والسماح للدعوة بالدخول إلى بلدهم ودفع الجزية للمسلمين ، مقابل أن يحميهم المسلمون من كل عدوان خارجي ؛ فهي كضريبة الضمان الاجتماعي والأمني . ولقد رد أبو عبيدة بن الجراح الجزية لأهالي إحدى القرى في الشام عندما شك في قدرة جيشه على حمايتهم من هجوم جحافل الروم .

٣ ـــ أو القتال بآدابه الإسلامية التي يمكن رؤية بعضها في وصايا الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده للقواد . فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوصي أسامة حين بعثه إلى الشام : (لا تخونوا . ولا تَغُلّوا . ولا تغدروا . ولا تمثلوا . ولا تقتلوا طفلاً صغيراً . ولا شيخاً كبيراً . ولا امرأة . ولا تعقروا نخلاً ولا تحرِّقوه . ولا تقطعوا شجرة مثمرة . ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ـــ يريد الرهبان ـــ فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له) .

إن الإسلام لا يبيح للمقاتل المسلم أن يتلف الشجر والزرع ، أو يتعرض للحيوان .. فما بالك بالروح الإنسانية التي أعطيت الكرامة والسيادة على كل شيء ..؟!

إنه نهى عن قتل النساء والأطفال والشيوخ ورجال الدين في معابدهم .. والمدنيين العزَّل .. وهي نواهٍ لم تكن معروفة في ذلك العصر . ولئن تطور الناس الآن ونصوا على ما يشبه هذه الشروط في مجامعهم الدولية ـــ ميثاق الأمم المتحدة ـــ فإنهم أبعد ما يكونون عن ذلك في جانب الالتزام والتطبيق .. وقد اخترعوا من الأسلحة ما يبيد المدن ويدمر الجميع ويحرق الأخضر واليابس .. إن معارك إنسان القرن العشرين لا تدانيها في الهمجية أية معارك حدثت في التاريخ .. من حيث أهدافها ووسائلها ..

٣ ـــ فإذا انتصر المسلمون في القتال وفتحوا البلاد .. أزالوا الحكومة الفاسدة وأقاموا حكماً عادلاً يعيش الفرد في ظله حراً يختار العقيدة التي يريد .. فإن اختار الإسلام صار أخاً للمسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم . وإن رفض الإسلام لم يطلب منه شيء من التكاليف الإسلامية ، وتضمن الدولة له حقوقه وكرامته الإنسانية ، وضمانه في حالة العجز والمرض ، وحمايته من أي عدوان خارجي مقابل ضريبة الجزية ، ولا يكلف بالقتال بل تحميه الدولة المسلمة . وهؤلاء هم أهل الذمة الذين أوصى بهم رسول الله ﷺ . لكن لا يسمح له بممارسة المحرمات علناً ؛ مثل (شرب الخمر وإنشاء دور البغاء)صيانة للمجتمع من أن ينتشر فيه الفساد . تلك إشارات تلقي بعض الضوء على الموضوع .. ولعل استعراض الآيات يزيد الأمر جلاء .

وسنجد في الآيات صورة لبعض مظاهر الضعف التي كانت موجودة في الصف المسلم في أوائل العهد المدني .. وسنرى كيف تولى القرآن علاج هذا الضعف .. ويفيدنا هذا في :

١ً ــ إدراك طبيعة النفس الإنسانية واستعدادها للضعف ، حتى في مجتمع الصحابة .

٢ً ــ إدراك طريقة القرآن في تربية النفوس وتقويمها .

٣ً ــ وأن لا نيأس من أنفسنا حين نرى مواضع ضعفنا .. وإنما نبحث عن العلاج ونسد الثغرات .. كما جاهد الصحابة أنفسهم وتداركوا ضعفهم .

٤ً ــ في ذلك تدريب للمسلمين على ضرورة المراجعة والنقد الذاتي ..

فكل تأخر في تحقيق الهدف ، وكل نتيجة غير مرضية تظهر في مجتمعنا تقتضي منا عملية مراجعة وبحث لكشف الخلل في الأسباب التي قدمناها .. « يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[٢]. وذلك أمر قد فقدناه في عالمنا الإسلامي منذ انحطاطه. . وبرغم تأخر النهضة الإسلامية في الوصول إلى أهدافها وبقائها أكثر من مائة سنة تراوح في مكانها ــ وإذا اعتبرناها قد بدأت منذ محمد بن عبد الوهاب فقد مضى عليها أكثر من مئتي سنة ــ. . فإننا حتى الآن لا نريد إقرار منهج النقد الذاتي، بل نتخوف منه. . ونكتفي بإدانة الأعداء وتحميلهم مسؤولية تخلفنا. . أو نرد الأمر إلى الله وقدره. . وكأن الله يعطي الجميع ويحرم المسلمين بدون مسوغ. . سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً[١]. . .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ .

نداء إلى المؤمنين بأخذ الحذر والنفر حماية لمقياس العدل ــ الذي هو شرع الله الذي به صلاح العالم ــ وقد كانت العادة أن ينادوا : النفير .. النفير .. فيعلم أن هناك

---

١ ــ من المفيد في هذا المجال ، مراجعة كتاب النقد الذاتي للدكتور خالص جلبي .

٢ ــ رواه مسلم.

خطراً فيخرجوا للقتال . ومعنى ﴿**ثبات**﴾ : أي جماعات أو فِرَق متتابعة .. مثل السَّرِيَّة ﴿**انفروا ثبات أو انفروا جميعاً**﴾ حسب ما تتطلبه طبيعة المعركة: فرقاً متتابعة أو الجيش كله. والأمر راجع إلى القائد المشرف واجتهاده وخبرته.

يؤكد صاحب المنار هنا المعاني الآتية : إن المساكين يفهمون الإسلام مسكنة ودروشة . لكن تأمل مثل هذه الآيات ، يرينا إلى أي حد يأمر القرآن بإعمال الفكر .. إن الآية تحث على دراسة (استراتيجية) المعركة .. ولا يكفي أن تكون مسلماً حتى ينصرك الله .. بل لا بد من استنفار الفكر والجسم وكل الإمكانات والوسائل .

حدث مرة أن أحد المسلمين دخل مسجداً ــ وكان معروفاً بجرأته ومواقفه في نصرة الحق ــ فلما عرفه المصلون طلبوا منه الدعاء . فصار يقول : اللهم انصر المسلمين وهم قاعدون .. اللهم انصرهم وهم نائمون .. لأنهم هكذا يريدون ..؟!

كانت الآيات تنفخ بوق النفير في وقت أحاطت فيه الأخطار بالمسلمين من جميع الجهات .. وكذلك اليوم .. فقد خطط أعداء الإسلام تخطيطاً دقيقاً لمحو الإسلام من النفوس .. ونحن في أمس الحاجة الآن إلى سماع نداء الله : ﴿**يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ..**﴾ . احذروا فقد زرع الشيطان الألغام من حولكم : ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (الأعراف ــ ١٧) .

أخذ الحذر : هو إثارة الانتباه إلى أهمية اللحظات التي تمر .. والوصول إلى مرحلة التوتر البعيدة عن الفتور والتردد والتراخي .. هو الركض والاستعجال ابتغاء مرضاة الله قبل أن تفوت الفرصة .. ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ (طه ــ ٨٤) . والمؤمن في مثل هذه الأحوال العصيبة التي نمر بها ينبغي أن يكون كالجندي المستنفر .. يقظاً حذراً متفتح الحواس ، ينتبه إلى الجبهات التي يفتحها العدو ويشن منها الغارات .. وعدونا يتحرك في جبهتين :

ــ صراع مادي مسلح يسلط عليه الأضواء .. فلا نبصر في الميدان سواه .

ــ وصراع فكري ملفوف بالظلام لا نكاد نحس به .. لكنه يجر لنا الهزائم تلو

الهزائم .. حتى يجعلنا نفقد وحدتنا وتماسكنا وثقتنا بأنفسنا في الصراع المادي .. بل ويجعلنا نوجه أسلحتنا إلى نحورنا .. إن شياطين الإنس في هذا العصر قد أدركوا ميزات الغزو الفكري فهو أقل كلفة ــ في الأموال والأرواح ــ وأشد تأثيراً على الشعوب الضعيفة المتخلفة .. فهيؤوا له مراكز ومراصد في عالمنا . وكرسوا له أمهر المختصين في علم النفس والاجتماع ، ليزرعوا الجراثيم الفكرية في نقاط الضعف عندنا .. وما زالت جهودهم تؤتي ثمارها النكدة في حياتنا .. أكتب هذه الكلمات والأسى يعصر قلبي لما يجري بين فصائل الفدائيين الآن في لبنان .. إنها أحداث الساعة .. وأحدث مثال على نجاح الغزو الفكري في عالمنا .. لقد نجح عدونا بجراثيمه الفكرية في صرف الفدائيين عن إسرائيل وجعلهم يتقاتلون فيما بينهم[1] .

ولقد كتب مالك بن نبي ــ رحمه الله ــ عن هذا الموضوع، وأفرد له كتاباً خاصاً بعنوان : (الصراع الفكري في البلدان المستعمَرة) ، وشبه العملية التي يقوم بها المستعمِر بمصارعة الثيران .. حيث يلوح المصارع للثور بمنديل أحمر يصرف غضبه إليه فيهجم الثور على المنديل الأحمر .. وهنا ينتهز المصارع الفرصة فيطعن الثور .

وهكذا يبدو الصراع الفكري الآن أشد خطراً من الصراع المسلح .. إذ نقف فيه كالأعزل أمام خصم بيده أحدث الأسلحة الفنية ، وقد درس عدوه وعرف نقاط ضعفه ومواضع قدميه .. ولا بد أن ندرك أن الثبات في الصراع الفكري يحتاج إلى الصفات النفسية نفسها التي تعطي القدرة في الصراع المادي .. وذلك حتى لا يفهم أننا إذا نبهنا إلى الصراع الفكري فالمسألة سهلة ليس فيها قتل ولا قتال .. بل إن الأمر يحتاج إلى فطنة وحذر وشجاعة وثبات أمام كل التهديدات .. إن الذي يقتل في المعركة المادية يعرف الناس فضله وله مكانته في الدنيا (شهيد) .. أما شهيد المعركة الفكرية فقد أسدلت عليه الستائر وطمست الحقائق ، وسلطت الأضواء على زاوية بعيدة لصرف اهتمام الجماهير وأنظارهم . والصراع الفكري ميدانه الأفكار والنفوس .. وتغيير الأفكار والنفوس مهمة كبرى تحتاج إلى علم كافٍ وشجاعة وإقدام . ومشاركة المرأة في هذا المجال أكبر

---

١ ــ كان هذا في شتاء ١٩٨٤ م حين اقتتلت فئات الفدائيين في طرابلس.

وأهم بحكم دورها في التربية ؛ فهي تشرف على الصياغة الفكرية والنفسية للأجيال الناشئة .. فهل تشعر المرأة بخطورة الموقع الذي تقف فيه ..؟ وأنها تساهم في أحداث التاريخ ..؟! إن المرأة تعيش في واقعنا في فتور وتراخٍ .. تمر عشرات السنين ولا تتغير الأوضاع في عالمنا ، لأن نظرة المرأة إلى نفسها لم تتغير .. فهي ما زالت تأخذ دور الدمية أو الجارية .. ولعلها تقف أمام مثل هذه الآيات فتتساءل : ما علاقتي بموضوع الجهاد والقتال ..؟! ذاك أمر يخص الرجال ..!!

إن كتاب الله قد نزل للجميع ليتدبروه ويعملوا به ، وسنسأل عنه أمام الله . والمرأة ذات صلة وثيقة بالرجل ، وأسلوبها في التوجيه والتأثير يتغير عندما تكون على فهم ووعي مع من تشرف عليه وتحتك به من الرجال . ألا ترين إلى الخنساء كيف تغير موقفها : من بكاء أخيها سنين طوالاً إلى الدفع بأولادها الأربعة إلى القتال وتوصيتهم بالإقدام والثبات .. ولما أتاها خبر استشهادهم قالت : (الحمد لله الذي شرفني بجهادهم واستشهادهم ، وأرجو الله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته) .

ويحدثنا التاريخ عن زوجة قطز ــ قائد المسلمين في عين جالوت ــ أنها كانت في المعركة إلى جانب زوجها ، فلما أصيبت هلع قطز وهتف : وا زوجاه .. فالتفتت إليه وهي تحتضر قائلة : لا تقلِ وا زوجاه .. ولكن قل وا إسلاماه .. فانتفض القائد وقد هزته الكلمة من الأعماق وألقى الخوذة من فوق رأسه وصاح بجنوده : وا إسلاماه .. فارتج العسكر من وقعها واندفعوا مستميتين لنصرة دينهم ومزقوا جيش التتار .

إن فنَّ تحريض الرجل ودفعه للبذل في سبيل مثل أعلى ، عمل لا يتفوق أحد في ممارسته كالمرأة . بل إن المرأة هي التي تربي الرجال .. ولهذا قال راسل ــ الفيلسوف الإنجليزي ــ : (إن جيلاً واحداً من النساء اللاتي لا يعرفن الخوف ، كفيل بتغيير العالم) . لكن من أين نأتي بجيل من النساء لا يعرفن الخوف ؟ . إذا بقيت المرأة المسلمة أسيرة للجهل والخرافة والأوهام ــ وهي مصادر كل المخاوف التي نربي عليها أبناءنا ــ معزولة عن العالم وما يجري فيه .. قد جهلت دينها وقرآنها ، ففقدت المقياس الأخلاقي الذي تغرسه في أبنائها ، وجهلت حركة الأفكار والأحداث من حولها ، فلا

تستطيع أن تعطي حكماً أو تربي إنساناً واعياً معاصراً ..!!

إن الآية تنادي الجميع وتستنفرهم رجالاً ونساءً .. والاستنفار هو التهيؤ والاستعداد في أي لحظة من جميع الجوانب لسد موضع الخلل في الميدان .. فأين أنت يا أختي من هذا ..؟! هل تراقبين ما يجري لأولادك في المدرسة ومع الناس وأمام التلفاز..؟! وهل أخذت الأهبة والاستعداد لإعطائهم اللقاحات ضد الجراثيم الفكرية المنتشرة من حولهم ..؟!

إن أحسن المستويات عندنا .. هي تلك التي تصرف وقتها الفائض عن الحاجات الدنيوية في الدراسة والتوعية والدعوة .. أما الأولوية فإنها لأمور أخرى ..

ولا يكفي أن نصف أمراضنا وأحوالنا .. ولا بد أن نعرف كيف نغير المألوف ؟. وكيف نتحرر من العادة ؟ إن ممارسة بعض الأمور التي لم تكن مألوفة وتكرارها ، يؤدي إلى نشرها وتعميمها حتى تصبح مألوفة . وينبغي أن تمتحن كل واحدة منا نفسها : إلى أي حد تحاول أن تجعل الأولوية للصبغة الإسلامية في ساعات يومها .. كي نبرز النموذج الجديد للمرأة التي تدرك قيمة نفسها .. فلا تيأس من نفسها ولا تغتر ، وإنما تشعر بقيمة ما حققته وتسعى إلى مضاعفته ..

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ .

يقول الرسول ﷺ : « كم من تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه » . إن الذي يقرأ القرآن ، ولا يتغير فيه هذا التراخي ، يستحق اللعنة . والأمة المتخلفة يجب أن تتحرك أكثر ، وتضاعف ساعات عملها ، حتى تتدارك تقصيرها وترفع مستواها في العلم والأخلاق .

ثانياً ـــ المبطئون

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ .

هم بطيئون ويبطئون غيرهم .. يتثاقلون عن الجهاد ويخذلون الناس أيضاً .. إن الكلمة بحد ذاتها ﴿ **ليبطئن** ﴾ ثقيلة على اللسان يشدها شداً .. فهي كلمة واحدة ، لكنها تصور حالة نفسية كاملة .. إن هؤلاء منكم .. وهم يمثلون العدو الداخلي الذي يجب الحذر منه أكثر من الخطر الخارجي . وأخطر شيء على الجيش الخلل الداخلي .. لهذا كان عمر ـــ رضي الله عنه ـــ يوصي القواد والجيوش .. (آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم . فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة .. وإلا ننصر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا .. اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم ..)[1] .

وإن الاستعمار لا يتمكن في أرض إلا بوجود القابلية له .. أما إذا دخل بلاد أمة متماسكة متينة البنيان فسرعان ما يخرج منها .. (كما حدث في اليابان وألمانيا) .. وإن تخذيل الناس لا يقتصر على صدهم عن القتال في سبيل الله .. بل يشمل ميدان الصراع الفكري ، وكل مجال يحتاج إلى بذل وتضحية في سبيل الله . ومن الناس أيضاً من يصد عن حضور مجالس القرآن والمشاركة في الدعوة إلى الله ، لأن الظروف قاسية وإيثاراً للسلامة العاجلة . وإن الحرب النفسية ـــ وهي الإرجاف وإشاعة الخوف والوهم في النفوس ـــ تحتاج إلى عقول بصيرة تعرف كيف تبطل مفعولها .. وتحضرني قصة الرجل الذي كان يركب فرسه في صحراء ، فرأى رجلاً يمشي وقد أضرَّ به التعب ، فنزل عن فرسه وأركبه عليها فأسرع الرجل بها ، فأحس صاحبها أن الرجل يريد سرقتها ..

---

١ ـــ راجع فقه السنة صفحة ٦٤٢ لسيد سابق .

فناداه قائلاً : (إن فعلتها فلا تحدث بذلك أحداً حتى لا تذهب المروءة من الناس) .

إن مثل هذا الموقف يدل على بصر نافذ ونفس عالية ، أدركت أن الفرس لا قيمة لها أمام إشاعة تجتاح النفوس وتهزم الأخلاق في الأمة . إن الصراع الفكري يحتاج إلى مناضلين مجاهدين يتحلون بمثل هذا الإدراك البصير .. يقفون في وجه الإشاعات والأراجيف ويترصدون الجراثيم الفكرية للقضاء عليها .

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ .

إن هذا الموقف ليدل على فقدان الشعور بالأخوة مع المؤمنين .. لأن المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .. ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. ولقد جمعوا إلى هذه الأنانية قصر النظر ، فلا يفكرون إلا في العاجلة فهم يعتبرون نجاتهم من الابتلاء نعمة . ولا يدركون أن البلاء فضل من الله واختيار . وإن « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »[1] . وليس معنى ذلك أن يسأل العبد ربه البلاء ، بل يسأله العافية .. فإذا جاءه البلاء صبر وثبت واحتسب ذلك عند الله .. وإذا نزل البلاء بإخوانه شعر بفضلهم وواساهم بنفسه وماله.. ولا يرغب بنفسه عنهم فيتنصل من أداء الواجب معهم.

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ .. ﴾ .

إن من يعطي الأولوية للحياة الدنيا ، لا تستقيم له عبادة : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف . فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ (الحج ــ ١١) . إن من يعطى الأولوية للحياة الدنيا سيأتي زمن يخسرها أيضاً .. فلقد تعلق المسلمون بالحياة الدنيا فتخلفوا في

١ ــ رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان وأحمد . وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة .

الجانبين .. أما الأوائل فقد آثروا الآخرة ففتح الله لهم أبواب الدنيا والآخرة .. وما ذلك إلا لأن الله جعل الحضارة تأتي نتيجة تفاعل الإنسان مع عقيدة يؤمن بها ويتفانى فيها .. وإن خط الصعود في الحضارة يكون عندما تعطى الأولوية للعقيدة .. أما خط الهبوط فإنه يبدأ عندما تعطى الأولوية للغرائز والمتع .. وإن هؤلاء الذين لا يتبعون فكرة إلا من أجل مكاسب سريعة ــ والدنيا كلها يسميها القرآن عاجلة ــ لن تستقيم لهم دنيا ولا آخرة ..

﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾ .

يقول هذا من أجل بعض مكاسب الدنيا لا من أجل الآخرة ..!!

﴿ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ .. ﴾.

إنه يحدد الهدف من القتال : أنه في سبيل الله . وإن الإسلام لا يعرف قتالاً إلا في سبيل الله ، وسبيل الله هو رفع الظلم عن الناس وإقامة ميزان العدل . ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

والمنهج التربوي القرآني يثير حماس المؤمن بتذكيره بالآخرة : ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ (الضحى ــ ٤) . إن بذل النفس لا يقدم عليه إلا من يؤثر الآخرة على الدنيا . والإيمان البارد الذي لا يستحضر هول المحشر لا يدفع إلى عظائم الأمور ..

﴿ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ .

لقد حدد الله الهدف . فمن يبذل نفسه لهذا الهدف سيحصل على نتيجة وهي إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة : « تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة » (ثبت في الصحيحين) .

﴿ **فيقتل أو يغلب** ﴾ وليس لديه خيار ثالث .. إنه يلغي فكرة الهزيمة كلياً من ذهن المسلم .. فهو يرفض الهزيمة .. فإن هزم فهي هزيمة عارضة سريعة الزوال لأنه يبحث عن أسبابها في تقصيره ويتداركها .

ثالثاً ــ من الذي يقاتل في سبيل الله ؟

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ .

إن الآية تكشف لنا عن وجود بعض الضعف والتراخي في الصف المسلم .. والمسلم معرض لأن تنتابه حالات من التردد والتراخي والانشغال بالأعمال اليومية الدنيوية .. فلا يعطي الأولوية لمشكلة المسلمين ، ويغفل عن أهمية الاستنفار لإقامة نظام العدل فتتناقص فعاليته وحركته .. والقرآن يعالج هذا الفتور ويستنهض الهمم بشتى الأساليب .

﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً . والله على كل شيء قدير﴾ (التوبة ــ الآيتان ٣٨ ، ٣٩) .. ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ (التوبة ــ ٤١) . قرأ أبو طلحة الأنصاري هذه الآيات وهو شيخ طاعن في السن فقال : (أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباباً . جهزوني يا بني) وقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات . فنحن ننوب عنك . فأبى وخرج .

إن الآيات تهز المؤمن : ﴿**خذوا حذركم**﴾ وتثير الانتباه إلى أهمية اللحظات التي تمر . وتضع المؤمن في توتر واعٍ .. إذ أن التوتر ــ وهو الإحساس بالخطر ــ إذا كان مصحوباً بالجهل أدى إلى الشلل . لكن التوتر الفعال تصاحبه المعرفة بكيفية الخروج من المأزق .

والصراع الآن فكري ونفسي يحتاج إلى مستوى عالٍ من الفهم والانتباه . وليست هزيمتنا من قلة العدد والعتاد والمال .. ولكن من ضحالة الفهم .. إن المآسي الكبرى التي نعيشها ترجع إلى شيء واحد هو : نظرنا الصبياني للأمور .

وعدونا حتى الآن ينجح في تحويل دفة المعركة معه إلى قتال فيما بيننا .. ويلوي فوهات مدافعنا بأيدينا فتنقلب إلى صدورنا.

والآية تحدد للمسلمين أهدافاً نبيلة ، وتحملهم مهمة سامية يتحركون من أجلها وهي إنقاذ المستضعفين وتحريرهم من الظلم ..

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ.. ﴾ ؟!

مالكم ..؟ ما الذي يؤخركم عن بذل النفس في سبيل هذه المهمة النبيلة ..؟!

أهو الحرص على الراحة والمتعة ..؟! فإن الإنسان في تعب وكد دائمين .. فهو إن لم يتعب في سبيل الله فسيتعب في سبيل أشياء أخرى .. وإن حصل على راحة ومتعة في الدنيا فإنها قليل : ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾ (النساء ـــ ٧٧) .

أهو حب الأهل والولد والمال والمساكن الطيبة ..؟ فإن كانت هذه الأمور أحب إلى الإنسان من الله والجهاد في سبيله فهو ليس من عداد المؤمنين .. والذين آمنوا أشد حباً لله .. ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (التوبة ـــ ٢٤) .

لا يكفي أن نردد هذا الكلام .. ولكن أن نؤمن به إيماناً عملياً . إن معنى تلبية استنفار الله : أن تكون كل حركة ، وكل زيارة نقوم بها ، وكل لقاء مع الناس في سبيل الله ؛ لأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ..

والمشهد الذي يعرضه يثير حمية المسلم ومروءته ويهيجه لأداء ما يستطيع لإنقاذ

هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ .

لقد كان الشيوخ والأطفال والنساء يمتحنون في عقيدتهم ولا يملكون دفعاً ولا هجرة .. يصورهم وهم يجأرون إلى الله أن يخرجهم من هذه القرية — وهي وطنهم الحبيب ، لكن دين الله أحب إليهم — التي ظلمهم فيها كبراؤها ، وأن يرسل إليهم من يتولاهم وينصرهم .

واليوم تئن البشرية تحت سياط العنصريين والمستكبرين والمستعمرين .. وتنطلق الاستغاثة من جنبات الأرض والنداءات إلى هيئة الأمم .. وما من مجيب .. فأين المسلمون ؟!

وأصبح لا يرى في الركب قومي وقد عاشوا أئمته سنينا
وآلمني وآلم كل حر سؤال الدهر : أين المسلمونا ..؟!

فحين تقاتل كل الأمم من أجل الاستغلال والتسلط ، فإن الأمة المسلمة تقاتل لإنقاذ الإنسان ..

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ .

فاعرف ميزتك أيها المؤمن ، إنك تبذل نفسك في سبيل الله الذي هو تحقيق الأمانة والعدل .. بينما الآخرون للطغيان يقاتلون ويتحركون .. وقد شرحنا كلمة الطاغوت قبل الآن وهي طغيان الفرد وتجاوزه حدوده كعبد مخلوق ، وزعمه أنه هو الحاكم المشرع للناس .

إن المؤمن بحاجة إلى من يذكره بميزته على الناس حتى يحتفظ بأهدافه وترفعه عن الدنايا .. ولهذا نادى رب العالمين نساء النبي ﷺ مذكراً : ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء .. ﴾ (الأحزاب — ٣٢) .

والمؤمنات الآن بحاجة إلى من يقول لهن : لستن كأحد من نماذج النساء التي

تعيش الآن .. اعرفن هذه الميزة واحتفظن بها . فإذا شغلت النساء باللهو والزينة فما ينبغي لكُنَّ أن تنشغلن .. فهلا أدركت المؤمنة مكانتها وكونها قدوة تترفع عن التفاهة ..؟!

غالى بنفسي عرفاني بقيمتها   فصنتها عن رخيص القدر مبتذل

﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

فأنتم أولياء الله الخالق القادر وهم أولياء الشيطان المخلوق الضعيف ..

ولكن متى يكون كيد الشيطان ضعيفاً ؟ عندما توجد جماعة مؤمنة تجاهد في سبيل الله ..

رابعاً ــ فريق كان يتمنى الجهاد حين لم يكن مسموحاً به

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ .. ﴾ .

كانت الآيات حتى الآن ــ في هذا القسم ــ تتحدث عن مسوغات القتال ، وتثير حماس المؤمن لهذه المسوغات . فالقتال في سبيل الله لمنع الظلم[1] . والدنيا صراع بين الحق والباطل .. وقد يحدث صراع بين باطلين .. أما أن يكون الاثنان على حق فلا يمكن .. والآيات تؤكد على المؤمن أن يكون صراعه للحق . ولهذا كرر : ﴿**في سبيل الله**﴾ ، وأكد عليها حتى يحذر المؤمن مداخل الشيطان .. أما الآن فإن الآيات

---

١ ــ وليس لإنهاء الكفر لأن العقيدة لا تفرض بالقوة . حتى أن الباغي يقاتل ولو كان مؤمناً . راجع سورة الحجرات ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ..﴾ .

تتحدث عن : متى يصبح القتال واجباً ومتى يكون محظوراً .. إذ أن القتال ليس أمراً فردياً ــ كإقامة الصلاة ــ يقوم به الفرد متى شاء . وإنما أمر به المجتمع المسلم ، والذي يحدد وقته ويستنفر له هو الحاكم المسلم في هذا المجتمع .. فإذا أمر الحاكم بالخروج للقتال ، يصبح المتخلف عن الزحف مرتكباً لإحدى الكبائر . فالأمر بالخروج والاستنفار من مسؤوليات الحاكم ولا يجوز أن يتولاه أحد غيره . مثله في ذلك كمثل العقوبات وإقامة الحدود .. فإنه لا يجوز لأي فرد من المسلمين أن يقطع يد السارق حين يضبطه بالسرقة ، وإنما يرفع أمره للحاكم .. والحاكم هو الذي يقيم الحد ..

أما قصة هذه الآية : فهي أن طائفة من المهاجرين كانوا ــ قبل الهجرة ــ في مكة يتحمسون للقتال ويتمنون لو يؤذن لهم بالقتال ليدفعوا عن أنفسهم الأذى .. لكن الله أمرهم في تلك المرحلة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكف اليد عن القتال والصبر على الأذى فلا يقابلوه بالمثل .. فلما هاجروا إلى المدينة .. وجاء الإذن بالقتال ثم الأمر به .. تثاقلوا عنه ..

إن هذه الحادثة تكشف لنا : كيف أن أشد الناس حماسة لأمر قد يصبح من أشد الناس جزعاً حين يجد الجد ، لأن الحماسة والاندفاع دون روية يدل على عدم تقدير للتكاليف التي تتطلبها المواقف العصيبة . أو أن هذا الحماس قد يكون انتصاراً للذات لدفع الإهانة .

فلما أصبحوا في المدينة آمنين من الأذى ، فقدوا الشعور بضرورة السرعة في أمر القتال .. وفي كلا الحالين نجد النظر الذاتي هو المتحكم في الموقف .. ولا ينبغي أن نخدع بالحماس الخاوي من الوعي والتبصر لأنه ينطلق من منطق السهولة . فالأمر في نظره لا يحتاج إلى أكثر من إخلاص متقد .. فلا يقيم وزناً لتحصيل الصواب (العلم) اللازم للنجاح في الأمر ولا مقدار الجهد المكافىء لذلك . فيورط نفسه ومن حوله بأعمال فوضوية لا جدوى منها .. إن هؤلاء كانوا لا يقدرون مراحل الدعوة ، وكانوا يدعون فهم مالا يفهمون وعمل مالا يعملون ، حين تمنوا القتال في وقت الإعداد والتدريب . فلما جاء وقت القتال تغيرت نظرتهم ورأوا ما لم يحسبوا له حساباً ، فصاروا يخشون الناس

كخشية الله أو أشد خشية .. حتى طلبوا تأخيره ..

أما لماذا أمر الله تعالى بكف اليد في مكة ..؟ وهل نسخ هذا الحكم أم أنه باقٍ لكل ظرف مشابه لما كان عليه المسلمون في مكة ..؟

لفهم الموضوع لابد من تناول النقاط التالية ببعض الإيضاح :
١ ــ الإنسان وضرورة أن يعيش في مجتمع .
٢ ــ المجتمع لا بد له من محرمات وواجبات (قانون) .
٣ ــ السلطات في المجتمع .
٤ ــ كيف يتغير القانون ؟
٥ ــ حين يكون المسلم في مجتمع لا يحكم بما أنزل الله . ماذا يفعل ؟

قد يشعر البعض بالاستغراب من طرح هذه النقاط ويقول : ما علاقة هذا بعلم التفسير ؟! إن علم التفسير لا يقتصر على المواعظ والترهيب والترغيب ــ كما يظن بعضهم ــ وإنما آيات الكتاب لها علاقة وثيقة بآيات الآفاق ــ العلوم المادية ــ وآيات الأنفس ــ أي العلوم الإنسانية ومنها علم النفس والاجتماع ــ والعلاقة قد أشار إليها القرآن : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ . والضمير ﴿أنه الحق﴾ يعود على القرآن . فالله سبحانه وتعالى يبين أن آيات الآفاق والأنفس ــ كلما انكشفت وازداد العلم تقدماً ــ ستشهد لآيات الكتاب بأنها الحق . بل ستكون خير مفسر لها .. ألم يأت علم الأجنة بالصورة المفسرة للآيات التي تحدثت عن الجنين ..؟

والآية تتعلق بإنشاء المجتمع ومراحل تكونه وتحقيق سلامته بعد ذلك .. ولا بد أن تأتي آيات الأنفس (علم النفس والاجتماع) لتفسر ذلك وتشهد له أنه الحق . ولا بد من تناول القضية بوعي أكبر على قدر ما تسمح إمكاناتنا القليلة . وسيأتي اليوم الذي يكتب فيه أولو العلم والاختصاص مزيداً في هذا المجال .

فالإنسان مخلوق اجتماعي لا يمكن أن يعيش فرداً .. فإذا عاش منفرداً لم يكن إنساناً طبيعياً بل أصبح أقرب إلى الحيوان .. بينما يمكن أن يربى أي حيوان دون أن يرى

حيواناً مثله وتبقى طباعه على ما هي . أما الإنسان فإنه يكتسب من الناس حوله كل خبرات البشرية التي تعبت في تحصيلها عبر أجيال .. حتى أنه يصعب تصور الحالة التي سيكون عليها الإنسان لو ربي بمعزل عن البشر .. من هنا نشعر بأهمية المجتمع .

والمجتمع إنما يلتقي ويترابط على مجموعة من المحرمات والواجبات تنتظم بها حياته .. هذه المحرمات والواجبات يمثلها ــ أحياناً ــ **العرف** وذلك في المجتمع القبلي غالباً .. ويمثلها في الدول **القانون** . وفي الأديان **شريعة الله** حيث يوافق العرف والقانون على الشريعة في المجتمعات الدينية .

والمجتمع يسند هذا الأمر ــ العرف أو القانون أو الشريعة ــ من حيث الإشراف والتعديل إلى أفراد معينين . ففي القبيلة يتولى زعيمها هذا الأمر . وفي الدول : البرلمان أو المجالس التشريعية . وفي المجتمعات الدينية : الكتب المنزلة من السماء .

وتتوزع السلطات في المجتمع إلى ثلاثة :

السلطة التشريعية : وهي لزعيم القبيلة .. أو المجلس التشريعي .. أو الله سبحانه وتعالى .

والسلطة القضائية : التي تقضي بين الناس بحسب القانون ، وتمثلها وزارة العدل والمحاكم .

والسلطة التنفيذية : التي تنفذ الأحكام وتقوم بحفظ أمن المجتمع (الشرطة داخلياً ، والجيش خارجياً) . ففي المجتمع الحاكم بأمر الله تكون السلطة التشريعية للكتاب والسنة ، ويتولى ناس من المختصين الإشراف على السلطة القضائية والتنفيذية . ولا بد من وجود مجلس شورى تابع للسلطة التشريعية يتولى استنباط الأحكام وسن القوانين الفرعية المستمدة من الكتاب والسنة بشكل يتناسب مع ما يجد من أحوال وحاجات للمجتمع ..

وإذا كان المجتمع يخضع لغير شريعة الله ــ أي لقانون وضعي ــ فكيف يتغير القانون ..؟

نرجع إلى الأنبياء فلقد قاموا بهذه المهمة وغيروا العادات والتقاليد والقوانين وأحلوا الشريعة بدلاً عنها امتثالاً لأمر الله .. فماذا فعل الأنبياء ..؟

﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه : يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين . فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ..﴾ (يونس ــ الآيات ٧١ ، ٧٣) .

﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله . جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ؟ قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون . وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنَّ في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ (الآيات ٩ ــ ١٤ من سورة إبراهيم) .

وماذا فعل خاتم الأنبياء الذي أمرنا بالاقتداء به .؟

لقد أمر ﷺ بالدعوة وإقامة الفرائض والصبر على الأذى وكف اليد ، كما فعل الأنبياء من قبله .. فاستقام على هذه الطريقة ولم يلجأ إلى القوة والإرغام بل كان يخاطب العقول ويحركها ، فمن اقتنع انضم إليه .. واستمر على ذلك حتى آمن به مجتمع المدينة .. وتمثل ذلك بمجيء النقباء ــ وهم أهل الحل والعقد ــ إليه ومبايعته يوم العقبة .. وطلبوا منه أن يأتي إليهم ويحكم بشريعة الله فيهم .. وهكذا قام المجتمع المسلم

دون أن تراق قطرة دم واحدة .

وقضيتنا الآن : أن يصبح المجتمع مؤمناً يحكم بما أنزل الله .. وهذا هو حلم كل مسلم ..

فماذا نفعل لتحقيق هذا الحلم ..؟! بالتأكيد علينا أن نتتبع خطوات الأنبياء :

١ ــ علينا أن ندعو الناس حتى يقتنعوا بضرورة الالتزام بشريعة الله حرصاً على سلامة الدنيا والآخرة .

٢ ــ ولا بد من إعلان ذلك على الملأ دون تخفٍّ .. حتى يعرف الناس من أنت وإلى أي شيء تدعو وما منهجك في دعوتك .. وأن تحرص على الالتزام بما تدعو إليه ولا تخرج عن الخطة والمنهج الذي تبنيته وهو : إقامة الفرائض ، ودعوة الناس ، والصبر وكف اليد .. حتى لا تفتح مجالاً للغموض وإلقاء التهم عليك .

٣ ــ لا ترغم أحداً على طاعة الله .. ولكن حاول إقناعه .. ولا تسمح لأحد أن يرغمك على معصية الله ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ (العلق ــ ١٩) . وبهذا تكون قد نجحت في صياغة نفسك كنموذج جديد للإنسان الذي كرمه الله ، فلا يقبل الإكراه والإرغام لنفسه أو لغيره .

إن عدد الذين يهتمون بقضية الإسلام ليس قليلاً . وإن الأغلبية العظمى في عالمنا ما زالت تحن وتحلم بمجتمع إسلامي يحكم بشريعة الله . بينما بدأ رسول الله ﷺ بهذه الدعوة وحده وكانت الأغلبية العظمى ضده .. فكيف استطاع رسول الله ﷺ أن يحقق مجتمعاً ربانياً ولم نستطع نحن ..؟! قد يقول قائل : ذاك رسول الله تكفل الله بحمايته من أعدائه ونصره عليهم من عنده .. وهنا ينبغي لنا أن نتذكر أن رسول الله ﷺ نصر باستعمال السنن ، ولم يكن نصره بمعجزات من السماء .. ولقد كان المسلمون يتلقون نتيجة أخطائهم ــ كما حدث في أحد ــ وكان الله ينبههم إلى ذلك : ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ (آل عمران ــ ١٦٥) . ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾ (محمد ــ ٧) . فطريقة الرسول في دعوته وبناء مجتمعه كانت بحسب السنن الاجتماعية

التي وضعها الله لتغيير المجتمع ، فكان يقوم بالأسباب ويحصل على العواقب . ولم يتم الأمر بمعجزات خوارق . ولهذا وجهنا الله بقوله : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ..﴾ (الأحزاب ـــ ٢١) . فإذا سار الدعاة على منهجه وبذلوا قريباً من بذله وصلوا إلى غايتهم .

فالنقص في القيام بالدعوة والالتزام بمنهج محمد ﷺ .. هل بذل الدعاة جهدهم لإعلان الدعوة ؟ هل خاطبوا الناس في هذا العصر ـــ على قدر عقولهم ـــ كما أمر رسول الله ﷺ ؟! هل رفضوا طاعة من يأمر بمعصية ..؟! هل التزموا بالصبر على الأذى وكف اليد .؟!

لو أن الدعاة إلى الله استطاعوا أن يعلموا الناس معنى التوحيد الحقيقي لما استطاع حاكم أن يحكمهم بغير شريعة الله .. لأن الجماهير حين تعلن كفرها بالطاغوت وترفض أن تطيع أمراً فيه معصية الله .. وتدرك أن من يوافق على دستور يعطي حق التشريع لغير الله سبحانه قد وقع في الشرك .. إن وجود هذا المستوى من الوعي الإيماني كافٍ لإبطال كل قانون يخالف شريعة الله .

وقد يقال هنا : إنك حين تحاول إقناع الناس لن يتركوك .. وستتعرض لأصناف الأذى ، وهذا ما يضطر المسلم إلى التخفي والإقلال من الدعوة والتبليغ ..؟!

ونحن لا نقول بأنهم سيتركونك دون كيد لك . ولكن علينا أن نصبر ونستمر .. فذاك طريق الأنبياء .. ألم يقل لهم نوح عليه السلام : ﴿إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون .﴾ (يونس ـــ ٧١) . فإني مستعد لتحمل كل شيء في سبيل هذه الدعوة ولن أتركها وأتخلى عنها خوفاً من كيدكم .. ورسول الله ﷺ تعرض لأنواع الأذية وكادوا يغتالونه .. وليس شرطاً أن يعصم كل داعٍ إلى الله من القتل كما عصم رسول الله ﷺ من أن يصل إليه الكفار .. فقد قتل أنبياء في الماضي .. وقتل كثير من العلماء ومن الذين يأمرون بالقسط .. وما زال المسلمون يرددون قصة آل ياسر كنموذج للإيمان والتضحية والثبات .. فلا بد من وجود شهداء ، ولا بد من تضحيات .. فإن الآمال لا

تتحقق بدون بذل .. يقول ابن تيمية حين يستعرض سورة ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ اعلم أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلّم أربع مسائل :

١ ــ العلم لأنه لا يحدث إيمان قبل أن تعرف الشيء الذي ستؤمن به .

٢ ــ العمل به .

٣ ــ الدعوة إليه .

٤ ــ الصبر على الأذى في سبيله .

لكن الأمر الذي ينبغي للداعي أن يحترس منه هو أن لا تكون له تهمة أخرى غير الدعوة إلى الله . وأن لا ينقم عليه الناس إلا أنه يعبد الله ويدعو إليه : ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ (البروج ــ ٨) . فإن هذا ضروري جداً لتقليل عدد الضحايا ، ثم لجعل المحنة التي تقع على المؤمن مؤثرة في نفوس الجماهير؛ تنبت الإيمان في قلوبهم وتشعرهم بعدم صلاحية قوانينهم وبظلم طواغيتهم .. وما أعظم أن تضحي بنفسك عندها لتهدي الناس ؛ كما فعل الغلام في قصة الساحر والملك والغلام التي تروى في قصة أصحاب الأخدود . وإن الذي لا يصبر على هذه الطريق لن يصبر على طريق أخرى لأنها ــ وإن بدت شاقة في البداية ــ طريق واضحة الهدف تتأسى بخط الأنبياء .. لا غموض ولا أسرار ولا شيء تضطر إلى إخفائه ، ولا يحتاج إلا إلى علم بآيات الله وقدرة على الالتزام بها .. وهو يعطي الطمأنينة للنفس لأنه يحمل الحب والهداية للجميع ولا يؤذي أحداً . ولا يورط أحداً من معارفه وأصحابه وممن لا يمت إليهم بصلة أيضاً .

ونحن الآن في عالم إسلامي مليء بالجهل والشرك والتخلف .. قد فقد التفاعل مع قرآنه ، ولهذا يرفض بعضهم أن يسميه إسلامياً .. وإنما هو مجتمع جاهلي في نظرهم .. فإذا اعتبرناه جاهلياً فعلينا أن نمشي وفق خطة النبي ﷺ لتغييره أي : **الالتزام بالدعوة والصبر على الأذى وكف اليد** . أما إذ اعتبرناه مجتمعاً مسلماً منحرفاً فهل يختلف الأمر . . ؟ وهل يكون العلاج باستعمال السلاح ؟ إن الحياة الإسلامية التي يعيشها العالم الإسلامي الآن تقام فيها بعض أركان الإسلام كالشهادتين وأداء الصلاة والصيام و .. وإن كان فيها

بعض الأخطاء والانحرافات ، لكن حب الإسلام يعمر قلوب الأكثرية الساحقة في هذا العالم .. ولقد تحدث رسول الله ﷺ مع أصحابه عن مرحلة سيصل إليها المجتمع المسلم وهي عهد الفتن ، وأوصى أصحابه بوصايا تتعلق بسلوك المؤمن كيف ينبغي أن يكون في هذا العهد .. والذي يتأمل الأحاديث الواردة في كتب الحديث عند باب الفتن يلمس ذلك ، ويستنتج من وصف الرسول ﷺ لهذا العهد أنه مرحلة ثالثة في حياة المجتمع .. فهو ليس جاهلياً ــ كما كان المسلمون يعيشون في مكة أفراداً وسط مجتمع جاهلي ــ وليس مسلماً قائماً بأمر الله ــ مثل مجتمع المدينة تحت حكم النبي ــ وإنما هو مسلم ينحرف حكامه عن العدل وينحرف أفراده عن بعض أوامر الله .. ورسول الله ﷺ كان ينظر إلى المجتمع نظرة سننية .. وكان يعلم أن عملية التغيير إن لم تدخل إلى أعماق النفوس ستكون لها نتائج سلبية .. ولقد دخل كثيرون في الإسلام دون أن تتعمق أصوله في نفوسهم ﴿قالت الأعراب آمنا . قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ..﴾ (الحجرات ــ ١٤) . ولهذا فقد تنبأ بحدوث فتن .. وأخبره الله تعالى بذلك .. وأوصى أصحابه أن يلتزموا سلوكاً معيناً حيالها . وتمثل توجيهاته هذه قانوناً وسنة لصيانة المجتمع وترميمه . . وها أنذا أسوق بعض الأحاديث التي تتحدث عن ذلك :

١ ــ عن عوف بن مالك عنه ﷺ قال : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم . وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » قال : يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيوف ؟ فقال : « لا .. ما أقاموا فيكم الصلاة . وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة » (رواه مسلم) .

٢ ــ عن عبد الله بن عمرو : (أن النبي ﷺ قال : « من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع . فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا رقبة الآخر » قلت : آنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : سمعته أذناي ووعاه قلبي . قلت هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نفعل ونفعل . قال : أطعه في طاعة الله واعصه في معصية الله) (سنن أبي داود ــ ٤٠٨٣) .

٣ ـــ عن الأحنف بن قيس قال : خرجت وأنا أريد ـــ يعني في قتال (يبدو أنه كان بين المسلمين من هذه المعارك المؤلمة التي حدثت في تاريخنا بين الطوائف التي خرجت وكل طائفة ترى أنها على الحق) ـــ فلقيني أبو بكرة فقال : ارجع .. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما . فالقاتل والمقتول في النار » قال : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟! قال ﷺ : « إنه أراد أن يقتل صاحبه » (سنن أبي داود ـــ ٤١٠١) .

٤ ـــ عن مسلم بن أبي بكرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنها ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيراً من الجالس . والجالس خيراً من القائم والقائم خيراً من الماشي والماشي خيراً من الساعي » . قال : يا رسول الله فما تأمرني ؟ قال « من كانت له إبل فليلحق بإبله . ومن كان له غنم فليلحق بغنمه . ومن كان له أرض فليلحق بأرضه » . قال : فمن لم يكن له شيء من ذلك ؟ قال : « فليعمد إلى سيفه فليضرب بحدِّه على حرة ـــ صخرة ـــ ثم لينجو ما استطاع النجاة » (سنن أبي داود ـــ ٤٠٩٠) .

٥ ـــ عن أبي موسى الأشعري قال : قال ﷺ : « إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً . ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً . القاعد فيها خير من القائم .. فاكسروا قسيكم واقطعوا أوتاركم واضربوا سيوفكم بالحجارة . فإن دخل ـــ يعني على أحدكم ـــ فليكن كخير ابني آدم » (سنن أبي داود ـــ ٤٠٩٣) .

٦ ـــ عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال : فقلت : يا رسول الله . أرأيت إن دخل عليَّ بيتي وبسط يده ليقتلني ؟ فقال ﷺ : « كن كابن آدم » وتلا يزيد ـــ ويبدو أنه مشترك في رواية الحديث ـــ ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ..﴾ (سنن أبي داود ـــ ٤٠٩١) .

٧ ـــ عن أبي ذر قال ﷺ « كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم؟» قلت: ما خار الله لي ورسوله. قال: «عليك بمن أنت منه»[1]. قلت:

---

١ ـــ أي اعتزل كل من ساهم في الفتن وحمل السلاح.

يا رسول الله أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي ؟ قال : « شاركت القوم إذن » قلت : فما تأمرني ؟ قال : « تلزم بيتك » قال : فإن دخل علي بيتي ؟ قال : « فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق ثوبك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه » (سنن أبي داود ـــ ٤٠٩٥) .

٨ ـــ عن نافع قال : جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمره في الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية ـــ وذلك حين خلع بيعة يزيد مع كثير من أهل المدينة ـــ فقال : اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة . فقال ابن عمر : إني لم آتك لأجلس . أتيتك لأحدثك حديثاً سمعت رسول الله ﷺ يقوله : « من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له . ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » (رواه مسلم) . فكان أن وجه يزيد إلى المدينة جيشاً لرد أهلها إلى الطاعة ، وحدثت موقعة الحرة واستبيحت المدينة ثلاثة أيام .. والسيف يعمل فيها .. يقول ابن كثير في تاريخه معلقاً على الحادثة : (الإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قول العلماء . بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة الفتنة ووقوع الهرج ـــ أي القتل ـــ وسفك الدماء الحرام ونهب الأموال وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن .. وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا .. وقد جاء في الصحيح : « من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان) .

وأكثر هذه الأحاديث التي رواها أبو داود مصنفة في كتابه النهي عن السعي في الفتنة .

والآن نستطيع أن نتصور الأخطاء التي حدثت في تاريخنا . فالذين خرجوا على الخلفاء وقاتلوهم كلهم قد أخطؤوا . .وكان عليهم أن ينصحوا الحاكم ويحاولوا رده عن ظلمه أو خطئه بالدليل والحجة وأن يكونوا أنصاراً له لمنع الظلم ورد الأمر إلى نصابه . وهذا الذي وصفه رسول الله ﷺ بأنه أعظم الجهاد . عن أبي سعيد قال ﷺ : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » (رواه أبو داود والترمذي) . ولهذا نجد

عدداً من الصحابة قد اعتزل كل هذه المعارك ورفض القتال حتى مع الحسين رضي الله عنه حين خرج .. ومنهم عبد الله بن عمر وابن عباس وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري و ...

نستخلص من هذه الأحاديث أن واجب المسلم في هذه المرحلة : أن لا يطيع في معصية الله أحداً ، وأن يبلغ كلمة الحق حتى للإمام الجائر وأن لا يخرج عليه بالسلاح .. وهنا نصل إلى نتيجة هامة : وهي أن إنشاء المجتمع وإصلاح المجتمع المنحرف يكونان بالطريقة نفسها وهي : **الدعوة وعدم الطاعة في المعصية والصبر على الأذى وكف اليد** .

وقبل أن نترك هذا الموضوع أضيف بعض الملاحظات :

أولاً ــ تأمل صاحب تفسير الظلال مجتهداً بعض الحكمة من كف اليد في مكة في نقاط أعرضها باختصار:

١ً ــ لم يكن هناك مسوغ للقتال لأنه كان مكفولاً للدعوة في مكة حرية البلاغ .

٢ً ــ كانت هذه الفترة فترة تربية وإعداد : الصبر على الأذى ، التجرد من الذات والخضوع لأمر الله فيما تكرهه نفس العربي ، ضبط الأعصاب وتعليم الفرد كيف ينتظم في مجتمع له قيادة فلا يتصرف إلا وفق ما تأمره .. (أي تدريب الفرد على الانضباط تمهيداً لمجتمع متحضر) .

٣ً ــ كانت الدعوة السلمية أشد أثراً في بيئة مثل قريش ، بينما سيدفعها القتال إلى العناد ونشوء الثارات الدموية التي سترتبط في أذهانهم بكلمة إسلام .

٤ً ــ اجتناباً لإقامة معركة في كل بيت .

٥ً ــ إن الله كان يعلم أن كثيراً من المعاندين سيكونون من جند الإسلام المخلصين بعد ذلك .

٦ً ــ النخوة العربية تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى ولا يتراجع عن دينه .

٧ً ــ قلة عدد المسلمين .. ولو فرض القتال لقضي عليهم قبل إنشاء مجتمع مسلم[١] .

وأقول: إن هذه الأمور التي ذكرها صاحب الظلال ليست خاصة بتلك المرحلة المكية ــ ويمكن أن نرى أنها ملموسة في عصرنا أيضاً . . فحرية الدعوة مكفولة إن لم يحمل صاحبها سلاحاً ، مثل رسول الله ﷺ فواجب القيام بالدعوة مستمر إلى أن يتكون المجتمع المسلم . وفترة التربية والإعداد لابد منها لإعداد النخبة القادرة على حمل الأمانة . والدعوة السلمية أشد تأثيراً الآن ؛ فالناس مشمئزون من الأسلحة وسفك الدماء أكثر من الماضي بكثير .. بحيث تقوم مظاهرات في العالم الغربي تطالب بنزع السلاح .. مع كونها هي الدول القوية .. فهي لا تطالب بذلك عن ضعف .. .. وهذا مما يجعلنا نستيقن أكثر أن العهد الآن عهد كف اليد .

ثانياً ــ إن الجماعات الإسلامية التي تتبنى فكرة الانقلاب العنيف لتحقيق مجتمع يحكم بشريعة الله ، كأنها نشأت متأثرة بالأسلوب الحزبي الغربي في أوربا حيث حدثت الثورات المسلحة ضد الظلم والإقطاع .. لأننا لا نجد في حركة النبي ﷺ وأصحابه في مكة أثراً لهذه الروح الحزبية العنيفة . فكأنهم ــ لا شعورياً ــ يقلدون الأحزاب الغربية . ومع ذلك هل نجحت الثورات المسلحة هناك بتحقيق أهدافها حتى نقلدها ..؟

علينا أن نرجع إلى المؤرخين والعلماء عندهم لمعرفة هذا الأمر ، لا أن نخدع ببريق التقدم المادي عندهم فنعمم على سائر الجوانب . إن ويلز ــ المؤرخ الإنجليزي ــ قد تحدث في تاريخه عن فشل الثورة الفرنسية والبلشفية في تحقيق الأهداف . ولا نجد من غير المسلمين أحداً تبنى عملية التغيير العميقة الجذور بشكل سلمي إلا غاندي في هذا العصر . وقد استطاع بأسلوبه (اللا عنف) أن يحتج على الاحتلال البريطاني ويحرر الهند منه .

---

١ ــ لكن قلة العدد وحدها ليست كافية لمنع القتال ، وذلك أن الله تعالى قال : ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ . وقد قاتل المسلمون في معارك كثيرة وكانوا قلة فنصرهم الله .

ثالثاً ـــ إن عقيدة صحيحة يشهد لها العلم ـــ كلما نما وتقدم ـــ لا تحتاج إلى قوة تسندها . وإن القرآن حين قال : ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة ـــ ٢٥٦) . قد أشعر بقيمة هذه الفكرة التي تحمل سلطانها معها . بينما الذين يلجؤون إلى العنف يدينون هذه العقيدة لا شعورياً .. وعدونا يدرك أننا في ميدان الأفكار نملك الفكرة الأصح والأقوى فهو يتمنى أن نواجهه في ميدان العنف والسلاح كي يقضي علينا .. ولو انتبه الدعاة إلى ذلك فحولوا المواجهة إلى حوار في الفكر والعقيدة ، فإن الطرف المعادي سيفقد سلاحه ويضطر للنزول معنا إلى ميدان الأفكار ؛ حيث يكون السلاح هو الدليل والبرهان . وكما يقول سعيد النورسي : (والمستقبل الذي ليس فيه لغير العلم والعقل مكان .. لا يتسع صدره لغير حقائق القرآن)[1] .

رابعاً ـــ من ميزات المبدأ السلمي أنه :

١ً ـــ يكشف أعداء الإسلام الذين يتسترون وراء جهل الناس ويزعمون أنهم يحبون الإسلام ولكن يريدون القضاء على الإرهاب والفتنة .

٢ً ـــ ينقذ الأعوان الذين كانوا يساهمون معهم عن جهل وسذاجة .

٣ً ـــ ويدخل الجماهير المسلمة في الصراع بدلاً من هذه العزلة التي يعيشها المكافح ؛ لأن الجماهير لديها استعداد أن تفتدي الإسلام وتضحي من أجله .

خامساً ـــ قد يقول قائل : « من قتل دون ماله .. فهو شهيد » ؟ ولابد أن نوضح الأمر هنا حتى لا يلتبس علينا موضوع الدفاع عن النفس . فلك الحق أن تدافع عن مالك وعرضك في وجه لص ، وهذا ما قرره رسول الله ﷺ حين سأله رجل : أرأيت إن جاء رجل يريد أن يأخذ مالي ؟ قال ﷺ : « لا تعطه » .. قال : أرأيت إن قاتلني ؟ فقال ﷺ : « قاتله » قال : أرأيت إن قتلني ؟ فقال ﷺ : « فأنت شهيد » . قال : أرأيت إن قتلته ؟ قال ﷺ : « هو في النار » (صحيح مسلم) .

لكن هذا يختلف عن حالتك مع رجل يمثل السلطة الحاكمة يريد أن يقبض

---

١ ـــ من رسالة الخطبة الشامية ص ـــ ١٣ .

عليك باسمها لعدم الرضى عن أفكارك .. فهنا يقول الرسول ﷺ لك : « كن كابن آدم » ، ويقول أيضاً : « إن كان لله خليفة في الأرض فضرب ظهرك وأخذ مالك فأطعه .. » (سنن أبي داود) . وليس بين الحديثين أي تناقض لأن لكل حديث ظرفه وشروطه. والناس كلهم يحمدونك حين تقتل لصاً ويعتبرون أن هذا من واجبك ويبرئك القاضي، وليس الأمر كذلك حين تقتل رجل السلطة والقانون.

سادساً ــ ولا بد أن نتساءل : إلى أي حد يمكن للحاكم أن يقتل من الناس ..؟!

لقد قتل ستالين ثلثي أعضاء مجلس السوفييت ، ولكن هذا لا يقارن مع عدد الروس الذين قتلوا في أي معركة من المعارك . وإن أي طاغية لا يمكن أن يقتل عدداً من الناس ــ وهم عزّل لمعارضتهم ظلمه ــ يعادل ما يقتل في المعارك . وخاصة إذا استطاع الداعي أن يحيط نفسه بجو من الوضوح والنزاهة .. فإن فرعون نفسه شعر بعجزه عن أن يقتل موسى وقال لملئه : ﴿ذروني أقتل موسى﴾ (غافر ــ ٢٦) ... إن الوضوح واجتناب مواضع التهم يعرقل عملية القتل في يد الطاغية مهما كان ناقماً على هؤلاء الذين يرفضون طاعة أمره ، لأنهم يضعونه في مواجهة حرجة مع حق كل إنسان في حرية الفكر والاعتقاد .

سابعاً ــ ويمكن عرض الموضوع بشكل آخر ، وهو أن الإنسان يمر بثلاث أحوال يرتقي فيها :

١ً ــ مرحلة العصا : وهي مرحلة الرجل المرتزق الذي يتنازل عن إنسانيته لمن يعطيه قوت يومه ، فهو كالعصا يضرب بها الصالح والطالح . وهذا النوع من الناس هو أحسن الأنواع بالنسبة للمستكبر لأنه يخدمه ويدعم وجوده .

٢ً ــ مرحلة وجود فكرة تخرج الإنسان من حالة العصا بحيث يصبح له مقياس على أساسه يقبل ويرفض : ﴿وإن جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما﴾ (لقمان ــ ١٥) . وهذا أول أساس ينبغي أن يغرس في الطفل : أن لا يطيع إلا في الخير وأن تكون عنده القدرة على الرفض والقبول حتى في علاقته مع والديه . (وهي المرحلة

التي أشرت إليها سابقاً عند موضوع طاعة أولي الأمر : أنا لا أفعله فليفعله غيري) . والوصول إلى هذه المرحلة هو الذي يجعل الحاكم يفكر مراراً قبل أن يأمر وينهى ؛ فهو مضطر لأن يأمرهم بما يقبلون . وهذه هي المرحلة التي وصل إليها الصحابة في مكة ــ مثل بلال يردد تحت العذاب : أحد .. ــ وكان قادة قريش يتميزون غضباً لأن هذا الإنسان لم يعد مسخراً لهم ، بل صار يقبل ويرفض وفق مقياس اختاره لنفسه .

٣ً ــ لن تفعله حتى أموت : أي لن أسمح لك بالظلم حتى أموت . ويمكن أن نذكر مثالاً على ذلك قول سعد بن الربيع وهو في النزع الأخير ــ بعد أحد ــ لأصحابه : (لا عذر لكم إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف)[1] ، وهذا ما وصل إليه المسلمون بعد تكوين المجتمع . ولا يمكن القفز من المرحلة الأولى إلى الثالثة مباشرة ، ولابد من التسلسل .

وينبغي أن ندرك أن المسلم إذا أدّى واجبه في المرحلة الأولى المكية فإنه لا ينحدر إلى الحالة الثالثة، وهي مرحلة الفتن حيث يكون المجتمع والحاكم منحرفين عن شرع الله وإنما يصل إلى المرحلة الثانية.. التي هي مرحلة وجود مجتمع مسلم هذه سنة ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (الروم ــ ٤٧). وأننا انحدرنا إلى المرحلة الثالثة ومكثنا فيها طويلاً لأننا لم نطبق الأوامر الشرعية المتعلقة بالمرحلة الأولى والثالثة ــ التي هي الدعوة وعدم الطاعة في المعصية والصبر على الأذى وكف اليد ــ. فإذا جاء عصر وبطلت فيه الصلاة وظهر الكفر البواح، فهل يعني هذا فتح باب القتال على مصراعيه لأن النبي ﷺ قال لمن سأله: ألا ننابذهم بالسيوف؟ «لا ما أقاموا فيكم الصلاة...»؟! والجواب: بل ينبغي أن نرجع من جديد لنبني من الأول، لأن المجتمع يكون قد تردّى إلى المرحلة الأولى.

وأخيراً أقول : لا شك بأن الإنسان الذي يخاف من صاحب القوة ويخضع له ولا يعارضه في الحق والباطل .. إنسان مريض يحتاج إلى علاج . وهذا يقتضي منا أن نغير أسلوبنا في التربية بحيث نغرس في نفسية الإنسان الجديد حب الفكرة والتعلق بها

١ ــ انظر كتب السيرة .

والخضوع لها لا لمنطق القوة . وما لم يتغير الإنسان ويستعيد كرامته وقدرته على رفض ما لم يقتنع به ولو تعرض للقتل .. فإن الواقع لن يتغير والمآسي لن تزول .. ولا تغرنك بعض الأعمال السريعة التي قد تضفي بعض الألوان البهيجة على المأساة .. فسرعان ما تزول .. ويبقى إنسان العصا الذي هو أصل البلاء .. ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1] .

ولهذا توجه المرحوم أبو الأعلى المودودي ــ أمير الجماعة الإسلامية في باكستان سابقاً ــ إلى الشباب المسلم بنصيحة تضمنتها في خطبته (واجب الشباب المسلم):

(يا أيها الإخوة الكرام أحب في ختام كلمتي هذه أن أوجه إليكم نصيحة : هي أن لا تقوموا أبداً بعمل جمعيات سرية .. ولا تلجؤوا إلى أعمال العنف ..) .

تحدثت الآيات حتى الآن عن القتال من جانبين : جانب المسوغات والدوافع .. وجانب متى يكون القتال ومتى لا يكون .. أي أنها بحثت الأمر من جانبيه : من حيث توفر الإخلاص والصواب . وهما الشرطان اللذان لا ينجح عمل بدونهما في الدنيا ولا يقبل في الآخرة .

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ .

الآية تتضمن مرحلتين : مرحلة ما قبل المجتمع ، ومرحلة ما بعد تكوينه .

المرحلة الأولى لم يتكون فيها بعد الجهاز التنفيذي .. فلم يؤمر المسلمون بقتال .. لأن القتال من مهمات الجهاز التنفيذي . والصنفان اللذان تكلمت الآية عنهما : الذي تمنى القتال في غير وقته .. والذي نكص عن القتال لما حان وقته .. كلاهما مخطىء ومؤاخذ . والحكمة هي وضع الأمور في مواضعها . وهنا تبرز أهمية الاتزان وإدراك مواضع الأوامر .

---

١ ــ انظر كتابي الأستاذ جودت سعيد : مذهب ابن آدم الأول (مشكلة العنف في العمل الإسلامي) وحتى يغيروا ما بأنفسهم .

وذكر أن آيات سورة الصف : ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ (الصف ــ الآيات ٢ ، ٤) . نزلت عندما قال بعضهم : (لو نعرف ما يحب الله وما هو أحب الأعمال إليه لفعلنا) ..

ولا ينبغي للإنسان أن يطمئن إلى المرحلة التي وصل إليها : « لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموه فاثبتوا » . وإن كثيرين يتغير موقفهم عندما يأتي وقت التنفيذ ..

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۢ ﴾ .

قال المفسرون : هؤلاء ضعاف الإيمان .. فأين الإيمان بالله العليم الحكيم الذي يأمر بما يناسب كل حال ..؟!

﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ .

والفتيل هو الخيط الدقيق في شق نواة التمرة . إن خشية الناس .. والخوف من الموت .. والحرص على الدنيا ... إنها دوافع معوقة للإنسان عن طاعة الله والبذل في سبيله .. والآيات هنا تخاطب بشراً يؤمنون بالله واليوم الآخر .. لكن إيمانهم يحتاج إلى تذكير وتحريك .. وتأمّل هذه الآية من خلال الواقع له أثر في النفس . فالدنيا محدودة المتاع .. وهي أصغر بكثير من آمال الإنسان .. وقاصرة عن أن تعطيه ما يستحق تماماً ، والآخرة خير وأبقى .. لكن ليس للجميع .. ﴿**لمن اتقى**﴾ .

إن من يملك حرارة الإيمان باليوم الآخر لا يستصعب بذلاً في سبيل الله ، بل يجد الصعب ميسراً طالما أن فيه رضى الله . ويزيده هذا التذكير ثباتاً .

خامساً ــ قدر الله

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ .. ﴾ .

تقدم الآية الكريمة أدلة عقلية عن الموت لا يستطيع أحد أن ينكرها . فالموت يحدث ولو لم يكن هناك قتال .. ولو كنتم في بروج مشيدة .. فإن الموت حق . ولا بد من الانتباه إلى أن الأدلة العقلية لا تكفي من الناحية النفسية لتغيير السلوك .. فقد تكون أقنعته .. لكن هذا لن يدفعه إلى ميدان المعركة .. لذا لا بد أن تتغلغل هذه المفاهيم والعظات إلى أعماق النفس وتسيطر على العواطف حتى تعطي مفعولها .. وإن تكرار المفاهيم بأساليب منوعة ومؤثرة لترسيخها إلى اللاشعور عملية ضرورية لتغيير السلوك .. لأن أكثر أعمالنا صادرة عن اللاشعور .. ولقد تغلغل مفهوم الآخرة في أعماق نفوس الصحابة حتى سمعنا منهم هذه العبارات العجيبة وهم يستقبلون الموت في سبيل الله : فزت والله .. إني لأجد ريح الجنة دون أحد .. بخ بخ .. لئن عشت حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة ..

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ .

يقولون هذا :

إما تشاؤماً من النبي ﷺ ، أو بقصد تجريح القيادة حتى يتملصوا من تنفيذ أوامر الرسول ﷺ ، أو بسبب سوء فهم ما يحدث للناس في الدنيا . لهذا كان التعقيب : ﴿ **لا يفقهون** ﴾ . والفقه إدراك الدقائق والتفصيلات .

والآية هنا تتحدث عن موضوع حساس يتعلق بعقيدة المسلم وإيمانه بالقدر . وله انعكاساته في سلوكه .

يقول صاحب المنار : جاءت الآية في معرض نفي الشؤم .. فالذين ينسبون المصائب إلى الشؤم لا يفقهون الأسباب الحقيقية . وكلما كان الإنسان جاهلاً فإنه يفسر الأحداث بحسب الشؤم ، وكلما تقدم علمياً استطاع أن يتخلص من الشؤم ويفهم الأسباب الحقيقية . وتجد بعض الناس يتشاءمون مثلاً من شخص أو يوم معين .. فإن حدث شجار في الأسرة يرد السبب لوجود شخص مشؤوم .. ولا بد من الرجوع إلى النفس ومحاسبتها عند كل سيئة تواجهنا .. وهذه الآية من أصول علم النفس والاجتماع . ويقاس رقي المجتمع بمدى إدراكه لهذا الجانب ورد الأحداث إلى النفس .

يقول ابن تيمية : (الحسنة والسيئة : النعم والمصائب ، وليس القصد الطاعات والمعاصي . لأن من يقع في مصيبة يجب أن يصبر عليها . بينما من يرتكب معصية فإن عليه أن يستغفر ويغير ..) . والذي يلفت النظر هنا قوله في الآية الأولى : ﴿**قل كل من عند الله**﴾ بينما يقول في الثانية : ﴿**مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾ . فكيف نفهم الأمر ؟! وهنا أعيد المثال الذي سبق أن ذكرته: **أعطى أب ولديه مبلغين متساويين من المال: أحدهما استثمر المال فيما ينفعه فهو يشكر والده ويرد الفضل إليه. . أما الثاني فقد ضيع المال وأضر بنفسه فيه. . فهل يمكن أن يقال: إن سبب الضرر هو والده الذي أعطاه. .؟!**

والآن لنتأمل الموضوع بشيء من الوضوح :

١ ــ إن الله أعطى للإنسان قدرة التغلب على مشكلات الحياة باتباع سننها .

٢ ــ فمن استفاد من هذه القدرة وتغلب على المشكلات ، فليعلم أن الله هو مصدر هذا النجاح لأنه هو الممكن له .

٣ ــ وإن غفل عن ذلك وأصابته المصائب فهذا من نفسه ، لأنه أهمل قدرته وقصر في الأسباب . ويمكن أن نأتي بمثال نقارن فيه بين نسبة الوفيات بين الأطفال في البلاد المتقدمة والبلاد المتخلفة .. فالتقصير في العناية الصحية عند البلاد المتخلفة هو السبب .. فالإقدار من الله (أي إعطاء إمكانات النجاح كلها) . والإهمال من العبد .

وفي الآية الأولى قال : ﴿**قل كل من عند الله**﴾ . على أساس الإقدار والتمكين .. وفي الثانية : ﴿**وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾ . على أساس الإهمال الذي يقع منك . فالحسنة والسيئة من عند الله من حيث الإقدار . والسيئة من عند العبد من حيث الإهمال . ولما قال : ﴿**كل من عند الله**﴾ فإن ذلك لوقوعهما في ملكه وحسب سننه في الأسباب ونتائجها . وهذا يحتاج إلى فهم ما وراء الأشياء ، وفقه يحتاج إلى جهد . ولهذا قال : ﴿**فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً**﴾ ؟!

وأذكر مرة ثانية أنواع القدر الثلاثة :

فردي : تكون المصيبة فيه ناتجة عن عمل الفرد ، وهذا يحتاج إلى استغفار وتصحيح .

وجماعي : تكون المصيبة فيه ناتجة عن أعمال أكثرية المجتمع ، وهذا يحتاج إلى توعية للناس .

وغيبي : لا ندرك له سبباً وهو ابتلاء من الله ، علينا أن نسلم به ونصبر ونحتسب الأجر عند الله . وعلى المؤمن أن يراجع نفسه ويتدبر الأحداث والأسباب ليميز هذه الأنواع ويعرف كيف يتصرف .

ولقد ذكر القرآن لنا موقفين خاطئين :

١ ــ موقف من يرد الحسنة إلى علمه ومهارته مثل قارون : ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ (القصص ــ ٧٨) .

٢ ــ وموقف من يرد السوء إلى قدر الله وإرادته وهو موقف الشيطان : ﴿فبما أغويتني﴾ (الأعراف ــ ١٦) ، وأتباعه المشركين ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ..﴾ (الأنعام ــ ١٤٨) .

أما الموقف السليم الذي يتخذه المؤمن فهو كما أخبر النبي ﷺ : « فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (رواه مسلم) .. وهو موقف آدم حيث قال : ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ (الأعراف ــ ٢٣) عندما أكل

من الشجرة . وموقف ذي القرنين عندما أنجز بناء السد فقال : ﴿هذا رحمة من ربي﴾ (الكهف ــ ٩٨) . وهو موقف يتسم بالفقه والأدب مع ربه الحكيم الرحيم .

﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

ووظيفة الرسول أداء الرسالة وتصحيح مفاهيم الناس .. لا ليقوم بالمعجزات . ولا علاقة له بما يحدث للناس من خير وشر . بل إنه قد بين للناس طريق الخلاص والأمن والله شهيد على ذلك وشهادة الله كافية وإن تنكر له المتنكرون ..

إن الآيات المتبقية من قسم الجهاد تحتوي على سبع وصايا ، يبدؤها بطاعة الرسول فيربطها بما سبق : ﴿**وأرسلناك للناس رسولاً** ..﴾ ثم تأتي متسلسلة متلاحقة .

سادساً ــ سبع وصايا

الوصية الأولى ـ ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ .

والوصية هنا تبدو ذات علاقة وثيقة بموضوع القتال .. فإن طاعة القائد أمر تشتد الحاجة إليه أثناء المعركة خاصة .. فقد سبق أن جاء أمر بطاعة الرسول في كل الأحوال عامة : ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ ..

وهنا يؤكد على هذه القضية في ظرف يكون المسلمون فيه في حالة مجابهة مع أعدائهم .. حيث تصبح الهفوة في هذا المجال خطيرة الأثر .. بل قد تتحول إلى كارثة .. ولا ننسى ما حدث للمسلمين في أحد عندما خالف الرماة أمر رسولهم القائد بسبب اجتهاد خاطىء .

يقول ﷺ : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى » قالوا : ومن يأبى ..؟!

فقال ﷺ : « من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى »[1] .

الآية فيها تشريف عظيم لرسول الله ﷺ ، وهي تشبه آية في آل عمران تتحدث عن برهان الحب لله . ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم﴾ (آل عمران ــ ٣١) . ورسول الله ﷺ يطاع من حيث أنه مبلغ عن الله . أما من حيث رأيه كإنسان في أمور دنيوية فإنه قد قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » ــ ويمكن أن نتذكر حادثة تأبير النخل وتغيير المنزل يوم بدر ــ أي أن الطاعة في الأمور الشرعية واجبة كالأمر بالجلباب : ورد في القرآن وفصل رسول الله ﷺ شروطه الشرعية .. أما في الأمور الكونية فهي تتعلق بقوانين الكون وسننه ، وتحتاج إلى دراسة وكشف . ولهذا يأتي الأمر الإلهي : ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ..﴾ (العنكبوت ــ ٢٠) . مكرراً مؤكداً في القرآن .. لأن الخلافة على الأرض والتمكن من التسخير لا يتم إلا بعد كشف السنن .. والمسلم مكلف بتسخير الكون والاستخلاف فيه .. ولا يجوز له أن يخالف سنن الكون ..

ولهذا نقول : هناك أوامر شرعية نصَّ عليها الكتاب والسنة .. وأوامر كونية ميدانها : الآفاق والأنفس ، علينا أن نبحث ونرجع إلى المختصين فيها . ويمكن أن نذكر مثالاً : إن الطبيب حين يشخص مرض شخص ويحدد له دواء وحمية ، فطاعته واجبة على المريض لأن الله أمر : ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (البقرة ــ ١٩٥) . ولا يقال هنا : نرجع إلى بعض الوصفات التي قدمها الرسول ﷺ في الطب . فأمور الدنيا تحتاج إلى مختصين . ولا بد في الكونيات من البحث والسعي لفهم أفضل . ولا يصبح الإنسان بصيراً بأمور دنياه حين يمشي وراء الناس ويقلدهم كحال المسلمين الآن . ولا بد من الانتباه إلى أن السنن الكونية لا ترتبط نتائجها بالإيمان أو الكفر وإنما هي طوع لمن كشفها وسخرها .. ولهذا يقولون : إن العلم محايد أخلاقياً .. ويقصدون بذلك أنه يخدم الصالح والطالح .. لكن الكلمة غير دقيقة .. لأنَّ العلم بتجرده وحرصه على الحقيقة سيرد الناس إلى طريق الدين والأخلاق . وإن سنن الكون والنفس وآياتهما

---

١ ــ انظر رياض الصالحين .

ستضم صوتها إلى آيات الله في كتابه ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (فصلت ــ ٥٣) ، والعلم سينحاز إلى القرآن . ومن المؤسف أن نجد العالم الإسلامي قد فرط في الجانبين (الشرعي والكوني) .. فإذا وجد من يهتم بالأول فرط في الثاني .. والذي اهتم بالكوني ضيّع الشرعي .. وهذا ما يحدث الخلل والتشنج .. ولا يرجع العالم الإسلامي إلى عافيته إلا بالحرص على الأمرين معاً . فيلتزم بالشرعية ويطلب العلم في الكونية .. وعندها يتحرر من العقد والتشنج .

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾ .

فلست موكلاً بحفظه من الضلال .. ولست مكلفاً بمراقبته وإجباره على دينك .. ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ..﴾ (الأحزاب ــ ٤٥) .

تلك هي وظائف النبي .. أما الإلزام فلقد كرم الله بني آدم ومنحهم حرية التفكير والتصرف ، ولم يسمح لأحد بممارسة الإكراه الفكري عليهم . ﴿ولو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (يونس ــ ٩٩) ؟! إن الله لم يفرض عليهم الهداية بالإلزام ، فكيف يخطر في بال إنسان أنه يجب أن يكره الناس .؟!

ولكن ماذا يفعل المشرف على سلامة المجتمع ..؟ هل يترك الناس ولا يفرض عليهم شيئاً ؟!

لا بد أن ننظر هنا من الجانبين : سلامة الآخرة ــ وسلامة الدنيا .. أما في الأمور المتعلقة بالنجاة في الآخرة فيتركهم وشأنهم .. ولا يملك لهم إلا النصح والتشجيع .. وأما فيما يتعلق بسلامة المجتمع فإنهم لا يتركون على هواهم ، ولا بد من الأخذ على أيديهم قبل أن يخرقوا سفينة المجتمع .

والمشرف على التربية والتوجيه في المجتمع ، يدرك أن أسلوب الإقناع لا الإجبار والقهر هو أضمن وأفضل في استمرار هذا الإنسان على طريق الاستقامة . ولا بد من

تعليم الإنسان كيف يتحرك هو من نفسه بسلامة .. بدلاً من ملاحقته ومطاردته وفرض المواقف عليه .

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ .

ذاك هو موقف المنافقين .. يظهرون الطاعة ثم يبيتون المعصية .. يتواصون بعدم الطاعة ويدبرون سراً خططاً وأعذاراً لأنفسهم . ﴿ **والله يكتب ما يبيتون** ﴾ فهو معهم يسجل عليهم ، لا تفوته من حركاتهم شاردة ولا واردة . فاطمئنوا أيها المؤمنون إلى علم ربكم واطلاعه على تدبير أعدائكم .. فلا تهتموا بهم واتركوا أمرهم إلى الله يتكفل بهم .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

إن هؤلاء يجب أن يقابلوا بالإعراض والجفاف وعدم الاهتمام .. وأن لا يحسب لهم حسابٌ .. فلقد بذل النبي ﷺ جهده بالتبليغ ونبه إلى طريق النجاة الذي يأمن فيه العبد من الضلال والضياع .. فإذا أعرض المنافقون فالإعراض عنهم أولى ، فلن يضروا إلا أنفسهم .

الوصية الثانية ــ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ؟!

ولو تدبروا القرآن لما وقعوا في هذه الأخطاء .. ولعرفوا أن سلامة الدارين في طاعة الله ورسوله .. بهذا الأسلوب المليء بالتعجب والاستنكار يحثنا على التدبر ..

والتدبر هو النظر في أدبار الأمور وعواقبها ومحاولة فهم الأمور كيف تجري .. وتدبر الكلام هو النظر في غاياته . ولفهم الموضوع نذكر النقاط التالية :

١ً ــ تدبر القرآن فرض على كل مكلف وليس خاصاً بنفر معين .. والشرط الذي لا بد منه ولا غنى عنه لتحقيق التدبر : معرفة لغة القرآن مفرداتها وأساليبها . وليس القصد التعمق في قواعد النحو والصرف لأن من ينشغل بهذا الجانب دون أن يهتم بإدراك المقاصد والغايات من أساليب اللغة لا يحصل له التدبر . ولقد تعارف المسلمون

على أن التدبر يكون لطبقة معينة لها شروط معينة ــ ما أنزل الله بها من سلطان ــ وهي طبقة المجتهدين . أما عامة المسلمين فيقرؤون القرآن تبركاً . ولا نعني بذلك أن كل مسلم يفترض فيه أن يكون مثل أبي حنيفة .. ولكن التوسط في الأمر يجنب التطرفين .. وهو أن يحاول كل مسلم أن يفهم بحسب ما يملك من طاقات .. وإن استخدام الطاقات يؤدي إلى نموها وإلا تعطلت .وإن ترك التدبر هو هجر للقرآن وإن كنت تتلوه آناء الليل وأطراف النهار . وإن من ليس له علم بالقرآن والحديث يصاب بالحيرة عندما تعترضه مسألة ويسمع فيها عدة آراء . بينما لو كان المسلم يملك ذخيرة من تدبر القرآن لأمكن أن يميز بين الآراء ويختار .

٢ً ــ التدبر يحرر من التقليد والتعصب ويوسع المراجع .. إذ أن الذي يأخذ برأي عالم واحد ليس كمن يطلع على آراء متعددة . ولقد وصف الله عباده بقوله : ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ (الزمر ــ ١٨) . وهذا عكس التوجيه السائد في مجتمعنا وهو أن يقتصر الإنسان على شيخ واحد ودرس واحد كي لا يحتار ويضيع . إن هذا التقييد لا يسمح للإنسان بأن يكوّن فكرة صحيحة عن الموضوع ، ومثاله : إن أي خلاف بين طرفين لا تستطيع أن تدرك أبعاده وموطن الخطأ فيه إلا إذا سمعت للطرفين .. ومن يرجع إلى مرجع واحد يصاب بضيق الأفق والنظر ويبقى أسير التقليد .. وهكذا يتعطل النمو في المعرفة والحياة . وإن من يحاول حماية المسلم من الحيرة والضياع بإعفائه من التدبر والنظر في عدة مراجع .. لا يحل له مشكلته .. بل يحكم عليه بالشلل في عالم متحرك تتفتح فيه آيات الآفاق والأنفس لتضيف جديداً في المعارف والعلوم في كل يوم . وكان الجدير بالمسلم أن يكون أول من يتابع آيات الآفاق والأنفس ليقدم شهادتها للقرآن بأنه الحق . والمسلم في تدبر القرآن عليه أن يطلع على فهم من سبقه ثم يفهم القرآن باستقلال وبحسب ما يبرز له من أدلة ..

٣ً ــ إن أولى الكتب بالتدبر القرآن لأنه كلام الله ورسالته إلينا ، وهو الذي نسأل عنه يوم القيامة ولا يغنينا تعليقه وتبجيله وتقبيله طالما لم نفهمه ولم نطبق أحكامه . كذلك إن فهم القرآن يكون أفضل حين نطلع على غيره . فالتاجر لا يعرف قيمة بضاعته إلا إذا عرف بضائع من حوله ..

٤ً ــ لا بد من تدريب الذهن على التدبر وعدم المرور أصم أعمى .. حتى يصبح التدبر ثقافة في الأمة لا أن يكون مظهراً شاذاً في الأمة لا يقوم به إلا عدد قليل خلال قرون . وإن طريق العلم ــ وإن كان متعباً ــ مليء بالإثارة . فكلما كشف الإنسان شيئاً طمع في المزيد .

٥ً ــ إن استحضار المعنى في الصلاة مما يعين على التدبر... ويحقق الخشوع فيها .. وإن الصلاة بلا تدبر أو خشوع تفقد لبها ومغزاها .. والصلاة آخر عروة تنقض من عرى الإسلام .. وإن من يستحضر المعنى لا يحس بالوقت ويتمنى أن يستمتع أكثر ، ويشعر بالراحة في الصلاة .

٦ً ــ إن التدبر هو الفهم الكلي وترك الفهم الذري[1] . والفهم الذري المجزأ لا يعطي الصورة الحقيقية للشيء ــ ومثاله : إن تسليط عدسة مكبرة على أنف الإنسان لا يعطي صورة واضحة عن شكل الإنسان الحقيقي ــ . فالفهم الذري هو أن تمسك بحكم واحد من الإسلام دون أن تدرك موقعه من الإسلام ومكانته فيه .. وإدراك مقاصد الشريعة هو الفهم الكلي الذي يساعد على وضع الأحكام في موضعها .. ولا يتيسر ذلك إلا بتدبر القرآن . والذين تمسكوا بأن الصعيد هو التراب فقط ــ في قضية التيمم ــ يمثلون بعض هذه الذرية في النظر .. إذ فاتهم مقصد الله سبحانه وتعالى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . ﴾ (البقرة ــ ١٨٥) . وماذا يفعل المريض في المشفى ..؟!

٧ً ــ كذلك إن تدبر الآيات يخرج المسلم من ظن التناقض بينها ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ كالآية التي مرت معنا قبل قليل : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ؟! مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ .

---

١ ــ يتهم المستشرق جب عقل المسلم بأنه مصاب بالذرية ــ أي لا يدرك الارتباط بين الأحداث ــ ولكن هذا ليس خاصاً بالمسلم .. بل هو قرين الجهل في كل أمة تتخلف وتنحدر .

فالاختلاف والتناقض لا مكان له في القرآن فهو كلام الله الذي أحاط علمه بكل شيء . وقد لا يدرك الإنسان الحكمة من بعض الأوامر الإلهية ، لكن الإنسان لم يستطع خلال كل هذه السنين أن يكتشف أمراً قرآنياً يخالف العلم .

الوصية الثالثة ــ رد الأمر إلى المختصين :

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

وتلك وصية هامة وخطيرة .. فمن الخطورة بمكان إذاعة الأنباء وإشاعتها دون تروٍّ وتثبت .. ودون إدراك لما تسبب من وهن بين الناس .. وخاصة في حالة القتال .. إذ تعتمد الحرب الفكرية والمعنوية على هذا الجانب . ولذا يُنبه إلى ذلك ضمن موضوع الجهاد ويرسم صورة منفرة ــ في آية واحدة ــ للجندي وهو يتلقى النبأ ــ في الأمن أو الخوف ــ فيجري به ليذيعه من مكان لآخر من غير تثبت . وكان الأولى به أن يرد الأمر إلى المختصين وهم أولو الأمر وأهل الحل والعقد في المجتمع : كمجلس الشورى الذي يضم مختصين في كل مجال ؛ لأن الدولة التي تحافظ على كيانها بشكل دقيق ، لا تذيع الخبر إلا بعد أن يمر على رقابة من قبل خبراء مختصين يدرسون الأمر ويعطونه الصيغة المناسبة إذا تقرر إذاعته . وتلك هي عملية الاستنباط التي تتحدث عنها الآية . فالاستنباط هو فهم الأشياء المستترة حساً ومعنى واستخراجها . وهو هنا : فهم الإشاعة بكل أبعادها : أسبابها ونتائجها .. وإعطاء القرار على هذا الأساس .

ثم يربط القلوب بالله وفضله ورحمته حين نبه إلى هذا الأمر ؛ لأن فيه اتباعاً للشيطان وتنفيذاً لخططه .. ﴿**ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً**﴾ . وإن من لا يعرف متى يسكت ومتى يتكلم .. فيكثر الثرثرة واللغط ، يخدم الشيطان وينفذ أساليبه من حيث لا يدري .. ورسول الله ﷺ يحذر من ذلك : « كفى بالمرء كذباً أن يُحَدِّثَ بكل ما سمع » (رواه مسلم) .

ونستفيد من الآية :

١ً ــ خطورة الإشاعات وإذاعة الأنباء في حالتي الأمن أو الخوف . ولقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه كيف يتجنبون الإشاعات .. فعندما نقضت بنو قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب ، أرسل سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ليستطلعا الخبر .. وأوصاهما أن يتحققا من خيانة بني قريظة وأن يرمزا إليه بكلمتين حتى لا يشيع الخبر فيوهن من عزيمة المسلمين . وفي أحد زعزعت الإشاعة صفوف المسلمين حيث قيل : قتل رسول الله ﷺ . ثم في آخر المعركة أراد أحد الصحابة أن ينادي عندما رأى رسول الله ﷺ سالماً ــ بالخبر بأعلى صوته ــ فأشار إليه رسول الله ﷺ أن اسكت . إن خبر الأمن وخبر الخوف يحتاج إلى دراسة من قبل المختصين قبل أن يذاع به ..

٢ً ــ أهمية الاختصاص والمختصين والرجوع إليهم في حل المشكلة .

٣ً ــ ضرورة وجود ذوق عام عند المؤمن يميز به متى ينبغي أن يكتم الأمر ويرجع إلى المختص . والحرمان من هذا الذوق يؤدي إلى أخطاء فاحشة . فيكتم ما ينبغي أن يذاع ويذيع ما يجب كتمانه . ويمكن أن نضرب مثالاً في الطب : إنه ليس سوياً أن تلجأ إلى الطبيب في كل طارىء يحدث ، وكذلك لا يعتبر سوياً من يهمل مراجعة الطبيب عند الضرورة .

٤ً ــ ليست الغاية هي القضاء على الاستقلال الشخصي والوصول إلى مرحلة شلل فردي ، وإنما القصد هو حل المشكلة بشكل أفضل بالاستعانة بالخبير المختص .

٥ً ــ إن توضيح هذه القواعد والسنن هو فضل من الله ورحمة بالمؤمنين حيث يدلهم على قواعد لبناء صرح المجتمع المسلم مكيناً مصاناً من الداخل ، لا يقع في أحابيل الشيطان .

٦ً ــ **فإذا لم يكن لدينا متخصصون فهل نترك الأمر يذاع؟ على العكس، يصبح** الواجب عندها مضاعفاً ، حيث علينا أن نجتهد لمعرفة ما يذاع ويكتم .. ونجتهد لإيجاد علماء متخصصين في كل مجال .

٧ً ـــ يقال عن النساء بأنهن يحببن الكلام الكثير وإذاعة الأخبار . ولكن هذا لا يرجع إلى طبيعة فطرية .. وإنما إلى نمط التربية الذي تلقته المرأة . فحين توجه المرأة لتصبح في مستوى من يعيش ليؤدي رسالة ويشعر بقيمة الوقت والفكر .. فإنها لا تتحدث إلا بما فيه فائدة .. ويمكن أن تصل إلى مستوى تفكر فيه قبل أن تتكلم : هل هذا الخبر يفيد نشره ..؟!

الوصية الرابعة ـــ البدء من النفس ثم تحريض الآخرين :

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ .

﴿**في سبيل الله**﴾ : ما زالت الآيات تلح على سلامة الأهداف .. ولا يكون القتال في سبيل الله إلا إذا كان لمنع الظلم وإنقاذ المستضعفين . ومن يقاتل في سبيل المستضعفين تميل القلوب إليه لأن الأكثرية من المستضعفين .. وبهذا ينتصر .. تلك هي سنة النصر . وأكثر الناس يعرفون هذه السنة فيحاولون أن يظهروا بمظهر المنقذ للضعفاء ..

وما زالت الدول الكبرى تطرح شعارات للحروب التي تشنها : من أجل الحرية والعدل .. من أجل الكادحين .. لكن الواقع أن الغاية هي السيطرة والاستغلال للمستضعفين .. وحتى المسلمون مرت عليهم فترة وهم يقاتلون في سبيل المستضعفين .. ولقد كان أهالي القرى في الشام والعراق ينضمون إلى جيش المسلمين أو يساعدونه أثناء الفتوحات .. لأنهم لمسوا أن القضية هي تحريرهم .. لكنهم بعد ذلك فقدوا معنى الجهاد وروحه وتحول الأمر إلى ضم بلدان وجمع غنائم .. ولقد ذكر الشاعر محمد إقبال هذا المعنى في ديوانه أسرار الذات في الفصل العاشر الذي يضع له عنواناً : (مقصد حياة المسلم إعلاء كلمة الله ، والجهاد للاستيلاء على الأرض حرام) يتحدث فيه عن المسلم وأنه خليفة جعله الله في الأرض .. وأن هذا السلطان الذي يناله ينبغي أن يكون لإعلاء الحق لا لفتح البلاد وقهر العباد . ثم يقص قصة الشيخ ميانمير ـــ وهو أحد كبار الصوفية ـــ إذ زاره أحد سلاطين الهند (شاه جيهان) . وكان السلطان مولعاً

بالحرب والفتح . وبينما السلطان يلتمس من الشيخ أن يدعو له بالنصر ، تقدم أحد المريدين إلى الشيخ بدرهم قائلاً : كسبت هذا بكدي وألتمس من الشيخ أن يقبله مني .. فقال الشيخ للمريد : أعط هذا الدرهم سلطاننا ، فهو أفقر الفقراء وأحرص الناس على الاستجداء ، كم أخرب بلاداً وقتل عباداً ليشبع .. قد بطش جوعه بالخلق وأهلك الحرث والنسل . ومما يقوله إقبال :

إنما المسلم بالحب قهر ... مسلم لا حب فيه قد كفر
غض للحق وللحق نظر ... وله في الحق نوم وسهر
فإذا لم يُعلِ حقاً سيفنا ... اكتسى بالحرب عاراً جندنا

ثم يبدأ القصة ويتابعها إلى أن يأتي المريد :

قطع الصمت مريد أقدما ... أمسكت إحدى يديه درهما
قال مولاي اقبل النذر الحقير ... أنت للمسكين بالحق نصير
عرقي من كل عضو قد هما ... قبل أن تمسك كفي الدرهما
قال سلطاني به أولى يدا ... سائل في حلة الملك بدا
مَلْكُنا أفقر من كل البشر ... وعلى الشمس تولى والقمر
جوعه بالنار يصلي العالمين ... عينه فوق سماط الآخرين
سيفه بالقحط والموت رمى ... نفسه يبني ويردي عالما
ضجت الأقوام من فقر لديه ... شقي المسكين من جوع يديه
بخداع النفس والجهل دعا ... نهبه فتحاً وبئس المدَّعى
من لغير الله سل المغمدا ... سيفه في صدره قد أغمدا

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ .

الإلزام للنفس والتحريض للآخرين .. هذه قاعدة أساسية في أكثر الأمور .. في الدعوة وفي القتال وفي العبادات .. لهذا دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام حين كان وحده.. وثبت حين انهزم أكثر أصحابه في أُحد وحنين.. ولهذا يدعو المؤمن إلى الله ويجاهد ولو كان وحيداً لا يعبأ بمن يقول له: (أنت وحدك ستصحح

الأوضاع؟!) لأنه يعلم أنه مسؤول عن أداء واجبه ولو كان وحيداً . . .

سأحمل دعوة الإسلام وحدي ولو أن العالمين لها أساؤوا

وإن أول خطوة في تحريض الآخرين : إلزام النفس بما تدعوهم إليه وسبقهم في ذلك .. وإن عملاً واحداً يطبق فيه الداعي الإسلام قد يؤثر أكثر من عشرات الخطب الرنانة .. والآية لا تعني أن تواجه العدو وحدك . ولكن حين تلزم نفسك فإنهم ينضمون إليك وينصرونك ، وإن مسؤولية الفرد عن الجماعة هي تحريض الآخرين . وهي مهمة تحتاج إلى صدق وإخلاص وحكمة . وقد لا ينجح فيها كثيرون .. وأسوتنا في ذلك رسول الله ﷺ الذي أدى هذه المهمة على أحسن وجه . فبدأ بإلزام نفسه حتى قال أصحابه : (كنا إذا حمي الوطيس تدرعنا برسول الله ﷺ) .. وكان يحرض المؤمنين فيقول لهم : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض .. » . فيرمي الصحابي عمير تمرات كن في يده ويسرع إلى القتال طلباً للجنة .

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾[1].

وحين تقوم بواجبك في الجهاد والتحريض ، فإن الله سيكف بأس الكفار وينزل نصره وينكل بأعدائه .

نفهم من الآية :

١ً ــ أن الله بدأ برسوله في التكاليف وجعله الأسوة الحسنة للمؤمنين .

٢ً ــ أن واجب الفرد أن يبدأ بنفسه ثم يحرض الآخرين . والمسلم يبدأ من واجبه لا من حقوقه . فمن يمشي بهذا الترتيب : يجعل غايته في سبيل الله ويلزم نفسه بالقتال ثم يحرض الآخرين . هذا الذي له أن يرجو النصر من الله .. وكلما كان المؤمن متبعاً للسنن وجد بأس الله معه .. وجاءته الحقوق بعد ذلك نتيجة لأداء الواجب .

٣ً ــ التحريض لا يحدث إلا بعد إلزام النفس .. لذا قالوا : إن فاقد الشيء لا

---

١ ــ التنكيل : هو ردع الخصوم . تعذيب واحد منهم بشدة حتى يرتدع الباقي .

يعطيه .

٤ ــ إن قام المسلم بواجبه هذا فلا يسأل عن غيره .. وهنا تنطبق الآية : ﴿لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ (المائدة ــ ١٠٥) .

تشعرنا الآية بضخامة الأخطار التي كانت تحيط بالمسلمين ، وأن بينهم ضعفاً يجعل فريقاً منهم يتخاذل ويتلكأ ، حتى يستجيش القرآن مشاعرهم بهذا التوجيه المباشر للنبي ﷺ .

الوصية الخامسة ــ الشفاعة الحسنة والسيئة :

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ..﴾ .

الشفاعة هي المعونة وتكون في الخير أو الشر . يقال : شفعاً أم وتراً ؟ أي زوجاً أم فرداً ؟ فكأن المعونة جعلت واحداً ينضم إلى آخر فصار اثنين (شفعاً وشفاعة) . وأما مناسبتها في موضوع الجهاد هنا .. فلقد عرضت علينا الآيات نموذجين لشفاعة سيئة وشفاعة حسنة : **﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾** ، **﴿وحرِّض المؤمنين﴾** . فعمل التبطيء عكس التحريض تماماً .. فالأول معونة على التخاذل ، والثاني معونة على الإقدام . وهنا يقرر القرآن أن المشاركة البسيطة في أمر سيىء تحملك وزراً .

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ . مقيتاً : قيل هي من الوقت : فهو يسجل كل عمل في وقته وحينه . وقيل من القوت .. أي أنه سبحانه لا يهمل العطاء على الحسنة كبيرة كانت أم صغيرة ، فهو يشهد الأعمال ويعطي عليها مهما كانت صغيرة فلا تستهينوا بها .. « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » (رواه مسلم) .

نفهم من الآية :

١ ــ الشافع إلى المحسن أو المسيء قد انضم إليه وشاركه في عمله وأيده بقلبه

وبموقفه .

٢ ــ الشافع يلعب دوراً اجتماعياً خطيراً بدعمه لمن يشفع له ؛ إذ أنه حين يشفع للمسيء يعرض المجتمع لزيادة السوء .

٣ ــ الآية فيها حض على الإيجابية وتنفير من الفردية الانعزالية .. فالمسلم عليه أن يتدخل بأي وسيلة ممكنة في إشاعة الخير وقمع السوء : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » (رواه مسلم) .

الوصية السادسة ــ رد التحية :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. ﴾ .

١ً ــ إن ورود آية التحية ضمن آيات القتال ، دليل على أن القرآن كتاب الحياة .. وأمور الحياة منوعة ينتقل فيها الإنسان من حال إلى حال . والقرآن ينتقل معه ليكون مرجعاً له في كل حال .

٢ً ــ كما أن مجيئها هنا يمثل نسمة رخية ضمن آيات القتال .. وهي تشير إلى القاعدة الأساسية في الإسلام وهي السلام .. فهو دين السلام ولا يقاتل إلا لإقرار السلام في الأرض ، فإن سنحت له فرصة ــ ولو أثناء القتال ــ فلا تتأخروا .

٣ً ــ إن الآية هنا كأنها تقول : لا تشغلك الأمور الكبيرة عن الصغيرة .. فقد يخطر في بال الإنسان أن يتهاون في الأمور التي تتعلق بالإحسان عند اشتداد الأمور . ولكن الله يبعدنا عن هذا التهاون وينبهنا إلى عدم نسيان شيء من الإحسان في أي وقت من الأوقات . وقد يصعب على الإنسان أن يجمع بين هذه الأمور ويظن أن انشغاله بأداء شيء يسقط عنه أداء شيء آخر . ولكن الأمر ليس كذلك في أمور الدين ولا في أي أمر من أمور الحياة .. إذ أن الحياة تحتاج إلى التكامل . ألا ترى إلى الذين يقودون المراكب (السيارة ــ الطائرة ..) أن عليهم أن يراقبوا عدة آلات دقيقة في وقت واحد . وإن الغفلة عن شيء منها يفقد التوازن .. بل وقد يؤدي أحياناً إلى كارثة .. وهكذا الحياة

الاجتماعية تتركب من عدة جوانب ولا بد من مراقبتها كلها .. ولعل سبب الخلل في الحياة الإسلامية هو فقدان الأفراد المتمرنين على مراقبة الآلات كلها في قيادة مركبة الحياة . فأنت ترى الصوفي الذاكر .. لكنه قد فرط بأشياء كثيرة .. وتجد الذي يعمل للإسلام بجد خارج بيته .. لكنه قد أهمل توجيه أسرته .. وتجد الإنسان العملي الفعال .. لكنه قد أهمل التدبر والعلم .. ولا نعني بذلك إنكار التخصص .. ولكن لا بد من وجود أرضية واحدة متوازنة تعطي مجالات الحياة الأساسية اهتماماً متكافئاً .. ولقد عبر رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله : « إن لجسدك عليك حقاً .. ولزوجك عليك حقاً .. ولزورك ــ أي زوارك وضيوفك ــ عليك حقاً .. فآت كل ذي حق حقه .. » . ورسول الله ﷺ قدوة رائعة في هذا المجال .. « حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء . وجعلت قرة عيني في الصلاة » (رواه النسائي وأحمد وصححه الحاكم) . وهو بني المرحمة والملحمة . قد يشعر الإنسان بصعوبة ذلك .. ولكن هذه الصعوبة هي عين الابتلاء ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ (الملك ــ ٢) . هذا الابتلاء لا ينجح فيه إلا من ترك الاستسهال والاستصعاب .. فليست أمور الحياة سهلة إلى درجة تجعلك مسترخياً في الفكر والجهد .. وليست صعبة إلى حد الاستحالة فلا تتحرك ولا تنشط لبذل الجهد .. إن أمور الحياة لا ينجح فيها إلا من تحرر من اليأس والأمن .. فهو في حالة توتر ويقظة دائمة يرجو النجاح ويخاف الزلل .

٤ً ــ نلمس في الآية حرص الإسلام على توثيق علاقات المودة بين أفراد المجتمع .. ورسول الله ﷺ يشير إلى أهمية إفشاء السلام في ربط القلوب بعضها ببعض : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا .. ولا تؤمنوا حتى تحابوا .. أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » (رواه أبو داود) . وسئل ﷺ مرة : أي الإسلام خير ؟ فقال : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » (متفق عليه) . وليس القصد هو إطعام الفقير فقط بل إطعام الجائع .. والإنسان لا يشكو جوعه إلا لمن يشعر نحوه بالود وعدم التكلف .. وهذا يشير إلى مستوى جيد من الروابط الاجتماعية .. كذلك تبدو آثار إفشاء السلام للمتأمل .. صفاء في القلوب .. وتعارف غير المتعارفين .. فهي خطوات لجعلهم كالجسد الواحد .

٥ً ــ جاء الإسلام بتحيته الخاصة التي تميز المجتمع المسلم الذي يتفرد عن سائر المجتمعات في كل شيء . قدم رجل على رسول الله ﷺ فقال : عموا صباحاً . فقال ﷺ : « قد أبدلنا الله خيراً من تحيتك : السلام عليكم .. » .

ولقد حرص الإسلام على تمييز شخصية المسلم عن غيره في كل شيء .. وحذره من التشبه والتقليد للآخرين : « من تشبه بقوم فهو منهم » . لأن التقليد ينبعث عن دوافع لا يتصف بها المؤمن . ودوافع التقليد : هي الشعور بالنقص والضعف أمام الآخرين والإعجاب بالمقلَّد لتفوقه في جوانب دنيوية . إن جهل سبب التفوق الحقيقي يجعله يقلد بعض المظاهر الخارجية للمتفوق ، كما حكي عن قروي بسيط أنه رأى أحد أبناء قريته يعود من المدينة وقد تعلم القراءة والكتابة ويلبس نظارات ، فاشترى نظارات وقال : أنا أقرأ وأكتب .. والعالم الإسلامي الآن يقلد الغرب في بعض مظاهره ظناً منه أنه يتخلص من تخلفه ويمشي في طريق الحضارة والتقدم .. فإذا به قد فقد أصالته الإسلامية ، ولم يصل إلى الحضارة التي يريدها ــ كما حصل للغراب الذي أعجب بمشية الحجل فأراد أن يقلدها فلم يستطع أن يصل إلى مشيتها ونسي مشيته الأصلية ــ . وقد يظن كثير من الناس أن تقليد بعض المظاهر الغربية لا يؤثر على المسلم وعقيدته وحياته .. فهل هذا صحيح ..؟

إن كل أمة تظهر مبادؤها وأخلاقها في كل مظهر من مظاهر حياتها .. فالمدنية الغربية والشرقية (الروسية) إنما هي قائمة على أساس مادي لا أخلاقي .. وهذا يبدو في كل مظهر من مظاهر حياتها .. وأبرز مثال على ذلك الأزياء والفنون عندهم إذ الأولوية ، للجمال والإغراء . أما الثقافة الإسلامية فإنها تعطي الأولوية للمبدأ الأخلاقي ، ثم يأتي الجمال في الدرجة الثانية . ومن هنا تبدو خطورة التقليد .. فحين يقلد المسلم مظهراً من مظاهر الأمة المادية يكون قد فضل مقاييسها ونظرتها إلى الحياة .. وشيئاً فشيئاً يتشبع بروحها وعقيدتها .. والانحراف يبدو في البداية طفيفاً تافهاً لا قيمة له .. لكنه سيؤدي بعد ذلك إلى طريق أخرى جد مختلفة ..[1] ولهذا قال النبي ﷺ عن المقلِّد :

---

١ ــ تحدث محمد أسد عن ذلك في كتابه الإسلام على مفترق الطرق . في فصل منه بعنوان : التقليد .

«من تشبه بقوم حُشر معهم. . .».
« هو منهم » و« حشر معهم » .. إن من يشعر بأنه يحمل رسالة هداية وإنقاذ للبشرية من ضلالها ، لا يفكر أن يقلدها .. لأن من يريد أن يهدي الناس لا يقلدهم .. وهو لا يدخل إلى المجتمع العالمي ليقلِّده .. بل لأجل أن يغيره .. ولا يمكن لمن يقلِّد العالم أن يغيره ..

٦ً ــ من آداب السلام .. كما ورد في السنة : أن يسلِّم الراكب على الماشي .. والماشي على القاعد .. والقليل على الكثير .. والصغير على الكبير . وقد يفضَّل أحياناً أن يسلم الكبير على الصغار تعليماً وإيناساً . فقد ورد أنه ﷺ مر على جماعة من الأطفال فسلَّم عليهم . ورد السلام يكون بالكلام . ولم يكن رسول الله ﷺ يرد السلام بيده ولا برأسه ولا بأصبعه إلا في الصلاة . فالسنة أن يرد المصلي التحية بإشارة من يده إن لم يكن في المكان من يرد غيره .

٧ً ــ من الناس من قال : السلام على المسلمين فقط ، ولا يسلم على أهل الكتاب بتحية الإسلام .. ولعلهم يستندون إلى حديث : « لا تبدؤوا أهل الكتاب بالسلام » لكن الأولى هو تعميم السلام على الجميع .. هذا ما يوحي به تأمل النقاط التالية :
آ ــ السورة بدأت بنداء للناس كافة ، فهي تشير إلى العالمية والتوجه للجميع بالعطاء .

ب ــ الحديث الذي أمر بإفشاء السلام موجود في البخاري بنص : « على من عرفت ومن لم تعرف » .

ج ــ روى الإمام أحمد عنه ﷺ : « إني راكب غداً إلى يهود . فلاتبدؤوهم بالسلام وإن سلموا عليكم فقولوا وعليكم » وذلك لأنه ينوي غزوهم .. فإذا سلم أحد المسلمين عليهم فقد أعطاهم الأمان .. فكيف يغزوهم بعد ذلك وقد أمنهم ؟!

د ــ إن السلف لم يمتنعوا من إلقاء تحية الإسلام على أحد . وقد ورد عن ابن عباس أنه كان يقول للذمي : السلام عليك . ولكن حدث هذا التمييز عندما جاء الخلف ..

هـ ــ في المنار فصل في هذا الموضوع وقال : (السلام أدب إسلامي وآداب الإسلام عامة ينبغي أن نعممها ــ ولو تخلق بها الناس كلهم ــ إلا عندما يكون محارباً فلا سلام) .

ويقول : (إن معرفة سبب ذكر الحديث عندي أهم من ذكر سبب نزول الآية . لأنني قد أفهم الحديث على غير ما كان يقصده ﷺ .. بينما الآية عامة لا تختص بسبب نزولها) .

٨ً ــ رد التحية على درجتين : بأحسن منها ، أو ردوها . ويبدأ من درجة الإحسان لأن نمو الحياة لا يتم إلا به .. فإن عجزتم عن الإحسان فلا أقل من العدل وهو الرد بالمثل ، ولا يشترط في الأحسن أن يكون في عدد الألفاظ .. وإنما في الحفاوة والبشاشة والاهتمام . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ فهو حاضر .. شاهد .. وإن الله لا يهمل مثقال الذرة من الإحسان أو التقصير : ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ..﴾ (الزلزلة ــ ٧) .

طلب من مسلم مرة أن يترجم لأجانب معنى تحية الإسلام (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته). قال: فوجدت صعوبة في إيفاء الكلمة حقها. . وأدركت ميزتها على كل أنواع التحية في العالم؛ فهي دعاء لمن تقابله بالسكينة والسلام والرحمة من الله. . وهي عهد تقطعه لمن تقابله بالأمن: أنت آمن مني فلا أمسّك بسوء ولا أغدر بك ولا أريد لك إلا الخير. . هذه بعض المعاني.

الوصية السابعة ــ تأكيد الجمع ليوم القيامة :

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ .

إن الذي يوصيكم بهذه الوصايا ويأمركم بهذه الأوامر هو الله الذي لا إله إلا هو . والإله : هو المعبود صاحب السلطان الذي بيده مصائر الناس وحاجاتهم[1] . هذا

١ ــ راجع معنى كلمة إله في كتاب المصطلحات الأربعة لأبي الأعلى المودودي .

الإله القادر العادل يقسم ليجمعنكم إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه ..

مر رسول الله ﷺ على صحابي يضرب عبداً له خالف له أمراً فقال له ﷺ : « اعلم .. لله أقدر عليك من قدرتك على عبدك .. » . فبكى الصحابي وقال : هو حر لوجه الله .

والإيمان باليوم الآخر هو الضمان الأول للالتزام بأوامر الله والبعد عن نواهيه . وهو الدافع الأول لتحمل الأمور الصعبة في الحياة .. لأن من يستشعر هول المحشر يسهل عليه كل صعب في سبيل إرضاء الله تعالى .. والإيمان باليوم الآخر هو الزاد في عسر الحياة ويسرها ، لأن العدل لا يتحقق كاملاً في الحياة ؛ وكم من إحسان كان جزاؤه الإساءة ، ومع ذلك فإن المؤمن لا يمتنع عن الإحسان رغبة في الآخرة .. وإن أماني الإنسان وأحلامه أكبر من الحياة الدنيا كلها .. فوا عجباً كيف يستطيع من لا يؤمن بالآخرة أن يحتمل الحياة ..؟! حقاً إنه لشقي محروم ..؟! فإذا تساوى المؤمن والكافر في كدح الحياة والمعاناة فيها .. فإن المؤمن أقدر على الاحتمال وهو أسعد حالاً من الآخر .. ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ (النساء — ١٠٤) . وقد يقال هنا إن الشيوعيين لا يؤمنون باليوم الآخر .. فكيف يقومون بالأعمال الصعبة ويضحون ؟! لو سألناهم لماذا يضحون ؟! تأتي الإجابة على لسان أحدهم وقد كتب عند ذهابه لبذل نفسه : (أذهب وأنا أعلم أنني لن أرجع .. ولكنني أذهب سعيداً لأنني أعلم أنني أشارك في قضية يسعد بها من يأتي بعدي من الأجيال) .. إن هذا وإن لم يؤمن باليوم الآخر لكنه يؤمن بعالم جديد لمن يأتي بعده يدفعه إلى البذل.. وهو صورة من التطلع الفطري في نفس الإنسان إلى اليوم الآخر حيث تتحقق حياة أفضل وأعدل. والمؤمن يجمع إلى هذا الشعور الإيمان باليوم الآخر. لكن هذا الإيمان يحتاج إلى إذكاء وتحريك بين فترة وأخرى.. فكثيراً ما نركز اهتمامنا على جانب الوعي والفهم ونهمل جانب التقوى والخشية لله.. ومن يهتم بجانب ويترك الآخر كأنه يقول: إن قدماً واحدة تكفي للسير. ولن يؤدي المسلم دوره حتى يحمل الجانبين: **الفهم والتقوى**.. وإن الإيمان البارد الذي لا يستحضر هول المحشر لا يستطيع أن يتغلب على الأمور البسيطة الصغيرة. فمتى نقدم على عظائم الأمور..؟!.

روى الإمام أحمد : « يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له : يا بن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أي رب خير منزل . فيقول : سَلْ وتمنَّ . فيقول : ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا وأقتل في سبيلك عشر مرار .. لما يرى من فضل الشهادة .. ويؤتى بالرجل من أهل النار . فيقول له : يا بن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : يا رب شر منزل . فيقول له : أتفتدي مني بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول : أي رب نعم . فيقول : كذبت قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل . فيردُّ إلى النار » .

وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا قام يصلي لم يتماسك من كثرة البكاء خوفاً وخشوعاً لله .. وهو صاحب رسول الله .. وثاني اثنين في الغار .. وهو الصدِّيق .. فكيف بنا نحن ..؟

ومأساتنا أننا نمر على الآيات التي تتحدث عن الآخرة ومشاهد العذاب فيها ونحن آمنون مطمئنون .. وكأننا قد ضمنا الجنة .. قد زينا أعمالنا أمام الناس ونغفل عن الناقد البصير الذي سنقف بين يديه فيسألنا عن كل شيء .. فماذا نحن قائلون ..؟! ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون . مالكم لا تناصرون ؟! بل هم اليوم مستسلمون﴾ (الصافات ـــ ٢٤) . ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهُم لا يظلمون﴾ (البقرة ـــ ٢٨١) . ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ ؟!

وهل استطاع إنسان أن يثبت بالدليل غير ذلك ..؟! هل استطاعت البشرية خلال آلاف السنين أن تبرهن على كذبة واحدة جاءت في الكتب السماوية الأصلية قبل أن تتبدل ..؟!

إن كلمات الله راسخة باقية في الأرض : ﴿فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ (الرعد ـــ ١٧) .



الفَصْل العَاشِر

المنَافقون

۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ
فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ
أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ
تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ
حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ
وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ
مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ
ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

أولاً ــ أهمية اتخاذ موقف موحد من المنافقين

إن الحديث عن قتال العدو الخارجي يلحق به الحديث عن العدو الداخلي .. وتحديد موقف موحد منه .. وأسلوب معين في التعامل معه .. فهؤلاء المنافقون يظهرون الود وقلوبهم مع أعدائكم .. ﴿هم العدو فاحذرهم﴾ (المنافقون ــ ٤) .. والعدو الداخلي هو أخطر على المجتمع ..

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ .. ﴾ .

يذكر في سبب النزول : أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس ممن خرج معه وكان أصحاب النبي فرقتين ؛ فرقة تقول : نقاتلهم . وفرقة تقول : لا نقاتلهم . فنزلت : ﴿**فما لكم في المنافقين فئتين** ..﴾ فقال ﷺ : « إنها طيبة وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد » (رواه الشيخان) . والآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .. وتنطبق على كل طائفة تتصف بهذه الصفات .. ﴿**فما لكم في المنافقين فئتين** ..﴾ ؟! ولا ينبغي أن يكون بين المؤمنين من يعذرهم ويتساهل معهم . ﴿**والله أركسهم بما كسبوا**﴾ . والركس هو رد الشيء مقلوباً .. فقد ردهم الله على أعقابهم .. وانتكسوا إلى الضلال بما كسبوا .

والآية هنا تبين علاقة عمل الله بعمل العبد بوضوح . فعمل العبد هو السبب ، ويأتي عمل الله بعده كثمرة ونتيجة .. وهي كقوله تعالى : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ (الصف ــ ٥) . وإننا إذا لم نسعَ إلى رفع مستوى مفاهيمنا وتمسكنا بالحق فإن النتيجة الحتمية هي الرجوع إلى الوراء والتعلق بالأشياء التافهة ، لأن أعمالنا تحدد مسارنا ..

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ ؟!

أتريدون أن تغيروا سنة الله في الهداية ..؟! ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم

سبلنا﴾ (العنكبوت ـــ ٦٩) وهل تظنون أنكم بموقفكم هذا تقربونهم من الإيمان ..؟! على العكس : إن موقفكم هذا فيه تسويغ لكفرهم وإطماع لهم بالتمادي ..

إن الإدانة في هذه الآيات ليست للمنافقين فقط .. بل للذين يتخذون من المنافقين موقفاً ليناً .. وقد يكون الدافع إلى ذلك هو الرغبة في هدايتهم .. لكنهم يخطئون في الطريقة للوصول إلى الهدف .. ولا تكفي الأهداف النبيلة .. بل لا بد أن تعرف وتسلك الطريق السليم المؤدي إليها . إن من قطع على نفسه طريق النظر وكفر بنعمة العقل لا يمكن إقناعه .. فقد فسدت فطرته وترسخت الذنوب إلى أعماقه حتى أصبح يرى القبيح جميلاً .. والمنكر صواباً .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ .

إن الآية تتحدث عن عمل الله وحده .. لكننا أصبحنا ندرك من الذي يضله الله .. سبحانه أن يظلم أو يبخس إنساناً حقه .. ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ..﴾ (طه ـــ ١٢٣) . وإن فهم سنة الهداية يعطي طمأنينة للنفس ويقيناً راسخاً بعدل الله ورحمته .

ثانياً ـــ ودوا لو تكفرون

﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ .

وهذا التحذير ضروري للمؤمنين .. خاصة وأنهم حديثو عهد بالإيمان .. والإنسان عندما تكون الفكرة جديدة عليه يكون في مرحلة دقيقة بحيث يتأثر بالتشجيع ويتأثر بالتثبيط ومحاولة الصد عنها ، حتى قال أحدهم : إن الفكرة لما تكون جديدة تكون غضة في النفس حتى أن صاحبها يتأثر من مجرد التثاؤب من سامعيه .

فاحذروا .. إن هؤلاء يريدون لكم الكفر والضلال كي تصبحوا مثلهم ولا تتفوقوا عليهم .. لأنهم عجزوا عن الارتفاع إلى المستوى النظيف المستقيم الذي وصلتم إليه ..

ثالثاً ـــ النهي عن موالاتهم حتى يهاجروا

﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ .

الحديث في هذه الآية عن نوع من المنافقين من خارج المدينة . بينما يبدو الحديث في الآية السابقة عن المنافقين بشكل عام بما فيهم منافقي المدينة . والذي يوضح ذلك تتمة الآية فهي تأمر بأخذهم وقتلهم إن أعرضوا ولم يهاجروا .. ومن المعروف أن رسول الله ﷺ لم يأمر بأسر أو قتل منافقي المدينة ، لكنه اتبع أسلوب الإعراض عنهم والتنكيل بمن يقوي شوكتهم ويغريهم بالنفاق وهم اليهود .

﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ .

والولاية سبق أن تعرضت لها عند الحديث عن الإحسان حيث ذكرنا أن القرآن تحدث عن ثلاثة أنواع من العلاقات الإيجابية بين الناس . فالعدل : أدناها وهو مطلوب حتى مع العدو فمن لم يرتفع إليه يعتبر آثماً .. وأفضل منه الإحسان وهو مستحب مع الجميع وقد رغب فيه القرآن وحث عليه .. وأعلى علاقة هي الولاية : وهي علاقة ثقة وحب وإيثار وتكافل وتناصر .. وهي لا تكون إلا بين أصحاب المبدأ الواحد .. والمؤمنون لا ينبغي لهم أن يناصروا ويوادوا ويثقوا ويعتمدوا على من لم يلتزم بأمر الله ويعلن براءته من الكفر والنفاق بشكل عملي .. ﴿**حتى يهاجروا**﴾ . فيتركوا صف الضلال وينحازوا إلى صف المؤمنين ، وحتى يهجروا حياة الكفر والنفاق إلى ظل دين الله .

فإذا أغلق باب الهجرة « لا هجرة بعد الفتح » (رواه مسلم) .. فلدينا ميزان دقيق صالح لكل زمان لمعرفة من يستحق الثقة والولاء ، ومن هو منافق وهذا الميزان هو قوله ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهاه الله عنه » (رواه البخاري وأبو داود والنسائي) .

هذا ما يتعلق باتخاذ الأولياء .. وأما تتمة الآية مع بقية الآيات في المقطع ، فإنها تحدد بعض المعاملات الدولية بين المجتمع المسلم ومن حوله من الطوائف والأمم . ولأول مرة في التاريخ تنظم معاملات دولية بعيداً عن منطق القوة .. وذلك أن البشرية لم تحاول هذه المحاولة إلا في القرن السابع عشر . فوضعت قانوناً دولياً دعت الحاجة إليه لوجود دول متكافئة القوى . لكن هذا القانون ما زال حبراً على ورق خاصة في حال عدم التكافؤ في القوة . وبقي منطق القوة هو الذي يحكم .. وكم من القرارات أصدرها مجلس الأمن الدولي لكنها لم تنفذ .. ولهذا فإن الأمة المسلمة مطالبة بأن تُعدَّ ما تستطيع من قوة لحماية القانون الدولي العادل من أن ينتهك .. ولكي تصبح السيادة لمنطق الحق لا لمنطق القوة . وإن المؤمن القوي حين يتسلم دفة القيادة لا يستغل ذلك للاستعمار .. وإنما لتحقيق العدل والخير كما فعل ذو القرنين في الماضي ، وكما فعل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة .

رابعاً ــ بعض المعاملات الدولية

سنرى في الآيات الآتية ثلاث طوائف يحدد لها معاملة خاصة من المجتمع المسلم .

١ً ــ المنافقون الذين لا يقيمون في المدينة :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

وتلك هي الطائفة الوحيدة التي سمح بقتالها وملاحقتها ، وسيزيدهم وضوحاً في الآية الأخيرة .

٢ً ــ الذين يرتبطون بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق ــ برباط القرابة أو

الولاء ــ فلا يجوز قتالهم . ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ .

٣ً ــ الذين يتخذون موقف الحياد بين المسلمين والمحاربين من الكفار الباقين على دينهم :

﴿ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ[1] أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ .

هؤلاء إن اعتزلوا القتال وسالموكم فما جعل الله لكم حقاً في قتالهم . أي لا يسمح لكم بقتالهم .

وحتى لا يلتبس الأمر على المسلمين فلا يستطيعون التمييز بين الصنف الأول والصنف الثالث ، تأتي الآية الأخيرة لتوضح أمر الصنف الأول وتبين الفرق بينه وبين من يحايد المسلمين .

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ .. ﴾ .

إن هؤلاء يلعبون على الحبلين ، وكلما سنحت لهم فرصة انقضوا على المسلمين وارتدوا على أدبارهم ..

﴿ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ .. ﴾ .

بهذا التأكيد حتى يتثبت المسلمون من رغبتهم الصادقة في السلام ..
﴿ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ ﴾ أي حيث وجدتموهم ..
﴿ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴾ .
فلقد تبين غدرهم .. لهذا يعطيكم الله إذناً واضحاً لقتالهم .

---

١ ــ أي ضاقت صدورهم كراهية للقتال .



الفصل الحادي عشر

القتل الخطأ والعمد

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

أولاً ـــ كفارة قتل المؤمن خطأ

وبمناسبة القتل والقتال يذكر حالة قتل الخطأ .. ويؤكد على حرمة دم المؤمن على أخيه. ها هو ذا القرآن كتاب الحياة ينتقل بنا من تخطيط السياسة الخارجية لأمته إلى القانون الجنائي فيها.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا .. ﴾ .

كيف يمكن لمن يؤمنون بهدف واحد يعيشون من أجله ويتعاونون على تحقيقه أن يقتل أحدهم الآخر ..؟!

حين توجد أخوة الإيمان فإنه لا يمكن أن يحدث قتل عمد بين المؤمنين . لأنه « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ..

ويذكر في سبب النزول : أن أحد الصحابة قتل رجلاً وقد قال كلمة الإيمان حين رفع عليه السيف فأهوى به إليه فقال كلمته . فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال : إنما قالها متعوذاً .. فقال ﷺ له : « هل شققت عن قلبه ؟ »[1] .

ونستطيع أن ندرك النقلة الكبيرة التي قام بها الإسلام من عربي الجاهلية الذي كان يريق الدماء لأتفه الأسباب ـــ(كما فعل عمرو بن هند حين قتل مضيفه وأشعل حرباً ضروساً بين العرب لأن أم المضيف كلفت أم عمرو أن تناولها وعاء فصرخت أم عمرو : وا ذلاه ..) ـــ إلى العربي المسلم القادر على ضبط غضبه وكراهيته في سبيل المثل الأعلى .. فلقد تناسى الأنصار أحقاد الجاهلية وثاراتها وأصبحوا بنعمة الله إخواناً.. وها هو ذا عمر ابن الخطاب يقول لقاتل أخيه زيد ـــ وقد كان كافراً حين قتل زيداً ثم أسلم ـــ : اذهب

---

١ ـــ ذكر ابن أسلم هذه القصة عن أبي الدرداء . وفي الصحيح أن هذا حدث لأسامة بن زيد .

فإني لا أحبك . فيقول له : فهل سيمنعك بغضك من أن تعدل معي ؟ فيقول عمر : لا . فيقول الآخر :«فإنما يبكي على الحب النساء . . » فأين أنت يا أمة القرآن ..؟!

إن المسلمين الآن قد انتكسوا إلى الجاهلية .. وأصبح بعضهم يقتل بعضاً ﴿بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ (الحشر ــ ١٤) .. إن المأساة قد استفحلت حتى كدنا ننسى أفاعيل أعدائنا أمام بطش إخواننا الذين هم من دمنا ولحمنا وعلى ديننا ..؟! ومن المسلم به أن أصابع عدونا وراء هذه المأساة .. ولكن لماذا نسمح له أن يلعب بنا إلى هذا الحد .. وأين وعينا للقضية .. وأين الإيمان الذي وحد الأنصار والمهاجرين في كتلة متراصة أحبطت مساعي اليهود والمنافقين ، وصدت كيدهم وسعيهم المستمر للإيقاع بين الإخوة . إن المسلمين الآن ليسوا إلا مسخاً مشوهاً قبيحاً للإسلام .. إنهم موضع استخفاف وسخرية العالم .. ونحن من خلال دراسة القرآن نتخيل الأمة المسلمة في أذهاننا ونسعى للوصول إليها .. لكن عدم رؤية هذه الأمة واقعياً يجعل كثيرين عاجزين عن تصور حقيقتها ..[1] .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ .

هذه هي حالة المؤمن الذي تشرب حقيقة الإسلام . يقول ﷺ : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » (ورد في الصحيحين) . أي أن حكم الإعدام في الإسلام لهؤلاء الثلاثة فقط .. وإذا وقع شيء من هذه الثلاث فلا يحل لأحد من أفراد الرعية أن يقتله وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه . مع ملاحظة أن قصاص القاتل يقوم به الإمام وفق رغبة أهل القتيل ، فإن شاؤوا عفوا وقبلوا الدية وإن شاؤوا اختاروا القود من القاتل .

---

١ ــ كالطفل الذي نشأ مع والده في السجن . فأراد أبوه أن يعلمه ويعطيه فكرة عن العالم الخارجي .. فحدثه عن الحصان ووصفه له .. فما كان من الطفل إلا أن قال : أهو كالفأر يا أبتِ ..؟! لأنه لم ير أمامه إلا الفئران .

أما **قتل الخطأ** فكيف يحدث ..؟! قد يحدث أثناء صيد .. أوحادث سيارة .. أو ضربة إهانة لا يقصد بها الضارب القتل كما حدث لموسى عليه السلام : ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ (القصص ــ ١٥) . وذكر مجاهد في سبب نزول الآية أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة ؛ وذلك أنه قتل رجلاً كان يعذبه مع أخيه على الإسلام .. وهو الحارث بن يزيد الغامدي فأسلم ذلك الرجل وهاجر وعياش لا يشعر . فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله فأنزل الله الآية .[1] والآية تذكر لقتل الخطأ ثلاث حالات :

١ ــ المقتول مؤمن وأهله مؤمنون :

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ . فالحكم هو إعتاق رقبة ودفع دية لأهل القتيل . وقد كان مقدار الدية مائة من الإبل .. أما الآن فبحسب ما يرى المختصون في هذه القضايا .

٢ ــ المقتول مؤمن وأهله محاربون :

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ .

فالحكم هنا إعتاق رقبة ، وتلغى الدية لأن أهله محاربون متربصون بالمسلمين وقد تبرؤوا من القتيل والدية تفيدهم في الإضرار بالمسلمين .

٣ ــ المقتول مؤمن وأهله معاهدون :

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ .

ونلاحظ هنا أنه قدم الأمر بالدية إبرازاً لأهمية الوفاء بالعهود والمواثيق . فأهل القتيل إن كانوا معاهدين يعاملون في هذه القضية كالمؤمنين . أما إن وقع القتل خطأ على

---

١ ــ راجع تفسير ابن كثير .

معاهد غير مؤمن .. فالحكم هو دفع الدية لأهله فقط كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه فعل ذلك .

نلاحظ هنا :

١ً ــ أن الحكم فيه تعويض للمجتمع المسلم الذي فقد نفساً مؤمنة وذلك بتحرير رقبة مؤمنة ؛ وكأن العبد لم يكن حياً أو موجوداً فإذا به يحيا عندما يُعتق .. وذلك من حرص الإسلام على إنهاء العبودية والرق بكل الأساليب . وتعويض للأهل والعشيرة بالدية واسترضاء لمشاعرهم وتهدئة لعواطفهم .

٢ً ــ قوله : ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ إشارة إلى الإحسان . . والقرآن يبين لكل فرد حقه ــ أي يحكم بالعدل ــ لكنه يشير دائماً إلى مرتبة أسمى ــ الإحسان ــ ويحفز المسلم إلى بلوغها وهي العفو ورفض أخذ الدية . والمسلم يستطيع أن يروض نفسه على أن يرتفع ويسمو باستمرار . وهذا حذيفة بن اليمان يرى والده ــ وهو مؤمن ــ في إحدى المعارك وقد اختلط أمره على المسلمين فوجهوا إليه ضرباتهم .. فصاح بهم : ــ هو والله أبي ــ . ولكن بعد فوات الأوان فقد قتل الرجل .. ولملم حذيفة آلامه وجراحه مردداً : يغفر الله لكم .. ورفض الدية التي قدمها له النبي ﷺ وقال : هي للمسلمين .

٣ً ــ ولكن الرق انتهى الآن .. وإن كانت العبودية الفكرية ما زالت موجودة ولها من الهيمنة والسلطان ما يفوق رق الجسد . ولقد عبر الصوفي عن شيء منها حين قال : (ليس للمريد أن يقول لشيخه : لِمَ) !! سبحان الله لقد كانوا يقولون لرسول الله ﷺ لِمَ ..!! فلا يستاء منهم ولا ينهاهم ..!! فطوبى لمن يتصدى لتحرير فكر الإنسان في هذا العصر .. إذ لا شك بأنه سينال ثواب إعتاق الرقاب « لئن يهدي بك الله رجلاً خير لك من حمر النعم » . نعود إلى كفارة قتل الخطأ .. ماذا نفعل وقد انتهى الرق ..؟!

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ .

بدلاً من تحرير الرقبة المؤمنة .. أما الدية فلا بديل عنها .. ولأن الفاعل يساعده أهله في أدائها وعشيرته . أما تحرير الرقبة فعليه وجدهُ ..

﴿ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

وقد يقال : إن القتل هنا حدث خطأ بغير قصد ولا عمد . فلِمَ يعتبر ذنباً له عقوبته ويحتاج إلى توبة ومغفرة من الله ؟! ألم يقل رسول الله ﷺ : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ؟! فهل يعتبر الخطأ والنسيان من الذنوب ..؟

لو لم تكن من الذنوب لما دعا المؤمنون ربهم : ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .. ﴾ (البقرة ــ ٢٨٦) . لكنها أخف من القيام بالعمل عمداً .

فأما النسيان فيدل على قلة الاهتمام بالأمر كما يقول علماء النفس : (المرء ينسى ما لا يحب) والإنسان لا ينسى ما هو عزيز عليه ، ويلوم من يعتذر عن تقصيره بأداء مهمة كلفه بها بأن السبب في ذلك هو النسيان .

والوقوع في الخطأ يدل على قلة الانتباه واللامبالاة . والمسلم مطالب بأن يكون يقظاً حذراً قادراً على تركيز ذهنه والتفكير في كل عمل قبل القيام به . لهذا يعقب هنا : ﴿**توبة من الله**﴾ .. ولذلك جعل للقاتل خطأ عقوبة وكفارة . حتى يكون حذراً فلا يعرض أرواح المسلمين للخطر بسبب قلة انتباهه، أما قوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ. . » **فكأنه يقصد رفع الإثم والعقاب في الآخرة. لأن العمل كان بغير قصد و «إنما الأعمال بالنيات»**.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

عليماً بالمقاصد والنوايا .. حكيماً يضع الأمور في مواضعها ، وهذا يعطي أفضل النتائج وأسلمها من التكاليف والخسائر . إن الله العليم الحكيم هو الذي شرع هذا الدين وهو صراط الله المستقيم .. والخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين ، أي أنه أقصر طريق يوصلك إلى الهدف بأقل وقت وجهد ممكن .. وهذا ما ينبغي للمسلمين أن يبينوه للناس في هذا العصر مقترناً بالدليل الواقعي والإحصائي .. وعندها ينقطع الجدل ويدخل الناس في دين الله أفواجاً .

ثانياً ــ من قتل عمداً فجزاؤه جهنم

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ .

إن هذا من أعظم الذنوب عند الله بعد الشرك .. و﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ (المائدة ــ ٣٢) . وقد وردت أحاديث كثيرة في تهويل شأن هذه الجريمة . منها : « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم » . « لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم لأكبهم الله في النار » . « من أعان على قتل المسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله »[1] .

أما جزاؤه في الدنيا : فأمره إلى أولياء المقتول وهم مخيرون بين القصاص أو العفو أو أخذ الدية ــ وهي هنا مغلَّظة ــ واختلفوا : هل تجب عليه الكفارة ــ عتق رقبة أو صيام شهرين ــ فالشافعي يقول : تجب عليه . وآخرون قالوا : قتل العمد أعظم من أن يكفَّر . فلا كفارة فيه . ولعل الكفارة أولى لما رواه الإمام أحمد عنه ﷺ أنه قال لبني سليم عندما استفتوه : « فليعتق رقبة يفدي الله بكل عضو منها عضواً منه من النار » .

أما في الآخرة : ﴿**فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدَّ له عذاباً عظيماً**﴾ . لذلك قال ابن عباس : لا توبة للقاتل عمداً . والذي عليه الجمهور أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه استناداً إلى : ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً ..﴾ (الزمر ــ ٥٣) .

---

١ ــ ذكر ابن كثير هذه الأحاديث في تفسيره .

وإلى : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء — ٤٨) . وحديث الإسرائيلي الذي قتل مائة ثم سأل عن التوبة وتاب فأخذته ملائكة الرحمة . بل حتى المشرك إن تاب توبة صادقة يغفر له فباقي الذنوب أولى ..



الفصل الثاني عشر

عودة إلى الجهاد والهجرة

يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ
لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ
كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾
لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ
ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً
وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ
قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ
جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾
فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾
۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً

وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ
فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ
أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿١٠١﴾
وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ
مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ
مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ
فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ
عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ
أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ
وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٠٢﴾
فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ
كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ
فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا
تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

أولاً ـــ تحذير من التسرع في القتل والسلب

ويفتتح هذا المقطع بتحذير ـــ أثناء القيام بالجهاد ـــ من الإهمال والاندفاع وراء الهوى حتى لا يحدث قتل خطأ أو عمداً .. وبهذا يرتبط السياق بما قبله ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا .. ﴾ .

روى أحمد عن ابن عباس في نزول الآية قال : مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنماً له فسلم عليهم فقالوا : لا يسلِّم علينا إلا ليتعوذ منا . فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه النبي ﷺ فنزلت هذه الآية . وفيها نهي عن أن يبدؤوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا . وأن يكتفوا بظاهر الإسلام لأن القلوب علمها عند الله . وإنما أمرنا أن نعامل الناس بحسب ظاهرهم . ولقد كانت هذه الحالة من قتل الخطأ ، فأصبحت بعد نزول الآية من القتل عمداً .

﴿ **وإذا ضربتم في سبيل الله** ﴾ . الضرب في الأرض : ضربها بالأرجل في السفر . وهنا إشارة إلى الخروج للجهاد ﴿ **في سبيل الله** ﴾ .. فتبينوا ولا تتعجلوا الأمر .. تريثوا وأنعموا النظر حتى يتبين الأمر وتنجلي الحقيقة .

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا .. ﴾ .

إن الرغبة في الغنيمة غالباً ما تكون هي الدافع وراء هذا الموقف .. إنه الهوى فاحذروه ..

﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ . فلا تعطوا الأولوية للدنيا فهي عَرَض زائل ، وارغبوا في الآخرة فهي خير وأبقى ..

﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

١ ــ قد تكون : كذلك كنتم من قبل تخفون إسلامكم من الضعف والخوف فلا تظهرونه إلا عند الأمن مع المسلمين .. ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم ..﴾ (الأنفال ــ ٢٦) . كهذا الرجل الذي كان يخفي إسلامه ــ خوفاً من قومه الكفار ــ فلما رآكم أعلنه .. فقتلتموه .

٢ ــ وقد تكون : كذلك كنتم في الجاهلية تقاتلون في سبيل الحصول على المغانم .. وكنتم تقتلون لأتفه الأسباب ولا تتحرجون من سفك الدماء . أما الآن فقد منَّ الله عليكم بالإسلام ، وجعل هدفكم إعلاء كلمة الله ، فلا تقاتلون إلا من أجل هذا الهدف فتذكروا هذه الميزة ولا ترتدوا على أعقابكم إلى صفات الجاهلية ودوافعها .. وأي قيمة للمسلم إن لم يتميز عن الجاهلي في الشعور بحرمة الدماء ..؟!

« لا ترجعنَّ بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض » (رواه مسلم) . لكن المسلمين سرعان ما فقدوا هذا التحرج من سفك الدم .. حتى حدثت الفتن والمعارك الطاحنة بين المسلمين . ولقد تعجب ابن عمر من حالهم عندما جاءه عراقي يسأله عن دم البعوض والذباب يصيب الثوب .. فيقول ابن عمر : عجباً لكم يا أهل العراق تسألون عن دم الذباب وقد قتلتم سبط النبي ﷺ الحسين .؟!

وما زالت المأساة تتسع دائرتها .. ونهر الدم يمشي بين المسلمين .. فوا حسرتاه . ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يكررها مرة ثانية لخطورة الموضوع ..فلا تقدموا على قتل إنسان حتى تعلموا يقيناً أنه محارب لكم ولله ورسوله . فليس الكفر هو الذي يوجب القتل في الإسلام .. وليس الإسلام وحده مانعاً من القتل (وذلك حين يرتكب جرائم تستوجب القتل ، أو قتال الفئة الباغية) . وهذا الذي ألقى إليكم السلام قد أظهر الموادعة ولم يرفع يده بعدوان ــ على فرض أنه لم يدخل في الإسلام ــ وهذا كافٍ لحقن دمه .

ويأتي التعقيب : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ يحمل التهديد والوعيد. . فاحذروا إن الله خبير بالدوافع الخفية التي في قلوبكم ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ (غافر ــ ١٩).

ثانياً ــ حض على الجهاد

ثم يعود إلى الحض على الجهاد بأسلوب آخر يرغب فيه بدرجة عليا في الآخرة .

﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ . وقد يكون الخطاب للمسلمين الذين لم يهاجروا من مكة . وقد يكون إلى بعض المسلمين الذين يقصرون في الجهاد في المدينة . والآية عامة وتقرر قاعدة تتفق مع عدل الله وإنصافه : وهي عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد والمجاهدين في سبيل الله . ويستثني أولي الضرر : وهم أصحاب الأعذار ومن حبسهم المرض أو العجز عن الجهاد .. فإن التكليف يرفع عن من لم يملك القدرة التامة على الجهاد .. بل قد ينال أجر المجاهدين إن توفر فيه الإيمان والصدق في محبة الله ودينه أي إذا توفرت لديه الإرادة الجازمة[1] . يقول ﷺ : « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه » . قالوا :وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال : « نعم حبسهم العذر » (رواه البخاري) .

﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً .. ﴾ .

ويشرح هذه الدرجة قوله ﷺ : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » (رواه البخاري ومسلم) . وقوله ﷺ : « من رمى بسهم فله أجره درجة » . فقال رجل : يا رسول الله وما الدرجة ؟ فقال : « أما إنها ليست بعتبة أمك .. ما بين الدرجتين مائة عام » .. ونحن الآن أقدر على تصور ذلك بعد أن كشف علم الفلك الأبعاد الشاسعة في السماء ..

---

١ ــ وفي هذا يقول ابن تيمية : إذا توفرت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة حصل المراد .

﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ . فالإيمان له وزنه ، والجهاد فرض كفاية لا فرض عين ، لكن الأفضلية والسبق للمجاهدين . وفي ذلك حث على تلافي التقصير والتسابق للخير .

﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

كل ذلك إحسان منه وتكريم للمجاهدين . فسَابِقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض .. وإن تفاوت الدرجات يتناسب مع درجات البذل في المال والنفس .. بين من يقوم ببعض الجهود البسيطة .. إلى من يصل لبذل روحه ونفسه ..

إن الآيات تحث المسلم على الارتقاء المستمر والتطلع إلى ما هو أفضل .. ورحم الله عمر بن عبد العزيز حين قال : يا فاطمة إن لي نفساً طلعة . كلما بلغت شيئاً طلبت ما هو أفضل . بلغت الإمارة فتطلعت إلى الخلافة فلما بلغتها طمعت في الجنة .

إن الحرب الموجهة للإسلام اليوم تستغل كل الجبهات وخاصة الفكرية .. وهو الميدان الذي يخسر فيه المسلمون لأنهم لم يستنفروا له ما يكفي من الجنود والأسلحة ولم ينشئوا القلاع والحصون الفكرية التي تصمد لهذه الحرب . فكيف يجاهد المسلم اليوم ؟ وفي أي مجال تشتد الحاجة إلى البذل والجهاد ؟

إنه مجال الدعوة والبيان وتصحيح الفكر وتحصينه .. وذلك ما ذكره ابن تيمية عندما تحدث عن الهجرة والجهاد بمعنى « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . ثم يأتي المجاهد الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . إذ أن الإنسان قد يهجر المنكر لكنه يترك النهي عنه خوفاً على نفسه أو حرصاً على مصلحة عاجلة فهو تارك للجهاد .

ومن المؤلم أن نتساءل ما نسبة ما يبذله المسلمون الآن في سبيل دينهم إلى ما يبذله أعداؤهم في سبيل باطلهم ؟!

﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ؟! أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل .

إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ..﴾ (التوبة ــ ٣٨) . ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ..﴾ (الجمعة ــ ١١) .

نشعر من الآيات :

١ً ــ أن التقصير كان موجوداً ، وأن القرآن عالجه بشتى الأساليب : بالحث والترغيب والترهيب . وإن وجود الضعف لا يدعو لليأس ، وإنما يعالج بالوسائل المناسبة .

٢ً ــ سموّ مكانة الجهاد بالمال والنفس في دين الله . إذ لو كان الجهاد أمراً ثانوياً لما شغل هذه المساحة من القرآن ، بينما نجد أن الحديث عن الجهاد في القرآن قد شغل من الآيات ما لم يشغله أي أمر آخر . حتى أن الرسول ﷺ قال : « من مات ولم يغزُ ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق » (صحيح مسلم) . إن الله يعلم أن هذا الأمر تكرهه الملوك . وأن الباطل وأتباعه سيقاومون هذا الدين بكل وسيلة دفاعاً عن وجودهم .. ولهذا اقتضى الأمر أن يكون الجهاد عنصراً أساسياً في الإسلام . وصحيح أن الجهاد فرض كفاية في الحالات العادية .. لكنه يصبح فرض عين على كل مسلم عندما يهدِّد الإسلام في عقر داره .. وأرجو أن نتذكر دائماً خطورة الغزو الفكري **وحاجتنا الماسة إلى المجاهدين فيه . ويلتفت القرآن بعد هذا إلى القاعدين عن الهجرة فيعرض عليهم مشهداً رهيباً ترتعد له فرائص المؤمن .**

ثالثاً ــ المستضعفون والهجرة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

ذكر البخاري في سبب نزول الآية : أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ .. يأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب عنقه فيقتل .

لكن الآية عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين لا يتمكن من إقامة دينه وهو قادر على الهجرة . فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع وبنص هذه الآية .

﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

و﴿**عسى**﴾ : تفيد الاحتمال لا الجزم .. إشعاراً بخطورة موقف المستضعف ولو كان لا يستطيع حيلة ولا يعرف كيف يدبر أمر هجرته[1] .

الاستضعاف والاستكبار :

تلك هي مشكلة العالم قديماً وحديثاً .. وهي قضية إنسانية وعالمية طالما فكر المصلحون في علاجها ، وحاول الثورويون القضاء عليها بالثورة المسلحة في وجه المستكبر . والمشكلة تظهر في جميع صور العلاقات الإنسانية ابتداء من الأسرة إلى

١ ــ علماً بأن بعض المفسرين قالوا : إن ﴿**عسى**﴾ من الله تفيد التحقيق وكأنها وعد .

العلاقات الدولية .. ففي الأسرة يأخذ الأب دور المستكبر المتسلط ــ أو الأم أحياناً ــ ويستضعف باقي الأفراد .. وفي المدرسة كثيراً ما تفقد العلاقة السوية بين المدرس والطالب وتأخذ طابع الاستكبار والاستضعاف . وفي الدوائر والمؤسسات تظهر المشكلة في العلاقة بين الرئيس والمستخدم .. وبين الحاكم وأفراد رعيته .. وبين الدول الكبرى والعالم الثالث .. ولهذا نجد الكاتب الجزائري مالك بن نبي قد بحث هذه القضية في مؤلفاته تحت عنوان : الاستعمار والقابلية للاستعمار . وهو يتعمق في تحليل القضية إلى جذورها النفسية حيث يردها إلى صورتين نفسيتين متناقضتين : الاستبداد والعبودية .. الأولى تنفي (وجود الآخرين) ، والثانية تنفي (الأنا) . ويضرب مثلاً على ذلك :

(إن تاريخ روسيا القيصرية ترك لنا قصة ذات دلالة في الموضوع ، إذ نرى أحد القياصرة وهو فيما أعتقد القيصر اسكندر الأكبر . وقد كان في ضيافته أمير من الغرب فأراد القيصر أن يبرهن لضيفه عن مقدار سلطانه على رعيته فأشار بأصبعه إلى جندي كان يقوم بدور حراسة بأحد ممرات الدوريات المشرفة على هاوية سحيقة ، فبمجرد الإشارة ألقى الجندي بنفسه من ذلك العلو .. كأنه آلة تحركت بالضغط على زر . فهذا المشهد يتضمن بكل وضوح موقف العبد وموقف الرجل المستعبِد)[1] .

والذي يسترعي الانتباه أن الاستكبار والاستضعاف كثيراً ما يظهران في شخصية واحدة في ازدواجية طريفة .. فترى الموظف يستضعف مع رئيسه ويستكبر على مرؤوسيه . وتجد من الضعفاء كثيرين يتمنون الوصول إلى مراكز المستكبرين كي يمارسوا الاستكبار . وكم لفت نظري مشهد الأطفال وهم يلعبون لعبة الأستاذ والتلاميذ .. حيث يمسك الأستاذ بالعصا وينهال بها ضرباً بدون مُسوِّغ .. إن هذا يعبر بوضوح عن معاناة هذه البراعم من هذا المرض ؛ ويُمكِّننا من تأمل جديد : وهو أن المستكبر والمستضعف يؤمنان بأن الحياة : إما استكبار وإما استضعاف ، وليس هناك حل وسط أو وضع متوازن آخر . ولهذا قالوا في الماضي : (إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب) . وقالوا : (ومن لا يظلم الناس يظلم) .. وقالوا :

---

١ ــ صفحة ٦٩ من كتاب تأملات لمالك بن نبي .

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلِعلَّة لا يظلم

فالحياة عندهم إما ذئب أو غنم .. إما ظالم أو مظلوم .. أما الشخصية السوية المتوازنة التي لا تلغي ذاتها ولا تلغي وجود الآخرين فهي مفقودة نفسياً وواقعياً ..

ولهذا يحرص المستكبر على استكباره حتى لا يصبح مستضعفاً . ويتمنى المستضعف أن يصل إلى مكانة المستكبر كي يمارس الاستكبار .. ولهذا تخاف الدول الكبرى من الإسلام والمسلمين ، وتبذل جهدها في إضعافهم ، لأنها تخشى إن تقدموا أن يستخدموا سلطانهم في إذلالها وأن يفعلوا بها مثل ما فعلت بهم من استعمار واستغلال للخيرات . ولا يخطر في بالهم أن رسول الله ﷺ قال للمشركين يوم الفتح ـــ وقد تمكن منهم ـــ « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، بل إن المسلمين أنفسهم ربما غاب عن أذهانهم ذلك .

ولقد نزلت الرسالات السماوية للقضاء على الاستكبار والاستضعاف . وسعى القرآن إلى مهمة عظمى : هي منع الظلم وإيجاد النموذج السوي للإنسان الذي كرمه الله فلا يظلم نفسه ولا يظلم الآخرين . فوضع المسلم بين نهيين : نهي عن الاستكبار ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ (القصص ـــ ٨٣) . ونهي عن الاستضعاف .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا .؟! ﴾ .

وهو يعرض مشاهد العذاب في الآخرة فنرى فيه الضعفاء والمستكبرين ـــ الأتباع والمتبوعين ـــ يتقلبون في النار ﴿ وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا : إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ (غافر ـــ ٤٧) ... ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول . يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين

استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ (سبأ ــ ٣١) . .

ولقد رأينا كيف نجح موسى في إخراج سحرة فرعون من حالة الاستضعاف التي تمثلت في الرجل المرتزق الذي يخضع لسيده كلياً مقابل القوت والرزق .﴿قالوا : إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ قال : نعم وإنكم لمن المقربين﴾(الأعراف ــ ١١٣) .. إلى حالة رجل الفكرة الذي يرفض الاستعباد وطاعة المستكبر ولو كلفه ذلك حياته . ويظهر ذلك في ردهم على فرعون حين تهددهم بالتنكيل والقتل : ﴿لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ (طه ــ ٧٢) ..

كذلك وجدنا رسول الله ﷺ قد حرر المسلم في مكة من الاستضعاف وجعله يتمثل قوله تعالى :﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾(العلق ــ ١٩)، فيرفض طاعة السادة الذين يأمرونه بالكفر . وكذلك في المدينة أعطى الرسول شخصية المسلم التوازن في علاقته مع رؤسائه .. «إنما الطاعة في المعروف» . وقد امتنع المسلمون من تنفيذ أمر قائد سريتهم حين أمرهم أن يلقوا بأنفسهم في النار ..

ولا بد من التمييز بين نوعين من الاستضعاف :

١ ــ المستضعف الكافر الذي يخضع دون معارضة للاستكبار ــوهو رجل العصا ــ وقد وصفه الله بأنه ظالم لنفسه : ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ .

٢ ــ مستضعف مؤمن يعارض المستكبر وينزل العذاب به وليس له قوة تحميه . وهو رجل الفكرة الذي يرفض طاعة ما يتعارض مع إيمانه وقناعته، وهذا الموقف هو : قاعدة الانطلاق في التغيير الاجتماعي لأنه بدأ فغير نفسه .. ولهذا يعده الله بالاستخلاف في الأرض : ﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (القصص ــ ٨٣) . أي أن المستضعف المؤمن قد ارتقى من مرحلة العصا إلى

المرحلة الثانية : (أنا لا أفعله) . ولفهم الفارق بوضوح نأتي بأمثلة متقابلة على النوعين :

مستضعف مؤمن	مستضعف كافر
١ ـــ أم سليم حين أسلمت ولم تتأثر بتهديدات زوجها الكافر (مالك) حتى رحل عنها وهجرها .	١ ـــ المسلمة التي تترك أمر الله خوفاً من زوجها الذي يهددها بالضرب أو الطلاق إن لم تطعه وتعصي الله .
٢ ـــ بلال وصهيب وغيرهم من الضعفاء الذين أسلموا وتحملوا العذاب .. ثم هاجروا .	٢ ـــ طائفة من قريش ارتدوا عن الإسلام حين عذبوا ، أو مالوا إلى الإسلام لكنهم خافوا وخرجوا مع المشركين في المعركة .
٣ ـــ العز بن عبد السلام يستنكر موالاة الأعداء ، ويخلع سلطان الشام لأنه والى الصليبيين ويعلن ذلك على المنبر فيسجنه السلطان . .	٣ ـــ طبقة من الذين يحترفون الدين يوافقون الحكام والملوك في كل شيء ويدأبون على إخراج الفتاوى لهم في إقرار المنكرات .
٤ ـــ عبد الله بن مسعود يقصد نوادي قريش ويقرأ عليهم القرآن فيضربونه حتى يغمى عليه .	٤ ـــ المسلم الذي يسكت عن الحق . والمسلمة التي تتخلص من كل مظاهر إسلامها عندما تدخل بلداً أوربياً .
٥ ـــ مؤمن آل فرعون يقف مدافعاً عن موسى داعيا قومه إلى الله ، وكذلك مؤمن آل يس .	٥ ـــ قوم فرعون الذين خضعوا له حين قال : ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ، فقال عنهم :﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ .

ولابد من النضج في إدراك الموضوع حتى لا يختلط الاستكبار بالعزة ، والاستضعاف بالورع . فقد يسمي الإنسان ضعفه ورعاً واستكباره عزة .

تحدث الرسول ﷺ عن الاستكبار فقال : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه

مثقال ذرة من كبر» . فقالوا: أحدنا يحب أن يكون ثوبه نظيفاً.... ويعجبه كذا وكذا..ــ من مظهره الخارجي ــ فقال ﷺ : «الكبر غمط الناس وبطر الحق»[1] .

وسنذكر أمثلة للتمييز :

الاستكبار	العزة
١ ــ جبلة بن الأيهم يدوس على إزاره رجل من السوق فيهشم أنفه . فيحكم عليه عمر بالقصاص فيرتد كافراً لأن الإسلام يساوي بين الناس .	١ ــ أبو دجانه يتبختر بين الصفوف يوم أحد بعد أن أخذ السيف من النبي ﷺ على أن يقاتل به حتى يفل . فيقول ﷺ : «هذه مشية يكرهها الله إلا في هذا الموضع» .
٢ ــ المرأة التي تجر ثوبها خيلاء وتترفع عن الناس وتزهو بمالها أو نسبها أو جمالها .	٢ ــ المؤمنة التي ترفع رأسها عالياً معتزة بلباسها الإسلامي السابغ حين تدخل مجتمعات أخرى .
٣ ــ طلب السادة من قريش من النبي ﷺ أن يطرد الضعفاء والفقراء ، ويخصص لهم مجلساً لا يحضره هؤلاء ، حتى يسمعوا له . فرفض النبي طلبهم	٣ ــ ربعي بن عامر يدخل مجلس رستم فيخرق السجاد برمحه ويرفض الانحناء . ويقول : يامعشر الفرس كنا نظن أنكم أصحاب أحلام ، فإذا بكم يستعبد بعضكم بعضاً .

كذلك ينبغي أن نتذكر أن أبا بكر كان يبكي في صلاته ويرتجف خشوعاً وفرقاً.. لكنه لم يكن ضعيفاً.. فلقد وقف دون رسول الله ﷺ مرة وقد همت قريش بقتله فصاح بهم : (وَيْحَكُم أتقتلون رجلاً أَنْ يقول ربي الله) . فالتفتوا إليه يضربونه وهو صامد لهم يحمي رسول الله ﷺ ، وهو الذي وقف بثبات في وجه الردة فلم يضعف ولم

١ ــ غمط الناس : أي نفي الآخرين . والحديث رواه مسلم .

يتزعزع. بينما سائر الصحابة يميلون إلى مهادنة المرتدين.. وها هي ذي عائشة رضي الله عنها تتولى توضيح الفارق بين الورع والضعف حين قالوا لها عن رجل ضعيف منحن: إنه زاهد. فقالت: (كان عمر أزهد الناس لكنه كان إذا تكلم أسمع وإذا ضرب أوجع وإذا مشى أسرع).

ولقد كانت خطة القرآن في القضاء على المرضين (الاستكبار و الاستضعاف) أن يبدأ من المستضعف.. من رجل العصا فيحرره من العبودية للبشر ويجعل منه عبداً لله وحده. وهكذا يرتقي به إلى مرحلة المستضعف المؤمن: رجل الفكرة: الذي لا يطيع إلا في الخير. والوصول إلى هذه المرحلة هو الذي يجعل الحاكم مضطراً لأن يأمرهم بما يطيعون. وهذا يعني البدء من القاعدة لا من القمة فتغيير أو قتل الحاكم لا يغير مجتمعاً.

ثم يتابع التسلسل الطبيعي طريقه ويصبح المسلم خليفة لله في الأرض.. ويسعى المجتمع المسلم لمنع الظلم والاستعباد في الأرض. أي أنه يصل إلى المرحلة الثالثة: لن أسمح لك بالظلم حتى أموت. أي أن نقطة الانطلاق في تغيير الواقع المليء بالظلم هو تغيير ما في الأنفس.. تغيير نفسية المظلوم بالذات لأنه غالباً هو الذي يظلم نفسه ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾(آل عمران ــ ١٦٥).. أما أن نبدأ من المستكبر فذاك هو الطريق المسدود.. يقول مالك بن نبي: (لقد قضينا مائة عام تقريباً ونحن نلعن الاستعمار. فهل تغير وضعنا بعد أن تخلصنا منه؟! وهذه اليمن لم تطأها قدم الاستعمار.. فهل هي أحسن حالاً منا..؟! إن أمريكا قد خرجت من فيتنام كما خرجت قبل ذلك من اليابان.. وذلك لأن القوة المادية مهما كانت قوية لا تملك أن تستعبد حراً..).

وإن التخلص من الاستعمار لا يفيد إلا إذا كان الشعب قد تحرر من القابلية للاستعمار. يقول الرسول ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» قالوا: أوَ من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم

الوهن» قالوا: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

إنها حالة الاستضعاف التي تمثلها ملايين المسلمين الآن.. وقد أصبح المشهد مألوفاً.. مشهد ملايين المسلمين يخضعون لحفنة من المستكبرين.. يقول المودودي ــ رحمه الله ــ (إن عدد الإنكليز الذين دخلوا إلى الهند أثناء الاحتلال البريطاني لا يتجاوز ثلاثمائة فرد استطاعوا أن يتحكموا بالملايين). ورسول الله ﷺ يشخص الداء عند المستضعف. «حب الدنيا وكراهية الموت» إنه الحرص على حياة ليس فيها كرامة الحياة. وما ذلك إلا لأنهم ما قدروا الله حق قدره.. وما عرفوا قيمة الإسلام.. دينهم الذي ينتسبون إليه. وإن من لايعرف مزايا دينه وعيوب النظم الباقية التي تحيط به، لا يستطيع أن يواجه العالم بكرامته كمسلم.. بل يشعر بالذل والاستضعاف أمام عالم الكبار. إنه لا يستطيع أن يدخل إلى المحافل الدولية كما دخل ربعي بن عامر رافع الرأس ثابت الجنان مستيقن الفؤاد بأهمية الرسالة التي يحملها للعالم.. مدركاً تفاهة المبادىء والنظم التي تحكم هؤلاء وتجعلهم يستعبد بعضهم بعضاً.. إن ربعي دخل إليهم داعياً إلى الله.. محرراً ومخلصاً لهم من الظلم.. أما مسلم اليوم فشتان.. إنه يدخل إلى المحافل الدولية ذليلاً شاكياً مستنجداً يطلب المساعدات لحل مشكلاته ويستجدي القروض لتدارك أزماته..

إن الجهل هو الذي يجعل المسلم مستعبد النفس لمن ملكوا الدنيا من حوله. إن عدم إدراكه لسنة الدنيا والآخرة يجعله يؤثر العاجلة.. ويشحن نفسه بالأوهام حتى يتهيأ له أن مصيره متعلق بأيدي المستكبرين.. ورحم الله علماءنا.. لقد كانوا يقفون أمام السلاطين فيذكرون هيبة الله فيرون السلطان كالقط.. أما مسلم اليوم فإنه يحسب القط سلطاناً ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه..﴾(الزمر ــ ٦٧). لقد تغيرت النظرة إلى الحاكم فبدلاً من أن ينظر إليه على أنه يرعى أمته ويقوم بخدمتها وحمايتها من الأخطار..أصبحت الأمة هي التي تخدمه وترعاه.. وفي كثير من بلدان العالم الإسلامي انقلبت الأمور بشكل عجيب حتى أصبح (رجل

---

١ ــ رواه أبو داود والبيهقي، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح.

الأمن) مصدر خوف ورعب.. وفوهة السلاح الذي بيده تحولت فاتجهت إلى صدور الناس بدلاً من التوجه إلى صدور أعدائهم..!!

ومع ذلك فإن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح عليه أولها.. ولا بد من البدء من النفس ورفعها إلى مستوى ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾(العلق ـ ١٩). ولا بد من المعاناة والمحنة.. ولا بد من الضحايا.. ولا بد من الصبر.. فإن الهدف كبير ونبيل. والجنة التي عرضها السموات والأرض لا تدخل مجاناً..! ﴿أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون..؟! ﴾(العنكبوت ـ ٢).

ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

وإن من لم يتعاف من الاستضعاف واستمر في خضوعه لمنطق القوة، لا بد أن يخضع الناس بالقوة ويستكبر عليهم لو وصل الأمر إلى يده.. وهذا ما حاول موسى ـ عليه السلام ـ أن يفهمه لقومه عندما اشتكوا إليه من أذى فرعون: ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ (الأعراف ـ ١٢٩). فكأنهم يقولون: لم تحل لنا مشكلتنا..فقال لهم: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ (الأعراف ـ ١٢٩).؟! هل تستعبدون الناس لو استخلفكم..؟!

ولا بد من فترة كافية من الامتحان تثبت شفاء المريض من الاستضعاف..

إن هذا لا يعني أن يكون المسلم جلفاً يتصرف بدون حكمة وبدون رفق. فلقد أُمر موسى عليه السلام بالليونة في دعوة فرعون وعرض الرسالة عليه: ﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾(طه ـ ٤٤). ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾(النحل ـ ١٢٥). وما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه. إلا إذا خلطنا بين الضعف والرفق.. وهذا يحتاج إلى دقة ونضج.

وإلى جانب تغيير النفوس المستضعفة ينبغي الانتباه إلى بناء الشخصيات السليمة في الأجيال الناشئة.. ويتحدث هادفيلد في كتابه (علم النفس والأخلاق) عن هذه المشكلة ويقول: (إن الطفل بين الثالثة والرابعة.. إذا تعرض للتدليل ولبيت كل طلباته أصبح مستكبراً..أما لو تعرض لمعاملة قاسية فيها حرمان نشأ مستضعفاً.)

نعود معاً إلى الآية فنفهم منها أن المؤمن أمامه موقفان كي يحافظ على إيمانه:

١ ــ إما أن يعلن إيمانه ويدعو إلى الله ويصبر على ما يلاقي من أذى.

٢ ــ أو يهاجر إلى بلد يستطيع فيه أن يعبد الله ويدعو إليه.

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً .. ﴾.

مراغماً: قال ابن عباس: التحول من أرض إلى أرض. يقول ابن كثير: (والظاهر والله أعلم أنه المنع الذي يتخلص به ويراغم به الأعداء). وجاء في مختار الصحاح: (المراغم: المذهب والمهرب في الأرض، وهي مأخوذة من الرغام (وهوالتراب الذي جعل الله فيه أرزاق البشر.. فمنه يخرج الزرع والماء والمعادن. لهذا يجعله مالك بن نبي أحد عناصر تركيب الحضارة الثلاثة :(إنسان + زمن + تراب = حضارة. مع تدخل عامل مركب وهو الدين)[1].

وإن الله سبحانه لم يحصر قوته ورزقه في بقعة واحدة.. ﴿ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم. للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة﴾ (الزمر ــ ١٠). ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ..﴾. وذلك لأن الأعمال بالنيات.. وكما حدث لقاتل المائة حين خرج مهاجراً تائباً فمات وأخذته ملائكة الرحمة. وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن ضمرة بن جندب خرج إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية.

وهكذا نجد الترغيب بالهجرة في هذه الآيات بطريقتين:

١ ــ رسم صورة احتضار الذين تخلفوا عن الهجرة وصورة العذاب الذي سينالهم.

٢ ــ إزالة المخاوف من النفس ووعدها بأنها ستجد الخير والعون في هجرتها إلى الله ورسوله. حتى في حالة الموت فإن الأجر قد وقع على الله، وهو مضمون.

---

١ ــ راجع شروط النهضة لمالك بن نبي.

وقف الإمام محمد عبده عند موضوع الهجرة قليلاً .. ومما قال : شرعت الهجرة لأسباب ثلاثة :

١ ــ كل مسلم يقيم في بلد يمنع من تطبيق دينه فعليه أن يهاجر إلى بلد يستطيع فيه تطبيق دينه .. ﴿إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾ (العنكبوت ــ ٥٦) .

٢ ــ الهجرة لتلقي العلم : ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ..﴾ (التوبة ــ ١٢٢) .

٣ ــ يجب أن يكون للمسلمين جماعة .. ثم دولة تمثل وتنشر الإسلام . وعندما توجد هذه الدولة فيجب على المسلم أن يهاجر إليها .

وصاحب الظلال يقول : (تحدد الهجرة هنا بأنها في سبيل الله وهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام . فليست هجرة للثراء أو هجرة للنجاة من المتاعب أو هجرة للذائذ والشهوات ..) .

ولقد كان الأمر بالهجرة في ذلك الوقت لوجود مجتمع مسلم يحكم بالقرآن .. ولكون المسلمين خارج هذا المجتمع يمنعون من تطبيق دينهم .. أما الآن فإن بلدان العالم الإسلامي في التخلف عن الإسلام سواء . وقد تجد بعض الفروق البسيطة بينها من حيث درجة الالتزام بالإسلام .. لكن ليس منها بلد واحد بني على الإسلام .. والداعي إلى الله سيتعرض للأذى في كل أقطار العالم .. ولكن بنسب متفاوتة .. فلا بد من الصبر ..

رابعاً ــ قصر الصلاة وصلاة الخوف

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ .

القرآن كتاب الحياة ينتقل مع المسلم خطوة خطوة .. وها نحن الآن مع المهاجر أو المجاهد وقد حان وقت الصلاة .. فكيف يصلي والمخاوف تحيط به من كل جانب ..؟!
هل يترك الصلاة ويقضيها في وقت آخر يصبح فيه آمناً ..؟!

بل إن الإنسان وسط هذه المخاوف هو أحوج ما يكون إلى الصلاة .. فهي صلة مع الله والتجاء إليه واستعانة به .. وهنا يأتي أعظم تعبير عن أهمية الصلاة حيث تذكر مع آيات الجهاد . ويعلمهم كيف تقام الصلاة أثناء المعركة .. ويأتي حكم قصر الصلاة للمسافر .

صلاة الخوف :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ .

وردت أحاديث تدل على أن صلاة المسافر ــ ولو كان آمناً ــ تصلى ركعتين قصراً إلا المغرب فإنها تبقى ثلاثاً .. عن أنس يقول : (خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة . فسئل أنس : أقمتم بمكة شيئاً ؟ قال : أقمنا بها عشراً .) (رواه البخاري) . وعن يعلى بن أمية قال : (سألت عمر بن الخطاب قلت له : قوله تعالى : ﴿**فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم ..**﴾ وقد أمن الناس ؟ فقال لي عمر رضي الله عنه : عجبت مما

عجبت منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته ») (رواه الإمام أحمد) .

فالأحاديث تدل على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف في السفر . ولهذا يقول بعض المفسرين : إن القصد هنا هو قصر الصلاة في حالة الخوف في الكيفية .. أي التخفيف من حركات الصلاة بمثل القدر الذي تسمح به حالة الخائف فيجوز له أن يصلي قائماً أو سائراً أو راكباً. والله أعلم. ويعقب السياق بتحذير المؤمنين من أعدائهم حتى يحذروا ويحتاطوا: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ .

صلاة الخوف في أرض المعركة :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ .. ﴾ .

سبب نزول الآية : « كنا مع رسول الله ﷺ فاستقبلنا المشركون وعليهم خالد ابن الوليد وهم بيننا وبين القبلة ، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا : لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ، ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم ، قال فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر : ﴿**وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة**﴾ قال : فحضرت . فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح . قال : فصفنا خلفه صفين . قال : ثم ركع فركعنا جميعاً ، ثم رفع فرفعنا جميعاً ، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم . ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء . ثم ركع فركعوا جميعاً ثم رفع فرفعوا جميعاً ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم . فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا ثم سلَّم عليهم ثم انصرف .قال : فصلاها رسول الله ﷺ مرتين : مرة بعسفان ومرة بأرض بني سليم » (رواه أحمد وأصحاب السنن) . ويقال بأن هذه الحادثة أثرت في خالد فشعر بأنهم مؤيدون بقوة خفية .. وفي حديث آخر بأنه ﷺ : « صلى بالطائفة الأولى

ركعتين ثم بالطائفة الثانية ركعتين . فكان لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتين ركعتين » (تفرد به أحمد) .

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ ..﴾ . الخطاب لرسول الله ﷺ .. ثم لخليفته من بعده . إن قائد الجيش هو إمام المسلمين في الصلاة .. وليس هو ذاك الرجل الضعيف ــ الدرويش ــ الذي وظفوه إماماً للمسجد ــ بدلاً من أن يتسول ــ بل إمام الصلاة هو القائد الحصيف الذي يشرف على تخطيط المعركة .

﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ ..﴾ .

وصلاة الخوف لها أنواع كثيرة .. فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة وتارة في اتجاهات أخرى .. وتكون الحرب أحياناً بحيث تسمح بصلاة الجماعة .. وتارة تلتحم المعركة فلا يقدرون على الجماعة بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها .. رجالاً ــ يمشون على أرجلهم ــ أو ركباناً يضربون العدو أثناء الصلاة . وقد ذكرت صلاة الجماعة في المعركة في كتب الفقه بأشكال مختلفة .. والمهم في الأمر أن المصلين يكونون في صفين يتناوبان الصلاة والحراسة . ويوصيهم الله بأخذ الحذر والسلاح .

﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ..﴾ .

اذكروا الله في أية وضعية كنتم .. ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ (الأحزاب ــ ٤١) . إن ذكر الله مطلوب في كل حال ، لكن الله ينبه إليه في حالات خاصة تشتد الحاجة فيها إلى ذكر الله الذي يمنح المؤمن القوة والصبر والرضى .. فهو يأمر موسى عند تكليفه بالدعوة إلى الله : ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري﴾ (طه ــ ٤٢) . وكذلك حين كلف محمداً ﷺ بالإنذار :

﴿يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر﴾ (المدثر ــ الآيات ١ ، ٣) . وما أجدر الدعاة إلى الله أن ينتبهوا إلى أهمية الذكر .. فهو زاد الطريق للدعاة .

﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ .

كتاباً موقوتاً : أي فريضة محددة بمواعيد خاصة .. لها أوقاتها التي لا يجوز تجاوزها .. استدل العلماء من هذه الآية أن الصلاة إن فات وقتها لا تقضى .. ولا معنى للقول بجواز قضاء الصلاة طالما أنه لا يجوز للمسلم أن يترك الصلاة في أي حال من الأحوال . أما من كان يتهاون بالصلاة ويتركها عمداً أو كسلاً .. ثم تاب .. فإن عليه أن يستغفر الله ويكثر من النوافل ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ (هود ــ ١١٤) . والإسلام يجبُّ ما قبله ــ أي يمحو ــ والتوبة تمحو ما قبلها .. ولا نملك أثراً عن رسول الله ﷺ يدل على قضاء الصلاة .. إلا النوم والنسيان إن فاتت الصلاة بسببهما .. فيصلي النائم عندما يصحو والناسي حين يذكر : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها حين يذكرها » (رواه البخاري ومسلم) .

نستنتج من هذه الآيات :

١ ــ أهمية الصلاة فهي سلاح المؤمن الذي لا يستغني عنه .. بل هو في أشد الحاجة إليه خاصة في الساعات العصيبة . لهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . ونحن أحياناً تغيب عنا بعض معاني العبادات بحكم الإلف والعادة .. بينما يشعر بها من كان في ظمأ إليها وأضناه البحث عنها حتى وجدها .. تقول فتاة ألمانية (فاطمة هيرين) بعد أن أسلمت : (وجدت قرة عيني في الصلاة . فقد أحسست إحساساً قوياً أن الله معي وأنا أقف خاشعة بين يديه أرتل القرآن وأصلي) .

إن المسلم حين يركع ويسجد لله يعلن حريته من أن يكون عبداً لأحد ، ويعلن ثورته ضد الظلم في كل صورة .. إن صلاة المسلم الأول كانت مصدر قوته وعزيمته ينطلق منها ليعمر الدنيا ويبني الحضارات ..

أنا مؤمن بالله لا أحنو الجبين لغير ربي

ما هنت إلا حين جانبت الهدى وضللت دربي
سأحطم القيد العنيد وأستهين بكل خطبِ
في موكب الإسلام ، في درب العلا سيسير ركبي

وبقدر ما أعطى الإسلام أهمية للصلاة بقدر ما فقد المسلم ارتباطه بها .. فهو قد ضيّعها إما بقوله : ليس الإيمان بالصلاة .. أو بأداء شكلها دون أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر .. أصبحت تقليداً خاوياً . ولا خير في دين لا صلاة فيه .. ولا معنى للإيمان بدون صلاة .. إن الذي يقف بين يدي ربه خمس مرات كل يوم خاشعاً ذاكراً ، لابد أن تخشع جوارحه فيبتعد عن المعاصي .. ولهذا حرص الأنبياء على الصلاة وأمروا الناس بها .. انظر مثلاً في سورة مريم .. هذا الإلحاح المتكرر على الصلاة على لسان عيسى عليه السلام : ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ .. وإسماعيل : ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً .﴾ ، ثم يقول : ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ ، ثم يقول : ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ . إن الارتباط وثيق بين إضاعة الصلاة واتباع الشهوات .. إن العلاقة بينهما جدلية ــ متبادلة ــ .. ويهدد الله سبحانه ﴿فسوف يلقون غياً﴾ .. فلا يُلقون إلى التهديد بالاً .. ولو كان التهديد من عبد مخلوق لاختلف الحال ..؟!

والتهديد يشمل الدنيا والآخرة .. فإن من يتهاون بدينه ويعطي الأولوية لشهواته قد دخل في الطور الثالث من أطوار الحضارة وهو الأفول والانهيار .. ولعذاب الآخرة أشد وأعظم .

٢ ــ أهمية صلاة الجماعة بالذات : حتى أنه لا يرخص بتركها أثناء المعركة ، ولا يدع كل واحد يصلي منفرداً طالما الحال يسمح بصلاة الجماعة . حتى استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب صلاة الجماعة ؛ حيث اغتفرت أفعال كثيرة من حركات الصلاة لأجل الحرص على الجماعة أثناء الحرب .. والمسلمون الآن قد زهدوا في الجماعة حتى تكاد المساجد تتعطل عن كل وظائفها .

٣ ــ أسلوب القرآن في التعبئة الروحية : أسلوب فريد يضع المسلم في حالة توتر بين الخوف والرجاء :

أ ــ فهو يحذره من العدو المتربص غفلة من المؤمن .

﴿ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ . ﴿ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ .. وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾ .

ب ــ التطمين والتثبيت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ .

ج ــ ثم يفرق بين المؤمن والكافر في الأهداف والمصير .. فلا ينبغي للمؤمن أن يقبل الهوان أو يضعف فهو يرجو ما عند الله .. ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ (النساء ــ ١٠٤) .

فإذا احتمل الكافر الآلام في سبيل باطله ، فما أجدر المؤمن أن يكون أكثر صبراً واحتمالاً في سبيل حقه . لأن الأهداف حين تتماثل يكون الصبر والثبات متماثلاً بين الفريقين . أما عندما تتفوق أهدافك فإنك تتفوق في ثباتك .

إن الآية هنا تعطي المسلم مسوغ البذل والصبر والثبات .. في عالم لم يعد يملك من المسوغات إلا التكالب على الشهوات والغنائم . إن من يملك أهدافاً عليا لا توجد عند مناوئيه ، يتحرك لها بهمة ونشاط وصبر أكبر ... وتلك هي التعبئة المعنوية للجيوش . وقد أصبحت الأمم تولي اهتماماً لهذا الجانب وتنشىء دوائر ومراكز للتوجيه المعنوي في الجيوش . إن التعبئة المعنوية التي أعطاها القرآن للمؤمن منحته تماسكاً عجيباً حتى في وجه الهزيمة . تأمل تماسك المسلمين بعد أحد في الحوار الذي دار بين أبي سفيان وعمر .. حيث يقول أبو سفيان : (اعل هبل ..) فيرد عمر : (الله أعلى وأجل) . فيقول : (يوم بيوم بدر والحرب سجال ..) فيرد عمر : (لا سواء ؛ قتلانا

مباشرة إلى حمراء الأسد لتعقب المشركين .. فلا يتخلف منهم رجل شهد أحداً حتى الجرحى .. وإن من بينهم أخوان جريحان أحدهما أكبر جرحاً .. قالا : والله لا نتخلف عن رسول الله ﷺ فخرجا .. فكان إذا عجز الذي إصابته أبلغ حمله أخوه وتابع به .

هذه توجيهات في معركة مكشوفة مادية .. لكننا في أمس الحاجة إليها في المعارك الفكرية التي قد تكون خفية .. خاصة على المسلمين .. فلقد دبروا خططاً مروعة لإبعاد الجيل الناشيء عن الإسلام . فيا أيها الذين آمنوا : ﴿**خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً**﴾ .

ثم يأتي التعقيب : ﴿**وكان الله عليماً حكيماً**﴾ . وإن من لم يتفاعل مع الآيات ويطبق أمر الله لن يتذوق مغزى التعقيب الإلهي ﴿**عليماً حكيماً**﴾ .

الفصل الثالث عشر

أحكام بمناسبة حادث سرقة

إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾

۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ

ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ
وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ
وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن
يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ
أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ
مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾

أولاً ــ توجيهات وتذكير بفضل الله

وقصة السرقة هذه رويت من عدة مصادر يمكن أن نستخلص من مجموعها صورة إجمالية للحادثة مفادها : أن قتادة بن النعمان وعمه رفاعة غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته ، فسرقت درع لأحدهم (رفاعة) . فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم بنو أبيرق . فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعي ــ وفي رواية : إن بشير بن أبيرق .. وفي هذه الرواية أن بشيراً هذا كان منافقاً ــ فلما رأى السارق ذلك ، عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي[1] (اسمه زيد بن السمين) ، وقال لنفر من عشيرته : إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده . فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا نبي الله إن صاحبنا بريء ، وإن الذي سرق الدرع فلان ، وقد أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك . ولما عرف رسول الله ﷺ أن الدرع وجدت في بيت اليهودي قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رؤوس الناس . وكان أهله قد قالوا للنبي ﷺ قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي : إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت ! قال قتادة : فأتيت رسول اله ﷺ فكلمته . فقال : « عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة ..؟ » قال : فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك . فأتاني عمي رفاعة فقال : يا بن أخي ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال : الله المستعان . فلم نلبث أن نزلت الآية :

---

١ ــ وفي رواية اتهم بها رجلاً صالحاً هو لبيد بن سهل .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾. أي بني أبيرق وخصيماً أي تدافع وتخاصم عنهم ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ : أي مما قلته لقتادة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ..

فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة . قال قتادة : لما أتيت بالسلاح إلى عمي ــ وكان شيخاً قد عمي في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولاً ــ فلما أتيته بالسلاح قال : يا بن أخي هي في سبيل الله . فعرفت إن إسلامه كان صحيحاً . فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[1] .

يقف صاحب الظلال عند هذه القصة ويذكر ملاحظات خلاصتها :

لقد كان هناك أكثر من سبب للإغضاء عن الحادث :

١ً ــ فهذا المتهم يهودي . ونحن نعلم ما فعل اليهود من كيد وغدر بالمسلمين .

٢ً ــ والسارق من الأنصار وهم عدة الرسول ﷺ الذين بذلوا كل شيء وآثروه على أنفسهم .

٣ً ــ عدم إعطاء فرصة لليهود كي يوجهوا حملة دعائية ضد الأنصار .

ولكن الأمر كان أكبر من ذلك بكثير .. إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة بريء ــ وإن كانت هذه التبرئة ذات شأن كبير ــ وإنما كانت : إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى ولا مع العصبية ، وكان الأمر هو تربية الجماعة المسلمة الناشئة لتنهض بتكاليفها في خلافة الأرض وقيادة البشرية بهذا القانون الإلهي العالمي الفريد في عدالته .. هذا القرآن الذي يجعلها جديرة حقاً بقيادة البشرية . إن هذا الحادث وحده يكفي للدلالة على أن هذا القرآن من عند الله .. لأن البشر لا يمكن أن يرتفعوا إلى هذا المستوى إلا بوحي من

---

١ ــ راجع تفسير « ابن كثير » و« في ظلال القرآن » .

الله . وإن قوانين البشر وعدالتهم تبدو مهزلة أمام هذا الحادث .. وإن رسول الله ﷺ لا يمكن أن يتصرف بهذا الشكل لو كان القرآن مفترى من عنده .

وتبدأ الآيات بتوجيهات للنبي وتذكير له بفضل الله عليه .

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾ .

الآيات تفوح منها رائحة الغضب للحق والغيرة على العدل . والخطاب موجه إلى كل من يحكم بين الناس .. وليس خاصاً بالنبي ﷺ . وقد سبق له أن أمر الأمراء : ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ (النساء ـــ ٥٨) . والآن تأتي هذه الحادثة لتبين : إلى أي مدى يحتاج الحاكم إلى الحذر والانتباه والتحقيق كي يحكم بالعدل .. ورسول الله ﷺ كان يعلم أنه بشر يمكن أن يخطىء في الحكم ؛ لأنه يحكم بحسب الأدلة التي تقدم إليه ، فكان يحذر المسلمين من التلاعب ويحرك الرقابة الداخلية في نفوسهم .. يقول ﷺ لرجلين اختصما في مواريث بينهما قد ، رست ليس عندهما بينة فيها : « إنكم تختصمون إلي وإنما أنا بشر . ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض . وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها انتظاماً في عنقه يوم القيامة » . فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقي لأخي . فقال رسول الله ﷺ : « أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما ثم توخيا الحق بينكما ثم استهما . ثم ليحلل كل منكما صاحبه » (رواه الإمام أحمد) .

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ .. ﴾ .

يذكر بالنعمة الكبرى : نزول القرآن بالحق ليكون مرجعاً للناس . إن هذا الكتاب لم ينزل للتبرك والتقديس فقط .. ولم ينزل ليقرأ على الأموات والقبور .. ولم ينزل ليستعمل بدلاً من الأدوية والعقاقير .. وإنما نزل ليؤدي رسالة عظيمة وهي : الحكم بين الناس بالحق والعدل .. وكل من ترك الحكم بهذا الكتاب فقد ترك الحق والعدل وعرض البشر للظلم والشقاء .

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ :تحذير للمؤمن من أن يدافع عن إنسان إلا إذا تبينت براءته . وليس معنى ذلك أن يتسرع في الإدانة .. ولكن الموضوعية تقتضي أن لا يدافع عن إنسان إلا إذا تحقق من براءته ، ولا يدين ويتهم آخر إلا إذا تأكدت التهمة عليه .

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ . قيل : استغفر الله مما قلت لقتادة (عندما قال له : عمدت إلى أهل بيت عرفوا بالصلاح واتهمتهم بغير بينة ؟) . ورسول الله ﷺ إنما كان يحكم بظاهر الحادثة ، فلماذا يوجّه إليه اللوم ويقال له : استغفر الله .؟!

إن رب العالمين يشعرنا بذلك بخطورة إقامة العدل وأهمية التحقق والتثبت وعدم التسرع في البت في الأمر قبل أن نتبين . إن الله يربي النفوس على التجرد من الهوى : ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (ص ــ ٢٦) . وقد يكون الهوى خفياً حتى على صاحبه .. والرغبة في تبرئة ساحة المسلم وإدانة يهودي قد تشكل دوافع خفية تحرك الإنسان دون أن يعي .. والله سبحانه يبدأ التكليف بأنبيائه .. ولا يعفي أحداً من المحاسبة واللوم . والأنبياء هم القادة والزعماء ، وهم الأسوة الحسنة للناس،ومن منهج القرآن التدقيق عليهم أكثر .. خلافاً لكل مناهج البشر التي تتساهل مع الزعماء ولا تكلفهم بما تكلف به سائر الناس .

إن القارىء لهذه الآيات ينتشي بروح العدالة والمساواة التي تشع من خلالها .. ويعجز عن التعبير عن مشاعره أمام هذه القمة التشريعية التربوية التي تحققت في واقع عملي .. ولم تبق في حيز النظريات والأماني .. فإذا جاء التوجيه للنبي ﷺ بالاستغفار عن موقفه هذا .. فكيف بحالنا نحن ..؟! ولقد كان ﷺ يستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة .

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ..﴾ .

يؤكد مرة ثانية على أن لا يدافع المسلم ولا يجادل عن أحد حتى يتأكد من براءته .. ويصف هؤلاء بأنهم : ﴿**يختانون أنفسهم**﴾ لأنهم خانوا الجماعة وهم منها (والمسلمون كالجسد الواحد) فلحق بهم الضرر ــ على طريقة القرآن في التنبيه إلى التأثير المتبادل بين الفرد والجماعة ــ وقد خانوا أنفسهم بأن لوثوها بالإثم ﴿وقد خاب من دساها﴾ (الشمس ــ ١٠) .. وقد خانوا أنفسهم لأنهم عرضوها لغضب الله وعقابه .. أولئك محرومون من حب الله .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ .

والوصفان صيغة مبالغة لاسم الفاعل من الخيانة والإثم .. والخوان الأثيم : قد **تعوَّد الخيانة والإثم ومارَسَها وأَلِفها حتى ما عاد يجد فيها حرجاً.**

والآيات هنا تبدأ بالتهديد بعقاب معنوي وهو الحرمان من حب الله . وتلك هي النعمة الكبرى التي لا يدركها إلا من جربها .. ومن حرم منها فقد حرم من كل شيء .. « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ؛ ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه .. » (رواه البخاري) . ثم يصور حالهم وهم يدبرون الخيانة :

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ..﴾ .

والبشر كلهم بما فيهم الأنبياء قد تنطلي عليهم الحيل .. لكن هل تنطلي الحيل على الله ..؟! وقد يخفى ما يبيتون ويدبرون في الخفاء عن سائر الناس .. لكن هل يخفى على الله شيء ..؟!

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ .

ولو كانوا يحسون برقابة الله لما فعلوا ذلك .. وتلك هي علة المسلم الحالي : يُسوِّغ موقفه أمام الناس وينسى رب الناس .. فماذا تفعلون حين تقفون بين يديه في ذلك اليوم ..؟! وهل يستطيع أحد أن يدافع ويجادل عن الخائنين في الآخرة ؟! .

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ..؟! ﴾ .

إن المحامي في الدنيا يمكن أن يصل إلى درجة من البراعة يبرىء فيها المجرم ويعفيه من العقاب ، ولكن أين المحامي في الآخرة ..؟! ومن يستطيع أن يقوم بدور المحامي أمام الله في ذلك اليوم ؟!

﴿ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ ؟!

إن الآية تمسك بتلابيب المسلم وتهزه من الأعماق .. ولا خير فينا إن لم نصل إلى مرحلة إدانة النفس والتحقيق معها : ترى هل أنا بريء أمام الله يوم القيامة ..؟! حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا .

وبعد هذه الحملة الغاضبة على الخونة والعتاب الشديد للمنافحين عنهم .. يأتي تقرير لقواعد إسلامية بشأن الجريمة والحساب .. والقرآن يذكر أحياناً حادثة ثم يخرج منها بقاعدة .. وأحياناً يبدأ بتقرير القاعدة ثم يذكر المثال . وهذه أساليب لتوضيح الفكرة وترسيخها في الأذهان .. وهنا يستخلص من هذه الحادثة ثلاث قواعد :

١ ــ باب التوبة مفتوح أمام المسيء :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

فمن عمل سوءاً يسوء به غيره أو ظلم نفسه بعمل يضرُّ به نفسه .. فليسارع إلى الله قبل أن تفوت الفرصة ويغلق باب التوبة . و« يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم » (رواه مسلم) . ولو أن هذا السارق لجأ إلى الله وتاب وأصلح لتحرر من ذنبه . لكنه بفعلته هذه قد ظلم نفسه .. والقرآن يحذر من ظلم النفس ولا أهمية كبرى للظلم الذي يقع عليك من الآخرين ؛ لأن مفتاح المشكلة راجع إلى ظلم الإنسان لنفسه .. فالاستعمار لا يستطيع أن يحتل كل البلاد وإنما يحتل من يجد فيها القابلية للاستعمار .. والمستكبر لا سلطان له إلا على

المستضعفين .. ومفتاح القضية أن تغير نفسك ولا تظلمها ..

٢ ــ فردية التبعة :

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

مثل قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (الأنعام ــ ١٦٤) . ولا توجد جريمة موروثة كما تتحدث الكنيسة . والجزاء في الآخرة فردي ويعقب ﴿**وكان الله عليماً حكيماً**﴾ : لا يغيب عنه شيء من كسب الناس ، وهو يشرع عن علم وحكمة فيضع كل حكم في مكانه .. ويعاقب كل إنسان بما يستحق . ويضع لكل آية التعقيب المناسب .

٣ ــ مضاعفة الجرم لمن يكسب إثماً ثم يرمي به بريئاً :

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ .

البهتان : الكذب والافتراء الذي يجعل البريء يبهت ويسكت لا يحير جواباً .. ويفسر ذلك قول رسول الله ﷺ في حديث الغيبة : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » . لقد أضاف الفاعل إلى جريمته جريمة ثانية .. وهو يقصد نجاة نفسه وبراءتها أمام الناس وينسى أن الله لا تخفى عليه خافية .. ولهذا تكررت كلمة ﴿**يكسب**﴾ بدلاً من يفعل ، لأنه يفعل هذا وهو يظن أنه كسب له .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ .. ﴾ . يمنُّ الله على رسوله وعلى البشر كافة بالإنقاذ من الضلال والحماية من المضلين .. ويبين سنته في ذلك :

﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ ..

إن من يسعى لإضلال الناس وإيذائهم لا يضل إلا نفسه : ﴿ولا يحيق المكر

السيىء إلا بأهله﴾ (فاطر ــ ٤٣) .

١ ــ لأن العلاقة حميمة بين الفرد والمجتمع . فمن يشيع جو الضلال في المجتمع لا بد أن تنعكس عليه الآثار ويلحق به الضرر .

٢ ــ « وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك » (رواه الترمذي وهو صحيح) . إن المؤمن فطن حذر يتخذ الأسباب ثم يتوكل على الله رب الجميع ومن بيده أمر الجميع .. ولقد قال الله تعالى للشيطان : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ (الحجر ــ ٤٢) . فالمؤمن لا يستطيع أحد أن يضله .

٣ ــ أما هؤلاء المضلون فإنهم يضرون أنفسهم بتعويدها على الشر وتدنيسها بالكيد للآخرين . وينبه المسلم أن يكون حذراً من المضلين ، فلقد كاد الرسول ﷺ يقع في إضلالهم فكيف بنا نحن .؟! وما السبيل التي تحمي المسلم من الوقوع في ذلك .؟

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ .. ﴾ .

إن الاعتصام بالكتاب والسنة هو المنقذ من الضلال : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله » (أخرجه مالك في الموطأ وهو حديث حسن) .

﴿**الكتاب والحكمة**﴾ . والحكمة : فهم مقاصد الكتاب وأسراره ووجه موافقته للفطرة وانطباقه على سنن الاجتماع ومصالح الناس في كل زمان . فمن تعلم الكتاب والحكمة فقد صار في حصن يحميه من الضلال .

وقد أشرت سابقاً إلى موضوع الحكم والحكمة وأن الناس فيه أربعة أصناف :

١ ــ من يعرف الحكم فقط .

٢ ــ من يعرف الحكمة فقط .

٣ ــ من يجهل الحكم والحكمة .

٤ ــ من يعرف الحكم والحكمة . وهي الحالة التي يجب أن يسعى إليها المسلم لأنها هي التي تعصم من الضلال ، وتعطي القدرة على التماسك والثبات والقيام بالخلافة على الأرض .

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

إن الإنسان عامة والمسلم خاصة يتحرك في إطار من فضل الله ونعمته .. فهل يشعر بفضل الله العظيم الذي منه التشريع القرآني ..؟! إن من يعرف الإسلام على حقيقته ويتأمل في حياة الناس الذين يتخبطون بعيداً عن القرآن .. يعرف طرفاً من نعمة الله وفضله .

ولقد تعودنا نحن أن لا نرى إلا الجانب المادي من فضل الله . فنقول عن رجل : إنه (منعم عليه) إذا كان غنياً . بينما الآية تحدد أن فضل الله العظيم هو الكتاب والحكمة .. ﴿**وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً**﴾ .. يقول الغزالي في باب العلم من كتابه الإحياء : (العلم خير لك من المال .. العلم يحرسك وأنت تحرس المال . والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق) .. والمضلون الآن يسيطرون على وسائل الدعاية في العالم ويستخدمونها بأساليب ماكرة يظهرون فيها الباطل على أنه حق وسعادة .. فقد أطلقوا على الربا فائدة .. وعلى الانحلال الخلقي تحرراً وتقدمية .. وعلى التمسك بالدين تخلفاً ورجعية .. وعلى الميوعة فناً وجمالاً ..!! واسمع إلى دعاية التدخين الذي أثبت الطب ضرره بالجسم .. فكيف السبيل لإبطال هذا المكر ..؟!

إنه الكتاب والحكمة : الدين والعلم .. لا خلاص إلا بهما .. لقد دلنا القرآن على طريق السعادة في الدارين .. وإن ترك الأوامر القرآنية يؤدي إلى فساد الدنيا قبل الآخرة . . وها هم أولاء المسلمون قد تركوا شريعة الله فأصبحوا عبيداً للشرق والغرب . وصدق رسول الله ﷺ حين قال عن القرآن : (من ابتغى الهدى بغيره أضله الله) . وكما قال عمر : (نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما نبتغِ العزة بغيره أذلنا الله) .

وها هي ذي المرأة المسلمة قد خدعت عن دينها فتركت حجابها وأعرضت عن الآداب القرآنية ، فسقط كيانها في المجتمع وفقدت سعادتها ومكانتها كزوجة ــ يؤثرها الزوج على نفسه ــ وكأم صانعة للأجيال .. ألم تكتب إحداهن في وصيتها قبل أن تنتحر وكانت من البغايا: (إنني أتعس امرأة في الوجود، لأنني حرمت من الحياة العائلية الشريفة ومن أن أكون أماً. .). . .

ثانياً ــ النهي عن النجوى التي لا خير فيها

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ .

النجوى : أن ينحاز جماعة في مجلس ليتحدثوا سراً دون الآخرين . وقد وردت أحاديث تنهى أن يتناجى اثنان ويتركا الثالث إن كان المجلس يضم ثلاثة فقط .

ومن دقة القرآن في الحكم أنه يستثني في إطلاق الحكم . فلا يقول : لا خير في النجوى كلها .. وإنما يقول : ﴿**لا خير في كثير من نجواهم**﴾ . وهو ينهى عن النجوى التي لا خير فيها . مثل هؤلاء الذين تناجوا في موضوع السرقة واتهام البريء . ويستثني من النهي ثلاثة أحوال الأفضل فيها النجوى :

١ ــ الأمر بصدقة : الأفضل فيها الإسرار ؛ تحرراً من الرياء وكي لا يجرح شعور الفقير ..

٢ ــ والأمر بالمعروف : والمعروف هو ما تعارفت عليه النفوس السوية واطمأنت إليه . وهو ما أمر به الله لأنه يتلاءم مع الفطرة .

وقد وقف الغزالي في كتابه الإحياء عند موضوع الأمر بالمعروف . ومما قال :

عندما يفعل الإنسان المنكر يكون السبب إما الجهل أو اتباع الهوى . والآمر بالمعروف عليه أن يميز بين الحالتين ويعرف حالة المأمور . وهذه أول خطوة يجب أن يقوم

بها . فإن كان السبب هو الجهل فالعلاج هو التعريف .. وهنا تواجهنا مشكلة : وهي أنك حين تحاول تعريفه سيشعر بأنك تنسب إليه الجهل ، وقلما يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل ــ وخاصة إذا حدث هذا على الملأ ــ فيغضب ويجتهد في المجادلة والتمسك بموقفه .. والسبب هو ألمه من انكشاف جهله . فلا بد من الرفق واللطف والحكمة في الأمر . إذ أن إيذاء المسلم حرام ، كما أن تركه على المنكر حرام . ومن تجنب السكوت على المنكر ووقع من أجل ذلك بإيذاء أخيه المسلم فحاله كمن يغسل الدم بالبول .

ولقد كان رسول الله ﷺ رفيقاً في تعليمه ونهيه عن المنكر إلى درجة نتعجب منها .. أرأيت إليه حين بال أعرابي في المسجد فقام إليه الناس .. فقال لهم ﷺ : « لا تزرموه » أي لا تقطعوا عليه بوله ، ثم أمرهم أن يريقوا على المكان سجلاً ــ أي دلواً ــ من الماء . ورحم الله الحسن والحسين ورضي عنهما فقد ضربا مثلاً في هذا المجال في تعليم الرجل الذي أساء وضوءه بأن تظاهرا أنهما يحتكمان إليه ليحكم أيهما أحسن وضوءاً .

كذلك يمكن أن يمهد لإشعاره بهذا المنكر وتعريفه وتعليمه بأن يبدأ من الجوانب الطيبة فيه فيزكيها .. ثم ينتقل من الإيجابيات إلى النهي عن هذا الأمر السلبي بالحكمة والموعظة الحسنة ..

وإن كان السبب هو اتباع الهوى : فالعلاج هو النصح والوعظ وتذكيره بالله .. وينبغي أن يكون ذلك مفعماً بالشفقة واللطف من غير غضب أو عنف ولا تشهير أو فضيحة . ولقد كان رسول الله ﷺ يبلغه عن أصحابه شيء فيخطب بالناس فيقول : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا » (رواه مسلم) . وقال مرة : « لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن . ليس أولئك بخياركم » (رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه) .

والناس على مستويات في الحساسية فمنهم اللبيب من الإشارة يفهم .. ومنهم من لا يفهم حتى تُقَطِّر له الموضوع كلياً في أذنيه . والأمر يجب أن يتناسب مع

مستوياتهم .

فالصحابي أنس لم يكن بحاجة إلى تنبيه مباشر .. وقد تحدث أنه خدم رسول الله ﷺ عشر سنوات ، فما قال ﷺ له لشيء فعله لم فعلته ولا لشيء لم يفعله لِمَ لَمْ تفعله .. وبعض أهل الفراسة من العرب كان يقول : (إني لأعرف في عيني الرجل إذا عرف ، وإني لأعرف في عينيه إذا أنكر ، وأعرف في عينيه إذا لم يعرف ولم ينكر) .

لهذا يقول ابن تيمية : الأمر بالمعروف يحتاج إلى ثلاثة شروط : العلم قبله ، والرفق معه ، والصبر بعده .

نستخلص من ذلك أن الأمر بالمعروف قد يؤدي إلى النفور والكبرياء إذا كان على الملأ . وكثيراً ما تأخذ المخطىء العزة بالإثم فيتخذ موقف الدفاع عن الإثم ــ لأنه يدافع عن كرامته ــ ولهذا أمر النبي ﷺ المسلم أن يستر عورة أخيه ولا يفضح أعماله .. فهذا أفضل له وللناس . وهناك نقطة هامة لا بد من الانتباه إليها : وهي امتحان النفس والتأكد من الدافع الذي يدفعك للأمر بالمعروف .. فقد يكون الدافع إظهار النفس وإشعار الناس بأنك عالم .. (ليقال عالم) . فمن يأمر بالمعروف بهذا الدافع يكون كمن يخلِّص غيره من النار بإحراق نفسه . فحين يكون أحب إليك أن يمتنع فاعل المنكر عن فعله من تلقاء نفسه أو بنصيحة غيرك ، فأنت مخلص في أمرك .. أما حين تشعر بضيق لأنه تأثر من كلام غيرك .. فهنا الغرور وإظهار النفس .. فليتق هذا الناصح الله وليبدأ بنفسه .. فإنه واقع في منكر أكبر من الذي ينهى عنه الناس : « إنما الأعمال بالنيات.. وإنما لكلِ امرىء ما نوى » وهذا ما تشير إليه الآية بعد ذلك .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

٣ ــ في الإصلاح بين الناس : تفضل النجوى . إذ أنه كلما ضاق نطاق الخلاف كان من السهل القضاء عليه . وكلما توسع إلى أفراد أكثر كلما استعصى . والمشاعر تتأذى من نشر مشكلاتها أمام الناس . ونفوس الناس أيضاً قد تؤثر عليها أخبار الخلافات والأخطاء التي تحدث .. فتعطيها شيئاً من السلبية والتأخر عن الخير .

وقضية الإصلاح بين الناس هامة حض عليها رسول الله ﷺ كثيراً .. من ذلك : عن أنس : (بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : « رجلان جثيا عند رب العزة » فقال أحدهما : يا رب خذ لي مظلمتي من أخي . قال الله تعالى : « أعط أخاك مظلمته » . فقال الأول : يا رب لم يبق من حسناتي شيء . قال الآخر : يا رب ليحمل عني من أوزاري .. ففاضت عينا رسول الله ﷺ حين ذكر هذا وقال : « إن هذا اليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى من يحمل عنهم أوزارهم » . فقال الله تعالى للطالب : « ارفع نظرك وانظر في الجنان . فرفع نظره وقال : يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من اللؤلؤ .. لأي نبي هذا ..؟! قال : « لمن أعطى ثمنه » . قال : ومن يملك ثمنه ؟ قال الله تعالى : « أنت تملك ثمنه » . قال : وما هو ؟ قال : « تعفو عن أخيك » . قال : إني قد عفوت عنه . فقال تعالى : « خذ بيد أخيك فادخلا الجنة » . قال ﷺ : « اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم . فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة » .) .

والإصلاح بين الناس يحتاج إلى فنية وحكمة ، وإلا فإنك قد تزيد الخلاف حدة .. ورسول الله ﷺ أشعر المسلمين بأهمية الموضوع إلى درجة أنه رخص باستعمال الكذب فيه . عن أم كلثوم بنت عقبة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً »[1] . أي يبلغ كلاماً أو خبراً فيه خير وإصلاح . وفي رواية مسلم زيادة : قالت : ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث تعني : الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل لامرأته ..

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

فلا بد أن يتوفر الإخلاص لله وحده في كل عمل . والآية هنا تشير إلى قاعدتين :

---

١ ــ ذكره ابن كثير عند تفسيره للآية .

١ ــ أهمية وضع الأمور في مواضعها : متى تجوز النجوى ومتى لا تجوز . وفي القرآن توجيهات كثيرة لا بد من معرفة مواضعها .. وإن الله الذي قال لرسوله : ﴿جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ (التوبة ــ ٧٣) . هو الذي قال أيضاً : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ (آل عمران ــ ١٥٩) . وذلك أن كل توجيه له مكانه الذي يناسبه .. ولقد مر معنا قبل الآن مثال في موضوع تزكية النفس . فالله يقول : ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ (النجم ــ ٣٢) . ويقول أيضاً : ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ (الضحى ــ ١١) .. إن من يعرف متى يستعمل النجوى ومتى يتركها .. ويعرف متى يسكت ومتى يتكلم .. متى يقاتل ومتى لا يجوز له أن يقاتل .. يكون قد وصل إلى مرحلة الحكمة : ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ (البقرة ــ ٢٦٩) .

لأن الحكيم هو من عرف موضع الداء والدواء له ، والأحمق من عكس ذلك . ويمكن أن نرى الأخطاء الفادحة في موضوع الإصلاح بين الناس .. حين تجد إنساناً يريد الإصلاح لكنه يخطىء في استعمال الصدق والأمانة .. إذ أنه من أشنع الأمور في هذا المجال أن تنقل لأحد المتخاصمين ما قاله عنه خصمه بكل صدق وأمانة .. بل إن رسول الله ﷺ لا يعتبر هذا صدقاً : « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع » . لأن الخصم قد يتكلم في ساعة غضب بأمور لا يقرها هو نفسه عندما يهدأ .

٢ ــ لا بد من توفر الإخلاص والصواب في العمل حتى يكون ناجحاً في الدنيا مقبولاً في الآخرة . ولقد تحدث القرآن عن خسارة العاملين الذين فقدوا الصواب في أعمالهم : ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ (الكهف ــ ١٠٣) . وخسارة العاملين الذين فقدوا الإخلاص[1] لله : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ (الفرقان ــ

---

١ ــ وحديث أول من تسعَّر بهم النار ثلاثة : عالم ومجاهد وجواد يعطي وضوحاً أكثر لخسران فاقد الإخلاص . (راجع رياض الصالحين).

٢٣) . فالإخلاص وحده لا يكفي ، ولا بد أن يتوفر معه حسن التصرف والحكمة .. وأبرز مثال على ذلك : الأم ، فهي مضرب المثل من حيث إخلاصها لولدها . لكنها إن لم تتصرف بعلم وحكمة في تربية ابنها كانت سبباً في هلاكه في الدنيا والآخرة . والصواب وحده لا يكفي .. فالطبيب مهما كان حاذقاً ومتخصصاً لكنه إن فقد الإخلاص فقد يبتز الأموال من مريضه ويتلاعب به .

ويمكن أن نضرب مثلاً على فقدان الصواب في استعمال النجوى : ما يقع به المسلمون من التحدث عن صدقاتهم وأعمال البر التي قاموا بها .. وكان ينبغي أن يحتفظوا بسرية ذلك . بينما يأمرون من يدعو إلى القرآن أن يجعل دعوته سراً .. والله يطالبنا بإعلان الدعوة وتبليغها للجميع . إن الآية تتحدث عن علاقات إنسانية (الصدقة إلى فقير ــ الأمر بالمعروف ــ الإصلاح بين الناس) . وهذه العلاقات يجب أن يتوفر فيها الإخلاص والصواب حتى تنجح .. ولهذا لا بد من دراسة آداب الصحبة وحقوق الأخوة كما وردت في القرآن والسنة .. ولا بد من الاطلاع والاستعانة بعلم النفس لإدراك الأساليب السليمة المؤثرة .

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ..﴾ .

المشاقة : أن يقف في الشق المقابل . والقصد أن ينحاز إلى صف غير صف النبي ﷺ ويتخذ لنفسه طريقاً غير طريق النبي ﷺ .

لقد ذُكر أن مناسبة الآية هي ارتداد السارق من بني أبيرق إلى المشركين .

وفي الآية تنبيه إلى أهمية السير في طريق الرسول ﷺ والتزام سنته . وأن هناك طريقان لا ثالث لهما : إما طريق الرسول ﷺ أو طريق أعدائه ..

والقرآن ينصف الناس بقوله : ﴿**من بعد ما تبين له الهدى**﴾ ... فقد يكون للمعرض عن الحق بعض العذر إن كان جاهلاً لم تبلغه الدعوة .. أما من أعرض من بعد ما تبين له الهدى فإن الله سيزيده ضلالاً : ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ

وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ .

والآية يذكر فيها عمل الله وعمل العبد .. وهي تنص على العلاقة بينهما : ﴿**نوله ما تولى**﴾ . فعمل الله يأتي كنتيجة لعمل الإنسان . ولقد هدد الله من يخالف أمر الرسول ﷺ بعذاب في الدنيا والآخرة .. ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾ (**النور ــ ٦٣**) . **ويبين علة هذا التهديد** .

ثالثاً ــ آية الشرك

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ .

إن الشرك من أخطر الذنوب ، وذلك أن الله قال : ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾ (المائدة ــ ٧٢) .

يقول الله تعالى في الحديث القدسي : « يا بن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » (رواه الترمذي) .

وبقدر خطورة هذا الموضوع بقدر ما هو خافٍ على المسلمين الآن : ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ (يوسف ــ ١٠٦) . ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ (الأنعام ــ ٢٣) .

وللمرة الثانية تتكرر هذه الآية في هذه السورة .. فأي شأن ..؟! وأي خطر ..؟! إن هذا الموضوع يستحق منا أكبر الاهتمام . ولقد سبق أن أشرت عند الآية الأولى إلى جوانب التوحيد الثلاثة : لا خالق إلا الله ، ولا مجيب للدعاء إلا الله ، ولا حاكم إلا الله .

والقرآن يصور لنا خسارة المشركين في الآخرة : ﴿وبُرّزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟! فكبكبوا فيها هم

والغاوون وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فمالنا من شافعين . ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ﴾ (الشعراء ــ الآيات ٩١ ، ١٠٢) . ففي ذلك الموقف يعرفون أنهم كانوا في ضلال مبين باتخاذهم شركاء يسوونهم برب العالمين .. ففي أي شيء كانوا يسوونهم برب العالمين ..؟!

إما في جانب الخوف والرجاء : فيعتقدون أنهم يستطيعون النفع والضر .. أو في جانب الحكم والطاعة فيخضعون لحكمهم كما يخضعون لله .. وغالباً ما يكون هذا الخضوع ناجماً عن الخوف من المستكبرين وأذاهم وهذا هو عين الشرك . لأن مقتضى الإيمان أن يتغلب الخوف من الله على كل خوف : ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران ــ ١٧٥) . فإذا عرضت لك أسباب خوف من الناس ، فتذكر قدرة الله على كل شيء ووقوفك بين يديه .. أما الشرك الخفي الذي تحدث عنه العلماء فهو الرياء : وهو أن تبتغي بعملك شيئاً آخر مع الله بحيث تخالط عملك مشاعر أخرى غير طلب رضى الله . ولقد كان الصحابة يخشونه على أنفسهم ، حتى عمر رضي الله عنه عندما علم أن رسول الله ﷺ أخبر حذيفة بأسماء بعض المنافقين جعل يستحلفه ويقول له : هل أنا منهم .؟ فيقول له حذيفة : لا . ولا أؤمن بعدك أحداً . وذلك حرصاً من حذيفة على حفظ سر استودعه إياه رسول الله ﷺ .. ولكي يبقى المؤمنون في حالة خوف وحذر فلا يأمنوا .. لأن الأمن يوقف السعي والاجتهاد ..

تكلم رجل عن الحجاج وفي المجلس ابن عمر ، فقال له ابن عمر : لو كان حاضراً هل كنت تتكلم بذلك ؟ قال : لا . قال : كنا نعد ذلك من النفاق .

إن مشاعر الرياء تتسرب في الخفاء وقد لا نحس بها .. ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه معلماً لنا : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أنت أعلم به مني » (رواه مسلم) . وأفضل كلمة قرأتها حتى الآن فيها تمييز الإخلاص من الرياء ما قاله العلماء : (الإخلاص هو استواء السر بالعلانية) . لأن من كانت علانيته أفضل

من سره فقد وقع في النفاق . أما أن يكون السر أفضل من العلانية فليس هذا من طبيعة الإسلام ــ وإن كان يدعيه بعضهم بقوله : لا يغرك المظهر فقلبي مليء بالإيمان ــ لأن الإسلام يفترض أعمال الخير على الجوارح .. فمن تمكن الإيمان من قلبه فلا بد أن يظهر هذا في سلوكه .. ولهذا قال ﷺ عن الجنازة التي شهد الناس لصاحبها بالخير : « وجبت » فسألوه عن ذلك فقال : « وجبت له الجنة . أنتم شهداء الله .. » (رواه مسلم) .

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ .

إنه يحذر من الشرك ووسائل الشيطان ويبين عجز الآلهة .

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا .. ﴾

وقد كانوا يسمون الأصنام بأسماء الإناث لعجزهم. . وقد يكون هو المقصود في الآية أي: إن يدعون إلا ضعافاً عجزة لا يقدرون على تلبية دعائهم وإعطائهم حاجاتهم. . كما قال في آية أخرى: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له: إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له. وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ (الحج ــ ٧٣).

فإذا كان الشرك بعبادة الأصنام الحجريّة قد انقرض. . فإن عبادة الشيطان والأصنام البشرية ما زالت باقية. وكلمة (الشيطان) من شطن: أي بَعُد. و (مارد): أي خارج عن أمر الله. و (المريد): الذي يخرج كثيراً عن أمر الله. وقالوا (المَريد): الذي تجرد من الخير كلياً.

رابعاً ــ تحذير من الشيطان وأساليبه

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ .

والنصيب المفروض هل هو من كل إنسان .. أم نصيباً مفروضاً من الناس ..؟!

وقد يكون نصيب الشيطان من كل نفس هو الاستعداد للشر الموجود عند الإنسان : ﴿فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ (الشمس — الآيات ٨ — ١٠) .

تحدد الآيات الآن دور الشيطان : فهو متمرد على الله ومضل للناس .. وتذكر وسائله في إضلال الناس : الأماني .. الأمر .. الوعد الكاذب .

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ .

١ — **لأمنينهم** : أزين لهم ترك أمر الله بوعدهم باللذة والمتعة وتحقيق الآمال الدنيوية .

٢ — **ولآمرنهم** حتى يحرموا ما حلَّلته لهم ويستحلوا ما حرمته عليهم .

فليبتكنَّ : البتك : القطع . وكان ذلك عادة في الجاهلية لإعطاء علامة على بعض الحيوانات لتحريمها على الذبح أو الاستعمال .

﴿**ولآمرنَّهم فليغيرنَّ خلق الله**﴾ .. إن تكرار نون التوكيد الثقيلة يعطي إيقاعاً مقصوداً في الآيات .. يوحي بأن الشيطان قد ألقى بثقله في قضية إضلال البشر . والحديث هنا عن الوشم والخصي .. وكل عمل فيه تغيير لخلق الله هو من تزيين الشيطان وأمره .. ويحمل لفاعله اللعنة من رسول الله ﷺ : « لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل»[1] . **ويدخل في ذلك حلق اللحية والشارب[2] بالنسبة للرجل : «لعن رسول** الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء » (أخرجه البخاري عن ابن عباس) . ولا يستثنى من ذلك إلا التغيير الذي هو من خصال الفطرة — كما نص الحديث على نتف الإبط وحلق العانة وقص الأظافر والختان .. — لكن الفطرة تتعرض للفساد بحيث تستسيغ

---

١ — ذكره ابن كثير في تفسير الآية . وأما تقويم الأسنان فهو من التداوي الذي أمر به الرسول ﷺ .

٢ — أما الأمر الوارد بحف الشارب فالقصد منه تقصيره من حوافه حتى لا يخالط الطعام والشراب .

تطويل الأظافر (كالمخالب) ونتف الحواجب (مع أنهما يقومان بدور الحماية والتجميل للعينين) .. وكل هذا من تزيين الشيطان وإضلاله .. فإن الله سبحانه قد خلق الإنسان في أحسن تقويم ، والذين يغيرون خلق الله يضرون بجسم الإنسان ويشوهونه .. اللهم إلا إذا ولد الإنسان بمرض أو عاهة أو تشويه فإنه يجوز علاجه وإصلاحه ـــ لأن هذا من التداوي الذي أمر به رسول الله ﷺ .

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾

إنك إن لم تتخذ الله ولياً فقد اتخذت الشيطان ولياً ، وليس هناك طريق ثالث .. وهل هناك أخسر ممن يوالي عدوه ويتبعه ويطيعه ..؟!

٣ ـــ الوعد الكاذب :

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

إنه يخدعهم ويغرر بهم ويعدهم الوعود الكاذبة ، فيظهر لهم النفع فيما هو ضار ، ويغريهم بالخمر والقمار والزنا ، ويزين لهم المعاصي ، ويعدهم بأنها ستجلب لهم السعادة .. ولكن وا أسفاه لا تنكشف الحقيقة لهذا الإنسان المخدوع إلا بعد فوات الأوان .. بعد أن تبدأ الثمار النكدة بالظهور في الدنيا .. ثم بعد ذلك في الآخرة يتنصل الشيطان من التبعة .. ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي . فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيَّ إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ (إبراهيم ـــ ٢٢) .

إن الله سبحانه يكرر ويلح في ذكر أساليب الشيطان : ﴿**يعدهم ويمنيهم** ..﴾ ليحذر الإنسان . وكلما همّ الإنسان بفعل الخير أتاه الشيطان وحاول أن يثنيه عن عزمه .. انظر إليه حين يهم الإنسان بصدقة .. كيف يخوفه من الفقر ويزين له البخل : ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء . والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ (البقرة ـــ ٢٦٨) .

يروى أن رجلاً فكر بالتبرع بمبلغ للخير . وكان يعرف أن الإنسان إذا فكر بخير يأتيه خمسون شيطاناً وكل واحد يدلي بحجته .. قال : تَفلْتُ على خمسين شيطان . فلما رجعت إلى البيت قالت الزوجة : الأولاد بحاجة .. ويلزمنا كذا وكذا .. والإنفاق على العيال أكثر ثواباً .. قال فغلبتني المرأة ..!!

إن ذكر مثل هذه الحادثة لا يقصد منه إهانة المرأة ، وإنما القصد تحذيرها وتنبيهها حتى لا تؤثر الدنيا على الآخرة وتصبح أداة للشيطان في تعويق الخير .. بل أن تأخذ دورها في دعم الرجل وعونه على الخير .. كما فعلت أم سليم وأم الدحداح ونسيبة و ..

ورسول الله ﷺ حينما حذر من فتنة النساء ؛ كان يقصد الحالة المتردية التي وصلت إليها المرأة ــ في عصور الانحطاط وفي عصرنا ــ حيث تخلت المرأة عن دورها في دعم الرجل ودفعه للخير ومشاركته في بناء الحضارة ، وأصبحت أداة طيعة للشيطان في تعويق الخير .. إن تحريض الرجل موهبة أعطيت للمرأة .. وعليها أن تحذر من الإساءة في استعمالها . ولا بد من رفع مستوى وعي المرأة وفهمها لدينها وللمشكلات التي تجري من حولها حتى تستطيع أن تدعم الرجل في المواقف العصيبة .. بل حتى تكون عوناً له على الخير في الأحداث اليومية .. وينبغي لنا الحذر من الفهم الخاطىء لنصوص القرآن والسنة .. فليست المرأة مجبولة على الشر وليست مصدراً للشرور والفتن في كل الأحوال .. لكنها تتصرف بحسب المثل الأعلى الذي ربيت عليه أو آمنت به .. فلقد وقفت خديجة رضي الله عنها من النبي ﷺ والدعوة موقفاً لا يستطيع أحد أن ينكر أثره .. كذلك قدمت الصحابيات نماذج رائعة من البذل والدعم للدعوة .. ولقد ضرب الله المثل على صدق الإيمان وقوته بامرأتين : ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ..﴾ (التحريم ــ الآيتان ١١ ، ١٢) .

كان عمر يكثر من قوله : (اللهم قني شح نفسي..) فسئل فقال : لأن الله يقول : ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ (الحشر ــ ٩) .. إن حالة التوتر التي كان عليها عمر رضي الله عنه تعطي مثلاً على الخروج من طاعة الشيطان في

الجانب الاقتصادي .

وعلى عادة القرآن كلما ذكر الترهيب ذكر الترغيب ، وكلما ذكر النار وأهلها ذكر الجنة وأهلها . فبعد أن يقول عن أتباع الشيطان :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾[1]. يقـول عن أهـل الجنة : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ .

وذلك مقابل وعود الشيطان الكاذبة : ﴿**وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**﴾ . وصدق الله في وعده وقوله . لكن لمن هذا الوعد ..؟ إنه للذين آمنوا وعملوا الصالحات .. وهي إشارة أخرى إلى ضرورة توفر الإخلاص والصواب في الأعمال حتى تقبل في الآخرة .

خامساً ــ الحصول على الجنة ليس بالأماني

وبمناسبة الحديث عن الجنة والفوز بها في الآخرة .. يوضح ويقرر عبث الأماني .. فدخول الجنة بالأعمال لا بالأماني :

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ..﴾ والنتائج في الدنيا والآخرة تأتي بحسب الأعمال لا بحسب الأماني .

قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا . فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم . وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين . وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله : ﴿**ليس بأمانيكم ..**﴾ .

---

١ ــ محيصاً : أي مصرفاً . فلا خلاص ولا مناص .

إن الأمر ليس بالأماني .. وإنما القاعدة التي يجازي الله بها هي :

﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ..﴾ .

إن الأماني يجب أن تخرج من نطاق الأحلام والكلام لتصبح عملاً مستمراً وحركة إيجابية .. وإن العمل مهما كان صغيراً يمكن أن يثمر مع المداومة والاستمرار . « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ »[1] . ولقد مضى على العالم الإسلامي أحقاب وهو يحلم ويتمنى .. والمسلمون في كل مكان يتمنون ويحلمون أن يعود المجتمع المسلم إلى ازدهاره وحضارته .. لكنهم لم يضعوا خطة عملية لتحقيق هذه الأماني . إن ميزة العلم أنه يمنح الإنسان القدرة على تحقيق أمانيه وأحلامه .. فبالعلم يكشف الإنسان السنن والأسباب ويسخرها ليصل إلى ما يريد ..

لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر ألا أقرئك آية نزلت علي ؟ » قال : قلت يا رسول الله فأقرئنيها .. فلا أعلم أني قد وجدت انفصاماً في ظهري حتى تمطيت لها .. فقال رسول الله ﷺ : « ما لك يا أبا بكر » ؟ فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأينا لم يعمل السوء ..؟! وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه ؟! فقال ﷺ : « أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم تجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب . وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة » (رواه أبو بكر بن مردويه) .

لقد زلزلت الآية قلوب الصحابة وقصمت ظهورهم .. وهذا أبو بكر الصديق .. ثاني اثنين في الغار ومن بذل نفسه وماله في سبيل الله .. يرتجف لوقع الآية ويقول : وأينا لم يعمل السوء ؟ لقد كانوا يعيشون الآخرة في مشاعرهم ويتلقون آيات الله بالجد والاهتمام .. فلما شق ذلك على المسلمين قال لهم ﷺ : « سددوا وقاربوا ؛ فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة . حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها » (رواه أحمد) .

---

١ ـــ انظر رياض الصالحين .

حتى أن أسماء بنت أبي بكر كانت تصدع فتقول : بذنبي وما يغفر الله أكثر .. فإن كانت هذه حال المسلمين الأوائل الذين حققوا الإسلام في واقعهم .. ومع ذلك لم يُعفَوا من نتائج أي سوء يصدر عنهم .. فكيف بنا نحن ؟! جيل الكسل والتقصير والتهاون ..؟!

إن الحديث السابق يقرر أن المصائب في الدنيا تكفر ذنوب المسلم .. وهذا ما جعل صاحب المنار يتأمل في الأمر ويسأل : هل المصائب تكفر الذنوب دائماً ..؟ مثلاً : هل المرض الناتج من شرب الخمر يكفِّر عن شربها ..؟ ثم يصل إلى نتيجة : لا تُكفِّر المصيبة الذنب إلا إذا كان لها أثر في تزكية النفس وتوبتها .. أي أنها كانت له عظة وعبرة.

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

ولا يستطيع أحد أن يجعلك تقفز فوق سنن الله . فتعمل السوء ولا تتلقى النتيجة .. إن الأعمال في الدنيا كالقوانين الرياضية لا بد أن تأتي نتائجها .. وإن (١ + ١ = ٢) ولن يتغير هذا مهما تمنينا أن يكون الناتج غير ذلك ..

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[1]

الآية هنا تختلف قليلاً عن سابقتها .. فهي هنا تتحدث عن نتائج الآخرة بالذات ، بينما أطلقت الآية السابقة النتائج ولم تحددها بدنيا أو آخرة .. ولهذا شرح رسول الله ﷺ أن المؤمن يعاقب في الدنيا على ذنوبه كفارة لها .. والعمل السيىء لا بد أن يثمر السوء في الدنيا سواء كان فاعله مؤمناً أو كافراً .. لكن الإيمان والكفر أكثر عواقبهما تأتي في الآخرة ، بينما الآية هنا تتحدث عن الفوز بالآخرة ؛ فهي تشترط للفوز شرطاً آخر غير العمل الصالح .. فقد يقوم المنافق بالأعمال الصالحة يريد ثناء الناس .. وقد يقوم الكافر بها حرصاً على مصلحة دنيوية (كالذي يعطي الفقراء ليكونوا له

---

١ ـــ نقيراً : النقرة هي الثقب الصغير الذي يوجد في ظهر النواة ، وكأنه أثر نقرة منقار صغير .

أعواناً) .. وقد يحصل كل منهما على بغيته في الدنيا . أما النجاح في الآخرة فلا بد له من الإيمان مع العمل . ونلاحظ هنا أنه أخر ذكر الإيمان إلى ما بعد العمل الصالح .. بينما في آيات أخرى يبدأ غالباً من الإيمان .. فلماذا ؟! لقد بدأ من العمل الصالح لأنه كان ينقد فكرة الأماني ويصحح النظر السلبي الذي يريد أن يقتصر على نوايا القلب .. والله أعلم .

كذلك فإن الآية لا تغفل أن تقرر : ﴿**من ذكر أو أنثى**﴾ المساواة الكاملة في الجزاء . ولقد أعلن القرآن المساواة بين الرجل والمرأة :

١ ـــ في الأصل الإنساني .
٢ ـــ وفي التكليف بالعبادات والأخلاق الإسلامية .
٣ ـــ وفي العقوبات الدنيوية على الجرائم .
٤ ـــ وفي الجزاء الأخروي . لكنه في توزيع الأعباء في الحياة الاجتماعية فقد كلف كلاً منهما بما يناسبه من الوظائف لتنظيم الحياة وإعطائها التكامل المطلوب .. فالرجل والمرأة جنسان .. وليسا جنساً واحداً .. ومن المؤكد أن المساواة الكاملة بينهما مستحيلة .. والذين يسعون إليها يظلمون المرأة والرجل . والإسلام في قضية المرأة يمثل الوسط بين انحرافين : بين احتقار المرأة ومساواتها الكاملة بالرجل .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ .. ﴾ .

والآية تؤكد مرة ثانية على شرطي النجاح والفلاح .. وبصيغة السؤال الذي يحمل التعجب والاستنكار يقرر أحسن الدين بأنه :

١ ـــ إسلام الوجه لله (الإخلاص) .
٢ ـــ والإحسان : وهو إتقان العمل والقيام به كأفضل ما يمكن (وهو الصواب) . أي معرفة آيات الله وقوانينه في الكتاب وفي الآفاق والأنفس ، للقيام بما فيه صلاح الباطن والظاهر للفرد والمجتمع . والإخلاص والصواب شرطان لا يصح عمل عامل بدونهما . فإن فقد الإخلاص كان منافقاً ، وإن فقد الصواب كان جاهلاً ضالاً

يفسد أكثر مما يصلح . والآية تذكر بنموذج كان قدوة في الإسلام لله والإحسان وهو إبراهيم عليه السلام .

﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾ .

والحنيف المائل عن الشرك التارك له عن بصيرة .. والمقبل على الحق بكليته لا يصده عنه شيء .

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ وهي أرفع مقامات المحبة . وذلك لكثرة طاعته لربه ..

وإبراهيم عليه السلام شخصية محترمة عند سائر أصحاب الديانات السماوية .. ولقد تحدث القرآن عنه كثيراً وأثنى عليه .. ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ (النحل ــ ١٢٠) . وأمرنا باتباعه .. وجاء رسول الله ﷺ مشابهاً له ومجدداً لملته .. وحين تبجح المشركون بأنهم على ملة إبراهيم ــ وكذلك أهل الكتاب ادعوا ذلك أيضاً ــ رد عليهم القرآن بالحجة الدامغة : ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي﴾ (آل عمران ــ ٦٨) .

ويختم المقطع ويعقب عليه :

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ .

وإن من تتقرر هذه الحقيقة في قلبه لا يمكن أن يتخذ الشيطان ولياً .. إن من يوقن بذلك يسلم وجهه لله ويسلك طريق الإحسان .[1] .

إن التفكر بإحاطة الله يجعل العقل حائراً .. فقد نعرف نحن طرفاً من أمور الحياة ، وقد نختص بجانب من الجوانب .. ولكن تخفى علينا جوانب أخرى ..

فأين نحن من إحاطة الله بالأجيال السابقة والمعاصرة وكل من سيأتي .. وكل فرد

---

١ ــ سبق أن شرحت الإحسان عند الآية ٣٦ من السورة .

بمشكلاته وذنوبه المخفية وما يتردد في صدره ...!!

أي قدرة هذه .. وأي قوة هذه التي تحاسب كل فرد دون أن يظلم نقيراً ..؟!

يا من يحار الفهم في قدرته وتطلب النفس حمىٰ طاعته



الفَصْلُ الرَّابعَ عَشَر

وَصِيَّة بِالنِّسَاء وَتَقوى اللهِ وَالعَدْل

وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ
فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ
بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾
وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ
ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ
بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ
فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا
مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ
مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ﴿١٣١﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ
ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾
۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ
وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا
أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن
تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ
بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

تمهيد

ها هو ذا كتاب الحياة . . ينتقل بنا من تصحيح العقيدة والمفاهيم الخاطئة إلى المشكلات الاجتماعية والعائلية .. إنه يمشي معنا في حياتنا اليومية ويشعرنا بأنه صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في كل ما يعترضنا .. والآيات الآن تعود إلى موضوع النساء الذي تعرضت له السورة قبل الآن عدة مرات ..وذكرت عنده كيف كانت حالة المرأة في الجاهلية وبعض أحوالها في الجاهلية المعاصرة .. والخديعة الكبرى التي أوقعوا فيها المرأة تحت شعار المساواة .. حين أخرجوها من ميدان عملها الأصلي في صناعة الإنسان وتربية الأجيال ، وأنزلوها لتكدح وراء لقمة العيش .

خدعوها بقولهم حسناء   والغواني يغرهنَّ الثناء

وتحدثت عن المكانة التي رفعها إليها الإسلام . فقد :

١ ــ قرر الإسلام أن المرأة والرجل من أصل واحد .

٢ ــ وحرم الوأد والسبي .

٣ ــ وحرم اغتصاب مهر المرأة وميراثها .. وحرم عضلها .

٤ ــ وأمر بالعدل والمعاشرة بالمعروف .

٥ ــ وسن لها تشريعات مفصلة في الإرث والزواج والطلاق تضمن لها الحياة الآمنة العادلة .

٦ ــ وسوّى بين الرجل والمرأة في العقوبات .

٧ ــ وأعطى للأم مكانة مرموقة ، بينما هي في النظم النصرانية ليس لها أي حق شرعي على أولادها ولا ترث منهم .

ويكفي في هذا المجال أن نذكر قول عمر : (والله إن كنا في الجاهلية ما نعد

للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم .. فبينا أنا في أمر آتمره إذ قالت لي امرأتي لو فعلت كذا وكذا فقلت لها : ومالك أنت ولما هنا ؟ وما تكلفك في أمر أريده ؟ فقالت لي : عجباً لك يا بن الخطاب ! ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ..! فيدخل على حفصة قائلاً : يا بنية .. إنك لتراجعين رسول الله ﷺ ..؟! فقالت : والله إنا لنراجعه .. والمشكلة الآن هي إبراز الوضعية الصحيحة للمرأة المسلمة في البيت والمجتمع . إذ أن الهجوم ينصب على الإسلام ، لأن المسلم يعطي صورة سيئة وتعسفية في معاملة المرأة . وينبغي أن نوضح أن موقف المؤمنة في صبرها واحتمالها لتصرفات المسلم السيئة معها يرجع إلى إحسانها ورغبتها في إيجاد جو عائلي أفضل .. وليس لأن الإسلام فرض عليها أن تسكت على الظلم والإساءة .

والآيات المتعلقة بالنساء في هذا المقطع تبحث في النقاط التالية :

١ ـــ اليتامى من النساء والمستضعفين من الولدان .
٢ ـــ خوف المرأة من نشوز الرجل .
٣ ـــ ضرورة الارتفاع من الشح إلى الإحسان .
٤ ـــ العدل بين النساء .
٥ ـــ الفراق .

أولاً ــ اليتامى من النساء وفتوى فيهن

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ .. ﴾ .

وظاهرة سؤال المسلمين واستفتاؤهم ، تدل على أنهم صاروا يشكون في كل أمر كانوا يأتونه في الجاهلية ، ويريدون أن يعرفوا حكم الإسلام في كل ما يعرض لهم حتى يجعلوا حياتهم وفقاً له . فالسؤال عند الصحابي لم يكن لمجرد الاستفتاء لمعرفة الحكم .. ولا رغبة في السؤال أو التعجيز .. كما هو حال كثيرين ممن يسألون في هذه الأيام ، كالتي جاءت كاشفة الرأس تسأل هل صوت المرأة عورة ..؟!

﴿ **يستفتونك** ﴾ .. والفتوى هي معرفة الأمور الدقيقة بفروعها .. وبيان المشكل والغامض منها . ويأتي الجواب فيه التكريم والاهتمام والرعاية المباشرة من الله : ﴿ **قل الله يفتيكم فيهن** ﴾ .

لما نزلت الآية الأولى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ .

قالت عائشة رضي الله عنها : هي اليتيمة تكون في حجر وليها .. فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية ــ قد يكون لشدة ورع الصحابة صاروا يسألون إن كانت اليتيمة قد حرمت على وليها بتاتاً ــ فأنزل الله ﴿ **ويستفتونك** ﴾ . وقول الله وترغبون أن تنكحوهنَّ : رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال . فنهوا عن من يرغبون فيها إلا أن يقسطوا لها من أجل رغبتهم عنها لو كانت قليلة المال والجمال . أي أن الآية هنا توضح : أن النهي السابق كان بسبب عدم العدل مع اليتيمة . فإن لم يحدث الغبن في أي حق من حقوقها

فلا بأس من الزواج منها .

﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ ﴾ . أي في الآية الأولى من السورة إنما هي في : ﴿ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ . أي يرغب عنها ولا يريد الزواج منها .

ثانياً ــ الوصية بالولدان واليتامى

﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾ .

النساء والضعفاء من الولدان واليتامى .. وكل من لا يستطيع أن يأخذ حقه بنفسه يوصيك الله به أن تحذر من هضمه .. وتقوم له بالعدل ــ وإقامة الشيء : إتيانه على أحسن وجه ــ وقد كانوا في الجاهلية لا يورثون الولدان والنساء ، وكان اليتيم معرضاً للظلم في كل صوره . فجاء الإسلام بنظام للوراثة مبني على أساس الإنسانية وإحقاق الحق ، لا على أساس أن الحياة للأقوى . وارتفعت معاملة اليتيم من مرتبة هضم حقه إلى مرتبة العدل وإعطائه حقه كاملاً .. ثم إلى مرتبة الزيادة على ذلك بالإحسان إليه وإيثاره ..

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ .

فقد يكون اليتيم صغيراً ولا يقدر تضحياتك وجهدك لإسعاده والإحسان إليه . لكن الله لا يخفى عليه شيء .. ولا يهمل العطاء لمن قام بالبر والإحسان ولو بمثقال ذرة : ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ (الزلزلة ــ ٧) . إن التعقيب يربط الأمر والنهي بإيمان المؤمن بربه وعلمه ورقابته .. وإن هذه القضايا لا ينفع فيها إلا الضمير اليقظ الذي يحذر الحساب بين يدي العليم الحكيم .

ثالثاً ـــ خوف المرأة من نشوز الرجل

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ .

يذكر الآن نشوز الرجل .. وقد سبق أن عالجت الآيات نشوز المرأة وطرحت أساليب لعلاجه .. ولا بد أن يختلف العلاج بين الحالتين بشكل يتناسب مع الفروق النفسية بين الجنسين . **والنشوز** : هو الارتفاع والترفع والإعراض . والقلوب تتقلب والمشاعر تتغير ، والإسلام يعالج واقع الحياة . وعلى المرأة هنا أن تتأكد من حالة النشوز ولا تتسرع لمجرد حدوث الوسوسة عندها ؛ فقد يكون إعراض الرجل بسبب انشغاله بأمور التجارة أو أعماله أو في الدعوة ، فعليها أن تصبر وأن تقدر ظروفه ولا تتسرع في هدم هذا العش . فإن شعرت بإعراض وجفوة من الزوج وخافت أن يؤدي ذلك إلى الطلاق أو إلى أن تصبح كالمعلقة ، فالأمر لها . فإن وجدت هي باختيارها وإرادتها أن تتنازل له عن شيء من حقها رغبة في البقاء معه والمحافظة على عش الزوجية ـــ لأن هذا أفضل لها ولأولادها ـــ فلا حرج عليها ولا عليه في أن يقبل ذلك منها . وإن الله تعالى بهذا الحكم لا يكره المرأة على البقاء في بيت لا تريده ولها الحق في طلب الفراق ـــ مثل فراق بريرة لمغيث ـــ ولكن كما أن للمرأة أن تنفصل عن زوجها في حالة كراهيتها وإعراضها ، وأن تخالع زوجها إن كرهته دون أن يكون هناك أي تقصير منه في حقوق الزوجية .. فكذلك للرجل أن يفارق زوجته حين يشعر بالكراهية نحوها . فإن رأت هي أن من مصلحتها أن تتنازل له عن شيء من حقوقها عليه وتصالحه حتى لا يطلقها ، فما المانع طالما أن ذلك يرضيهما معاً و﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفراق .فقد يكون الأمر مجرد مشكلة عارضة سرعان ما تنجلي .. ورحم الله عمر فقد كان يقول : (ما كل البيوت تبنى على الحب فأين التذمم والمروءة ؟!) . والتذمم : تحاشي الوقوع فيما يذم من

الأعمال . ولو رجعنا إلى ضمير المرأة ، لوجدناها بدافع من أمومتها غالباً ما تفضل البقاء والتضحية بشيء من حقوقها حرصاً على لمّ شمل الأسرة وصيانة أولادها من التشتت .

رابعاً ــ الارتفاع بالنفس من الشح إلى الإحسان والتقوى

﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ .

فالشح حاضر دائماً في الأنفس . ومن الصعب عليها أن تتنازل عن شيء من حقها . ولذا كان عمر يقول : (اللهم قني شحَّ نفسي) ، لأنه : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وقد يكون السبب في إعراضه هو شيء من الشح واستكثار نفقتها . ولكن الله يرتفع بالإنسان إلى مستوى أعلى .. ويهتف بالزوجين وبالمؤمنين جميعاً أن يرتفعوا إلى مرتبة أسمى : وهي الإحسان والتقوى ؛ فإنها أفضل من الشح والتمسك بالحقوق في المجال العائلي .. بل في كل المجالات ..

﴿ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

ولقد سبق لي أن شرحت الإحسان وعرفناه : بأن تبذل من عندك للطرف الآخر زيادة على ما يستحق من نفسك لا على حساب الآخرين . وهو إيحاء بالتسامح ، وأن يعذر بعضكم بعضاً .

والتقوى : الحذر من تجاوز الحدود ، والخوف من الله ، والقيام بالإحسان طلباً لمرضاته .. وقد يكون معنى تتقوا هنا : أي تتقوا النشوز وتتقوا الفراق .

وقد لا يقدر الناس ما تبذل .. وقد لا يشعر الطرف الآخر بتضحيتك .. لكن يكفي أن الله يعلم .

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

علم خبرة ودقة .. والآية فيها ترهيب لمن يضمر الشر ، وترغيب لمن يضحي ويحسن ويريد الإصلاح .

سئل علي بن أبي طالب عن الآية فقال : يكون الرجل عند المرأة فتنبو عيناه عنها من دمامتها أو كبر سنها أو سوء خلقها ، فتكره فراقه ، فإن وضعت له من مهرها شيئاً حلَّ له ، وإن جعلت له شيئاً من أيامها فلا حرج .

وفي الصحيحين عن عائشة : لما كبرت سودة وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنهما . فكان رسول الله ﷺ يَقْسِمُ لها بيوم سودة ــ أي أصبح لعائشة يومان ــ . وهذه الرواية الصحيحة لا يفهم منها إلا كل معنى كريم . أما الروايات التي تقول إن الرسول ﷺ أراد طلاقها فهي ضعيفة .. ولا تنسجم مع أخلاق النبي ﷺ .

خامساً ــ العدل بين النساء

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ .. ﴾ .

الحديث هنا عن العدل بين زوجات متعددات .. فيبين أن العدل المطلق في كل شيء غير مستطاع ، وهذا ما تشهد به الحياة الواقعية . فكيف يعدل الزوج بين زوجاته في مشاعره وميله القلبي ، وهذا أمر لا يملكه البشر ..؟! والرسول ﷺ يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك » . فإذا كان العدل المطلق مستحيلاً ، فلا تتركوا العدل وتيأسوا وتنساقوا وراء عواطفكم فإن ذلك يؤدي إلى الميل الكبير لواحدة وتفضيلها بحيث تصبح الأخرى كالمعلقة .

﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ .

يقول ﷺ : « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما ، جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط » (رواه أحمد وأصحاب السنن) .

﴿ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ .

ونلاحظ أن الآية قالت : تصلحوا ولم تقل تحسنوا .. لأن الأمر يحتاج إلى عدل وإصلاح .. ويخشى أن يكون الإحسان على حساب الأخريات . فإن أديت واجبك وحرصت على العدل دائماً خوفاً من الله أن تقع في الجور والغبن ، فإن الله يغفر لك فيما لا تملك تحقيقه من العدل .

وبعضهم يريد أن يستدل بالآية على تحريم التعدد ؟! لكن تتمة الآية : **﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة** ..﴾ يعاكس مقصدهم .

ولقد سبق أن تناولت موضوع التعدد في أول السورة.. وهنا أذكِّر بأهم النقاط بإيجاز:

١ ـــ حكم التعدد الإباحة ، وشرطه العدل المادي وفي المعاملة .

٢ ـــ ولقد كان التعدد معروفاً في كل الأمم وبدون حدود في الأمم الوثنية وفي الديانات السماوية . فاليهودية تبيحه بدون حد وأنبياء التوراة كلهم كانوا معددين . أما في النصرانية فقد ورد على سبيل الموعظة : إن الله خلق لكل رجل زوجته . وهذا لا يفيد إلا الترغيب بالاقتصار على واحدة في الأحوال العادية . وهو الإيحاء نفسه في الإسلام . ويقول المؤرخ وسترمارك : (إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر وكان يتكرر كثيراً في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة) .

ولو كانت أضرار التعدد أكثر من فوائده لحرمه الله كما فعل بالخمر .. ومما لا شك فيه أن الزوجة الواحدة أقرب للفطرة وأحصن للأسرة . ولكن هناك ضرورات فردية واجتماعية يصبح التعدد معها أفضل حل . ومن البدهي أن الرجل العاقل لا يفكر بالتعدد إلا عند الضرورة الملحة . فماذا فعل الإسلام في موضوع التعدد ؟

١ ـــ حدد التعدد بأربع كحد أعلى .

٢ ـــ شدد فيه بالمطالبة بالعدل بينهن .

٣ ـــ ملأ ضمير المسلم بالخوف من الله والحرج من التعدد خوفاً من الوقوع في

الظلم .

٤ ــ ملأ ضمير المسلمة بالخوف من الله ، والرغبة في حسن القيام بشؤون الأسرة وتجنب المشكلات والنزاع : ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ (النساء ــ ٣٤) . لذلك لم تظهر في صدر الإسلام مشكلات الضرائر وزوجة الأب وتشرد الأبناء .

وبعد .. فإن التعدد رخصة من الله العليم الحكيم يحتاج إليها البشر .. وإساءة استعمال الرخصة لا يلام عليها الإسلام .. والعلة عند المسلمين الآن هي ضعف الإيمان والثقة بالله إلى درجة أنهم لا يقبلون الحكم منه إلا إذا عرفوا الغاية منه . إن ثقة المسلم المعاصر بربه لا تصل إلى مستوى ثقة الجندي بقائده .. والمريض بطبيبه .. فنحن نسلم للطبيب ولا نسلِّم لله .. فوا خجلتاه ..!! ولا يعني هذا أن نعرض عن فهم الحكمة .. بل إن من كمال الإيمان أن يتأمل المؤمن في الحكمة بعد قبوله للأحكام وتطبيقها .. لكن من الوقاحة مع رب العالمين ألا تقبل حكمه إلا بشرط أن تتضح لك الفوائد منه ..

سادساً ــ الفراق

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ .. ﴾ .

وحين لا تنفع هذه التدابير كلها وتصبح الحياة مستحيلة .. فإن الفراق أفضل : ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ (البقرة ــ ٢٢٩) .

والتسريح بإحسان يتضمن حفظ الكرامة الإنسانية بين الطرفين ، حتى ولو لم يحصل تفاهم وانسجام بينهما .. وحتى حين تنقطع الرابطة الزوجية فإن هناك رابطة الإيمان ورابطة الإنسانية ولا بد من مراعاة ذلك .. وأن لا يدفعك الخلاف إلى ترك الإحسان .

﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ .

فسيعوض الله كل طرف .. فهو واسع في رحمته للطرفين .. حكيم في تشريعه يضع كل حكم في مكانه .

سابعاً ــ الوصية بالتقوى

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ .

كأن هذه الآيات تعقيب على الأحكام السابقة تتكرر فيه : ﴿**ولله ما في السموات وما في الأرض**﴾ . ثلاث مرات . إن الذي شرع هذه الأحكام هو صاحب السموات والأرض .. فاعرفوا قدرها .. وخذوها بقوة .. والزموها ، فإنها صادرة عن رب كل شيء .. العليم بكل شيء .. والقادر على كل شيء .. ويقرر وحدة الوصية للأنبياء جميعاً .

﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ ﴾ ..

وتقوى الله : هي اتباع أمره رجاء ثوابه ، وترك ما نهى عنه خوفاً من عقابه .

﴿ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ .

يقول الله تعالى في الحديث القدسي : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني .. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي .. » (رواه مسلم) . إن هذه الوصية بتقوى الله إنما هي رحمة بكم وإرشاد لكم لما فيه خيركم ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾ (فاطر ــ ١٥) . فهو غني عنكم مستغن عن طاعتكم .. محمود على كل حال في ملكوته ومن قبل مخلوقاته التي لا تعد ولا تحصى .

إن هذه الآيات لا تحتاج إلى شرح .. وإنما تحتاج إلى تدبر وتفكُّر ..

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

فطبق أمر الله ولا تخف فإن الله هو الوكيل لك .. ألم تر إلى إبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار كان من المتوكلين فقال الله : ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ (الأنبياء ـــ ٦٩) . ورسول الله ﷺ عندما قيل له في حمراء الأسد : ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً . وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ (آل عمران ـــ الآيتان ١٧٣ ، ١٧٤) . ومؤمن آل فرعون عندما قام يدافع عن موسى ويدعوهم إلى الله وأن يتركوا الطغيان .. ثم ختم قوله : ﴿فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ (المؤمن ـــ الآيتان ـــ ٤٤ ، ٤٥) .

وبعد التنبيه والتذكير يأتي التهديد :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ .. ﴾ .

إن الرجل إذا كان لديه أجير لا يطيع ولا يصلح لأداء الأعمال يطرده ويأت بغيره .. وإن الله الذي استخلفكم على الأرض قادر على إهلاككم والإتيان بغيركم .. كما فعل بالأمم الماضية .. تموت أمة وتنهض أخرى .. تسقط حضارة وتظهر أخرى .. هل يحدث هذا بشكل مفاجىء ؟! أم حسب السنن ؟! إن هذا الدين يقرر أن الله يتعامل مع الناس بحسب السنن .. وإن الأمة التي تتخلى عن مسؤوليتها وتعرض عن أمر ربها .. أمة قد أصيبت بأعراض الانحلال والدمار .. ولا تزال هذه الأعراض تفعل فعلها وتنخر في كيان الأمة حتى تسقط وتنهار .. ويستخلف ربي قوماً غيركم .. ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ (محمد ـــ ٣٨) ..

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ .. ﴾ .

يا من يدفعه الحرص على الدنيا إلى ترك أمر الله .. تذكر أنك تطلب الدنيا من غير مكانها .. وتحاول دخول البيت من غير بابه .. عَرَفْتُ امرأة تترك أمر الله بدافع مسايرة الزوج والمحافظة عليه والاحتفاظ بالمكانة الطيبة عنده .. لكنه على العكس تماماً لم يزدد إلا بعداً عنها وإهمالاً وإيذاءاً لها .. كانت تريد سعادة الدنيا فأخطأت الطريق فخسرت الدنيا والآخرة . لقد عُرِضَتْ على يوسف المعصية مقرونة بمتاع الدنيا فآثر السجن عليها : ﴿رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ (يوسف ــ ٣٣) .. فأتته الدنيا راغمة .. حتى رقي عرش مصر .. ولقد ترك المسلمون دينهم من أجل الدنيا .. فإذا بهم يحرمون منها ولا ينالون إلا الهزائم والنكبات .. لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى كلمة يوسف عليه السلام ﴿رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ . والحصول على الدنيا له أسبابه .. فبإقامة سنن الله الكونية تحصل على الدنيا ، وبإقامة شريعته السماوية تتزكى النفس وتحصل على الجنة في الآخرة . وحين ندعو : ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾ (البقرة ــ ٢٠١) ، علينا أن نتذكر ضرورة الالتزام بسنن الله في الكون والقرآن .. وهو معنى الأمر بتقوى الله هنا .. أي إقامة سننه الكونية وأوامره الشرعية للوصول إلى ثواب الدنيا والآخرة . كذلك إن الآية تلفت نظرنا إلى جانب آخر : لا يكن نظرك قاصراً على ثواب الدنيا .. فهناك ثواب آخر وحياة أطول ، الأجدر بنا أن نحسب لها حساباً .. فلئن حصل الكفار على شيء من الدنيا فإن هذا أمر مؤقت زائل .. ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ (آل عمران ــ ١٩٦) . والعبرة بالعاقبة الطويلة المدى .. ومن يضحك أخيراً يضحك كثيراً .. ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ (المطففين ــ ٢٩) . .. ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون﴾ (المطففين ــ الآيتان ٣٤ ، ٣٥) .

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ : يسمع ويبصر .. ويعطي ثواب الدنيا والآخرة بناء على ذلك .

ينطلق الآن إلى الوصية الثالثة في هذا المقطع .

ثامناً ــ الوصية بالعدل

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ .. ﴾ .

نداء للجماعة المؤمنة كي تقوم بدورها بين الناس ، فهي بسبب اتصافها بهذه الصفة الجليلة ــ الإيمان ــ كلفت بهذه الأمانة الكبرى : إقامة العدل الكامل بين الناس .

قوامين بالقسط : أي قوموا له وبه بشكل تام لا نقصان فيه . ولقد حمَّل الله المسلمين في هذه الآية مسؤولية إحقاق الحق على وجه الأرض . **شهداء لله** : أي أدوا الشهادة قياماً بأمر الله وتلبية لطلبه .

والشهادة : أن يشهد الأحداث ليؤدي دوره تجاه الله في الدنيا والآخرة . ولا يستطيع أن يؤدي الشهادة من لا يتصف بالوعي الكافي ، والحضور لرؤية ما يجري ، والأمانة في الحكم ــ الموضوعية ــ . فأين المسلم المعاصر من هذه الصفات ..؟!

أما الحضور : فإن المسلم غائب عن الأحداث .. غائب عن الإضافات الجديدة التي يحدثها انكشاف آيات الآفاق والأنفس باستمرار .. هل يملك العالم الإسلامي وكالات أنباء في كل أنحاء العالم وعلى مستوى العصر .. تقوم بدور السمع والبصر في متابعة ما يجري في العالم ..؟! بل إننا نتلقى معظم الأخبار عن وكالات أجنبية .. فإذا شهدنا الأحداث .. فهل نملك الوعي والعلم الكافي للحكم ؟! أتذكر في هذا المجال ما قاله مالك بن نبي عن دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين . قال :

١ ــ علينا أن نعرف أنفسنا (دراسة الإسلام : القرآن والسنة ؛ العالم الإسلامي تاريخه وحاضره وأمراضه) .

٢ ــ وأن نعرف الآخرين (دراسة المبادىء والحضارات الأخرى ؛ تاريخ الأمم وأحوالها في هذا العصر) .

٣ ــ وأن نُعرِّف الآخرين على أنفسنا (دراسة علم النفس والاجتماع ؛ أساليب الدعوة) .

ونحن حتى الآن لم نحصل النوع الأول من المعرفة : أن نعرف أنفسنا .. فكيف نستطيع أن نؤدي دور الشهادة والرسالة الذي كلف الله به الأمة المسلمة ..؟!

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ (البقرة ــ ١٤٣) .

وأما الشرط الثالث من شروط الشهادة : الموضوعية والأمانة في الحكم ، وهو ما تنبه إليه الآية .

﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ..﴾ .

والهوى على أنواع : حب النفس .. وحب الأهل والأقربين .. العطف على الفقير .. مجاملة الغني أو الإضرار به دون حق .. التعصب للأمة أو الدولة أو الوطن .. كل هذه المجالات يمكن أن تكون مداخل للشيطان .. يترصد هذه الأهواء ويدخل منها ليمنع العدل .. إن الآية تمثل درساً في الموضوعية وترك الأحكام الذاتية .

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ .

واللّي هو التحريف وتعمد الكذب . أو تعرضوا عن إقامة العدل ، وتتركوا الشهادة بالحق أو تكتموها .

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ : وهو تهديد من الخبير بالأعمال والدوافع من ورائها ..

وإن موضوع العدل في الإسلام لا يمكن التهاون فيه .. والحديث عنه في القرآن حافل بالجدية والحزم . ولقد تكرر الأمر بالعدل في هذه السورة : ﴿إن الله يأمركم أن

تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ (النساء — ٥٨) .. وتكرر أيضاً عند الحديث عن حادث السرقة قبل قليل .. ثم هنا .. وذلك لأن الله يعلم أن هذا الأمر :

١ — خطير في الحياة الإنسانية .. بل إن جوهر المشكلات نابع من فقدانه .. وإن الثورات العنيفة التي حدثت في التاريخ ودمرت وحصدت الأرواح ، كانت ناتجة عن ترك العدل .. وإن تركنا العدل مع أعدائنا فسيأتي يوم يحرم فيه أحبابنا من العدل .

٢ — إن الله يعلم أن هذا الأمر شاق ويحتاج إلى جهود متكررة حتى ترتفع النفس الإنسانية إليه في التطبيق العملي .. ندرك ذلك أكثر حين نتأمل حال الناس قبل الإسلام في هذا الأمر . بل وحال البشرية المتحضرة الآن .. ففي الماضي كانت شرائع البشر تحكم : إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإن سرق فيهم الضعيف عاقبوه — كما كانت اليونان والفرس والرومان والهنود .. — وأما حال العرب فكان الحكم فيهم للقوة والعصبية حتى قال شاعراهم (المتنبي وزهير):

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلِعلَّة لا يَظلم

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يُهدَّم . ومن لا يَظلم الناس يُظلَم

وأما حال البشرية الآن التي تتشدق بحقوق الإنسان وبالعدالة وبالمؤسسات العالمية التي أنشأتها لتحقيق هذه العدالة .. فإن المآسي المخزية تحدث في جنبات الأرض ، ولا تجد الأمم المغلوبة من ينصفها .. فالتفريق العنصري ما زال موجوداً حتى الآن .. ومشكلات الاستعمار والمستعمَرين قائمة وقاعدة .. حتى أنه منذ فترة عارضت الدول الكبرى ترشيح رجل مسلم من تنزانيا لأن يكون الأمين العام لهيئة الأمم .. دون أن يكون لهم أي سند قانوني من لوائح هيئة الأمم ..؟! وقد تنادي بعض الدول بالعدالة وإنصاف الكادحين .. لكنها عند التطبيق العملي لا تقصر في التدخل المسلَّح في حياة

الشعوب الكادحة وفرض سلطانها واستعمارها عليهم .. يقول مالك بن نبي عن مشكلة الدول المتقدمة : إن مشكلتهم أن العلم سبق الضمير ــ أي أن تقدم التكنولوجيا سبق التقدم الأخلاقي عندهم ــ .. حتى لقد رسم أحد الكتاب الغربيين صورة ــ يمثل فيها هذا الفارق عندهم بين الضمير والعلم ــ سلحفاة تدب على الأرض .. وصاروخ منطلق .. لكن تقدم العلوم الإنسانية سيجبرهم على الرجوع إلى القيم الأخلاقية خوفاً من أن يعم الدمار الجميع ــ لأن تطور الأسلحة المروع جعلهم يفكرون في الرجوع إلى التفاهم والاتفاق ، وقد يضطرهم هذا إلى الرجوع إلى الأخلاق ومحاولة العدل . بينما علم الإسلام أتباعه أن يلتزموا بالعدل ويقيموه حتى مع أعدائهم ولو على أنفسهم ، ابتغاء مرضاة الله ودون أن يضطرهم التقدم العلمي إلى ذلك اضطراراً . ولقد حققوا منه صوراً تقف البشرية أمامها ذاهلة عاجزة. . فهذا عبد الله بن رواحة لما بعثه النبي ﷺ يحصي ثمار خيبر وزروعها لمقاسمتهم إياها بحسب العهد الذي جرى بينهم وبين رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر .. وقد أرادوا رشوته ليرفق بهم فقال : (والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي ، ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير . وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم) فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض .

وتسري موجة العدالة التي جاء بها الإسلام حتى تعم الناس، فتجعل رجلاً قبطياً يرحل ماشياً من مصر إلى المدينة ليشكو إلى عمر ضربة سوط من مسلم .. وقد كان منذ عهد قريب يتلقى السياط تحت حكم الرومان ولا يفكر بالشكوى ..

ويقف عمر على المنبر واعظاً فيقول له أعرابي : لا سمع لك علينا ولا طاعة .. وذلك لأنه رآه يلبس حلة تعادل حصتين مما قسم لكل مسلم .. فينادي عمر ابنه عبد الله فيقول لهم : أنا وهبت أبي حلتي حتى يكمل ثوبه .. فيقول الأعرابي : الآن نسمع ونطيع ..

﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ : إن ترك أداء الشهادة بالحق ، يؤدي إلى خذلان الحق ونصرة الباطل ، وقد يستهين الإنسان بقيمة شهادته ويشعر بأن قيامه بها لن يغير من الوضع شيئاً فيدفعه ذلك إلى السكوت . لكنه حين يسكت يساهم بنصرة الباطل وخذلان

الحق . ولو تكلم لأنقص من قيمة الإجماع للباطل . لذلك ربط رسول الله ﷺ بين كتمان الشهادة وشهادة الزور لأن النتيجة واحدة .

· وأبرز مثال على ذلك مؤمن آل فرعون . رجل واحد شهد بالحق واعترض على إصدار قرار بقتل موسى : ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾ (غافر ــ ٢٨) ؟! فكانت النتيجة أن فرعون نفسه لم يستطع أن يبرم القرار بالقتل لأنه مفتقر إلى الإجماع ..

ويختم المقطع بنداء عجيب للذين آمنوا ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ .. ﴾ .

عجباً ..! إنهم مؤمنون .. فكيف يدعوهم إلى الإيمان ..؟!

إنه يدعوهم إلى تجديد إيمانهم .. يدعوهم إلى الإيمان الحقيقي : أن يكونوا مع الله وإلى الله .. وأتذكر هنا قولة صحابي لآخر : (تعال نُؤْمِنْ ساعة) ، فتعجب أصحابه من كلمته ، ففسرها لهم رسول الله ﷺ : أنه يحب مجالس الذكر ويقصدها ..

والمؤمن تصيبه حالات من الفتور والغفلة ، وعليه أن يتعاهد إيمانه ويجدده بمجالس العلم والذكر (أي القرآن فهو الذكر الحكيم) .

كذلك يمكن أن نقول : إنها دعوة إلى الإيمان الحقيقي بالله والرسول والكتاب .. وإن المؤمن قد يأمن ويطمئن إلى مكانته التي وصل إليها ، لكن القرآن يحثه على السعي الدائم للوصول إلى مستوى الإيمان الذي ذكر في القرآن : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ (الأنفال ــ الآيات ٢ ، ٤) .

إن حالة الأمن تؤدي إلى الإهمال والتهاون .. ونفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر ، وإن كلمة (الإيمان) كلمة ضخمة لا يدرك ثقلها إلا من استعرض وصف

الله سبحانه وتعالى في القرآن لعباده المؤمنين .. ﴿قد أفلح المؤمنون : الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون ..﴾ (المؤمنون ــ الآيات ١ ، ٥) . إن دلالة الإيمان بالله الامتثال لأمره .. ودلالة الإيمان بالرسول الالتزام بسنته .. ودلالة الإيمان بالكتاب التفاعل معه في حياتنا اليومية ..

والقرآن هنا يطالب المؤمنين قبل غيرهم أن يحترموا الرسالات السماوية السابقة ويحدد لهم عناصر الإيمان التي لا يمكن للمؤمن أن يخلَّ بأحدها ثم يبقى في عداد المؤمنين .. ولقد روي أن قوماً من اليهود قالوا للرسول ﷺ : نؤمن بك وبموسى وبما أنزل عليك وعلى موسى .. فنزلت الآية .

إن ميزة الأمة المسلمة هي الإيمان بالأنبياء كلهم واحترامهم ، وهذا ما يجعلها أبعد الناس عن التعصب ، ويعطيها الجدارة لتولي زمام التوجيه والتعامل مع الناس كافة .. ويهدد من كفر بأحد هذه العناصر ويحكم عليه بالضلال البعيد ، حتى يكاد لا يرجى له عودة إلى الرشد ..

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ .

وبمناسبة الحديث عن الإيمان والمطالبة به ، يعود القرآن مرة أخرى في هذه السورة للحديث عن المنافقين .. فيبدأ :

١ ــ بتبشيرهم بالعذاب الأليم .
٢ ــ ثم يذكر بعض صفاتهم .
٣ ــ ثم يحذر المؤمنين من النفاق .
٤ ــ ويفتح باب التوبة ويذكرهم أن الله لا يريد تعذيبهم .
٥ ــ ثم يتحدث عن الجهر بالسوء وحكمه .

وهـذا ما تتحـدث عنه الآيـات القادمـة.



الفصل الخامس عشر

عودة إلى المنافقين

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟
ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ
عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى
ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾
ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ
نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ
عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾
إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى
ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ

أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ
فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ
دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ
إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾
۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن
سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

أولاً ـــ تبشير المنافقين بالعذاب الأليم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ..﴾ .

إن التردد هو **سمة النفاق الأولى** . والمقطع يبدأ بهذه الصفة ثم يسميهم .. ثم يزيدهم إيضاحاً بأوصاف أخرى . والمؤمن الصحيح الذي تذوق طعم الإيمان وحلاوته لا يرتد عن إيمانه ، فهو يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار . فإذا رأينا بعضهم يرتد بعد أن كان صالحاً فذلك لم يذق حلاوة الإيمان على حقيقتها في نفسه .

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ .

فقد حكم عليهم بالضلال المؤبد والعذاب المؤبد . وذلك لأنهم بترددهم هذا ﴿**ثم ازدادوا كفراً**﴾ قد قطعوا خط العودة على أنفسهم ..

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

والتبشير بالعذاب استهزاء واستخفافاً بهم .. وكلمة المنافقين مأخوذة من النفق : وهو طريق يحفر تحت الأرض وله مخرجان . وحال المنافق كرجل في نفق يفكر أنه سينجو من هذا الطرف فيتجه إليه .. ثم يعود فيفكر أن الطرف الثاني أكثر أمناً فيعود إليه . لذلك يعلن إيمانه مرة .. وكفره أخرى ..

وأول خطوة في درب النفاق : أن يشعر الإنسان بالضعف عن الإصرار على الحق في مواجهة الباطل فيتخاذل . ثم تأتي خطوات أخرى ..

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ..﴾ .

ثانياً ــ ذكر بعض صفات المنافقين الأخرى

وضحت الآية السابقة **الصفة الأولى** من صفات المنافقين ألا وهي التردد ، فتراهم اليوم مؤمنين وغداً كافرين .. فكان مصيرهم أن ازدادوا كفراً فحرموا من مغفرة الله .

أما **الصفة الثانية لهم** : فإنهم يتخذون الكافرين أولياء . وقد كان المنافقون يتولّون اليهود ويركنون إليهم ، وكان بعض اليهود يركن إلى المشركين ويتحالف معهم ..

وقد سبق لي أن شرحت معنى الولاية عندما تحدثت عن العدل والإحسان والولاية ..وقلت: إنها أرقى العلاقات الإيجابية التي تناولها القرآن . وهي علاقة ثقة وحب وإيثار ومناصرة .. وهي لا تكون إلا بين أصحاب العقيدة الواحدة . ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ (البقرة ــ ٢٥٧) . ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ (الأحزاب ــ ٦) . ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ (التوبة ــ ٧١) . وقد بين الله تعالى الفرق بين العدل والإحسان (القسط والبر) وبين الموالاة في سورة الممتحنة : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن **تبروهم وتقسطوا إليهم** . إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم **أن تولوهم** . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ (الممتحنة ــ ٨) . فالبر والقسط يكون مع الناس جميعاً . بينما الولاية لا تكون إلا مع المؤمنين .

والقرآن يرسم للمؤمنين سياستهم الخارجية ونوع المعاملات التي يجب أن تكون بينهم وبين الدول من حولهم. والمسلمون في غفلة تامة عن هذا الأمر. . فهم يسلمون أولادهم لمدارس الأجانب. . ويأتون بالخبراء من الدول التي تختلف عنهم بالعقائد والمبادىء، فيسلمونهم مراكز التوجيه والتخطيط والبرامج التنفيذية

في عالمنا..؟ ويعطونهم الأولوية على الخبراء المسلمين.. وهم يقلدون الأجانب في الزي والسلوك واللغة والتحية.. بل يتولونهم في جانب الأفكار فيأخذون منهم التشريعات والمبادىء.. حتى التاريخ الذي ندرِّسه لأولادنا.. قد كتبه لنا المستشرقون..! ولا نعني بهذا الكلام أن نعرض عن الاستفادة مما عند الآخرين.. لكن شتان بين من سلَّم نفسه للآخرين، وبين من درس فكرهم ونتاجهم، فأخذ ما يفيده وأعرض عن الباقي. ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[1] وهذا هو الدافع الذي يدفع المسلمين إلى موالاة الشرق أو الغرب.. فهل حصلوا على العزة؟! بل إنهم الآن في منتهى التشتت والاختلاف يقتل بعضهم بعضاً. كحال الغساسنة والمناذرة الذين كانوا يتولون الروم والفرس..

ومن طلب العزة بالكفار: الاعتزاز بالآباء والأجداد الذين ماتوا على الكفر .. أو على المعاصي ﴿**فإن العزة لله جميعاً**﴾. فهؤلاء عن غير طريقها يبحثون .. فلله العزة ولرسوله والمؤمنين .. ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزُّ من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ (آل عمران ــ ٣٦).

إن تذكر هذه الآية ﴿**فإن العزة لله جميعاً**﴾ والتي سبقتها بآيات: ﴿**من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة**﴾ في الوقت المناسب يساعد على الثبات في طريق الإيمان.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾.

والصفة الثالثة لهؤلاء المنافقين: أنهم يشهدون مجالس الخوض في آيات الله.

وهذه الآية تشير إلى آية سابقة لها في النزول في سورة الأنعام: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آيات الله فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ (الأنعام ــ ٦٨).

---

١ ــ العزة هي: المكانة والشرف والمناصب العليا.

وتتضمن هذه الآية تحريم شهود المنكر دون اعتراض . وأن شهود مجلس تُتحدى فيه آيات الله ويُستخف بها دون أن يحرك المسلم ساكناً .. إن هذا العمل هو أول خطوة في النفاق .. فماذا يفعل المسلم إزاء مجلس من هذا النوع ..؟!

سبق أن رأينا أن الله يأمر أحياناً بالإعراض ، وأحياناً بالقول البليغ والموعظة . وعلينا أن نعرف نحن ما يقتضيه كل موقف .. لأن القرآن لم يأت ليفصل لنا كل حالة على حدة .. وإنما يعطينا القواعد الأساسية ، ويترك لعقولنا المجال أن تعمل وتتحرك وتضع كل قاعدة في مكانها . وإن الوصول إلى الحكمة (وضع الأمور في مواضعها) لا يتأتى إلا مع اليقظة والانتباه والاعتصام بكتاب الله . ولا يبلغها الإنسان إلا بعد تجارب واقعية يفيد منها ويميز بين المناسب وغير المناسب لكل موقف .. وذلك هو النضج .

﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ .

مِثْلُهم من حيث النتائج الفعلية في الدنيا .. ولهذا يكونون مثلهم في الآخرة أيضاً .

سأل أعرابي رسول الله ﷺ متى الساعة ؟ فقال ﷺ : « إنها كائنة فماذا أعددت لها » ؟ فقال : والله إني ما أعددت لها كثير صلاة ولا كثير صيام ، ولكني أحب الله ورسوله . قال ﷺ : « أنت مع من أحببت » . لأن المرء يكون مع من أحب في الدنيا فيحشر في الآخرة معه أيضاً . ولا بد من ملاحظة أن المؤمن القوي الذي يعتز بإسلامه ومبدئه ، لا يتعرض معارضوه إلى الهزء من الإسلام بحضوره غالباً .. فكثيرون يحتشمون في كلامهم وسلوكهم إذا دخل مجلسهم إنسان مؤمن .. وقد يغلقون المذياع والتلفاز .

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ .

تلك هي الصفة الرابعة : ينتظرون النتيجة ثم يظهرون تأييدهم للمنتصر .

ونلاحظ كيف عبر عن كسب المعركة بشكل مختلف بين المؤمنين والكافرين .. فالمؤمنون يأتيهم الفتح من الله .. أما الكافرون فقد يكون لهم نصيب أحياناً ــ وذلك في الدنيا فقط وبحسب سنن الدنيا ــ لخطأ أو تقصير حدث من المؤمنين .. ﴿من عند أنفسكم﴾ (آل عمران ــ ١٦٥) . وقولهم : ﴿**ألم نستحوذ عليكم**﴾ : أي كان بإمكاننا أن نكون عليكم أو أن نتغلب عليكم ، لكننا كنا معكم حين امتنعنا عن نصرة المؤمنين وتركنا قتالكم .

استحوذ عليهم الشيطان : أي تمكن منهم وتغلب عليهم .

﴿ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ .

وليس معنى ذلك أنهم ناجون في الدنيا من عواقب أعمالهم . فكل عمل تقوم به في الدنيا له نتائجه التي رسمها الله .. وأكبر جزاء هو حالة القلق والخوف الدائم والتربص التي يعيشون عليها .. ومن نتائج النفاق التي أشار إليها القرآن ــ في الدنيا ــ الإذلال والطرد والقتل كما جاء في سورة الأحزاب : ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً . ملعونين أينما ثقفوا . أخذوا وقتّلوا تقتيلاً . سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ (الأحزاب ــ ٦٠) .

﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ : أي لن ينتصر الكافرون عليهم .

سأل رجل علياً بن أبي طالب عن هذه الآية فقال : إنها عن يوم القيامة . ولكن لا مانع من أن يكون الحديث شاملاً للدنيا والآخرة .. ويكون هذا تطميناً للمؤمنين بأن هذا التآمر وهذا الكيد الدائم من المنافقين ، لن يغير من العاقبة ولن يجعل الغلبة للكافرين .. مع ملاحظة قاعدة : أن نتائج الأعمال في الدنيا جماعية . فحين يكون المنافقون قلة في المجتمع المسلم ، فإن النتائج لصالح المؤمنين .. أما حين يكون المؤمنون قلة، ولم يصبح لهم مجتمع قائم على الإسلام، فلن تكون الكفة إلى جانبهم دائماً ..

ويمكن أن نتأمل الآية من جانب آخر أيضاً . وهو أن الوعد فيها للمؤمنين .. فمن هم المؤمنون ؟! إن الآيات سبق أن شرحت معنى الإيمان : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً﴾ (النساء ــ ٦٥) .

إن الإسلام هو الاستسلام لدين الله .. والإيمان أعلى منه . وهو أن تحكّم القرآن والسنة وأنت راض مطمئن لحكم الله .. فأين نحن من هذا ؟! نحن نحمل اسم الإسلام والإيمان لكننا لا نمثل حقيقته .. نحن في أحسن أحوالنا شكل خارجي فقد حقيقته ــ مثل الفاكهة والأزهار الصناعية ــ .. وكل شيء له حقيقة وله مظهر .. فإذا وجد الشيء في حقيقته وجوهره وُجِدَ مظهره بلا ريب . لكن ليس كل مظهر يحمل وراءه الحقيقة والجوهر .. والمؤمن حين توجد حقيقة الإيمان في قلبه ، لا بد أن تأخذ شكلها الظاهري وتتجلى في سلوكه وهيئته كالذي يشعر بالحزن أو السعادة ، ويظهر ذلك في هيئته وسلوكه وتقاطيع وجهه .. أما إن وجد المظهر بدون جوهره فإنه لا قيمة له .. ومصير المظهر أن يتلاشى مع الأيام .. كما بدأ يتلاشى الحجاب عند نساء العالم الإسلامي ، بعد أن أصبح في عصر الانحطاط قشرة خارجية لا تحمل وراءها أي جوهر .. فوجود المظهر وحده نفاق .. ووجود الحقيقة والمظهر هو الإيمان .. ولهذا عرف العلماء الإخلاص : بأنه استواء السر بالعلانية . أما أن يوجد الجوهر بدون مظهر فلا يمكن . والمشكلة هي وجود من يحمل المظهر فقط ..ومن يدعي (أن لديه جوهر الإيمان وأن الإيمان ليس بالمظاهر..) أما المؤمنون حقاً فقليل ما هم .. إن المؤمن هو الذي فهم دينه وتفاعل معه وسعى لكشف سنن الحياة والكون وسخرها في خدمته .. فكيف ينتصر عليه الكافر ؟! والتاريخ شاهد بأن الهزيمة لم تلحق بالمؤمنين إلا وكانت هناك ثغرة في حقيقة الإيمان وحسن تمثله .. إن المؤمن الذي يحمل التصور الصحيح لهذا الوجود وللحياة الإنسانية .. المؤمن الذي علمه ، إيمانه الإحسان والإتقان في العمل .. قد تتأخر قليلاً نتائج أعماله .. لكن العاقبة له .. وقد بشره الله بما هو خير وأبقى .. ولا ينبغي أن نخدع بالعاجلة ..

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ .

فالخداع هو الصفة الخامسة لهم . فهم لسوء تصورهم عن الله سبحانه وعلمه ، يظنون أنهم يخدعون الله ورسوله والمؤمنين . لكن الله هو خادعهم .. فهو يمد لهم ويؤجل عقابهم فينطلقون ولا يشعرون بأخطائهم .. وفي سورة الحديد يصور لنا طرفاً من خداعهم في الآخرة : ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم . قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾ (الحديد — ١٣) .

﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

في الصفة السادسة يتحدث عن صلاتهم .. قيل إنهم لا يقولون من صلاتهم إلا مواضع الجهر .. وسواء أكان هذا أم كانوا يقرؤون فهم لا يذكرون الله في نفوسهم .. إنهم يؤدون الصلاة بكسل وكأنها عبء ثقيل ، لأنهم لم يستشعروا حقيقة الصلاة وأنها مناجاة والتجاء إلى الله الذي ملك قلوب المؤمنين .

يقول ﷺ : « أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً . ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام . ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ثم أنطلق معي برجال ومعهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار » (في الصحيحين) . فهم متثاقلون عن حضور صلاة الجماعة .

ووصف رسول الله ﷺ أيضاً صلاة المنافق : « تلك صلاة المنافق — ثلاث مرات — يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » (رواه مسلم) . وكلما خلت الصلاة من التدبر والخشوع .. قاربت صلاة المنافق وفقدت من قيمتها وثوابها واضمحل أثرها في حياة الإنسان .. ﴿إن

الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ (العنكبوت ـــ ٤٥) .

ثم تعود الآيات لتؤكد على الصفة الأولى وهي التردد والذبذبة ..

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ .. ﴾ .

يقول الرسول ﷺ : « إن مثل المنافق يوم القيامة كالشاة بين الغنمين .. إن أتت هؤلاء نطحتها وإن أتت هؤلاء نطحتها » (رواه أحمد) . إنها صورة من القلق والضلال البائس .. ومن لهذه الذرة التائهة ـــ الإنسان ـــ إن تخلى عنها الله تعالى ..؟!

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ .

في هذه الآية يذكر عمل الله وحده .. والذين لم يتأملوا موضوع عمل الله وعمل العبد والعلاقة بينهما في القرآن ، يحرفون هذه الآية عن معناها .. ويخرجون بنتيجة : أن الإنسان مجبر على الاتجاه الذي هو فيه .. لكن الحقيقة التي أكدها القرآن : أن عمل الله لا يحدث إلا بعد عمل الإنسان ﴿إن تطيعوه تهتدوا﴾ (النور ـــ ٥٤) .. ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ (العنكبوت ـــ ٦٩) .

ثالثاً ـــ تحذير المؤمنين من النفاق

وبعد هذا الوصف والتهديد للمنافقين ، يتوجه بالخطاب إلى المؤمنين . يحذرهم من النفاق : ﴿**يا أيها الذين آمنوا** ..﴾ . النداء الحبيب من الله الذي ملك قلوب **المؤمنين. فكيف نلبي النداء؟ ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾** (النور ـــ ٥١) . **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾** (الأنفال ـــ ٢٣) .

كيف كان المسلمون يستجيبون لله ورسوله ..؟ في حنين ناداهم الرسول ﷺ : يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا .. يا معشر المهاجرين الذين

بايعوا .. هلموا إلي .. وسمع المسلمون النداء وهم منهزمون على رواحلهم والنبال تنهمر عليهم .. وصاحوا : لبيك .. لبيك يا رسول الله . وجعل الواحد منهم يحاول رد راحلته نحو النبي فتأبى لشدة الهول ، فيلقي نفسه من فوقها ويتركها ويسرع غير عابىء بالموت ملبياً لنداء رسول الله ﷺ .. فكيف نلبي نحن النداء ..؟!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ .

نهى الله عن موالاة الكافرين والثقة بهم وموادتهم .. وهذا يوحي بأن بعض المسلمين كانوا يحتفظون بصلاتهم مع أقربائهم الكفار أو مع اليهود . بينما أنهى الآخرون كل علاقاتهم مع الكفار ، حتى أن الرجل منهم كان مستعداً لقتل أبيه أو أخيه الكافر في المعارك .

ولو خالفتم أمر الله هذا لاتصفتم بالنفاق .

﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ ؟! السلطان : الحجة . إن هذا السؤال كافٍ لزلزلة قلب المؤمن . ثم تأتي الطرقة الأقوى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ .

أين الأنصار في ذلك اليوم ..؟ أين من تركت أمر الله إرضاء لهم أيها المبتعد عن أمر الله ؟! ﴿ أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟! ﴾ (الشعراء ــ ٩٢) .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ .. ﴾ .

بعد التهديد يفتح لهم باب الرحمة والتوبة لمن أراد النجاة .. ولأن هذه النفوس ملتوية مذبذبة تعودت على التأرجح بين الطرفين .. يؤكد الله في وصف التوبة الصادقة المطلوبة منهم : فهي توبة في القلب .. وعمل صالح في الجوارح .. واعتصام وتمسك بدين الله ، وإخلاص صحيح لله .. وكلمة (تاب) معناها : رجع .. والتوبة رجوع عن الخطأ .. ومن يعجز عن رؤية أخطائه أو سماع نقدها لا يقدر على التوبة والاستغفار .. والعالم الإسلامي قد تخلى عن النقد الذاتي من زمن .. وهو غير مستعد

لتحليل آخطائه والحديث عنها .. ويعتبر كل حديث عن أخطاء المسلمين خيانة لقضيتهم وعمالة لعدوهم .. بينما وصل الأمر عند بعض الدول الأخرى المعاصرة في إدراك أهمية النقد إلى حد جعل أحد زعمائهم يقول : (النقد الذاتي خبزنا اليومي) . وما زالت مكتبات العالم الإسلامي حافلة بالكتب التي تمدح الإسلام والمسلمين ، وإذا صدر كتاب فيه تحليل ونقد لأخطاء المسلمين تعرض لصراع فكري يجعل الناس تعرض عنه .

فالذين تحققت فيهم هذه التوبة الصادقة : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

ثم يهمس للقلوب المؤمنة همسة رقيقة حانية : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ..؟! ﴾ . إن الله لا يريد لنا العذاب والعنت ، ولهذا أرسل لنا هذا الكتاب رحمة وليكون للعالمين نذيراً .. إن الله يريد لنا الرحمة والتخفيف : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ (النساء ــ ٢٨) . فلا تتسببوا لأنفسكم بالعذاب ..

والشكر لا يكون باللسان فقط .. وإنما : ﴿ اعملوا آل داود شكراً . وقليل من عبادي الشكور ﴾ (سبأ ــ ١٣) .. والإيمان هو التصديق والتنفيذ العملي لشرع الله مع الرضا به ..

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ سبحان الله .. إن الله الغني عن العالمين يشكر للعبد المؤمن سعيهُ لحماية نفسه من العذاب .. إن إيمان العبد وشكره لله لن يزيد في ملك الله شيئاً .. ولكنه يحمي العبد من العذاب . ومع ذلك فإن الله يشكر له ذلك ويرضى عنه ..!! فكيف ينبغي أن يكون شكرنا لمن نعيش في بحر من إنعامه ؟!

عليماً : يعلم من يستحق الثواب ومن يستحق العقاب .. يعلم الشاكر من الكافر والمنافق ..

رابعاً ـــ الجهر بالسوء وحكمه

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ .

إن الله لا يحب أن يعلن الإنسان بالقول السيىء والعمل السيىء أو يذكر الصفات السيئة في شخص ما .. لكن حين يُظْلَم الإنسان يجوز له أن يجهر .

يأتي هذا الموضوع لحكمة إلهية عالية .. إذ أن الجهر بالسوء له أضراره الفردية والاجتماعية :

١ ـــ فهو يثير العداوة والبغضاء بين الناس .

٢ ـــ ويجعل الثقة بين الناس تنعدم ويقل المعروف فيهم .

٣ ـــ ويتعود من يسمع بالسوء أو يراه على عدم استنكاره .. وقد يألفه .. وقد يقع فيه .. وقد ذكر رشيد رضا في تفسيره لهذه الآية كيف أنه عندما ذهب من طرابلس إلى مصر ورأى التكشف والفسق بكثرة تعود ولم يعد يستنكر هذه المشاهد ..كذلك ثبت ضرر أفلام الجريمة وأثرها السيىء على الجيل الناشىء ، وكأنها تجعل الجريمة أمراً عادياً في حِسِّه .

٤ ـــ كذلك يضر الفرد نفسياً حيث يتعود على الكلام السيىء . يروى أن عيسى عليه السلام قال لخنزير : مرَّ بسلام .. فاستغرب أصحابه . فقال : كل امرىءٍ ينفق مما عنده ، (كل إناء بما فيه ينضح) . من أجل ذلك جعل حد القذف قريباً من حد الزنا .. القذف ثمانين جلدة والزنا مائة . لأن القاذف يساهم بنشر الفاحشة وتسهيلها على النفوس إضافة إلى تشويه المقذوف . ومن أجل ذلك نهي المسلمون عن تناقل الإشاعات ، وأمروا بضبط اللسان وإمساكه .. ونهوا أيضاً عن المجاهرة بالمعاصي : « كل أمتي معافاة إلا المجاهرين » (رواه مسلم) .

والمؤمن قد يخطىء ويذنب .. فهل يكون منافقاً إن كتم ذنوبه وأخطاءه ..؟!

يقول الغزالي في هذا الموضوع : الأصل في الإخلاص استواء السر بالعلانية . وقد قال عمر لرجل : عليك بعمل العلانية . قال : يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية ؟ قال : (ما إذا اطلع عليك أحد لم تستح منه) . إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد . ولا يخلو الإنسان من ذنوب بقلبه أو جوارحه وهو يخفيها ويكره أن يطلع الناس عليها . فإن كان يسترها ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى ، وهو ليس بخائف من الله ، فهو النفاق والرياء . لكنه إن سترها بدافع من الحياء من الله تعالى والناس فالحياء شعبة من الإيمان و« الحياء خير كله » (رواه مسلم) . وحتى لا يجمع إلى ذنبه ذنباً آخر وهو الجهر بالسوء وإظهاره بين الناس . أو لأنه يخاف من أن يقتدي به غيره إن كان قدوة .

إن هذه الدوافع لستر الذنوب من دوافع الإيمان ولا تدل على نفاق . أما ستر الطاعات فهو الأفضل دائماً إلا في حالة واحدة وهي حالة القدوة ، لأن في ذلك تشجيعاً للناس على الطاعة ونشراً عملياً للخير .. روي أنه كان يمر الإنسان في طرق البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت . فألف أحدهم كتاباً في دقائق الرياء .. فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه فكانوا يقولون : ليت ذلك الكتاب لم يؤلف .

كنت أتساءل عن ما يربط هذه الآية بما قبلها .. حتى أحسست بأن من يتأمل الآيات السابقة عن النفاق والتحذير منه قد يدفعه الخوف منه إلى التفكير في إعلان أخطائه وإطلاع الناس على بعض ذنوبه .. فيقول الله له : ﴿**لا يحب الله الجهر بالسوء من القول**﴾ فصدق الله العليم الحكيم الذي أحاط بالقلوب والمشاعر .. ومن حكمة الله سبحانه أنه يذكر القاعدة ويذكر معها الحالات الاستثنائية .. ﴿**إلا من ظلم**﴾ وهذا مما يميز التشريع الإلهي الدقيق عن غيره من نظم البشر .

أما متى يجوز الجهر بالسوء ؟! فقد ذكر الغزالي ست حالات يجوز فيها الجهر بالسوء :

١ ــ التظلم : أي أنه يشكو ظلمه .. وذلك لتحقيق العدل الذي نزل القرآن لإقامته .. ففي هذه الحالة يكون الخير والعدل هو الهدف والمسوِّغ لهذا الجهر .. وليس التشهير بالناس والخوض بلا فائدة .

٢ ــ الاستعانة على تغيير المنكر .. فقد رأى رجل أبا جندل يأخذ الربا . فشكاه إلى عمر . فكتب عمر كتاباً إلى أبي جندل يذكره فيه بالآية في النهي عن الربا ويعظه .. ومثل هذا يحدث معنا كثيراً حيث نستعين بمن نثق بعلمه وقدرته على الوعظ في نصح من يفعل المنكر .

٣ ــ الاستفتاء : ولقد استفتت هند بنت عتبة رسول الله ﷺ : هل يجوز لها أن تأخذ من أبي سفيان نفقتها وأولادها دون أن يحس أو يعلم .. لأن أبا سفيان رجل شحيح ؟.

٤ ــ تحذير المسلم من الشر . ومثاله : إذا كان رجل مؤمن يتردد على فاسق ولا يعلم حاله .. فيجوز تحذيره منه وكشفه على حقيقته على شرط أن يكون الدافع الإخلاص لا الحسد . وكذلك إذا كان هناك موضوع زواج فيجب ذكر الحقيقة وتعريف السائل بها .

٥ ــ أن يكون الإنسان معروفاً بلقب قبيح : مثل بيت الأعمى .. مع العلم أنه من الأفضل لصاحب هذا اللقب أن يغيره ، فإن الرسول ﷺ قد غير كثيراً من الأسماء بعداً عن القبيحة ..

٦ ــ المجاهرة بالفسق : أي الجهر بالسوء لمن يجهر بالعمل السيىء وحتى يحس بوقع ما جنت يداه . ولمعرفة مواضع الجهر بالسوء تحتاج المسألة إلى ذوق وثقافة **إسلامية وهذا يحدث في التشهير عند الحدود وإقامتها. ولقد مر معنا في هذه السورة حتى الآن ثلاثة أمور تحتاج إلى ذوق إسلامي لتمييزها:**

١ ــ متى نرجع إلى المختصين ؟

٢ ــ متى تجوز النجوى ؟

٣ ــ متى يجوز الجهر بالسوء ؟

إن هذه الأمور كلها لا يمكن فهمها وتطبيقها إلا بوجود الثقافة الإسلامية .. وهي متعلقة بوضع الأمور في مواضعها ، وهي مرتبة الحكمة التي ذكرها القرآن كثيراً .

ويعقب :

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ .. إن الشعور بأن الله يسمع ويعلم ، **يجعلنا نخجل** من الجهر بالسوء . وهو ــ حقاً ــ يعلم الدوافع الحقيقية وراء الكلام والأعمال .

ثم لا يقف القرآن عند مرحلة النهي عن الجهر بالسوء ، وإنما يوجه إلى الخير الإيجابي وإلى العفو .

﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ .. في إبداء الخير إشاعة له في المجتمع . وفي إخفائه تربية للنفوس وتطهير لها من كل شائبة رياء. وهكذا الخير طيب في السر والعلن..

﴿ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ : يرغب في العفو بوصف الله أنه عفو قدير . ولا يكون العفو عفوا صادقا صحيحاً إلا إذا كان عن مقدرة .. صادراً عن سماحة النفس لا عن مذلة العجز .. ﴿ **عفواً قديراً** ﴾ .

« ما نقصت صدقة من مال . وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » (رواه مسلم) . ولكي لا نظن أننا إن سكتنا وعفونا فقد ضيعنا حقنا .. وحتى لا نخلط بين الذل والعفو يقول ﷺ : « تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك » .

إن تذكر هذه المعاني في مواقف يظلم فيها الإنسان .. يساعده على التحمل والعفو .. وتذكر الآيات في مواضعها يجعلنا نشعر وكأنها نزلت الآن لتحل مشكلتنا .. كما حدث مع عمر عندما سمع الآية من أبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ..؟! ﴾ (آل عمران ــ ١٤٤) .

ذكر للحسن أن رجلاً قد اغتابه ، فأرسل إليه بطبق من الرطب وقال : قد بلغني أنك أهديت إليَّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام ..!

ونزل ابن مسعود إلى السوق ودراهمه في عمامته ــ مربوطة ــ فطلبها فوجدها قد حُلَّت . فقال : لقد جلست وإنها لمعي . فجعلوا يدعون على من أخذها . فقال عبد الله : اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها ، وإن كان حمله جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه .

الفصل السادس عشر

في بني إسرائيل

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ
أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ
حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ
يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ
أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ
مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ
ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ
ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾
وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا
وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾
فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ
بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ
فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ
بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ

رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا
﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ
حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ
بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۖ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

أولاً ــ التفريق بين الله ورسله هو الكفر

تنتقل الآيات من الحديث عن المنافقين إلى صنف آخر وفئة أخرى تشبه المنافقين في بعض صفاتها . ويمهد للحديث المباشر عن بني إسرائيل بذكر أنواع ثلاثة من الكفار :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ .

١ ــ نوع يكفر بالله والرسل وهم الماديون الملحدون .

٢ ــ نوع يؤمن بالله ويكفر بالرسل .

٣ ــ نوع يؤمن بالله ويؤمن ببعض الرسل دون الباقي . كما روي أن اليهود قالوا للرسول ﷺ : (نؤمن بك وبموسى وبما أنزل عليك وعلى موسى) يريدون التقرب إليه .

وحقيقة الأمر أن اليهود يكفرون بعيسى ومحمد ــ صلوات الله عليهم ــ والنصارى يكفرون بمحمد ﷺ . وكل من يفرق بين الرسل في الإيمان ، يتبين أن إيمانه ليس صحيحاً لأنه مبني على الهوى والعصبية ؛ فرسالة الله كل لا يتجزأ ، فمن يكفر ببعض الرسل فقد كفر برسالة الله . وإن حاولوا إيجاد المسوغات والحجج لموقفهم ، وأن يجدوا لأنفسهم مخرجاً من وجوب الإيمان بالرسل كافة كقولهم : ﴿إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لنبي حتى يأتينا بقربان ..﴾ (آل عمران ــ ١٨٣) . وهي إحدى محاولاتهم للتملص ..

﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ .

إنهم يحاولون إيجاد طريق ثالث بين الكفر والإيمان . لكن الله سبحانه وتعالى

يقطع عليهم الطريق ، ويعلن أن هذه الأنواع الثلاثة كفر . وأنه ليس هناك حل وسط بين الإيمان والكفر . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ ﴾ .

وقد نشعر باطمئنان لأننا لا نفرق بين الرسل . ونقول بأن الحديث لا يخصنا .. ولكن التفريق يقع أيضاً في تطبيق بعض أحكام القرآن وترك بعضها .. وما أسهل تطبيق الحق عندما يكون مطابقاً لما اعتدنا عليه . أما عندما يحتاج الأمر إلى جهد وتعب .. وإلى تحدي المجتمع وعاداته ، نجد كثيرين يتخاذلون .. فالصلاة مثلاً مستحبة ومألوفة في مجتمعنا .. أما الدعوة إلى الله والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـــ مع توفر شروطه : العلم والرفق والصبر ـــ فذلك شيء صعب وغير مألوف في مجتمعنا ـــ خاصة نحن معشر النساء .. فقد تعودنا أن المرأة لا شأن لها بذلك ـــ كذلك الصيام عن الطعام والشراب قد ألفناه ، أما صيام اللسان عن كل أذى ولغو .. أو الالتزام بالخلق الحسن ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ (البقرة ـــ ٨٣) . فذلك أمر صعب .

ونحن نجد العذر لأنفسنا فنقول : الطاعة على قدر الاستطاعة .. وذلك كلام لا أساس له من الصحة لأن الله لم يأمرنا إلا بما نستطيع ونطيق ، وما جعل علينا في الدين من حرج . وقد ندد الله في سورة البقرة بالذين يفرقون بين حكم وحكم فيطبقون ما يحلو لهم ويتركون ما لا يريدون : ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟! فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾ (البقرة ـــ ٨٥) . وليست الآية خاصة باليهود .. وإنما عامة لكل من فعل فعلهم .. وفي سورة النور يصف المنافقين : ﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ! أفي قلوبهم مرض ؟! أم ارتابوا ؟! أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ! بل أولئك هم الظالمون﴾ (النور ـــ الآيات ٤٨ ، ٥٠) .

﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ ﴾ .

يقال في اللغة عن الليل كافر : لأنه يستر الأشياء ويغطيها . والفلاح كافر لأنه

يستر الحب. وتُسمى القرية (كفْراً) أي مكان تُسْتَر فيه البذور وتُكْفَر.

وفي الشرع : من يغطي آيات الله ويكتمها .. ويجحد بها ، فهو كافر .

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ .

لأنهم ترفعوا عن الخضوع لأمر الله واستهانوا به . وقد يسأل سائل : فأي شرع من شرائع الرسل ينبغي أن نطبق طالما أننا نؤمن بالكل ؟ والجواب الطبيعي : الرسالة الأخيرة لأنها :

١ ــ حوت ما في قبلها من خير ، وجاءت بالأحكام النهائية التي تناسب البشر في كافة العصور .

٢ ــ لأنها لم تتعرض للتغيير والتبديل .

ومن ينفذ رسالة الإسلام فقد آمن ونفذ رسالة الله التي تمثل كلاً لا يتجزأ .. ولهذا قال نصراني بعدما أسلم : لم أكفر بديني بل صرت نصرانياً أفضل .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

والنكتة هنا أنه في الآية السابقة قال :

﴿ أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ . أما في هذه الآية عندما ذكر الطرف المقابل لم يقل : أولئك هم المؤمنون حقاً .. حتى لا يغتر المسلمون فيظنون أن مجرد وجود هذا الإيمان يجعلهم مؤمنين حقاً . فقد ذكرت صفات المؤمنين في مواضع أخرى من القرآن .. منها ما ورد في سورة الأنفال : ﴿ إنما المؤمنون الذين : إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً . وعلى ربهم يتوكلون[1] . الذين يقيمون الصلاة . ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ (الأنفال ــ الآيات ٢ ــ ٤) .

---

١ ــ التوكل الحقيقي : أن تؤدي ما في وسعك وتثبت على الحق ثم تتوكل .

إن الإيمان والعمل كل متكامل .. وينبغي للمؤمن أن يتعلق به قلباً وقالباً .. ولقد قال بنو شيبان لرسول الله ﷺ حين دعاهم للإسلام : إن دعوتك طيبة وتدعو إلى مكارم الأخلاق ، ولكن نخشى إن تبعناك أن يناوئنا الناس .. فتركهم الرسول ﷺ لأنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه .

وكذلك المسلمون الآن كلهم يمدح الإسلام ويصفه بالعظمة ، لكنهم لم يستطيعوا أن يحققوا دين الله في الأرض ، لأنهم لا يحيطونه من جميع جوانبه ، ولا يعطونه الأولوية فيضحون من أجله بشيء من دنياهم .

ثانياً ـــ بعض أخطاء بني إسرائيل وعقاب الله لهم

والآن ينتقل إلى الحديث المباشر عن بني إسرائيل :

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ .. ﴾ .

والآيات هنا تذكر بعض أخطائهم لكشفهم على حقيقتهم أمام المسلمين .. ولكي يعتبر المسلمون برؤية أسباب ذل هذه الأمة .. وأن هذه الأخطاء هي السوس الذي ينخر جذع كل أمة ويعرضها للسقوط والهوان . وها أنذا أعدد الأخطاء المذكورة في الآيات وألم بها ولو سريعاً :

١ ـــ ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ .

روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى . بل قيل إنهم سألوه أن ينزل عليهم صحفاً مكتوبة إلى فلان وفلان بتصديقه فيما جاء به . وهذا للتعنت والعناد لا للاقتناع .. ويتولى الله سبحانه الإجابة ، ويقص علينا صفحة من تاريخهم مع نبيهم الذي يزعمون أنهم يؤمنون به ويرفضون التصديق بعيسى ومحمد ـــ صلوات الله عليهم ـــ فيكشف عن طبيعتهم

المعاندة المكابرة منذ عهد موسى . فيقول لنا : ليس عجيباً ولا غريباً عليهم أن يسألوا مثل هذا السؤال : فقد سألوا موسى أعظم من ذلك ..

٢ ـــ ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ .

إن أول ما يلفت نظرنا في هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه يتحدث عن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ ، وكأنهم هم أنفسهم الذين عصوا موسى ، وكأن الأخطاء التي صدرت عن أجدادهم قد صدرت عنهم . إن مثل هذا يرد في القرآن .. ويدل على أن الله سبحانه يعلِّم الناس أن ينظروا إلى الأمة ككل متكامل وكأنها شخص واحد ، له طفولة وشباب وهرم وموت . وعلماء التاريخ والاجتماع الآن يدركون أهمية هذه النظرة ويدرسون أحوال الأمم على هذا الأساس ..ـــ مع الفارق في المصطلحات أحياناً .. فابن خلدون يستعمل كلمة الدولة .. والمعاصرون يستعملون كلمة حضارة ـــ فينظرون إلى الأمة على أنها كيان واحد . وكأي كائن حي تتحكم به كل الأحداث والأمراض التي مرَّ بها : كيف نشأ ؟ كيف تَرَبّى؟ ما الأحداث التي تعرض لها ؟ ..

والموضوع شبيه بحالة المريض .. ألست ترى الطبيب قبل أن يعالج مريضه يهتم بأخذ معلومات أساسية عنه : العمر .. والوضع العائلي .. والأمراض التي سبق أن تعرض لها .. والعمليات الجراحية .. ويحتفظ بهذه المعلومات ليضيف إليها باستمرار كل ما يجد مع هذا المريض ، والأدوية التي يتناولها . وعلى هذا الأساس يستطيع الطبيب أن يعالج المريض .. بل ويتنبأ كيف ستكون حالته الصحية .. وعلماء التاريخ والاجتماع الذين تمرسوا في دراسة أحوال الأمم الماضية .. استطاعوا أن يتنبؤوا بما سيحدث لبعض الأمم المعاصرة .. بناء على هذه الرؤية الكلية للأمة ..

إن كل جيل من أي أمة يحمل رصيداً كبيراً من الماضي .. كما يحمل الشاب رصيداً من العقد والمواقف الناتجة عن سنوات طفولته والمشكلات التي تعرض لها .. وكما أن المحلل النفسي لا يستطيع علاج العقدة عند هذا الشاب حتى يستحضر أحداث طفولته ويذكره بها .. ثم يعالجه .. كذلك فإن القرآن يعلمنا أن ننظر إلى الأمم بهذا المنظار إذا أردنا العلاج .. فيذكرهم بأحداث الطفولة عسى أن يتحرروا من العقد والله

أعلم .

﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ .

وكثير من الناس كان يسوغ كفره وإلحاده بأن الله لو كان موجوداً لرأيناه ؟ ورد عليهم أحد العلماء : بأنه هل يستطيع أحد منكم أن ينكر وجود الكهرباء مع أنه لا يمكن رؤيتها ..؟ وإنما من آثارها تعرف .. وكذلك روح الإنسان لا ترى .. ولكن بها يؤدي كل أعماله .. والإنسان لا يستطيع في الدنيا أن يرى الله وهذا فوق طاقته . ولكنه يرى آلاء الله التي تدل عليه . إن الذي يقول : لا أومن إلا بما أرى قد أصبح تفكيره بدائياً ساذجاً في هذا العصر .. حيث يكشف العلم باستمرار وجود أشياء في عالم المادة لم يستطع أن يراها أحد حتى الآن ـــ مثل الكوارك وهو أصغر شيء من أي مادة ـــ فكيف بالعوالم الأخرى ..؟! وكيف يخطر لنا هذا مع رب العالمين ..؟!

فكيف كان عقابهم على هذه الوقاحة مع رب العالمين ..؟!

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ .

لقد عاقبهم الله بأن أخذتهم الصاعقة بعد أن ظلموا .

٣ ـــ ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ .

فمن بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة التي تمت على يد موسى ، ومن بعد ما أهلك الله عدوهم فرعون .. اتخذوا العجل .. وذلك أنهم بعد نجاتهم مروا على قوم من عبدة الأصنام فقالوا لموسى : ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ (الأعراف ـــ ١٣٨) . وعظهم موسى ونهاهم ، ثم ذهب لمناجاة ربه فاتخذوا عجل الذهب في غيابه .. وكان عقابهم على ذلك أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده . ثم أحياهم الله وعفا عنهم .. والمسلمون يمكن أن يقعوا في مثل هذه الأخطاء ، لذا لا ينبغي التساهل مع البدع والتقديس الخرافي الذي لم يرد فيه حكم شرعي .. فلقد قال المسلمون في الماضي لرسول الله ﷺ : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ـــ لما مروا على قوم خصصوا شجرة

بشيء من الاحترام يعلقون عليها أسلحتهم ــ فقال ﷺ : « لقد قلتم كما قالت بنو إسرائيل » أو كما قال .. ولقد خاف عمر على المسلمين من التقديس والانحراف ، فأمر بقطع الشجرة التي حدثت تحتها بيعة الرضوان .. ولو بقيت لأحدثت فتنة .

إن الآفة التي توقع الناس في الشرك هي الجهل . وقد سبق أن عرَّفنا الشرك بأنه الفهم الخاطىء للكون وسننه .. ولا يشترط أن يرتبط الشرك بالصنم .. فإذا اتخذ بنو إسرائيل العجل إلهاً .. فإن الناس الآن يتخذون المال أو الهوى إلهاً يعبدونه من دون الله .

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ .

ما السلطان الذي أعطي لموسى ..؟! هل هو ملك مصر ..؟ أم العساكر والجيوش والأسلحة النووية ..؟! السلطان المبين : هو الشريعة التي تضمنتها الألواح .. وكل شريعة غيرها من وضع البشر ما أنزل الله بها من سلطان . ولهذا نرى أنها لا سلطان لها على القلوب ولا سيطرة ، ولا ينفذها الناس إلا تحت عين الرقيب .. إن القرآن غالباً ما يستعمل كلمة (السلطان) بمعنى العلم أو الكتاب المنزل من السماء .. إن العلم والهدى هما أصحاب السلطان .. لأنهما يُخضِعان العقل .. وكل الضغوط والقوى الأخرى لا سلطان لها على النفوس .. وإنما هو القهر للأجساد .

٤ ــ نقض الميثاق والكفر :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم .. ﴾ .

تلكأ بنو إسرائيل في أخذ أحكام التوراة ورفضوا الالتزام بها .. فرفع الله فوقهم الصخرة فخافوا وأعطوا العهد على الالتزام . ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم . خذوا ما آتيناكم بقوة . ﴾ (الأعراف ــ ١٧١) .

﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ : ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ .

وقال لهم : ادخلوا الباب سجداً ــ باب قرية فتحها لهم فأمرهم بدخولها شاكرين لربهم ساجدين ، وهم يقولون : حطة تواضعاً لله ــ فصاروا يستهزئون ويقولون

حنطة .

﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ ﴾ .

فابتكروا حيلة لمخالفة هذا الأمر .. — والحيل الشرعية عند المسلمين الآن أمر وأدهى — ..

﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ .

إننا نلحظ في التعبير تناسقاً مع غلظة قلوبهم .. لأنه عرف عنهم النكوص والتحايل ، فقد أخذ منهم ميثاقاً غليظاً مؤكداً .. لكنهم ما إن ذهب الخوف عنهم حتى نقضوا الميثاق وكفروا بآيات الله .

٥ — ﴿ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ .. ﴾ .

كذبوا بالرسل .. بل قتلوا بعضاً منهم مثل يحيى عليه السلام .

٦ — ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

غلف : أي عليها غلاف فلا تدخل إليها آيات الله .. كأنهم كانوا يسوغون موقفهم بأن قلوبهم قاسية لم يفتحها الله للهداية .. كما يقول المسلمون الآن : الله لم يهدنا .. لم يشرح قلوبنا .. لم يكتب لنا ..

﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ .

يرد عليهم ويبين السبب : عملوا فجاء عمل الله تعالى متناسباً مع أعمالهم .

﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

المعنى : إما إيمانهم ضعيف ، أو قليل منهم من يؤمن . مثل عبد الله بن سلام من الماضي ومحمد أسد من الحاضر .. وذلك من دقة القرآن في الأحكام : يعطي الحكم ويستثني منه الحالات القليلة .

٧ ــ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ .

لقد افتروا على مريم بهتاناً عظيماً حين قالوا : إنها أنجبت عيسى من الفاحشة والعياذ بالله .

٨ ــ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ .

تبجحوا بقولهم: (إنهم قتلوا المسيح . . هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب: رسول الله) . . لأنهم أصلاً لا يعترفون برسالته.

لقد كذب اليهود عيسى وسعوا في أذاه .. حتى جعل المسيح لا يساكنهم في بلدة ويكثر السياحة .. حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان وأوغروا صدره عليه فأرسل أمراً لواليه على بيت المقدس بصلبه .. ولقد بالغ اليهود في تكذيبه واحتقاره فكفروا .. بينما بالغ النصارى في احترامه ــ كما سيأتي في الآيات بعد قليل ــ وتقديسه حتى جعلوه ابناً لله . ــ سبحانه وتعالى ــ فكفروا بذلك .. وكلاهما انحراف . بينما المسلمون هم الأمة الوسط .

ثالثاً ــ كلمة الفصل بشأن رفع عيسى عليه السلام

أما قضية المسيح .. فما الحقيقة يا ترى ؟ هل قتل ؟ هل صلب ؟

إن الأناجيل كلها كتبت بعد فترة طويلة من عهد المسيح ــ حوالي ١٥٠ سنة ــ ثم اختير منها أربعة واعترف بها رسمياً .. وإنجيل برناباليس أحد هذه الأربعة وقد جاء فيه:

(أن يهوذا جاء مع الجنود ليقتل عيسى وكان في بيته ومعه تلاميذه ــ وعددهم أحد عشر ــ وهم نائمون . فأرسل الله الملائكة فرفعته من النافذة إلى السماء .. ودخل يهوذا فغيره الله حتى صار شبيهاً بعيسى ..) .

واليهود يقولون : قتلناه .. والنصارى يقولون : صلب ودفن ثم قام بعد ثلاثة أيام .

ومن المقرر تاريخياً أن الصلب قد حدث.. ولكن لا يستطيع أحد من اليهود والنصارى أن يثبت أن الذي صلب هو عيسى عليه السلام..والقرآن يقرر كلمة الفصل:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿**وما قتلوه**﴾ ليس القصد منه أن القتل منافٍ للنبوة ، فقد كان **هناك أنبياء قتلوا.. لكنه يقرر الحقيقة ويوضح أن عقيدة النصارى اليوم مبنية على الظنون. والذين اختلفوا فيه بعد رفعه اليهود وفئات النصارى كلهم في شك من الأمر وليس لديهم العلم بما حصل..**

فعقيدة النصارى : أن خطيئة آدم لحقت بالجميع ، وأن عيسى ضحى بنفسه ليكفر عن الناس كلهم هذه الخطيئة . واختلفوا في حقيقة عيسى عليه السلام .. اليعاقبة قالوا : كان الله فينا ثم رفع .. والنسطورية قالوا : كان ابن الله فينا ثم رفع .. الخ . المهم أن الله يذم الظن والهوى ويزكي العلم ويبين أن كلام هؤلاء عن نهاية المسيح لا يعتمد على أي دليل ، وإنما هو ظن واتباع للهوى .. ونحن نؤمن بأن الله قد رفعه إليه بأي شكل كان .

﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

فصاحب العزة قادر على كل شيء ، وهو منزَّه عن أن يتجسد في إنسان نزل بين الناس وتعذب بل وصلب .. وحكيم : يضع الأمور في مواضعها ، فلا يؤاخذ إنساناً بغير ذنبه كما يزعم النصارى في عقيدتهم عن خطيئة آدم .

والتعقيب على الآيات متناسب دائماً مع الموضوع .. يذكر أن أعرابياً جلس في المسجد يستمع لقارىء يقرأ القرآن . فتلا القارىء : ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما **جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم﴾ (المائدة ــ ٣٨). فقال الأعرابي: ما ينبغي أن تكون هنا: غفور رحيم، بل ﴿عزيز حكيم﴾.**

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ ..﴾ .

هناك قول أن ﴿**قبل موته**﴾ : تعود على المسيح .. وذلك أن المسيح سينزل مرة أخرى فيؤمن به أهل الكتاب . وقد وردت أحاديث تدل على نزول المسيح في آخر الزمان . منها ما رواه البخاري : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد . وحتى تكون السجدة خير له من الدنيا وما فيها » .

وقوله : ﴿**قبل موته**﴾ تعود على كل فرد من أهل الكتاب : أي أن كل واحد منهم عندما يعالج سكرات الموت سيؤمن بالمسيح .. لأنهم يعرفون الحقيقة في هذا الوقت ، ولكن لم يعد ينفعهم الإيمان . وهذا الرأي أقوى لأن ﴿**إن**﴾ تفيد التعميم للجميع . أي ما من أحد من أهل الكتاب إلا وسيؤمن به . وهذا لا يتأتى إذا أخذنا بالقول الأول ، لأن الذين ماتوا قبل نزول المسيح لم يؤمنوا .

ومما يرجح القول الثاني أيضاً : أن هناك قراءة للآية : ﴿**قبل موتهم**﴾ .

أما الحديث السابق الذي رواه البخاري فلا علاقة له بمعنى الآية ، وإنما يقرر نزول المسيح . وقد ورد في الحديث : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » قالوا : كلنا نكره الموت ..؟! ففسر لهم الرسول ﷺ ذلك بأن الإنسان إذا حضرته الوفاة جاءه البشير إن كان مؤمناً وبيّن له ما سيؤول إليه فأحب لقاء الله ، والفاسق على العكس .

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ .

سيشهد المسيح على ضلالهم وأنه بلَّغهم أنه عبد الله ورسوله . كما سيشهد كل الأنبياء على أقوامهم .. ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ (المائدة ــ ١١٧) .

وينبغي أن لا ننسى ــ ونحن في غمرة الحديث عن بني إسرائيل ــ محاسبة أنفسنا والحذر من الأخطاء التي وقع بها السابقون .. فإن رسول الله ﷺ سيشهد علينا يوم القيامة : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾

(النساء ــ ٤١) . إن المسلم يعطي عهداً لله كلما قال : لا إله إلا الله .. ونعوذ بالله من نقض الميثاق .

٩ ــ الظلم والصد عن سبيل الله :

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ .

ما تزال الآيات توضح العلاقة الوثيقة بين عمل الله وعمل الإنسان .. فقد حرم الله عليهم بعض الطيبات عقاباً لهم على ظلمهم وصدهم عن سبيل الله . إن الظلم في كل الأحوال يحرم الظالم من طيبات كثيرة .. إنه في أبسط الأحوال يحرم النفس من الهداية والاستقامة وراحة الضمير .. وهي من أعظم الطيبات المعنوية .. وإنما يميِّز الإنسان عن سائر المخلوقات أن له أشواقاً أخرى غير المأكل والمشرب .. و(ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان)[1] .

وأحياناً يكون الحرمان من الطيبات ناتجاً عن الجهل .. فهو لجهله بدينه يحرم على نفسه أشياء لم يحرمها عليه دينه .. فكثير من المسلمين يجهل الرخص التي شرعها الله لعدة مناسبات ، وبعضهم يحرم لحم الحصان ــ مثلاً ــ وهو حلال .

وقد تحدث القرآن في آيات أخرى عن ما حرم عليهم .. ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ..﴾ (آل عمران ــ ٩٣) . وقد قيل بأن يعقوب ــ وهو إسرائيل ــ مرض فنذر عند شفائه أن يمتنع عن بعض المآكل ، فقلده قومه في ذلك إكراماً له ــ قبل نزول التوراة ــ . وفي سورة الأنعام : ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما .. ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾ (الأنعام ــ ١٤٦) .

أما صدهم عن سبيل الله ، فإن اليهود كانوا لا يألون جهداً في سبيل إبعاد الناس عن سبيل الله .. ففي الماضي تواصوا فيما بينهم أن : ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين

---

١ ــ عبارة من الإنجيل .

آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ (آل عمران ــ ٧٢) .

أما في الحاضر فقد صارت لهم أساليب فنية لصد الناس عن الهدى ، وأبسطها : إحاطة الناس بجو شهواني يشغلهم عن التفكير بحقيقة الحياة وأهدافها الرفيعة .

١٠ ــ ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ .. ﴾ .

وقد عرف اليهود عبر التاريخ بأكلهم الربا وهم يفعلون ذلك عمداً لا عن جهل . فهم يعرفون أن الله نهاهم عنه .. وتلاعبوا فغيروا الاسم وأعطوه اسماً براقاً ــ فائدة ــ ؟! وتلاعبوا فقالوا : ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ (آل عمران ــ ٧٥) . أي كل الشعوب غير اليهودية لا بأس علينا من ظلمها وأكل مالها .. فهم يستغلون الناس ويأكلون أموالهم بالباطل ..

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

العذاب في الآخرة إلى جانب عقوبة الدنيا . والدقة في العبارة أن يقول : ﴿ **للكافرين منهم** ﴾ .. وفي ذلك إنصاف يضاف إلى الدقة في الحكم .

تلك هي الأخطاء التي كشفها الله هنا للجماعة المؤمنة عن اليهود . وبيَّن عاقبة أمرهم .. والعقوبات التي نزلت بهم .. وما ينتظرهم عند الله أكثر .. فهل وعى المسلمون ذلك واعتبروا ..؟! إن من المؤسف أن نرى المسلمين قد وقعوا في كثير من هذه الأخطاء . إنهم يتعاملون بالربا ويحتالون على أمر الله حتى يجدوا مهرباً فينقضوا عهد الله مع أنهم يكررونه في كل يوم (لا إله إلا الله) .. لكنهم عملياً يطيعون آلهة أخرى .. يقول الصحابي : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره وعلى أثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » (رواه مسلم) . فأين نحن من هذه البيعة ..؟!

لا عجب أننا حين وقعنا في هذه الأخطاء واتخذنا القرآن مهجوراً ، تمكن منا **الذل وغلبتنا بقية الأمم حتى اليهود . . !! هؤلاء الذين قال عنهم الله في الماضي : ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون**

النبين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ (البقرة ـ ٦١) . والآن نحن الذين يسري فينا قانون الله وسنته في ضرب الذل والمسكنة علينا .

رابعاً ـ الراسخون في العلم يؤمنون

ولا يترك السياق الموقف مع اليهود حتى ينصف القليل المؤمن منهم :

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

الراسخون في العلم .. إن القرآن لا يترك مناسبة إلا ويفيد منها لبيان أهمية العلم والترغيب فيه ، وإكرام ذوي العلم وإعطائهم من المكانة ما لا يعطي لغيرهم .. ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر ـ ٢٨) .. ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾ (آل عمران ـ ١٨) .

ويؤكد العلم هنا بالرسوخ .. الراسخون في العلم .. ورحم الله محمد إقبال حيث قال : كثير من الفلسفة ـ أو العلم ـ يقود إلى الإيمان ، وقليل منها يؤدي إلى الضلال .

ومن الضروري هنا أن نميز بين الظن والعلم .. فالظن : هو الفكر الذي لم يقم عليه دليل وبرهان ـ النظر الذاتي ـ .. بينما العلم هو القانون والسنة التي ثبتت وسخرت .. إذ أننا نمتحن صحة الفكرة بالتسخير .. ـ كما يركب الكيميائي المادة التي يريدها في المختبر بعد أن عرف نسب عناصرها وكيفية تركيبها ـ وعلى هذا الأساس نتجنب الخطأ الشائع وهو الاعتقاد بأن العلم هو النظريات .. وهذا ما دعى كثيراً من الكتاب أن يقولوا : العلم لا يوثق به فهو يثبت اليوم ما ينكره غداً .. لأنهم خلطوا بين النظرية والعلم .. بينما العلم هو حدوث التطابق بين الصورة الذهنية والحقيقة الخارجية

التي نتأملها .. أما الظن فهو حدوث وهم في الصورة الذهنية عن لحقيقة الخارجية .
وعلى المسلم أن يتجنب انحرافين :

١ ــ انحراف الذين يريدون فرض حجر عقلي ويعارضون العلم ، ويعتقدون أنه ينافي الدين ؛ مثل موقف رجال الكنيسة الذي أدى إلى تحطيم الدين في النهاية .. وذلك عندما عارضوا علماء عصر النهضة بشدة وحكموا على بعضهم بالإعدام .

٢ ــ وموقف الذين ينساقون وراء الظنون ويسارعون في تلقف كل قول صدر هنا وهناك فيعادون الدين بغير علم. وكلا الموقفين يعطي نتيجة واحدة وهي فقدان الدين والعلم.

والله يقرر أن الدين يشجع العلم المدعوم بالحجة والبرهان ويتضايق من تأخره .. ﴿وقل رب زدني علماً﴾ (طه ــ ١١٤) . ووجود العلم يقود إلى الإيمان . وقد نقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية عبارة هامة في هذا الموضوع : (إن صحيح المنقول لا يخالف صريح المعقول) . لكن ليس كل المؤمنين قد تمكنوا من العلوم حتى وصلوا إلى الإيمان .. ولهذا تقول الآية :

﴿ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

العلم الراسخ والإيمان المنير كلاهما يقود صاحبه إلى الهدى .. لكنه يبدأ بالراسخين في العلم لأنهم جمعوا العلم إلى الإيمان. وكلا الفريقين الراسخون والمؤمنون: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ .

والآية تجمل في البداية فهم يؤمنون بعموم الدين .. ثم تفصل بذكر بعض جوانب الإيمان : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ــ سواء كانت زكاة المال أو تزكية النفس ــ والإيمان بالله واليوم الآخر .. ويقرر لهم جزاء واحداً :

﴿ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وقد تحدث رسول الله ﷺ عن الذي يؤتى أجره مرتين .. وهو رجل من أهل الكتاب : آمن بدينه ثم آمن بمحمد ﷺ .

ونلاحظ في الآية : ﴿**والمقيمين الصلاة**﴾ ولم يقل « المقيمون » مع أن ما بعدها من الصفات مرفوع ..؟! إنها تأخذ إعراباً مختلفاً عن سائر الصفات . فهي على تقدير (وأخص المقيمين الصلاة) وذلك لإبراز قيمة الصلاة ، فهي عماد الدين و« العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة . فمن تركها فقد كفر » (رواه أحمد وأصحاب السنن) . وذلك مثل قوله في آية أخرى : ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس .﴾ (البقرة ــ ١٧٧) .

الفصل السابع عشر

خطاب للرسول محمد ﷺ

۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ
وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ
وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ
وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ
مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ
تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا
﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا
﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا
لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ
ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾

في المقطع السابق كان الحديث عن بني إسرائيل ومواقفهم . وكان من أبرز مواقفهم تكذيبهم بمحمد ﷺ وإنكار نبوته .. فتأتي الآيات هنا لتقرر نزول الوحي عليه كما نزل على الأنبياء من قبله . والدليل على ذلك أن الوحي الذي نزل عليه يدعو لهدف واحد ، ومبني على أسس واحدة . والتفرقة التي يتمسكون بها ليست إلا عن حسد وتعنت وعصبية . وتبدأ الآيات هنا :

١ ــ بتقرير نزول الوحي إلى محمد ﷺ وسائر الأنبياء .

٢ ــ ثم تذكر الغاية من إرسال الرسل .

٣ ــ وتأتي شهادة الله والملائكة بما أنزل إليك .

٤ ــ تقرر أن لا غفران ولا هداية بعد الكفر والظلم والصد .

٥ ــ ويختم بنداء للناس بمجيء الرسول بالحق .

أولاً ــ تقرير الوحي إليك وإلى الأنبياء

﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ .. ﴾ .

إن الله سبحانه وتعالى يقرر أن الوحي والنبوة قانون للحياة البشرية : ﴿و ما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ (الإسراء ــ ٤٥) . ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ (فاطر ــ ٢٤) . ويذكر هنا أمثلة على قانون النبوة ليظهر أن محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل .

وكلمة الوحي لها معنى خاص حين تستعمل للأنبياء ، ولها معانٍ أخرى نستعملها في لغتنا ، فهي تأتي بمعنى :

١ ــ الإشارة والإيماء : ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً﴾ (مريم ــ

١١) . وذلك أن زكريا كان قد نذر أن يصوم عن الكلام .

٢ ــ وبمعنى الإلهام : ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ (القصص ــ ٧) . أي أن الله ألهمها .

٣ ــ وقد يكون الإيحاء بشكل أصبح في غريزة الكائن الحي وفطرته : ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً﴾ (النحل ــ ٦٨) .

٤ ــ وتأتي بمعنى التأثير على النفس وتوجيهها نحو وجهة معينة مثل : ﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً .﴾ (الأنعام ــ ١١٢) .

٥ ــ وتستعمل كلمة الوحي بمعنى الإعلام الخفي السريع ــ ولعلها استعملت بهذا المعنى في النبوة ــ والوحي للأنبياء : العلم الذي يأتيهم من الله سبحانه ليبلغوه للناس . وقد يكون هذا الوحي بواسطة ملائكة أو بغير واسطة ــ وجدانياً ــ .

﴿ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ .

والأسباط جمع سبط : وهو وَلد الولد . والأسباط هم الأنبياء الذين بعثوا من ذرية يعقوب ﷺ .

﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ .

قصصناهم عليك من قبل : في الآيات التي سبقت هذه . ورسلاً لم نقصصهم عليك .. على مر الأجيال كانت تأتي ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترا﴾ (المؤمنون ــ ٤٤) . أي تتتابع متلاحقة .. على الأمم الأخرى التي لا نعرف عنها مثل الصين .. وأمريكا قبل أن تكشف .

وأجمع آية لأسماء الأنبياء في سورة الأنعام حيث يذكر إبراهيم ثم يقول :

﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين .﴾ (الأنعام ــ ٨٤ ، ٨٦) . وفي مواضع أخرى ذكر غيرهم .. والذين ذكرت أسماؤهم في القرآن يبلغ عددهم خمسة وعشرون . وأجمع السور في قصص الأنبياء : هود والشعراء .

﴿**وكلّم الله موسى تكليماً**﴾ : يذكر الله بميزة موسى على الأنبياء حتى ينتبه البشر أن الله إذا ميز محمداً ﷺ على غيره ببعض الصفات ، فقد ميز غيره من الأنبياء بصفات أخرى . والكليم هو لقب موسى عليه السلام . فكيف كلمه الله ؟ وكيف سمعه موسى ؟!

هذه أمور لا يمكن الوصول إليها ويكفي أن نتذكر قول الله : ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾ (الشورى ــ ٥١) ، حتى نعرف الفارق . فالأنبياء كلهم قد أوحي إليهم ، بينما موسى قد كُلِّم من وراء حجاب .

ثانياً ــ الغاية من إرسال الرسل

وأما الغاية من إرسال الرسل فهي :

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ .

فالغاية هي :

١ ــ التبشير للمؤمنين والإنذار للكافرين المعرضين .

٢ ــ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . فلا يستطيع أحد أن يسوغ موقفه وإعراضه . ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟! قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير . وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً

لأصحاب السعير ﴾ (الملك ــ ٨ ، ١١) .

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

قادراً على أخذ العباد بما كسبوا . ولكن من حكمته ورحمته أنه لا يعذب الناس إلا بعد أن يرسل لهم نذيراً .

ذَكَر الوحي ومضمونه .. ونماذج من الذين أوحي إليهم . ثم ذكر الحكمة من إرسال الرسل . وإن من يتدبر القرآن يلاحظ عنايته بموضوع الحكمة ، وأنه كثيراً ما يبين منها .. إن الله سبحانه وتعالى يعلم أن الفطرة البشرية لا تؤمن بمبدأ حتى تعرف معظم الحكمة فيه .. فإذا فهمت أكثر الحِكَم سلَّمت بالباقي وتقبلته على أنه يمكن أن يفهم في يوم من الأيام كلما ازداد العلم تقدماً .. ومع ذلك لا يشترط لقبول الحكم الشرعي أن تعرف الحكمة .. والأصل في الإيمان : التسليم لله العليم الحكيم بعد الاقتناع المبدئي . لكن المجتمع لا يتوازن ويواصل نموه إلا إذا توفر فيه النسبة الكافية من الذين يعرفون الحكم والحكمة ، يرجع إليهم الناس ليعينوهم على الثبات والتوازن أمام مشكلات الحياة .. ولكي يعطوا مساراً نامياً متقدماً للمجتمع .. إن إيجاد التوازن في معرفة الحكم والحكمة يمكن تمثيله بالتوازن بين عدد الكريات البيض والحمر في الدم .. إن قلة الكريات الحمر في الدم تؤدي إلى فقر الدم .. كذلك يحدث في المجتمع فقر في الفكر إذا اختلت النسبة ، وقل عدد العلماء عن الحد المطلوب . وإن معرفة الحكمة وتحصيلها يجعل الضمير يلحق بالعلم .. أي يلحق التقدم الأخلاقي التقدم التكنولوجي .

وقد نتساءل هنا : فما دور العقل البشري إذن ؟

لو علم الله سبحانه وتعالىٰ أن العقل البشري وحده يكفي لهداية البشر ، لاكتفى به ولما أرسل الرسل . لكن العقل وحده لا يكفي : لأنه محدود لا يحيط بكل شيء . ولأنه معرض للخطأ وسيطرة الهوى ، كالإبرة المغناطيسية تشير دائماً إلى الاتجاه ، ولكن حين يسلَّط عليها مغناطيس تنحرف عن وجهتها .

إن الرسالات السماوية لم تلغِ دور العقل .. بل إنها جاءت لإيقاظ العقل

وتحريكه .. ليعمل بحرية دون أن ينقاد للهوى .. وحين يعمل العقل يستطيع أن يميز بين الحق والباطل .

فمهمة العقل هي :

١ ــ أن يعمل بحرية فيدرك عند ذلك أن ما جاء به الأنبياء هو الحق .

٢ ــ أن يعمل لفهم منهج الله وتطبيقه .. لأن تجارب البشرية قد أثبتت له أنه لا يستطيع أن يضع منهجاً جديداً أفضل منه .

٣ ــ إن الوحي الذي جاء به الأنبياء لا يتفاعل معه ويفهمه إلا أصحاب العقول ﴿أولـو الألباب﴾ . فالآيات نزلت للمخلوق الذي زود بالعقل .. ولا يمكن للحيوان أو المجنون أن يتفاعل معها . ولقد وقف صاحب الظلال عند هذه الآيات وتأمل الموضوع وسجل ثلاث نقاط :

١ ــ قيمة العقل البشري ووظيفته ودوره .

٢ ــ علم الله بضعف الإنسان ، وعدل الله وفضله ورحمته .

٣ ــ التبعة العظيمة الملقاة على الرسل وعلى أتباعهم من بعدهم . حيث أن مصائر البشرية كلها في الدنيا والآخرة منوطة بالرسل وأتباعهم من بعدهم . ولقد بصرهم الله بهذا الحمل الكبير : ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ (المزمل ــ ٥) . **فأدركوا** هم جسامة المسؤولية ، **وأدّوا** الأمانة وبلغوا الرسالة . وأدى رسول الله ﷺ الرسالة الأخيرة حق الأداء حتى شهد له الناس . والآن بقي أتباعه من بعده أمام هذه المسؤولية الخطيرة .. وإن الله قد اختار لهذه الرسالة الأخيرة معجزة باقية (القرآن) ، بينما ذهبت معجزة كل نبي سابق بموته .. فليس لأحد أن يسوغ تقصيره طالما أن المعجزة والأداة التي صنع بها رسول الله ﷺ مجتمعاً ربانياً في الماضي ما زالت باقية حتى الآن . وهي أمانة بين يديه عليه أن يقوم بأدائها .

إن الذي يدعي أنه مسلم ثم لا يبلغ الرسالة ويقوم بهذه الأمانة .. إنما يؤدي شهادة ضد الإسلام الذي يدعيه بدلاً من أداء شهادة له .. والمسلم تبدأ شهادته للإسلام بأن يكون هو بنفسه **ثم بأسرته** صورة واقعية من الإسلام الذي يدعو

إليه . ثم ترتقي شهادته أكثر بدعوته الأمة لهذا الدين . فإذا استشهد على ذلك فهو الشهيد وحده ، لأنه قدم شهادة عملية على أن دين الله هو أغلى وأفضل من كل شيء ، وأنه يستحق التضحية بالمال والروح والأهل .[1] .

وقد تحدث محمد إقبال عن ختم النبوة فقال : إنه دليل على وحدة الحضارة ونفي التعدد ، وأن البشرية صارت أهلاً للرشد والفهم والدراسة للسنن وتسخيرها ..

إن الله سبحانه قد ختم آيات الكتاب ، لكن آيات الآفاق والأنفس ما زالت تنكشف باستمرار . وبها سيعرف الإنسان سنن الحضارة .. وسيسخر هذه السنن للمحافظة على الحضارة في الأوج .. إن النمو العلمي لم يكن كافياً للناس .. فأعانهم الله بهداية السماء وآيات الكتاب .. فلما وصلت البشرية إلى مرحلة من الرشد تمكنها من الكشف والمتابعة ، ختمت النبوة بالقرآن ، فهو كافٍ في إعطاء القواعد والمنطلقات لتحصيل مزيد من العلم والتسخير .. وإن آيات الآفاق والأنفس مستمرة لا تختم ..

ثالثاً ــ شهادة الله والملائكة بما أنزل عليك

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ..﴾ .

فإن كان هؤلاء ينكرون عليك الرسالة فلا عليك ، فإن الله والملائكة تشهد :

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ .

وفي ذلك تسرية عن الرسول ﷺ وتصديق وتثبيت وتطمين للمؤمنين .. إذ أن من يدعو الناس إلى الخير قد يشعر باليأس إذا اتهمه الناس وأعرضوا عنه .. لكنه حين يتذكر علم الله بحاله وشهادته له سيطمئن ويواصل طريقه .

---

١ ــ راجع في ظلال القرآن صفحة (٨١٠) فالكلام هنا مختصر عنه .

﴿أنزله بعلمه﴾ :

أي فيه من علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه ..

كان أبو عبد الرحمن السلمي يقول : إذا قرأ عليه أحد القرآن ــ أي حفظاً ــ : قد أخذت علم الله فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل . ثم يقرأ قوله تعالى : **﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيداً﴾** . وكان يقول : حدثنا من كان يقرئنا القرآن أنهم كانوا يقفون عند البضع من الآيات لا يجاوزونها حتى يعملوا بها .

رابعاً ــ لا غفران ولا هداية بعد الكفر والظلم والصد

ويلتفت إلى المكذبين المعاندين فيهددهم ويقرر مصيرهم . فلا غفران ولا هداية بعد الكفر والصد والظلم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ .

يذكر الله هنا نوعين :

١ ــ النوع الأول : كفروا وصدوا . فلم يكتفوا بالكفر لأنفسهم ، بل صدوا الناس أيضاً عنه . يقول عنهم الله : **﴿قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾** . إن من يمشي في طريق الضلال يمشي بشكل معاكس لطريق الإيمان .. ولهذا فإنه يبتعد كثيراً .. فهل نقول : إنه لم يعد من الممكن رجوعه ..؟

إن القابلية للرجوع ضئيلة وضعيفة ، لكنها ليست مستحيلة وتتفاوت بحسب نوع الانحراف ومدى شدته .. إن باب التوبة مفتوح للجميع .. والهداية لها قانونها وسنتها : ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد ــ ١١) . وإن عمل الله لا يحدث إلا

بعد عمل العبد .. ويمكن أن نضرب مثلاً بالمريض : إن شفاءه ليس مستحيلاً ؛ لكن لا بد من توفير الأسباب الكافية للشفاء . وإن الناس الآن قد أصبحوا يدركون أكثر قيمة توفير الأسباب في العناية الصحية وأثرها على المجتمع وسلامته .. ويمكن أن نلاحظ بوضوح أن نسبة الوفيات عند الأطفال مثلاً في الدول المتقدمة قد قلت وتضاءلت .

كذلك إن توفير العناية الكافية لتوجيه المجتمع إلى الخير وحماية الأجيال الناشئة من الأوبئة الفكرية والنفسية وتسخير كل الإمكانات المتاحة في هذا المجال .. سيؤثر على نسبة الضلال في المجتمع ويقلل من الفساد فيه . وقد يبقى هناك أفراد غير قابلين للرجوع عن الضلال ــ مثل أبي جهل ــ لكن قانون المجتمع غير قانون الفرد .. والفرد يبقى له حق الاختيار .. فقد لا تستطيع أن تهدي إنساناً معيناً : ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ (القصص ــ ٥٦) .. لكن بالدعوة والتعليم واستخدام سنن الله تستطيع أن تهدي الأكثرية لأن الأكثرية مرضها الجهل : ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ (الأنبياء ــ ٢٤) .

٢ ــ النوع الثاني : كفروا وظلموا .. والظلم نوعان : ظلم بحق الله هو الكفر ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان ــ ١٣) . وظلم بحق العباد .. والآية هنا تعني ظلم العباد لأنه ذكر الكفر أولاً .. بينما قوله تعالى : ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ (البقرة ــ ٢٥٤) ، تعني الظلم بحق الله . والتمييز هنا ضروري لأن الله سبحانه وتعالى شرع القتال لمنع الظلم عن العباد ، فيقاتل من يريد أن يظلم الناس ــ إن لم ينفع معه إلا القتال ــ أما ظلم الشرك والكفر فلا قتال عليه .. وأمره إلى الله تعاقبه سنن الله في الدنيا وجزاؤه في الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون .

﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ .

وابن تيمية له بحث في الهداية يقسم فيه الهداية إلى أربعة أقسام :

١ ــ هداية الغريزة : وهي هداية تشترك فيها سائر المخلوقات ــ الحيوان والإنسان ــ وهي التي أشار إليها بقوله تعالى : ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ (طه ــ ٥٠) .

٢ ــ هداية الإرشاد والاستطاعة : فقد منح الله الإنسان وأعطاه الاستطاعة على أن يطبق القرآن والقدرة على مخالفته أيضاً : ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ (الشمس ــ ٧) . ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ (الشورى ــ ٥٢) . فهي هداية القرآن ، وهذه الهداية أعطيت للإنس والجن كافة .

٣ ــ هداية العمل والتنفيذ : وهذه لا تعطى للكافر لأنه لم يأخذ بهداية الإرشاد ولم ينتفع بهداية القدرة على القيام بالخير . وهذه التي قال عنها : ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ (القصص ــ ٥٦) . فمن لم يستخدم استطاعته بالأخذ بالإرشاد ، لا تستطيع أن ترغمه على العمل والتنفيذ . ﴿إن تطيعوه تهتدوا﴾ (النور ــ ٥٤) ... فالآيات تدل على الصلة الوثيقة بين الهداية الثانية والثالثة .

٤ ــ هداية الآخرة : ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله . فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ (الصافات ــ ٢٢) . وهنا يقول :

﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ..﴾ .

والهداية في الآخرة هي نتيجة للهداية الثالثة هداية العمل والتنفيذ .

﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ .

ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ لم يكف لحظة عن دعوتهم ومحاولة هدايتهم .. لأن الإنسان لا يستطيع أن يعرف من هو الميؤوس من هدايته قبل أن يموت .

خامساً ــ نداء للناس بمجيء الرسول بالحق

ثم يتوجه بنداء مشفق إلى الناس كافة :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

إنها دعوة شاملة إلى الناس كافة تمثل تبليغاً عاماً تؤديه آخر الرسالات .. دعوة من الله كلها نصح وإشفاق ورحمة وبيان وتذكير للمعرضين .. ﴿ **فآمنوا خيراً لكم** ﴾ .

إن الإيمان واتباع القرآن هو الخير للبشرية كافة في الدنيا والآخرة .. وما زال الناس يكشفون باستمرار وجوه الخير في هذا الدين ..

﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ .

فهو غني عنكم ولا تضرون إلا بأنفسكم .. وإنكم بذلك تتحدون من بيده أمركم ، ومن تعيشون في ملكه وتحت حكمه .. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . وقد اختار لكم هذا الدين عن علم وحكمة .

الفصل الثامن عشر

خطاب لأهل الكتاب (النصارى)

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾

بعد هذا الانتقال في التوجيه والخطاب من المؤمنين .. إلى المنافقين .. إلى اليهود .. إلى الناس عامة ، يتوجه إلى الطائفة الوحيدة التي لم يتوجه إليها نصح مباشر في هذه السورة : النصارى . فيخاطبهم وينهاهم عن الغلو في الدين ويقرر حقيقة المسيح — عليه السلام — ثم يعود إلى النداء العالمي المشفق للناس كافة .. فقد جاء البرهان والنور المبين .. فلماذا تمكثون في الظلمات ؟!

افتحوا نوافذ العقول والقلوب .. واستقبلوا ضياء الحق والخير .

أولاً — النهي عن الغلو بالدين

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ .

إن التقصير والإساءة في الدين تأتي من جانبين : الغلو والإهمال ، الإفراط والتفريط . فالغلو : هو المبالغة والزيادة في الإطراء والتشدد . وكل شيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده . وقد عرضت علينا الآيات نموذجين لذلك : اليهود والنصارى . إن اليهود قد بالغوا في تحقير عيسى عليه السلام .. لكن النصارى بالغوا في تقديسه وتجاوزوا الحد حتى جعلوه ابناً لله .. فكان هذا غلواً في الدين مع عيسى وتقصيراً في حق الله الذي تنزه عن الولد ، وعن كل صفات خلقه .. بل قد غالوا في أتباع عيسى : الرهبان والقساوسة .. فجعلوا لهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً ؛ ولهذا قال الله عنهم : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ (التوبة — ٣١) .

ولقد خشي الرسول ﷺ على المسلمين أن يقعوا في الانحراف نفسه ، فنبه أمته

وقال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » (رواه البخاري) . وفي رواية للإمام أحمد أنه قال قريباً من ذلك للرجل الذي قال : يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا ... ونهى أصحابه عن القيام له ، وقال : « من سره أن يتمثل الرجال له قياماً فليتبوأ مقعده من النار »(رواه أبو داود والترمذي) .

ولكن المسلمين بعدوا عن هذه التوجيهات فوقعوا بما يشبه غلو النصارى وانحرافهم . فلعلك إن قلت لأحدهم — في حكم مسألة من المسائل — إن الله يقول افعلوا كذا وكذا .. رد عليك : شيخي يقول غير ذلك .. وهو عالم لا يشك به .. وأنا أتبعه .!!

﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ .

لا زيادة ولا نقصان .. لا غلو .. ولا تحريف ولا كتمان . لا تحرموا شيئاً أحله الله ولا تحللوا ما حرم الله .. ومن ذلك جعل المستحبات في مرتبة الفرائض .. والزيادة على سنة رسول الله ﷺ وهديه . ورسول الله ﷺ يقول : « أما والله إني أخشاكم لله وأتقاكم له ؛ لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني » (رواه البخاري) . فلو كان هذا الذي نزيده خيراً لسبقنا إليه رسول الله ﷺ . والزيادة هنا هي أخت النقصان ، وكلاهما ضار ونتائجه وخيمة . ومن ذلك الخرافات المنتشرة في العالم الإسلامي والتي تحرم أشياء وتتطير من أشياء ما أنزل الله بها من سلطان (وهي في عالم النساء خاصة مثل : كراهية الغسيل يوم الاثنين ، وكراهية زيارة المريض يوم الأربعاء ، وكراهية قص الأظافر في الليل) .. وكل هذا نابع من الجهل بحقيقة الدين .

ثانياً ــ تقرير حقيقة المسيح

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ .

يقرر كلمة الفصل في عيسى عليه السلام .. فهو عيسى ابن مريم ــ نسب إلى أمه لأنه ليس له أب ــ ولقبه المسيح .. وقيل بأن المسيح لقب المِلك عند اليهود ، لأن الكاهن كان يمسحه بالدهن المقدس ويباركه .. ومهمة الملك أن يعيد الحق إلى نصابه . فكأن المسيح عليه السلام حررهم وأرجعهم إلى مقاصد الدين .. ولعل اليهود لم يؤمنوا به ــ مع تبشير التوراة به ــ لأنهم ظنوا أن المسيح مَلِك يعيد لليهود سلطانهم وعزهم .. فهو لم يأتِ بعد . والأرجح أن كلمة المسيح أطلقت بمعنى المبارك .. والله أعلم .

وهو رسول الله ــ كسائر الرسل والأنبياء ــ وكلمته : أي يختلف عن الأنبياء وعن سائر الناس بأنهم خلقوا بالأسباب ، بينما خلق عيسى بكلمة التكوين : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (يس ــ ٨٢) .

﴿**وروح منه**﴾ : أي من خلقه ومن عنده . و﴿**منه**﴾ هنا ليست للتبعيض ، وإنما القصد منها رفع المقام والتشريف كقوله تعالى : ﴿ناقة الله﴾ . و﴿بيت الله﴾ .

ذكر صاحب المنار مناظرة حدثت بين طبيب نصراني ورجل مسلم يقال له الوافدي .. قال النصراني فيها : إن القرآن يعترف بأن المسيح ابن الله واستشهد بهذه الآية ﴿**وروح منه**﴾ . فقال له المسلم : إن الله تعالى يقول أيضاً : ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ (الجاثية ــ ١٣) . فهل هي أبناء الله ..؟ فكان هذا من أسباب إسلام النصراني . وقد قالت الآيات عن آدم أيضاً : ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ (ص ــ ٧٢) . ولم يقل أحد من أهل الكتاب أن آدم ابن الله ؟! وقال الله لهم في ذلك : ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من

تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ (آل عمران ــ ٥٩) .

إنها قضية بسيطة واضحة لا تحتمل كل هذا التعقيد الذي وقعوا فيه .

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾ .

فآمنوا بالله على أساس تنزيهه .. وآمنوا بالرسل على أساس بشريتهم وأنهم مبشرون ومنذرون. **﴿سبحان ربي هل كنت إلا بشـراً رسولاً؟!﴾** (الإسـراء ــ ٩٣) .

﴿ **ولا تقولوا ثلاثة** ﴾ . ولقد أدى بهم غلوهم إلى التثليث .. وهو أنهم يقولون : إن الإله واحد في أقانيم ثلاثة : الآب والابن والروح القدس ــ سبحانه وتعالى ــ ويختلفون في طبيعة المسيح : لاهوتية .. أما ناسوتية .. ــ أي إله أم إنسان ؟!ــ أم أن له كلا الطبيعتين ؟ وهل هو قديم أم مخلوق ؟ وبهذا انقسموا إلى فرق ومذاهب عديدة ، وكل فرقة تكفر الأخرى .

وما تزال فكرة التثليث تصدم عقول المثقفين من النصارى ، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق . يقول القس بوطر : « قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا . ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات والأرض » .

ولقد اضطروا أمام الاشمئزاز الفطري من نسبة الولد لله والذي تزيده الثقافة العقلية بعداً .. أن يفسروا البنوة : بأنها ليست عن ولادة كولادة البشر ، ولكن عن محبة بين الآب والابن .. وأن يفسروا الإله الواحد في ثلاثة على أنها صفات له سبحانه في حالات مختلفة ..؟!

ولا يمكن للإدراك السوي إلا أن يعتقد أن هناك تغايراً كبيراً بين الخالق والخلق . فحين يكون خالقاً فمعناه أنه ليس كمثله شيء .

﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾ .

والعبارة نشم فيها رائحة النصح والتهديد أيضاً . فهو خير لكم لأنه الحق الذي

يريحكم من التعقيد والاختلاف والشرك ويجنبكم عقاب الله وسخطه .

﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ .

تنزه عن صفات البشر وافتقار البشر إلى الذرية والولد .

﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ .

فالله لا يحتاج إلى ولد يعينه في رزق أو سيطرة .. فهو الغني المهيمن .. وكل شيء في قبضته ..

﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

ويكفي البشر أن يرتبطوا كلهم بالله ارتباط العبودية ، فهو يرعاهم جميعاً ويكون لهم وكيلاً .

وتمضي الآيات في تصحيح العقائد كلها .. وتقرير أن هناك ألوهية واحدة وعبودية تشمل كل شيء في هذا الوجود .

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

يستنكف : يمتنع أنفة وانقباضاً .. وذكر الملائكة هنا لأنهم اتخذوا آلهة مع الله عند أقوام أخرى .

﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ .

والاستكبار : أن يجعل نفسه فوق ما هي عليه ويكون في ذلك غمط للحق .

ويلوِّح للناس بيوم القيامة .. فيبدأ بالمؤمنين ويعجل لهم الثواب ولا يرهقهم بالانتظار :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ .

إن الجزاء في الآخرة فردي .. أما في الدنيا فقد كانت النتائج تأتي بحسب

الأكثرية . . وها هم أولاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . الذين توفر فيهم الإخلاص والصواب ــ وقد وضعنا الصواب مقابل العمل الصالح ، لأنه لا يحدث إلا بالعلم والصواب ، وكما قال السلف : من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ــ..

﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ .

ها هم أولاء قد جاؤوا بِشَرطي العمل المقبول . . فالنتيجة محققة لهم .

بل إن الأجور تأتي أكثر من الأسباب التي قدموها .. والنتيجة أضخم من العمل المبذول . إن الله يجزي الحسنة بعشرة أمثالها والسيئة بمثلها فقط . فهو يحاسب المحسن بالفضل والمسيء بالعدل .

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

إن الذين امتنعوا عن السجود لله وأداء الصلاة له .. الذين استكبروا واستعلوا على أوامر الله .. وجعلوا أنفسهم فوق الخضوع للشريعة ..! سينالون ما يستحقون من جزاء ولا يجدون من يتولاهم ويحميهم وينصرهم من دون الله .

ثالثاً ــ نداء للناس بمجيء البرهان والنور المبين

ثم ينادي الناس جميعاً بنداء مفعم بالنصح والرحمة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ .

البرهان : هو الدليل القاطع للعذر والحجة المزيلة للشبهة . وقد يكون المقصود هو محمد ﷺ .

نوراً مبيناً : هو القرآن لأنه تضمن الأحكام الواضحة الصالحة التي فيها سعادة البشر وخلاصهم من التيه والظلام والضلال .

إن هذا النداء العام للناس يقرر فيه أن القرآن فيه حجج وبراهين لكل الناس .. حتى للذين لا يؤمنون بالقرآن .. إن البراهين التي ساقها القرآن علمية لا يستطيع من لا يؤمن بالقرآن أن يرفضها لمجرد أنه لا يؤمن بالقرآن ؛ لأنها تأخذ سلطان العلم الذي لا يستطيع عاقل أن يرفضه .

وينبغي أن نفرق بين أمرين : الاحتجاج بالقرآن والاحتجاج ببراهين القرآن . إن الاحتجاج بالقرآن يكون مع المؤمن : بأن تأتيه بالآية التي فيها الحكم الشرعي الواضح في أمر ما .. أما الاحتجاج ببراهين القرآن فيكون مع المؤمن وغير المؤمن .. لأن البراهين التي يشير إليها هنا عامة مع الناس جميعاً . فمن براهين القرآن العامة : ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟! أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون .﴾ (الطور ـــ ٣٥) . ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ (آل عمران ـــ ٥٩) . ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب .﴾ (الحج ـــ ٧٣) .

إن الأسلوب القرآني في التربية أسلوب برهاني علمي : ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (النمل ـــ ٦٤) . وإن من يسير على البرهان يسير في النور .. ومن كان على غير برهان فهو يتخبط في الظلام . وإن اتباع الرسول هو الأخذ بالبرهان والانتفاع بالنور المبين .. ﴿**نوراً مبيناً**﴾ أي واضحاً لا لبس فيه . ومع تكرر هذه **الإشارة في القرآن فإن أكثرية المسلمين تظن أن تفسير القرآن صعب وأن فهمه شيء** عسير .. وإن الذي جعل الأمر عسيراً عليهم الآن هو بعدهم عن لغة القرآن ومفاهيمه .. وفقدان التفاعل اليومي معه .. حتى أصبح القرآن غريباً بين أهله .. والقواعد والسنن التي يتحدث عنها غامضة تحتاج إلى بيان .. وتكرار وترسيخ .. مثلاً : موضوع القتال .. إنه غامض وملتبس على المسلمين .. هل يدرك المسلم أن القتال شرع لمنع الظلم لا لمنع الكفر ؟! وهل يدرك متى يجب أن يقاتل ومتى يجب أن يكفَّ يده ..؟!

كذلك موضوع الهداية وعمل الله وعمل العبد . والمشيئة الشرعية والمشيئة الكونية .. وتحدث عنها ابن تيمية بعنوان : سنة شرعية وسنة كونية .

يقول صاحب الظلال : إن هذا القرآن يحمل برهانه في ذاته .. إن طابع الصنعة الربانية ظاهر فيه يفرقه عن كلام البشر وعن صنع البشر . والعجيب أن هذه الحقيقة يدركها أحياناً من لا يفهم كلمة واحدة من العربية . ويذكر حادثة : أنهم أقاموا خطبة الجمعة وصلاتها على ظهر باخرة تسافر إلى نيويورك . وكان الركاب من سائر الجنسيات يشاهدون . فيقول جاءت إلينا سيدة ـــ من بين من جاء يعبر عن تأثره بالصلاة الإسلامية ـــ يوغوسلافية هاربة من الشيوعية .. وفي عينيها دموع .. وقالت في إنجليزية ضعيفة : أنا لا أملك نفسي من الإعجاب البالغ بالخشوع البادي في صلاتكم .. إنني لا أفهم حرفاً واحداً من لغتكم غير أنني أحس أن فيها إيقاعاً موسيقياً لم أعهده في أية لغة . ثم إن هناك فقرات مميزة في خطبة الخطيب هي أشد إيقاعاً ، ولها سلطان خاص على نفسي .. ويقول الكاتب : وعرفت طبعاً أنها الآيات القرآنية ..

ومع بيان الأحكام يأتي التذكير بأن هذه الأحكام هي نور ورحمة للبشر .. إن الله سبحانه وتعالى حين أمر ونهى لم يفرض علينا حجراً عقلياً ، ولم يطلب منا أن نسلّم تسليماً أعمى دون بصيرة ولا برهان .. بل جاءت الآيات في القرآن تذكرنا أن نتأمل ونفكر في أحكام هذا القرآن .. أليست هي النور المبين .؟! ألا ترون إلى من يخالفها كيف يعيش في ضلال وظلام وشقاء ..؟!

ولقد سبق أن ذكرت كلمة الدكتور كاريل « إن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذي تحتويه مدنيتنا وعلى أن أسلوبنا في حياتنا الجديدة يؤدي إلى تدهور صحتنا العقلية » .

وهذا هو إنسان العصر الحالي يشقى ويتمزق لأنهم جعلوا منه حقل تجارب ـــ كالفأر الذي يجرب فيه الطبيب الأدوية ـــ . فتارة يطبقون عليه الرأسمالية وتارة التمييز العنصري وتارة الاشتراكية .. وأخرى الديكتاتورية ...

إن من يتأمل هذا التأمل يصبح إيمانه أصيلاً ثابتاً ، لأنه إيمان مدعوم بالقناعة

والرضى والاطمئنان دون أن يخالطه أدنى شعور بالحرج .

يقول صاحب الظلال : مهما قلت في هذه الآية ﴿ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ فإنني لن أصور حقيقتها لمن لم يذق طعمها ويجدها مفسرة في نفسه .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ .

إن الوصول إلى النتائج رحمة من الله .. والوعد بالهداية يثلج الصدر .. وهي تشمل أنواع الهداية الأربعة خالصة للمؤمنين ..

والصراط المستقيم : هو أقصر الطرق وأسهلها للوصول إلى الهدف .. وقد عرَّف الرياضيون الخط المستقيم بأنه : أقصر بعد بين نقطتين . والله يصف القرآن بأنه الطريق المستقيم .. ألا تريد أن تصل إلى هدفك بأقل وقت وجهد ممكن ؟! إن غاية الناس جميعاً هي الحصول على سلامة الدنيا والآخرة .. وكل إنسان يجتهد لمعرفة الطريق المؤدي إلى ذلك .. فمنهم من يستعجل ويريد أن يقفز فوق القوانين والسنن .. وقد ذكر رسول الله ﷺ : « المنبتُّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » (رواه البخاري) . وإن من يستعجل دون أن يستخدم السنن لن يصل إلى هدفه أبداً .. كمن يقود السيارة بسرعة جنونية ولا ينتبه إلى إشارات المرور .. فهل يصل ؟!

ومنهم من تخدعه بعض المظاهر البراقة على الطريق ، فيظن أنه قد وصل إلى الهدف : ﴿ كسراب بقيعة[1] يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ (النور ــ ٣٩) .

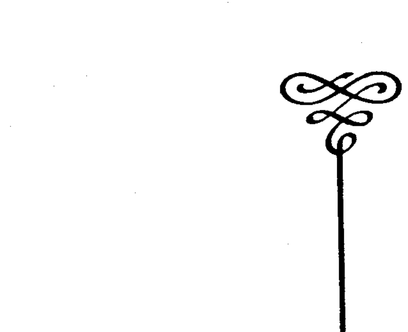
وأما أتباع القرآن فقد هدوا إلى الصراط المستقيم .. الذي يوصلهم إلى الهدف بأقل وقت وأقل كلفة ممكنة ..[2]

---

١ ــ أي كسراب في صحراء .

٢ ــ عرف الغربيون منهج تايلور في الصناعة والإنتاج وهو : الحصول على أحسن النتائج بأقل وقت وجهد ممكن . فمتى يطبقون هذا على الحضارة ..؟!

يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾



خاتمة : فتوى في الكلالة

وتختم السورة بإعطاء فتوى في ميراث الكلالة :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ .

والفتوى كما شرحتها: الفهم في أمور دقيقة . وقد ذكر أن جابر رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ وهو مريض : إنه لا يرثني إلا كلالة فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض . (أخرجه الشيخان) .

وكلمة الكلالة : مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه .. ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد .. وقد اتفق أبو بكر والصحابة على هذا الرأي .. أما عمر فيقول : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه : الجَد والكلالة وباب من أبواب الربا . ويقول أيضاً : ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بإصبعه في صدري وقال : « يكفيك آية الصيف » التي في آخر سورة النساء .[1] وقد سميت هذه بآية الصيف لأنها نزلت في الصيف بينما الأولى نزلت في الشتاء .

وتوفي عمر وهو يقول لابن عباس : خذ عني ثلاثاً أخشى أن لا يدركني الناس .. (منها) : أنا ما وضعت حكماً في الكلالة .

وهذا يفيد أن عمر رضي الله عنه كان متحرجاً أن يعطي فيها حكماً دون أن تتضح له تماماً . بينما حكم أبو بكر بأنها : (مَنْ لا والد له ولا ولد) .

﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ .

---

١ ــ ذكره ابن كثير .

هلك : أي مات . قال صاحب المنار : منذ قرون عديدة لا تستعمل كلمة هلك بمعنى الموت إلا للتحقير .. بينما القرآن أوردها بمعنى الموت العادي . وهذا يشعرنا كم تتبدل معاني الكلمات مع الزمن .

﴿ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ ﴾ . في آية الشتاء قال : ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو اخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ . (النساء ــ ١٢) . وهي في الأخ والأخت من الأم فقط .

أما في آية الصيف هنا : فالحكم في أمر الإخوة الأشقاء من الأبوين .. فإن كان الميت رجلاً .. فلدينا ثلاث حالات :

١ ــ الميت له أخت واحدة : تأخذ نصف التركة . وإن كان له زوجة تأخذ الربع .

٢ ــ الميت له أختان فما فوق : لهما الثلثان .. تتقاسمان بالتساوي .[1] (والزوجة ..) .

٣ ــ الميت له إخوة رجالاً ونساء : فإن كانت له زوجة تأخذ الربع ثم يتقاسم الإخوة الباقي : للذكر مثل حظ الأنثيين .

أما إن كان الميت امرأة ــ لا والد لها ولا ولد ــ فإن كان لها أخ يأخذ التركة كلها .. إلا في حالة وجود الزوج فإن كلاً منهما يأخذ النصف .

﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ .

وهو تعقيب على السورة كلها .. وفيه نقاط هامة :

---

١ ــ وذكر أن جابر سأل النبي ﷺ : أأجعل لأخواتي الثلث ؟ فقال ﷺ : أَحْسِنْ .. فنزلت الآية .

١ ــ ﴿**يبين**﴾ : إن هذه الأحكام قد بينها الله تعالى وصارت واضحة ، فلا عذر لمن يقول لا أعرف الحكم .. أو لم أفهم .. فإن عليه أن يتعلم ويتدبر .

٢ ــ ﴿**الله لكم**﴾ . إن الذي يحق له أن يحكمكم ويشرع لكم ويبين .. هو الله سبحانه وتعالى مالك كل شيء ..

٣ ــ والغاية من ذلك : ألا تضلوا وتضيعوا عن الصواب والحق : ﴿**أن تضلوا**﴾ .

٤ ــ ﴿**والله بكل شيء عليم**﴾ : فهو وحده الذي يعلم كل شيء ويستطيع أن يجنبكم الضلال . وقد شرع لكم وأمر ونهى عن علم .. ﴿أأنتم أعلم أم الله ..﴾ (البقرة ــ ١٤٠) ؟!

فلماذا تتأخرون في الاستجابة والتنفيذ ..؟!

ويقف الإنسان في نهاية هذه السورة على طريقين :

فإما اتباع بيان الله في كل شيء .. وإما الضلال .. ولا ثالث لهما .. وصدق الله الذي يقول : ﴿**فماذا بعد الحق إلا الضلال**﴾ (يونس ــ ٣٢) ؟!

وبعد هذه الرحلة الممتعة الفذة مع السورة التي دارت بنا من البيوت والأسر إلى الأسواق والمتاجر .. من ساحات المعارك إلى القضاء والمحاكم .. من الاتفاقات السياسية إلى العلاقات الاجتماعية .. إلى الصلاة حيث العلاقة الحميمة مع الله ..

ومن الأمراض النفسية (النفاق) .. إلى أن تستفحل وتصبح مشكلات إنسانية (الاستكبار والاستضعاف) ..

بعد هذا كله . . ماذا أقول؟ وبم أصف هذه الرحلة . . ؟!

أقول : بعد كل هذا لنتذكر قول أبي عبد الرحمن السلمي :

صار معك علم الله .. ولن يسبقك أحد إلا بعمل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



فهرس الأفكار

الموضوع	الصفحة
مقدمة في التفسير :	٧
● أهمية تعلم القرآن وتدبره .	
● تعريف التفسير .	
أقسام التفسير :	٩
● تقسيم ابن عباس .	
● **التقسيم الشائع :**	
١ً ــ التفسير بالمأثور :	١٠
القرآن ــ السنة ــ تفسير الصحابة ــ المفسرون من الصحابة ــ من التابعين (مكة ــ المدينة ــ العراق). أسباب ضعف الرواية بالمأثور ــ تدوين التفسير بالمأثور: في القرن الثالث الهجري .	
٢ً ــ التفسير بالرأي :	١٣
الاجتهاد وشروطه أربعة. قول محمد عبده: حد أدنى : تدبر العامة ــ مستوى أعلى: علماء. أهم كتب التفسير بالرأي ــ تفاسير الفرق المختلفة.	
٣ً ــ التفسير الإشاري :	١٥
الفرق بينه وبين الباطنية ــ شروط قبوله ــ أهم كتبه .	
ــ مزج العلوم الكونية والأدبية بالتفسير .	
ــ دخول آيات الآفاق والأنفس كمرجع أساسي في التفسير .	
التعريف بسورة النساء :	١٩
مدنية ــ آياتها (١٧٦) آية ــ اسمها ــ وصية عمر بتعليمها للنساء .	

موضوعها :

١ ــ تطهير المجتمع المسلم وتنظيمه .

٢ ــ التحذير من كيد الأعداء والوقوع بأخطائهم . والأعداء الذين تحدثت عنهم السور المدنية ثلاثة . كما أن السورة تعطينا صورة عن المجتمع الجاهلي وأن فضائل الجاهلية موجهة للانحطاط .

٣ ــ تحديد معنى الدين وَحَدّ الإيمان والإسلام .

مفاهيم السورة : في ثمانية عشر قسماً. ٢٢ ــ ٢٦

(١)ــ في الأرحام واليتامى والزواج : ٢٧ ــ ٤٣

تبدأ السورة الكريمة بالافتتاحية التي كان رسول الله ﷺ يفتتح بها خطبه ، ويقرر فيها :

١ ــ عالمية الدعوة ــ شروط الإنسان العالمي .

٢ ــ ﴿ ربكم الذي خلقكم ﴾ .

٣ ــ من نفس واحدة خرجت البشرية كلها .

٤ ــ خلق منها زوجها : ــ دراسة كيف بدأ الخلق ــ المساواة في الإنسانية بين الجنسين وإن اختلفت الوظيفة ــ مكانة المرأة : في القديم وفي جاهلية العرب وفي ظل الحضارة الغربية ــ المساواة الكاملة فيها ظلم للمرأة .

٥ ــ قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة .

٦ ــ التنوع في خصائص الأفراد مع أنهم من أسرة واحدة .

٧ ــ ﴿اتقوا الله﴾ مرتان في آية واحدة ــ تهيئة نفسية لقبول الأحكام .

٨ ــ واتقوا الأرحام أن تقطعوها ــ الناس كلهم من رحم واحدة .

٩ ــ رقابة الله :

ــ ارتباط بين التشريع والضمير ــ تفاعل الصحابة مع الآيات (وفد مضر) .

١٠ ــ ﴿وآتوا اليتامى﴾ :

ــ أمر ونهيان وتعقيب ــ لا تبدلوا الخبيث بالطيب ــ النهي عن كل أسلوب فيه تلاعب بمال اليتيم ــ تتمثل المشكلة الآن في الدول المستعمرة ــ القرآن ينهى عن الاستكبار والاستغلال ــ ويحرر الضعيف من الاستضعاف ــ أثر التوجيه في الصحابة ــ النهي عن زواج اليتيمة إلا بالقسط ــ (حديث عائشة) ــ التحذير من الظلم عامة .

١١ ــ تعدد الزوجات :

العدد المذكور للتحديد ــ حكم التعدد ــ شرطه : العدل المستطاع ــ إن خفتم ألا تعدلوا : النظر منذ البداية ــ ذلك أدنى أن لا تعولوا ــ تفضيل الاكتفاء بواحدة ــ ملاحظات حول التعدد .

②ــ في الأموال : ٤٥ ــ ٦٦

١ً ــ المهر :

الخطاب للأزواج ولأولياء المرأة .

معنى نِحلَة ــ المهر حق شخصي للمرأة تتصرف به كما تشاء ــ الله يوجه كل طرف لأداء واجبه ــ بعض الأخطاء الموجودة في مجتمعنا في المهر ــ المؤجل : كيف بدأ ــ الخلل الأخلاقي لا يغطى بضمان مالي ــ نقد فكرة المؤجل وكيف أنه لا يفيد في تثبيت دعائم الأسرة . إن لم يضرها ــ التشريع الإلهي نظم للمطلقة ضمانات مادية ومعنوية كافية ؛ فلا داعي للمؤجل .

٢ً ـــ الحجر على السفهاء :

١ ـــ السفيه مصاب في قدرته أو إرادته ـــ القدرة نوعان : مادية وفهمية ـــ نقص في قدرته العقلية : لمرض (معتوه) ، أو لصغره في السن وقلة في الخبرة ـــ أما المصاب في إرادته : عنده نقص في المثل الأعلى الذي يؤمن به ، أو سوء فهم للمثل الأعلى ـــ الآية تقول : ﴿أموالكم﴾ بينما هي أموالهم : المال للجماعة ـــ احرص على ماله كما تحرص على مالك ـــ المال ثمرة للعمل فلا تضيعوا أعمالكم .

٢ ـــ السفيه يشرف عليه ولي ـــ توجيهات للأولياء ـــ القول المعروف .

٣ ـــ الدول المستعمرة تفرض وصايتها على المتخلفة متذرعة بهذا الجانب ، بل إنهم يخططون لزيادة سفاهتنا ـــ الدول الكبرى تخطىء بحق نفسها حين تعوق نمو الآخرين فيكونون عالة عليها ـــ لهذا يأتي الحكم التالي : السعي لترشيد السفهاء .

٣ً ـــ معنى ابتلوا اليتامى :

ـــ شرطان لدفع المال إليه : البلوغ والرشد .

ـــ معنىٰ الرشد واستعمال القرآن لها : من لا يستطيع تحصيل حقه بنفسه يوصي الله به ـــ أشهدوا عليهم . ـــ لا يقدر على تولي اليتيم إلا القوي الأمين (الصواب والإخلاص)

٤ً ـــ الميراث :

علم الفرائض ـــ الآيات تعطي الخطوط الرئيسة فيه .

١ ـــ مقدمة : تمهيد النفوس لتقبل الأحكام : حق المرأة ـــ الذين حضروا القسمة ـــ تدريب على التجرد والموضوعية ـــ معنى القول السديد ـــ ترهيب .

٢ ـــ ميراث الأولاد والأبوين : ـــ يوصيكم الله في أولادكم ـــ ميراث الأولاد له

ثلاث حالات ــ لماذا حظ الذكر أكثر .؟ ــ نزول الآية في ابنتي سعد بن الربيع . ــ ميراث الأبوين له ثلاث حالات . ــ من بعد وصية أو دين ــ الدين مقدم على الوصية ــ شرطا الوصية . ــ تعقيب على الآية . (ثلاث نقاط) .

٣ ــ ميراث الزوجين : الزوج له حالتان ــ والزوجة لها حالتان .

٤ ــ ميراث الكلالة : معنى الكلالة ــ ميراث الإخوة من الأم . له حالتان . هؤلاء يخالفون بقية الورثة من ثلاثة جوانب . ــ يضيف شرطاً ثالثاً للوصية : غير مضار . للفرد أو الجماعة ــ ثم يعقب : وصية من الله ــ عليم حليم .

٥ ــ تعقيب شامل على الميراث ــ معصية الله في الميراث تدخل النار .

ــ بعض ميزات نظام الإرث الإسلامي .

③ــ جزاء الفواحش : ٦٧ ــ ٨٥

ــ القرآن كتاب الحياة .

١ً ــ عقوبة أولى للفاحشة :

الغرائز ــ لا حياة بدون قانون (شجرة محرمة) .

ــ القوانين تختلف من حيث المصدر والصلاحية .

ــ الإسلام هو الوسط بين خطأين ــ أحوال ثلاثة للمجتمع ــ كيف عالج الإسلام فوضى الجاهلية في العلاقة الجنسية .

ــ التدرج في العقوبات ــ دقة النص : من نسائكم ــ الشهادة أربعة منكم ــ العقوبة : حجر صحي ــ نسخت بسورة النور ــ عقوبة الفاحشة الشاذة : الإيذاء بكل أنواعه ــ نسخت بحديث .

٢ً ــ التوبة المقبولة والمرفوضة :

ــ التوبة أكبر معركة يخوضها الإنسان مع نفسه ــ الإسلام يهيىء البيئة الخصبة

التي تنمو فيها التوبة ــ رد الاعتبار للتائب ــ التحرر من الشعور بالإثم ــ مراحل التوبة ــ الذي أمر بالعقوبة يأمر بالكف عنها ــ هذه أوضح آية في التوبة وشروطها .

التوبة المقبولة وشروطها قلة الذنوب . والجهالة عند الذنب . والتعجيل بالتوبة .

معنى الجهالة : يجهل العواقب ــ يخضع للانفعال ــ كيف نتحرر من الانفعال ؟ ــ العلم والجهاد . ــ الفرق بين الجاهلي وعباد الرحمن ــ أهمية تدريب النفس (الحلم بالتحلم) .

ــ التوبة المرفوضة : الاستهتار والتأجيل ــ يختلف التعقيب في الآيات الثلاثة .

٣ً ــ النهي عن ظلم النساء :

إن كنت مؤمناً فاسمع النداء ــ ماورد في نزول الآية ــ النهي عن العضل إلا أن يأتين بفاحشة مبينة .

الأمر بالمعاشرة بالمعروف حتىٰ في حالة الكراهية ــ يستخرج من مشكلة بيتية قاعدة عامة ــ النهي عن استرداد شيء مما أعطاها ــ قنطاراً لا يفهم منه إقرار ضخامة المهر ــ استنكار الأخذ والبهتان عليها .

ــ التذكير بالإفضاء والميثاق الغليظ .

ــ ظلم المرأة في الجاهلية ــ وتمتعها بحقوقها بعد الإسلام .

ــ انتكست مكانة المرأة في هذا العصر حيث أصبحت (للاستمتاع وحفظ النوع) .

ــ لابد من انقلاب مفاهيمي وإعادة وصل بين القرآن والإنسان .

ــ المرأة هي المشرفة الأولى على ترقية النوع .

ــ أداء الواجب هو الطريق للوصول إلى الحقوق ــ حسن التبعل .

ــ إهمال المرأة لدورها الأساسي ــ دور المربيات الأجنبيات .

ــ من المسؤول عن ذلك ؟ تحصيل العلم لأداء هذا الدور ..

④ــ المحرمات من النساء : ٨٧ ــ ١٠٨

أً ــ زوجة الأب : التعقيب : أشد من الزنى ــ مقت للأب .

٢ً ــ المحرمات من النسب : سبع .

٣ً ــ المحرمات من الرضاع سبع ــ عدد الرضعات ــ ما فتق الأمعاء ــ زمن الرضاعة ــ رضاع الكبير (حديث سالم ــ قول ابن تيمية) .

٤ً ــ المحرمات من الصهر : ثلاثة حرمة دائمة ــ وثلاث مؤقتة ..

ــ بعض الفوائد من نص القرآن على هذه المحرمات ، رغم أن أكثرها كان معروفاً في الجاهلية ــ بعض الحكمة من هذا التحريم .

٥ً ــ والمحصنات من النساء : معنى الإحصان (ثلاثة أنواع) ــ العفيفات أو المتزوجات (سبي أوطاس) ــ وقفة عند ملك اليمين .

ــ محرمات ذكرت في نصوص أخرى ــ كتاب الله عليكم ــ الحرام قليل معدود .

ــ محصنين غير مسافحين ــ المهر فريضة ــ التراضي ــ الرخصة بالزواج من الإماء ــ لمسات تكريم للإماء ــ عقوبة الأمة نصف الحرة (القدوة يضاعف ثوابها وعقابها) ــ الصبر خير ــ التعقيب .

ــ تعقيب شامل : ثمان آيات خير مما طلعت عليه الشمس .

ــ بعد بيان الأحكام يتلطف ببيان بعض الحكمة ــ ﴿ليبين لكم﴾ أهمية البيان ــ سنن التاريخ ــ التاريخ هو مختبر العلوم الإنسانية ــ على المسلم أن يستحضر التاريخ ليدلي بشهادته ــ مراحل العلم : الملاحظة ــ القانون ــ التسخير .

مرحلة الانهيار في دورة الحضارة ، الأولوية فيها للغرائز (الانحلال الخلقي) ــ

لاتخدعك مظاهر السلامة فإن القلب منخور ـــ ويتوب عليكم ـــ عليم حكيم ـــ أتباع الشهوات يريدون أن تميلوا (الغزو الفكري) ـــ سيطرتهم على وسائل الإعلام .

ـــ يريد الله التخفيف عنكم : يختصر لكم الآلام والزمن ـــ خلق الإنسان ضعيفاً .

ـــ رؤية ماهو خير وأبقى وعدم الاقتصار على العاجلة .

ـــ الله لا يريد منا التسليم بغير علم ولا هداية ولا برهان .

⑤ـــ في المال وقوامة الرجال : ١٠٩ ـــ ١٣٠

١ً ـــ قاعدة عامة للتعامل المالي ـــ أموالكم (إشارتان) .

ـــ يتفق مع الاشتراكية في شيء ويختلف عنها في أشياء .

ـــ تحرجوا من أكل الطعام عند بعضهم فنزلت آية النور .

ـــ يستثني التجارة ويشترط التراضي ـــ الفرق بين التجارة والربا .

٢ً ـــ النهي عن قتل النفس هنا يتضمن : الانتحار (بسبب خسارة مالية أو ظلم) ـــ قتل الناس ـــ أكل المال بالباطل يؤدي إلى الهلاك والقتل (على مستوى فردي وجماعي) ـــ الترغيب والترهيب ـــ التوتر بين الخوف والرجاء أحد شروط الفعالية .

٣ً ـــ يتمم الموضوع بالنهي عن جميع الكبائر : الفرق بين الكبائر والسيئات ـــ أحاديث في الكبائر ـــ أقوال بعض العلماء فيها ـــ نماذج منها في حياتنا .

٤ً ـــ النهي عن تمني ما للغير : تطهير الباطن بعد أن طهر الظاهر .

ـــ لكل واحد مايناسبه من الحقوق والواجبات ـــ فضل الله بحسب الكسب .

٥ً ـــ الوفاء بالعقود : الوراثة للأقارب والوفاء لأصحاب العقود .

٦ً ـــ قوامة الرجال : معنى القوامة ـــ الأسرة مؤسسة تحتاج إلى مدير ـــ من يملك التفرغ والخبرة للإدارة ؟ـــ بما وهب لكل منهما من صفات تناسب وظيفته . ـــ

الإنفاق فرع من القوامة ــ ملاحظات ــ الصالحات قانتات ــ الواجب والحق .

٧ًــ علاج مشكلات الأسرة :

١ ــ النشوز ــ معنى النشوز ــ أساليب في الإصلاح ــ التعقيب ــ ملاحظات .

٢ ــ حالة الشقاق : التحكيم .

ــ الصلة بين إرادة الإنسان وسعيه وعمل الله : (حتى يغيروا) ــ حتى يتم الإصلاح لابد من إرادة وقدرة (عنصري العمل) ــ القدرة نوعان . فاقد القدرة يعذر ــ التعقيب .

(٦)ــ وصايا : ١٣١ ــ ١٥٥

شبكة العلاقات لا تنتظم إلا بتصحيح الصلة الأولى مع الله .

١ــ واعبدوا الله : تأتي بين علاقتين : مع الأسرة ــ مع الناس ــ العبادة نظام كامل للحياة (عباد الرحمن) .

٢ــ الإحسان : العدل ــ الإحسان ــ الموالاة .

الإحسان : شعور وعمل ــ الإحسان أفضل من العدل إلا عند الحكم ــ الإحسان للوالدين لا يقتضي سلب الحرية والاستقلال ــ وبذي القربى ــ اليتامى ــ المساكين ــ الجار ــ الصاحب بالجنب ــ ابن السبيل ــ ملك اليمين .

ــ لا يجتمع الاختيال والفخر مع عبادة الله والإحسان ــ تمحيص النية .

ــ الإحسان حقق التكافل الاجتماعي عند المسلمين .

٣ــ تحذير من البخل والرياء : ثلاثة مواقف للأغنياء .

الإخلاص والصواب شرطان لنجاح العمل وقبوله ــ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ــ مشهد من الآخرة .

٤ــ تمهيد لتحريم الخمر ــ حكم التيمم .

حتى تعلموا ما تقولون ــ منع الجنب من الصلاة والمكث في المساجد حتى يغتسل .

جواز التيمم في حالات ثلاث ــ بدلاً عن الوضوء أو الاغتسال ــ الصعيد ــ كيفية التيمم ــ عفواً غفوراً ــ أهمية الصلاة .

⑦ــ الحديث عن اليهود : ١٥٧ ــ ١٨٨

ــ اليهود قبل الإسلام (في المدينة) ــ كيف عاملهم النبي ﷺ . ــ كثرة الحديث عن اليهود في القرآن ــ انحرافهم وعداؤهم للمسلمين .

ــ ألم ترَ ؟ أنواع الرؤية المطلوبة في القرآن . ــ ــ ذهاب العلم يفقد الأمة الانتفاع بكتابها المنزل . ــ متى يكون الله لنا ولياً ونصيراً ؟

ــ رفع مستوى الإخلاص والصواب ــ الحل (من عند أنفسكم) .

ــ الصفات ليست خاصة باليهود ولكن كل أمة متخلفة ...

ــ الآفات التي تعرضت لها الكتب السماوية ــ أخطرها الكتمان .

ــ نهى المسلمين عن استعمال الكلمات ذات المعنيين المتعاكسين .

ــ لعنهم الله بكفرهم ــ الاستثناء في الحكم : من دقة القرآن . ــ يدعوهم للإيمان ويهددهم . طمس الوجوه **بفساد الفطرة.**

ــ الشرك هو الذنب الذي لايغفر . كيف بدأ ؟ جوانب التوحيد الثلاثة ــ الشرك هوالفهم الخاطىء للكون وسننه ــ ليس كل من سنَّ قانوناً يكون طاغوتاً .

ــ من صفاتهم : يزكون أنفسهم ــ ورد النهي عن المدح إطلاقاً ــ الجمع بين الأمرين : لاتزكوا أنفسكم ــ وأما بنعمة ربك فحدث .

مشيئة الله كونية وشرعية ــ لايظلمون فتيلاً : النتائج في الدنيا جماعية وفي

الآخرة فردية .

ــ يؤمنون بالجبت والطاغوت . أيهما أخطر ؟

ــ يشهدون لأصحاب الباطل زوراً ــ لعنهم الله وماهم نصير .

ــ البخل والحسد ــ مع ما أعطى لآبائهم (الكتاب والحكمة والملك) ــ مصدر الحسد .

ــ منهم من آمن ومنهم من صد ــ ترهيب وترغيب ــ آمنوا وعملوا الصالحات .

⑧ــ آية الأمانات والأمراء والرعية : ١٨٩ ــ ٢١٥

ــ يوصي كل طرف بأداء واجبه (الحاكم والمحكوم) ــ الأمانة الكبرى التي حملها الإنسان والناس ثلاثة أمام هذه الأمانة : منعم عليه ــ مغضوب عليه ــ ضال .

ــ أمانات أخرى ــ كيف يكون الحكم بالعدل ــ نعما يعظكم به .

ــ طاعة الله والرسول وأولي الأمر ــ أهمية القانون في المجتمع .

ــ مواقف الناس أمام الأمر الجائر الموجه إليهم .

ــ المرجع عند التنازع : الكتاب والسنة ــ وهو شرط للإيمان .

ــ الذين يزعمون الإيمان ويتحاكمون إلى الطاغوت ــ المصيبة بما قدمت أيديهم .

ــ أنواع القدر الثلاثة ــ يؤمر النبي بأساليب ثلاثة لعلاجهم .

ــ كيف يواجه المؤمن حيث يخطىء ــ طاعة الرسول بإذن الله ــ ظلم النفس .

ــ الفرق بين الإسلام والايمان ــ مراحل الغزالي الثلاث ــ تمثل الصحابة شروط الإيمان ــ ملاحظات على الأمر بتحكيم الرسول .

ـــ نعمة الله على هذه الأمة لم يأمرها بأمور شاقة ـــ حتى الشاقة أرحم من حيث العاقبة .

ـــ عاقبة الطاعة : خيراً لهم : فهي تثبيت ، وأجر عظيم ، وهداية للصراط .

ـــ بدأ المقطع : لاصلاح للعالم إلا بالعدل والأمانة ـــ ثم ذكر مقياس العدل والأمانة ، فلا إيمان إلا بالطاعة لهما ـــ ويختم بالترغيب في صحبة الأنبياء و .. ـــ مرتبة المنعم عليهم .

(٩) ـــ في الجهاد : ٢١٧ ـ ٢٧٥

يستنفر الله المؤمنين لحماية مجتمع العدل والأمانة من عدوه الخارجي ـــ الجهاد ومكانته ـــ إحدى صوره القتال ـــ لفهم الموضوع لا بد من فهم : لماذا ـــ ومتى ـــ ومن ؟

المراحل التي سارت فيها الدعوة (ابن القيم) .

قول المستشرقين : الإسلام انتشر بالسيف والرد عليه .

ـــ القتال قبيح ولايباح إلا لإزالة ما هو أقبح منه ـ ادخلوا في السلم كافة ـــ لا إكراه في الدين ـــ الشخصية المسلمة ترفض الخضوع وإكراه الآخرين ـــ هل يمكن تغيير الأفكار بالقوة ؟ ضرر المنافق أشد من الكافر .

ـــ الإسلام رسالة عالمية لمنع الظلم ويتدخل إيجابياً في أحداث العالم .

ـــ متى يأتي التدخل المسلح .. ؟

١ ـــ بعد تكون مجتمع مسلم .

٢ ـــ يعرض الإسلام ويخيرهم ..

٣ ـــ آخر دواء القتال ولكن بآدابه الإسلامية ـــ همجية معارك القرن العشرين في الأهداف والوسائل .

٤ ـــ عند النصر يقيمون حكماً عادلاً ـــ أهل الذمة .

ـــ فوائد من رؤية مظاهر الضعف في الصف المسلم ـــ أخذ الحذر والاستنفار ـــ حماية لمقياس العدل ـــ معنى ثبات ـــ دراسة استراتيجية المعركة .

ـــ النفير عند الخطر ـــ وضع المسلم في حالة توتر بين الأمن واليأس .

ـــ التعتيم على الصراع الفكري الذي هو أخطر من الصراع المسلَّح ـــ الصراع الفكري يحتاج إلى الصفات النفسية ذاتها التي تعطي القدرة على الثبات في القتال . بل يحتاج إلى فطنة وفهم أكبر ـــ ميدانه العقول والنفوس ـــ وهو ميدان المرأة وهذا يحتاج منها إلى علم ووعي وحضور ـــ فن تحريض الرجل على البذل ـــ جيل من النساء لايعرفن الخوف يغير العالم .

ـــ النداء للمؤمنين رجالاً ونساءً .. فأين نحن من النفير .؟!

ـــ يُبطِّئَنَّ : الكلمة تصور حالة نفسية ـــ هم العدو الداخلي ـــ يخدمون الصراع الفكري .

ـــ الأنانية والنظر القصير ـــ من يعطي الأولوية للدنيا **سيخسرها** (الغرائز خط الهبوط) .

ـــ الهدف : في سبيل الله (منع الظلم) ـــ الجزاء : إحدى الحسنيين ـــ إلغاء فكرة الهزيمة .

ـــ مالكم لا تقاتلون ؟ التوتر الواعي (الشعور بالخطر مع الجهل يشل الحركة) ـــ يحملهم مهمة سامية : إنقاذ المستضعفين ـــ فأين المسلمون الآن ؟

ـــ التمييز في الأهداف بين المؤمن والكافر يعطي الثبات .

ـــ متى يكون كيد الشيطان ضعيفاً ؟

ـــ كان الحديث عن لماذا القتال (الإخلاص) ـــ ثم يتحدث عن متى القتال (الصواب) .

ـــ القتال ليس أمراً فردياً كالصلاة لكن مثل إقامة الحدود ـــ قصة نزول الآية ـــ الحماس الخاوي من التبصر يستسهل الأمر .. ثم يستصعب .

ـــ لماذا أمر بكف اليد في مكة ؟ علاقة آيات الكتاب بآيات الآفاق والأنفس .

ـــ الآية تتعلق بإنشاء المجتمع فلا بد من شهادة علم الاجتماع ـــ الإنسان وضرورة أن يعيش في مجتمع ـــ المجتمع لا بد له من قانون ـــ السلطات في المجتمع ـــ كيف نغير القانون ؟ ـــ خطة الأنبياء ـــ خطة محمد ﷺ ـــ خطة المصلحين الثوريين ـــ كيف نجح محمد ﷺ والأغلبية كافرة ؟ انتصر بالسنن لا بالمعجزات .

ـــ الابتلاء حق ـــ لكن الخط السليم يقلل عدد الضحايا ويجعل المحنة مؤثرة في الجماهير ـــ إذا اعتبرنا المجتمع جاهلياً فالخطة هي المكية ـــ إذا اعتبرناه مسلماً منحرفاً ؟ أحاديث في مرحلة الفتن ـــ تحديد المرحلة ـــ تحديد واجب المسلم فيها . ـــ في تاريخنا : الذين خرجوا على الخلفاء كلهم أخطأوا ـــ الواجب هو نفسه في المرحلة المكية ـــ إنشاء المجتمع وإصلاحه يتم بالطريقة نفسها .

ـــ ملاحظات : تأملات صاحب الظلال ليست خاصة بالمرحلة المكية ـــ الحركات الإسلامية العنيفة كأنها تأثرت بالأسلوب الثوري في أوربا ـــ من غير المسلمين غاندي وحده أدرك أهمية السلمية ـــ عدونا يتمنى أن نترك الفكر ونمسك السلاح .

ـــ من ميزات المبدأ السلمي ـــ هذا غير رفع السلاح في وجه لص ـــ للقتل والسجن حدود ـــ ثلاث مراحل : العصا ـــ رفض المعصية ـــ رجل الفكرة ـــ تغيير الأسلوب في التربية ـــ الخضوع للفكرة لا للقوة ـــ نصيحة المودودي للشباب المسلم .

ـــ أشارت الآية إلى مرحلتين : ماقبل المجتمع ـــ ومابعده .

ـــ خشية الناس والموت والحرص على الدنيا ـــ معوقات في البذل ـــ يزيل العوائق .

ـــ يردون الحسنة لله والسيئة للرسول ـــ كلاهما من عند الله إقداراً ـــ والسيئة من نفسك من حيث الأهمال ـــ رقي المجتمع بمقدار رد الأحداث إلى النفس ـــ موقفين

خاطئين ــ موقف المؤمن يرد الحسنة إلى الله ويلوم نفسه على السيئة ــ مهمة النبي ــ كفى بالله شهيداً .

سبع وصايا بعد الجهاد :

١ــ طاعة الرسول : في الأمر الشرعي ــ وفي الأمر الكوني طاعة سنن الله ــ ما أرسلناك عليهم حفيظاً : في الجانب الأخروي (ينصح) ــ في الدنيوي (الإمام يلزم) .

٢ــ التدبر : معناه ــ شرطه ــ ملاحظات عنه : يحرر من التقليد ومن الفهم الذري ــ يَخرج من ظن التناقض ــ يحقق الخشوع ــ إيجاد تيار فكري جديد ــ الاطلاع على الأفكار يعين على التدبر .

٣ــ رد الأمر إلى المختصين : علاقة الموضوع بالقتال ــ حرب الإشاعات ــ معنى الاستنباط ــ ارتباط الإشاعة باتباع الشيطان ــ فوائد من الآية : خطورة الإشاعة ــ أهمية الاختصاص ــ متى ترجع إلى المختص ــ ليس القصد إلغاء الاستقلال ــ توضيح هذه القواعد فضل من الله ــ إن لم يكن لدينا مختصين ــ تغيير أخطاء المرأة بتغيير التربية .

٤ــ إلزام النفس وتحريض الآخرين : في سبيل الله ــ معنى الآية ــ فوائد منها :

١ً ــ بدأ برسوله في التكليف ــ البدء من الواجب لا من الحقوق .

٢ً ــ سلامة الهدف + إلزام النفس + تحريض الآخرين ← يعطي نصر الله .

٣ً ــ التحريض لا يحدث إلا بعد إلزام النفس .

٤ً ــ لايضركم من قصّر إذا فعلتم ما عليكم .

٥ــ الشفاعة الحسنة والسيئة : معنى الشفاعة ــ مناسبتها مع القتال .

فوائد من الآية : الشافع انضم إلى الفاعل ــ خطورة الشفاعة اجتماعياً ــ الحض على التدخل لدعم الخير ــ التعقيب : مقيتاً .

٦ــ رد التحية : القرآن كتاب الحياة ــ نسمة رخية ضمن آيات القتال ــ لاتشغلك الأمور الكبيرة عن الصغيرة ــ الإحسان والعدل في رد التحية ــ توثيق العلاقات الاجتماعية ــ المسلم له تحيته الخاصة (التحرر من التقليد) ــ آداب السلام ــ السلام على أهل الكتاب .

٧ــ تأكيد الجمع ليوم القيامة ــ ارتباطها بما قبلها .

⑩ ــ المنافقون : ٢٧٧ ــ ٢٨٣

ــ سبب النزول وعلاقة الآيات بما قبلها .

ــ أركسهم بما كسبوا (عمل الله وعمل العبد) ــ لمن الإدانة في الآيات ــ تحديد التعامل مع المنافقين الذين هم من خارج المدينة ــ النهي عن موالاتهم ــ بعض المعاملات الدولية :

١ً ــ المنافقون الذين لايقيمون في المدينة (أمر بقتالهم) .

٢ً ــ المرتبطون بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق (أمر بكف اليد عنهم) .

٣ً ــ المحايدون (أمر بكف اليد عنهم) ــ يعود فيوضح صفات الطائفة الأولى .

⑪ ــ القتل الخطأ والعمد : ٢٨٥ ــ ٢٩٣

ــ كتاب الحياة ينتقل من السياسة الخارجية إلى القانون الجنائي ــ سبب النزول ــ المؤمن لا يقتل أخاه إلا خطأ ــ أثر الإسلام في محو حمية الجاهلية وإيجاد الورع في الدماء ــ كيف يحدث قتل الخطأ ــ الكفارة لها ثلاث حالات : مؤمن وأهله مؤمنون ؛ مؤمن وأهله محاربون ؛ مؤمن وأهله معاهدون ــ إلا أن يصدَّقوا ــ من لم يجد رقبة يحررها ــ الخطأ ذنب يحتاج إلى توبة ــ التعقيب .

ــ قتل العمد : أعظم الذنوب بعد الشرك ــ جزاؤه في الدنيا ــ وفي الآخرة ــ هل له توبة ؟

⑫ ــ عودة إلى الجهاد والهجرة : ٢٩٥ ــ ٣٢٠

١ــ تحذير من التسرع في القتل والسلب : سبب النزول ــ تبتغون عرض الحياة الدنيا ؟! ــ معنى ﴿ **كذلك كنتم من قبل** ﴾ ــ تكرار فتبينوا ــ التعقيب ﴿ **خبيراً** ﴾ .

٢ــ حض على الجهاد : لايستوي القاعدون والمجاهدون ــ استثناء أولي الضرر ــ رفع التكليف عن فاقد القدرة ــ الترغيب في درجات المجاهدين ــ كيف نجاهد اليوم ؟

ــ الآيات تشعرنا : ــ أن التقصير كان موجوداً وعالجه القرآن بأساليب منوعة . وأن للجهاد بالمال والنفس مكانة كبيرة .

٣ ــ المستضعفون والهجرة : سبب النزول ــ مشهد احتضار المستضعفين ــ يستثني من لا يستطيعون حيلة ــ على من تجب الهجرة ؟

الاستكبار والاستضعاف :

مشكلة العالم قديماً وحديثاً ــ مصطلح آخر : الاستعمار والقابلية للاستعمار .

نفسية المستكبر (نفي الآخرين)ــ نفسية المستضعف (نفي الأنا)ــ يمكن أن يظهر المرض مزدوجاً في شخصية واحدة ــ كلاهما لايؤمن بحالة ثالثة .

نزلت الرسالات السماوية لحل هذه المشكلة ــ القرآن وضع المسلم بين نهيين ــ المستكبرون والمستضعفون في نار جهنم في الآخرة ــ خطة القرآن في العلاج : يبدأ من المستضعف فيغيره ﴿ كلا لاتطعه واسجد واقترب ﴾ (العلق ــ ٧) ــ التمييز بين مستضعف مؤمن وآخر كافر ــ النضج حتى لايختلط الاستكبار بالعزة والاستضعاف بالورع .

نقطة الانطلاق في التغيير : تغيير ما في الأنفس ــ تشخيصه ﷺ للوهن :

حب الدنيا وكراهية الموت ـــ ماقدروا الله حق قدره وما عرفوا ميزة الإسلام لا فائدة من رفع الظلم عنه إن لم يتخلص من الاستضعاف ـــ لاننفي الرفق ـــ الحذر في التربية حتى نجنب الأجيال هذا المرض .

طريقان للمؤمن : الهجرة أو الثبات والصبر على الأذى ـــ الترغيب في الهجرة بطريقتين ـــ احتضار المستضعف ـــ ضمان الله للمهاجر .

صلاة الخوف : القصر رخصة للمسافر ولو أمن ـــ الصلاة في أرض المعركة ـــ سبب النزول ـــ الكيفية ـــ الأمر بذكر الله على كل حال ﴿ كتاباً موقوتاً ﴾ .

فوائد من الآيات :

١ً ـــ أهمية الصلاة فهي السلاح الأول .

٢ً ـــ أهمية صلاة الجماعة بالذات .

٣ً ـــ أسلوب القرآن في التعبئة الروحية : يضع المؤمن في توتر بين الخوف والرجاء ، ويعطيه مبرر الثبات .

⑬ ـــ أحكام بمناسبة حادث سرقة : ٣٢١ ـ ٣٥١

سبب النزول ـــ تعقيب على الحادث ـــ توجيهات وتذكير بفضل الله :

احكم بالكتاب لا تكن للخائنين خصيماً استغفر الله لا تجادل عنهم .

تهديد معنوي وأخروي ـــ ثلاثة قواعد في الجريمة والحساب : فتح باب التوبة . وفردية التبعة . ومضاعفة الجرم لمن يتهم غيره بجريمته ـــ تذكير وتحذير . ﴿ مايضلون إلا أنفسهم ﴾ ـــ الكتاب والحكمة حصن للمسلم من الضلال . العلم هو فضل الله العظيم ـــ النهي عن النجوى واستثناء ثلاث حالات :

١ً ـــ الصدقة .

٢ً ـــ الأمر بمعروف : تمييز الجهل عن اتباع الهوى ـــ شروط ابن تيمية ـــ ابتغاء مرضاة الله .

٣ً ــ الإصلاح بين الناس ــ قاعدتين من الآية : وضع الأمور في مواضعها . الإخلاص والصواب ــ دراسة آداب الصحبة وحقوق الأخوة لضمان الإخلاص والصواب ــ مشاقة الرسول ــ عمل الله وعمل العبد ــ آية الشرك للمرة الثانية ــ الرياء ــ تعريف الإخلاص ــ عجز الآلهة المدَّعاة ــ عبادة الشيطان ــ وسائل الشيطان في الإضلال : الأماني والأمر والوعد الكاذب ــ تحذير المرأة كي لا تكون أداة للشيطان ــ مقابل أتباع الشيطان (الذين آمنوا وعملوا ..) .

ــ ليس بالأماني ــ من يعمل سوءاً يُجزَ به ــ العلم يمنح القدرة على تحقيق الأماني ــ شعور أبي بكر عندما سمع الآية ــ في المصائب كفارة للمؤمن ــ بشرط أن تكون المصيبة عبرة له ــ الأعمال في الدنيا لها نتائج فردية أو اجتماعية (مؤمناً كان أم كافراً)

ــ بينما في الآخرة : عمل صالح + إيمان = دخول الجنة . قد لا يفوز المؤمن بالدنيا (إذا كثر الخبث) ــ قانون الدنيا يختلف قليلاً عن الآخرة (في الدنيا جماعية ..) .

لماذا قدم العمل الصالح على الإيمان ؟ ــ ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ ــ أحسن الدين : إسلام الوجه لله + إحسان (إخلاص + صواب) . ما الصواب ؟

نموذج من الإسلام والإحسان (إبراهيم) ــ تعقيب : ﴿ محيطاً ﴾

⑭ ــ وصية بالنساء وتقوى الله والعدل : ٣٥٣ ــ ٣٧٣

٣٥٣ ــ ٣٧٣

عودة إلى النساء ــ فتوى في يتامى النساء ــ المستضعفون من الولدان والقسط في اليتامى ــ ربط الوصية بالضمير وتحريكه .

خوف المرأة من نشوز الرجل : الصلح خير ــ إن أحبت أن تتنازل للإبقاء على الأسرة . الشح حاضر ــ ﴿إن تحسنوا وتتقوا﴾ ــ الله خبير ــ خبر سودة رضي الله عنها . لن تستطيعوا العدل بين النساء فلا تميلوا ــ اختلاف التعقيب عن السابق ــ تذكرة بأهم النقاط في موضوع التعدد ــ الفراق ــ ﴿واسعاً حكيماً﴾ .

التعقيب : لله ما في السموات والأرض (ثلاث مرات) ــ الوصية الواحدة للأنبياء : التقوى ــ تعريف التقوى ــ كفى بالله وكيلاً ــ يستبدل بكم آخرين ــ ثواب الدنيا والآخرة : ثواب الدنيا بآيات الآفاق والأنفس ، والآخرة بآيات الكتاب ــ استخلاف المؤمن ــ إعطاء الأولوية للآخرة .. تأتيك الدنيا ــ العبرة بالعاقبة الأخيرة .

الوصية الثالثة : العدل ــ قوامين بالقسط ــ شهداء لله ــ شروط الشهادة ــ ترك الشهادة يخذل الحق ــ الهوى يمنع من العدل ــ التركيز في السورة على العدل :

١ً ــ لا صلاح للحياة بدونه .
٢ً ــ هو شاق يحتاج إلى توجيه مستمر .
٣ً ــ الدول المتقدمة سبق العلم الضمير ــ تعقيب .

دعوة المؤمنين إلى الإيمان الحقيقي .

(١٥) ــ عودة إلى المنافقين: ٣٧٥ ـ ٣٩٢

يبدأ بصفتهم الأولى (التردد) ــ لا غفران ولا هداية لهم ــ التبشير بالعذاب .

صفاتهم :

١ ــ يتخذون الكافرين أولياء ــ معنى الولاية ــ الفرق بين التقليد والانتقاء ــ العزة لله .

٢ ــ يشهدون مجالس الخوض في آيات الله ــ هل يسكت المسلم في مجلس فيه منكر ؟ مثلهم في الدنيا ومعهم في الآخرة إن سكت .

٣ ــ ينضمون للمنتصر ــ معنى ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ ــ لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ــ هذا له شرطان ــ الوعد للمؤمنين فمن هم ؟

٤ ــ الخداع .

٥ ــ صلاتهم : الكسل ــ الرياء ...

٦ ــ التردد : يؤكد عليه ثانية ــ التعقيب : يحذر المؤمنين من النفاق (بالنهي عن الولاية للكفار) ــ الدرك الأسفل ــ يفتح باب التوبة ــ يتشدد في وصف التوبة

الصحيحة ــ التوبة هي القدرة على النقد الذاتي ــ ما يفعل الله بعذابكم ؟! ــ لا يحب الله الجهر بالسوء ــ هل كتمان الذنوب نفاق ؟

العلاقة بين الجهر بالسوء وموضوع النفاق ــ متى يجوز الجهر بالسوء ؟ ست حالات .

ــ حتى الآن ثلاثة مواضيع في السورة تحتاج إلى حكمة وذوق إسلامي ــ توجيه إلى الخير الإيجابي ــ الخير طيب في السر والعلن ــ الترغيب في العفو ــ عفواً قديراً ــ تذكر الآيات في مواضعها في حياتنا .

(١٦) ــ في بني إسرائيل :   ٣٩٣ ــ ٤١١

ــ يمهد للحديث عنهم بذكر ثلاثة أنواع من الكفر .

ــ اليهود يفرقون بين الرسل في الإيمان ــ يحاولون إيجاد طريق ثالث بين الكفر والإيمان .

ــ التفريق بين أحكام القرآن في التنفيذ ــ في المقابل : الذين آمنوا .. ولم يفرقوا .

ــ أي شرع نطبق ؟ ــ لم يقل هنا : ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ .

ــ يتحدث عن اليهود كأنهم كيان واحد ــ الأمة كالإنسان : طفولة ــ شباب ــ هرم . هكذا ينظر بعض علماء التاريخ والاجتماع ــ كل جيل يحمل رصيداً من الماضي . المحلل النفسي يستحضر أحداث الطفولة ويذكر المريض بها ليتحرر من العقد .

ــ يعدد بعض أخطاء اليهود : لكشفهم ــ ولتحذير المسلمين من أسباب سقوط الأمة . ومن أخطائهم :

١ً ــ سؤالهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء .

٢ً ــ سألوا موسى : أرنا الله ! ــ فكرة أرنا الله .. رجعية متخلفة ــ أخذتهم الصاعقة بظلمهم .

٣ً ـــ اتخذوا العجل مع وجود البينات . كذلك توجد البدع والخرافات عند المسلمين ـــ البينات موجودة والجهل موجود وهو يؤدي للشرك ـــ ﴿سلطاناً مبيناً﴾ ؟ العلم والهدى هما أصحاب السلطان على القلوب .

٤ً ـــ نقض الميثاق والكفر .

٥ً ـــ قتلهم الأنبياء بغير حق .

٦ً ـــ قولهم قلوبنا غلف : يتنصلون من المسؤولية ـــ السنة في ذلك ـــ الدقة والإنصاف في حكم الله .

٧ً ـــ افتراؤهم على مريم .

٨ً ـــ قولهم : قتلنا المسيح .. يتبجحون ـــ النصارى تقول : صلب ودفن ثم قام . . **لا يستطيع أحد من أهل الكتاب أن يجزم مَنْ المصلوب؟ القرآن يقرر: وما قتلوه وما صلبوه . . ﴿ما لهم به من علم﴾ ـ عقائدهم كلها مبنية على الظنون. بل ﴿رفعه الله إليه﴾ ـ عزيز حكيم ـ قولان في معنى ﴿ليؤمننَّ به قبل موته﴾ ـ كل إنسان يعرف الحقيقة عند الموت ـ سيشهد عيسى على قومه.**

٩ً ـــ الظلم والصد عن سبيل الله : الظلم يحرم من طيبات ـــ الحرمان أحياناً عن جهل . الصد : الدعاية ضد الإسلام بفنية .

١٠ً ـــ أكلهم الربا ـــ وأموال الناس بالباطل : ويستثني من ذلك : الراسخون في العلم ـــ والمؤمنون .

ـــ التمييز بين الظن والعلم ـــ وأن العلم : انطباق الصورة الذهنية على الحقيقة الخارجية .

ـــ **خطآن:**

١ ـــ معارضة العلم خوفاً على الدين .

٢ ـــ معاداة الدين بغير علم (التعلق بالظـن) ـــ كلاهما يؤدي إلى فقدان

الدين والعلم ـــ يبدأ بالراسخين في العلم : صفاتهم ومصيرهم ـــ ﴿المقيمين الصلاة﴾ لم يقل المقيمين؟!

⑰ ـــ خطاب للرسول ﷺ : ٤١٣ ـ ٤٢٤

صلة الآيات بما قبلها ـــ معنى الوحي ـــ لم يذكر في القرآن كل الرسل (بل ذكر خمسة وعشرين منهم) ـــ كلّم موسى .. إن فضّل محمداً ﷺ فقد ميز آخرين ـــ الغاية من إرسال الرسل ـــ كثيراً ما يتلطف الله ببيان الحكمة ـــ ضرورة التوازن في المجتمع في نسبة من يعرف الحكم والحكمة إلى سائر الناس ـــ معرفة الحكمة تُلحِقُ الضمير بالعلم .

ـــ هل تغني الرسل عن العقل البشري وتلغي دوره ؟

ـــ دور العقل ـــ وقفة من صاحب الظلال ـــ مسؤولية الأنبياء ثم أتباعهم . الأداة التي صُنع بها المجتمع الأول : القرآن .. ما زال بأيدينا ـــ دلائل ختم النبوة .

ـــ إن كذب هؤلاء فإن الله يشهد والملائكة ﴿أنزله بعلمه﴾ .

ـــ يذكر نوعين ويهددهم :

١ ـــ كفروا وصدوا .. قابلية الرجوع عن الضلال ضئيلة لكنها ليست مستحيلة ـــ باستعمال السنن في الدعوة وحماية المجتمع تقل نسبة الضلال ـــ مرض الأكثرية الجهل .

٢ ـــ كفروا وظلموا : ظلم بحق الله (الشرك) . وظلم بحق العباد (نزل الدين لمنعه) .

لاغفران ولا هداية لهم ـــ ابن تيمية يذكر للهداية أربعة أقسام ـــ هداية الآخرة نتيجة لهداية العمل .

نداء للناس كافة : آمنوا خيراً لكم ـــ الناس يكشفون باستمرار وجوه الخير فيه ـــ إن تكفروا فهو الغني عنكم ـــ تَتَحَدَّون العليم الحكيم ؟!

⑱ ـ خطاب لأهل الكتاب : ٤٢٥ ـ ٤٣٥

ـ النهي عن الغلو ـ الآيات قدمت نموذجين على التقصير في الدين :

الإهمال (اليهود) ـ الغلو (النصارى) ـ بينما حرص الرسول ﷺ على حماية أمته من الغلو .

ـ لا تقولوا على الله إلا الحق ـ حقيقة المسيح ـ كلمته وروح منه ـ لا تقولوا ثلاثة ـ انتهوا خيراً لكم ـ الله واحد مستغن عن الولد ـ كفى به وكيلاً ..

ـ لن يستنكف المسيح عن العبودية لله ـ ولا الملائكة ـ الذين آمنوا يوفيهم الأجر ويزيد ـ الذين استنكفوا ـ العذاب الأليم .

ـ نداء مشفق للناس جميعاً : جاء البرهان والنور ـ الفرق بين الاحتجاج بالقرآن والاحتجاج ببراهين القرآن ـ القرآن نور مبين ـ لكنه الآن يحتاج إلى بيان ـ

ـ الذين آمنوا واعتصموا .. في رحمة وفضل وهداية .

ـ الصراط المستقيم : أقصر الطرق وأسهلها للوصول إلى الهدف (تايلور) ـ المستعجل ـ والمخدوع بالسراب .

ـ خاتمة : فتوى في الكلالة : ٤٣٦ ـ ٤٣٩

ـ فتوى في الكلالة : موقف عمر من الكلالة ـ معنى الكلالة ـ قول أبي بكر . آية الشتاء في الإخوة من أم ـ وآية الصيف في الإخوة من أبوين .

إن كان الميت رجلاً : ثلاث حالات ـ وإن كان امرأة : حالتان .

تعقيب على السورة كلها : يبين ـ الله لكم ـ أن تضلوا ـ والله بكل شيء عليم .

ـ صار معك علم الله ، ولن يسبقك أحد إلا بعمل .